

وَقَاءُ الْوَقَا

بأخبار دار المصطفى

تأليف

نور الدين علي بن أحمد السهمودي

المتوفى في عام ٩١١ من الهجرة

حقته ، وفصله ، وعلق حواشيه

محمد بن محمد بن محمد بن محمد

عفا الله تعالى عنه

الجزء الثاني

الحمد لله الذي اختار رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من أطيب الارومات ،
والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على أشرف الكائنات ، وعلى آله وصحبه
الذين فدّوه بالأنفس والأموال والآباء والأمهات . وعلى من اتبعه واتبعهم
بإحسانٍ إلى يوم الدين .

الفصل الرابع

الروايات
في حنين
الجذع

في خبر الجذع الذي كان يخطب إليه صلى الله عليه وسلم واتخاذ المنبر ، وما اتفق فيه ، وما جعل بدله بعد الحريق ، واتخاذ الكسوة له رويناه في صحيح البخاري عن ابن عمر قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يُخَطَّبُ إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول إليه ، فحنَّ الجذعُ ، فأتاه فمسح يده عليه وفيه عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة ، فقالت امرأة من الأنصار ، أوراَجُل : يا رسول الله ، ألا نجعل لك منبرا ؟ قال : إن شئتم ، ففعلوا له منبرا ، فلما كان يوم الجمعة رفع إلى المنبر ، فصاحت النخلة صياح الصبي ، ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضمَّه إليه وهو يئنُّ أنين الصبي الذي يسكن ، قال : كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها . وفيه أيضا عنه : كان المسجد مستقوفا على جذوع من نخل ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صُنِعَ له المنبر فكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت ^(١) العِشَار ، الحديث .

وعند النسائي في الكبرى عن جابر : اضطربت تلك السارية كحنين الناقة الخُلُوج : أي التي انتزع ولدها منها

وعند ابن خزيمة عن أنس : فحنَّت الخشبة حنين الوالِدِ ^(٢) .

وفي روايته الأخرى عند الدارمي : خار ^(٣) ذلك الجذع كخوار الثور .

وفي حديث أبي بن كعب عند أحمد والدارمي وابن ماجه : فلما جاوزه خار

الجذع حتى تصدع وانشق .

وفي حديثه : فأخذ أبي بن كعب ذلك الجذع لما هدم المسجد فلم يزل عنده

حتى بلى وعاد رُفَاتَا ^(٤) .

(١) العِشَار : جمع عشراء - بضم العين وفتح الشين - وهي الناقة الحامل ، وفي القرآن الكريم : (وإذا العِشَار عطلت) .

(٢) الوالِد : وصف من الولد ، وهو ذهاب العقل حيرة من عشق أو حزن أو نحوهما .

(٣) خار : صوت . (٤) عاد : صار ، والرفات - بضم الراء - الهشيم .

وفي حديث أبي سعيد عند الدارمي : فأمر به أن يُحْفَرَ له وَيُدْفَنَ ، وسيأتي أحاديث بذلك ، ولا تنافي بين ذلك ؛ لاحتمال أن يكون ظَهَرَ بعد الهدم عند التنظيف ، فأخذه أبي بن كعب .

وقال أبو اليمين بن عساكر في تحفته : وفي رواية فلما جلس عليه أي المنبر حنت الخشبة حنين الناقة على ولدها ، حتى نزل النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها ، فلما كان من الغد رأيته قد حُوِّلتْ ، فقلنا : ما هذا ؟ قال : جاء النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فحولوها ، انتهى .

وفي مسند الدارمي من حديث بريدة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب قام فأطال القيام ، فكان يَشُقُّ عليه قيامه ، فأتى بجذع نخلة ، فحفر له وأقيم إلى جنبه قائماً للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب فطال القيام عليه استند فأتكى عليه ، فبصر به رجل كان وَرَدَ للمدينة فرآه قائماً إلى جنب ذلك الجذع ، فقال لمن يليه من الناس : لو أعلم أن محمداً يحمدي في شيء يرفق به لصنعت له مجلساً يقوم عليه ، فإن شاء جلس ماشاء ، وإن شاء قام ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ائترني به ، فأتوه به ، فأمر أن يصنع له هذه المراقى الثلاث أو الأربع ، هي الآن في مسجد المدينة ؛ فوجد النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك راحة ، فلما فارَّقَ النبي صلى الله عليه وسلم الجذعَ وعمد إلى هذه التي صنع له جَزَعَ الجذعَ فحنَّ كما تحنُّ الناقة ، حين فارقه النبي صلى الله عليه وسلم ، فزعم ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم حين سمع حنين الجذع رجع إليه فوضع يده عليه ، وقال : اختَرْتُ أن أغرسك في المسكان الذي كنت فيه فتكون كما كنت ، وإن شئت أن أغرسك في الجنة ، فتشرب من أنهارها وعيونها فتحسن زينتك ، وتثمر ، فتأكل أولياء الله من ثمرتك وتخلد ؛ فَعَلْتُ ؛ فزعم أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول له : نعم قد فعلت ، مرتين ، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اختار أن أغرسه في الجنة .

ولفظه عند عياض : إن شئت أردت إلى الحائط^(١) الذي كنت فيه تُنبت لك عروقتك ، ويكمل خلقتك ، ويجدد لك خوص وثمره ، وإن شئت أغرسك في الجنة فتأكل أولياء الله من ثمرك ، ثم أصغى له النبي صلى الله عليه وسلم يسمع ما يقول ، فقال : بل تغرسني في الجنة فيأكل مني أولياء الله وأكون في مكان لا أبلى فيه فسمعه من يليه ، قال صلى الله عليه وسلم : قد فعلت ، ثم قال : اختار دار البقاء على دار الفناء ، فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى وقال : يا عباد الله ، الخشبة تحن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقا إليه لمكانه ، فأنتم أحق أن تشناقوا إلى لقائه ، وهو في كتاب يحيى بنحوه ، وفي حديث سهل بن سعد عند أبي نعيم : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا تعجبون من حنين هذه الخشبة ، فأقبل الناس عليها فسمعوا من حنينها حتى كثر بكاءهم .

وفي لفظ عند ابن عبد البر : فلما جاوزه خار الجذع حتى تصدع وانشق ، فرجع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسحه بيده حتى سكن ، ثم رجع إلى المنبر ، قال : فكان إذا صلى صلى إليه ، فلما هُدم المسجد أخذ ذلك الجذع أبي بن كعب فلم يزل عنده حتى أكلته الأَرْضَةُ وعاد رُفَاتَا .

وهذا يبعد ما قدمناه من التأويل ؛ إذا ظاهره أنه لم يدفن .

ويحتمل أن ذلك كان بعد دفنه ، ومشى يصلى إليه قريبا منه ؛ لأنه كان عند مُصَلَّاه كما سنحققه .

وفي كتاب يحيى عن أبي سعيد : كان صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع نخلة ، فأتاه رجل رومي ، فقال : أصنع لك منبرا تخطب عليه ، فصنع له منبره الذي ترون ، فلما قام عليه فخطب حنّ الجذع حنين الناقة إلى ولدها ، فنزل إليه النبي صلى الله عليه وسلم فضمه فسكن ، وأمر به النبي صلى الله عليه وسلم أن يُدفنَ ويحفر له .

(١) الحائط : الحديقة والبستان من النخيل إذا كان عليه جدار

وعن عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع يتساند إليه ، فمر رومي فقال : لو دعاني محمد لعملت له ما هو أرفق له من هذا ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه ، فدعاه ، فجعل له المنبر ، ثم ذكر حنين الجذع وتخيير النبي صلى الله عليه وسلم له ، قال : فقالت : فسمعنا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : فنعم ، فغار^(١) الجذع فذهب .

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى الجذع ، فلما اتخذ المنبر وعدل إليه حن الجذع حتى أتاه فاحتضنه فسكن ، وقال : لو لم أفعل هذا لحن إلى يوم القيامة . وذكر الإسفراييني أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاه إلى نفسه ، فجاء يخرق الأرض ، فالتزمه ، ثم أمره فعاد إلى مكانه .

وفي كتاب ابن زبالة عن خالد بن سعيد مرسل أن تيميا الداري كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه وجمع كان يجده في فخذه يقال له الزجر^(٢) ، فقال له تميم : يا رسول الله ألا أصنع لك منبرا تقوم عليه ، فإنه أهون عليك إذا قمت وإذا قعدت ؟ قال : وكيف المنبر ؟ قال : أنا يا رسول الله أصنعه لك ، قال : فخرج إلى الغابة فقطع منها خشبات من أثلي ، فعمل له درجتين : أى غير المقعد ، فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخشبة التي كان يستند إليها إذا خطب ، ثم ذكر حنينها ، وقال : بلغنا أنها دفنت تحت المنبر .

صانع المنبر

وعن المطلب بن حنطب أنه صلى الله عليه وسلم أمر بالجذع فحفر له تحت المنبر فدفن هنالك ، قال : والذي عمل المنبر غلام نصيبة الخزومي ، وكان المنبر من أثلة كانت قريبا من المسجد .

وعن سهل بن سعد الساعدي نحو ما في الصحيح أن رجلا أتوا سهلا وقد امتروا^(٣) في المنبر رم عودُه ، فسألوه عن ذلك ، فقال : والله إنى لأعرف مم هو ،

(١) فغار الجذع : أراد فغاص في الأرض .

(٢) الزجر : هكذا وقع هذا اللفظ في الأصول كلها ، ولم أتحققه على ما أحب .

(٣) امتروا : شكوا

ولقد رأيته أولَ يومٍ وُضِعَ ، وأول يوم جلس عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلانة امرأةٍ من الأنصار قد سماها سهل : مُرِّي غلامك النجار ، أن يعمل لي أعواداً أجلس عليها إذا كلمت الناس ، فأمرته فعملها من طَرَفَاءِ الغابة ، ثم جاء بها فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بها فوضعت ههنا ، ثم رأيته رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى عليها وكبر وهو عليها ، ثم ركع وهو عليها ، ثم نزل القَهْقَرَى فسجد في أصل المنبر ، هذا لفظ الصحيح ، وزاد فيه ابن زبالة : وقطعتُ خشب المنبر بيدي مع الذي بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحملت إحدى الدرجات .

ورواه يحيى بلفظ : عُمل من أثلٍ ، يعنى المنبر ، وكنت ممن حمل درجته هذه ، ثم ذكر حنين الجذع ، وفي رواية للبخارى في كتاب الهبة « فجأؤا به — يعنى المنبر — فاحتمله النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضعه حيث ترون » .

وقال الحافظ ابن حجر : صحف بعض الرواة قوله إلى فلانة امرأة من الأنصار فقال إلى ثلاثة (بالعين المهملة والمثلثة) وهو خطأ ، والمرأة لا يعرف اسمها ، ونقل ابن التين عن مالك أن النجار كان مولى لسعد بن عباد ؛ فيحتمل أنه كان في الأصل مولى امرأته ، ونسب إليه مجازاً ، واسم امرأته فكيهة بنت عبيد بن دليم ، وهي ابنة عمه ؛ فيحتمل أن تكون هي المرأة ، لكن رواه ابن رَاهَوِيَّه عن ابن عيينة وقال : مولى لبني بَيَاضَة ، ووقع عند الكرماني قيل : اسمها عائشة ، وأظنه صحَّفَ المصحَّفَ ، ثم وجدت في الأوسط للطبراني من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلى إلى سارية في المسجد ، ويخطب إليها ، ويعتمد عليها ، فأمرت عائشة ، فصنعت له منبره هذا ، فذكر الحديث ، وإسناده ضعيف ، ولو صح لما دل على أن عائشة هي المرادة في حديث سهل هذا إلا بتعسف ، والله أعلم .

وأُسند ابن سعد في الطبقات من حديث أبي هريرة ، ورجاله ثقاتٌ إلا الواقدي أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يخطب وهو مستند إلى جذع ، فقال : إن القيام قد شقَّ عليَّ ، فقال تميم الداري : ألا أعمل لك منبراً كما رأيتُ يصنع بالشام ؟ فشاور النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين في ذلك ، فرأوا أن يتخذوه ، فقال العباس ابن عبد المطلب : إن لي غلاماً يقال له كلاب أعمل الناس ، فقال : مرُّهُ أن يعمل » الحديث .

وأُسند يحيى منقطعاً عن ابن أبي الزناد وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة إلى جذع في المسجد كان موضعه عند الأسطوانة المخلقة التي تلي القبر التي عن يسار الأسطوانة المخلقة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي عندها التي هي عند الصندوق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن القيام قد شقَّ عليَّ ، وشكا صلى الله عليه وسلم ضعفاً في رجله ، قالوا : فقال تميم الداري — وكان رجلاً من لحم من أهل فلسطين — يا رسول الله أنا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام ، قالوا : فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذو الرأي من أصحابه على اتخاذه قال العباس بن عبد المطلب : إن لي غلاماً يقال له كلاب أعمل الناس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مرُّهُ يعمل ، فأرسله إلى أثلة بالغابة فقطعها ثم عملها درجتين ومجلساً ، ثم جاء بالمنبر فوضعه في موضعه اليوم ، ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة ، فلما جاوز الجذع يريد المنبر حنَّ الجذع ثلاث مرات كأنه خوار بقرّة ، حتى ارتاع^(١) الناس ، وقام بعضهم على رجله ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مَسَّه بيده ، فسكن ، فما سَمِع له صوت بعد ذلك ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنبر فقام عليه ، فلم يزل كذلك في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر ، فلما هدم عثمان المسجد اختلف في الجذع ، فمنهم من قال : أخذه أبي بن كعب ، فكان عنده حتى أكلته

(١) ارتاع الناس : أخذهم الروع ، وهو الخوف .

الأرضة ، ومنهم من قال : دفن في موضعه .

شهرة حديث
حنين الجذع
وقال عياض : حديثُ حنين الجذع مشهور منتشر ، والخبر به متواتر ،
أخرجه أهل الصحيح ، ورواه من الصحابة بضعة عشر .

وقال البيهقي : قصة حنين الجذع من الأمور الظاهرة التي سَمَلَهَا الخلفُ عن
السلف ، ورواية الأخبار الخاصة فيها كالتكلف ، وفيه دليل على أن الجمادات قد
يخلق الله لها إدراكاً كأشرف الحيوان .

وقد نقل ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي عن أبيه عن عمرو بن سواد عن
الشافعي قال : ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمداً ، فقلت : أعطى عيسى إحياء الموتى ،
قال : أعطى محمداً حنينَ الجذع حتى سمع صوته ؛ فهذا أكبر من ذلك .

الموضع الذي
دفن فيه الجذع
ونقل ابن زبالة اختلافاً في دفن خشبته ؛ فعن عثمان بن محمد : دفنت
دوين المنبر عن يساره ، وقال بعضهم : دفنت شرقي المنبر إلى جنبه ،
وقال بعضهم : دفنت تحت المنبر ، وتقدم في رواية أنه دفن في موضعه الذي
كان فيه ، ومحصل الرواية المتقدمة في كلام يحيى أنه كان في جهة المشرق يسار
المُصَلَّى الشريف .

ونقل ابن زبالة عن عبد العزيز بن محمد أن الأسطوان المملطخ بالخلوق ثلثاها
أو نحو ذلك محرابها موضع الجذع الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إليه ،
بينها وبين القبلة أسطوان ، وبينها وبين المنبر أسطوان .

قلت : وهذه الأسطوانة هي التي تقدم أنها عَلمُ المُصَلَّى الشريف عن يمينه ،
ولهذا روى عقبه ما قدمناه من القيام بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة
لمن عَدَلَ عنها قليلاً ، وهذا مستند المطري في قوله : وكان هذا الجذع عن يمين
مُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصقاً بجدار المسجد القبلي في موضع كرسى
الشمعة اليميني التي توضع عن يمين الإمام المُصَلَّى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم ،
والأسطوانة التي قبلي الكرسى متقدمة عن موضع الجذع ؛ فلا يعتمد على قول

مَنْ جَعَلَهَا فِي مَوْضِعِ الْجَذَعِ ، قَالَ : وَفِيهَا خَشَبَةٌ ظَاهِرَةٌ مُثَبَّتَةٌ بِالرِّصَاصِ بِدَعَةِ اصْطَنَعَهَا
سِدَادَةٌ لِمَوْضِعِ كَانِ فِي حَجَرٍ مِنْ حِجَارَةِ الْأَسْطُوَانَةِ مَفْتُوحٌ قَدْ حَوِطَ عَلَيْهِ النَّاسُ بِسَبَبِ
بِالْبَيَاضِ وَالْخَشَبَةِ ظَاهِرَةٍ ، تَقُولُ الْعَامَّةُ : هَذَا الْجَذَعُ الَّذِي حَنَّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ هُوَ مِنْ جَمَلَةِ الْبَدْعِ الَّتِي يَجِبُ إِزَالَتُهَا لِثَلَاثِ مَوَاقِفٍ بِهَا
النَّاسُ ، كَمَا أُزِيلَتِ الْجُزْءَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْحَرَابِ الْقُبْلَى ، وَذَكَرَ قِصَّةَ الْجُزْءَةِ
الَّتِي قَدِمْنَاهَا .

وَقَالَ الْمَجْدُ : إِنْ الْخَشَبَةُ الْمَذْكُورَةُ كَانَتْ يُزْدَحَمُ عَلَى زِيَارَتِهَا وَالتَّمَسُّحِ بِهَا ،
وَيَعْتَقِدُ النَّاسُ عَامَّةً أَنَّهَا الْجَذَعُ ، فَظَنَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ أَنَّ هَذَا مِنَ الْمَذْكُورِ الَّذِي يَتَعَيْنُ
إِزَالَتُهُ ، وَصَرَحَ بِهِذَا فِي كِتَابِهِ ، إِلَى أَنْ وَافَقَ عَلَى ذَلِكَ شَيْخُنَا الْعَزِيزُ بْنُ جَمَاعَةَ فَأَمَرَ
بِإِزَالَتِهَا ، إِلَى آخِرِ مَا قَدِمْنَاهُ عَنْهُ . قَالَ : وَكَانَ مَوْضِعُ الْخَشَبَةِ مِنَ الْأَسْطُوَانِ
الْمَذْكُورِ عَلَى مَقْدَارِ ذِرَاعَيْنِ مِنَ الْأَرْضِ ارْتِفَاعًا ، وَقَدْ طُلِيَ عَلَيْهِ بِالْقِصَّةِ ، وَلَا عَيْنٌ
مِنْهُ وَلَا أَثَرٌ .

قُلْتُ : الَّذِي يَظْهَرُ — كَمَا قَدِمْتُهُ — أَنَّ هَذِهِ الْخَشَبَةَ كَانَتْ مِنَ الْعُودِ الَّذِي كَانَ
النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضَعُ يَدَهُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ : عَدَلُوا صَفُوفَكُمْ ، كَمَا تَقْدُمُ ،
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَنَقَلَ ابْنُ زُبَايَةَ الْاِخْتِلَافَ فِي الَّذِي عَمِلَ الْمَنْبَرُ ، فَقِيلَ : غَلَامٌ نَصِيبِيَّةُ الْخَزْرُمِيِّ ،
وَقِيلَ : غَلَامٌ لِلْعَبَّاسِ ، وَقِيلَ : غَلَامٌ لِسَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ يُقَالُ لَهُ بِاقُولِ (بِمَوْحِدَةٍ
وَقَافٍ مَضْمُومَةٍ) وَقِيلَ : غَلَامٌ لَامْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي سَاعِدَةَ ، أَوْ لَامْرَأَةٍ
لِرَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِينَا ، وَقَوْلُهُ « يُقَالُ لَهُ مِينَا » يَحْتَمِلُ الْمَوْلَى وَزَوْجَ الْمَرْأَةِ ، لَسَكَنِ
عِنْدَ يَحْيَى قَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : الَّذِي عَمِلَ الْمَنْبَرُ غَلَامٌ الْأَنْصَارِيَّةِ وَاسْمُهُ مِينَا ،
وَعِنْدَ ابْنِ بَشْكُوَالٍ عَنْ أَبِي بَنْ أُوَيْسَ : عَمِلَ الْمَنْبَرُ غَلَامٌ لَامْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ
بَنِي سَلَمَةَ أَوْ بَنِي سَاعِدَةَ أَوْ امْرَأَةٍ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِينَا ، وَهَذَا مُحْتَمَلٌ كَالْأَوَّلِ ،

عود إلى
الاختلاف في
صانع المنبر

وقيل : عمله تميم الدارى ، هذا حاصل ما ذكره ابن زبالة ، وفى رواية ليحيى : عمل المنبر صبّاح غلام العباس (بضم المهملة بعدها موحدة خفيفة) وتقدم تسميته كلابا ، ونقل الراغى عن بعض شيوخه أن الذى عمله باقوم (بالميم) باني الكعبة لقريش ، وفى الاستيعاب عن باقوم الرومى قال : صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم منبرا من طرفاء له ثلاث درجات : المقعدة ، ودرجتيه ، قال ابن عبد البر : وإسناده ليس بالقائم^(١) .

وفى طبقات ابن سعد أن الصحابة قالوا : يا رسول الله إن الناس قد كثروا ، فلو اتخذت شيئا تقوم عليه إذا خطبت ، قال صلى الله عليه وسلم : ما شئتم ، قال سهل رضى الله عنه : ولم يكن بالمدينة إلا نجار واحد ، فذهبت أنا وذاك النجار إلى الغابة فقطعنا هذا المنبر من أثلة ، وفى لفظ : فحمل سهل منهن خشبة ، قال المجد : إسنادهما صحيح ، وعند قاسم بن أصبغ : وكان بالمدينة نجار واحد يقال له ميمون ، فذكر الحديث ، وعند الطبرانى عن سهل : كنت جالسا مع خال لي من الأنصار ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اخرج إلى الغابة وأتني من خشبها فاعمل لى منبرا ، الحديث . وأخرج الطبرانى بإسناد فيه متروك أن اسم صانع المنبر إبراهيم ، وفى أسماء الصحابة لابن شبة مرسلا : اسمه قبيصة أو قصبية بتقديم الصاد ، الخزومى ، مولاهم . وعند أبى داود بإسناد جيد أن النبى صلى الله عليه وسلم لما بدّن قال تميم الدارى : يا رسول الله ألا تتخذ لك منبرا يحمل - أو يجمع - عظامك ، قال صلى الله عليه وسلم : بلى ، فاتخذ له منبرا مرقاتين : أى غير المقعدة .

قال الحافظ ابن حجر : وليس فى الروايات التى سعى فيها النجار قوى السند إلا هذا ، وليس فيه تصريح بأن الذى اتخذ المنبر تميم ، بل قد تبين من رواية ابن

(١) قال المؤلف فى الخلاصة : إن أشهر الأقوال فى تسمية صانع المنبر أن اسمه «باقوم» بالميم ، وسببين هنا بعد قليل أن اشتهاه لا ينافى ضعف إسناده (انظر ص ٣٩٧)

سعد المتقدمة أن تميماً لم يعمل ، وأشبه الأقوال بالصواب أنه ميمون ؛ لسكون الإسناد من طريق سهل ، ولا اعتداد بالأقوال الأخرى لكونها واهية . قلت : ولا ينافيه قوله في مقدمة الشرح « باقوم أشهر الأقوال » فقد يشتهر الواهي^(١) .

وفي التحفة لابن عساكر : رويناه من حديث أبي كبشة السلولي عن معاذ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن اتَّخَذَ منبراً فقد اتَّخَذَهُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وإن اتَّخَذَ الْعَصَا فقد اتَّخَذَهَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، صلى الله عليهما وسلم .

وأُسند ابن النجار من حديث أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة إلى جنب خشبة مُسْنَدًا ظهره إليها ، فلما كثر الناسُ قال : ابنُوا إلى منبراً ، فبنوا له منبراً له عتبتان ، وهو يقتضى أن المنبر كان بناءً ، ويحتمل أنه أُلْقِيَ على تأليفه من الأخشاب اسمَ البناء ، لكن قال الحافظ ابن حجر : حكى بعض أهل السير أنه صلى الله عليه وسلم « كان يخطب على منبر من طين قبل أن يتخذ المنبر الذي من خشب » ويعكر عليه ما تقدم في الأحاديث الصحيحة من أنه كان يستند إلى الجذع إذا خطب .

قلت : يحتمل أن ذلك المنبر المتخذ من الطين كان إلى جانب الجذع ، وكأنه كان بناءً مرتفعاً فقط ، وليس له درج ومقعدة بحيث يكمل الارتفاق به ؛ فلا ينافي ما تقدم في سبب اتخاذ المنبر من خشب ، ويؤيد ذلك ما ورد في حديث الإفك في الصحيحين عن عائشة قالت : فثار الحيان الأوسُ والخزرجُ حتى كادوا أن يقتتلوا ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، الحديث ، وهذه القصة متقدمة على اتخاذ المنبر من الخشب ؛ فقد جزم ابن النجار بأن عمله كان سنة ثمان ، وجزم ابن سعد بأنه كان في السنة السابعة ، على أن ذكر تميم والعباس في عمله كما تقدم

(١) قد نبهناك إلى هذا في هوامش ص ٣٩٦ .

يقتضى تأخره عن ذلك أيضاً ؛ فقد كان قدومُ العباس بعد الفتح في آخر سنة ثمان ، وقدومُ تميم سنة تسع ، وفي بعض طرق الحديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين أصحابه ، فيجىء الغريب فلا يدرى أيهم هو ، فطلبنا إليه أن نجعل له مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه ، فبينما له دكاناً^(١) من طين كان يجلس عليه ، الحديث . وفي بعض طرقه أنه جاء والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب : أى على ذلك الدكان ، والله أعلم .

وروى يحيى عن ابن أبي الزناد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس على المجلس ، ويضع رجله على الدرجة الثانية ، فلما ولى أبو بكر قام على الدرجة الثانية ، ووضع رجله على الدرجة السفلى ، فلما ولى عمر قام على الدرجة السفلى ، ووضع رجله على الأرض إذا قعد ، فلما ولى عثمان فعل ذلك ست سنين من خلافته ؛ ثم علا إلى موضع النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال : قالوا فلما استخلف معاوية زاد في المنبر ، فجعل له ست درجات ، وكان عثمان أول من كسا المنبر قُبْطِيَّةً^(٢) .

قالوا : فلما قدم معاوية عام حَجَّ حَرَكَ المنبر ، وأراد أن يخرج به إلى الشام ، فكسفت الشمس يومئذ ، حتى بدت النجوم ، فاعتذر معاوية إلى الناس ، وقال : أردت أنظر إلى ماتحتي ، وخَشِيتُ عليه من الأرضة . قال بعضهم : وكساه يومئذ قُبْطِيَّةً أولينة . ثم أسند عن سعيد بن عمرو قصة تحريك معاوية للمنبر ، وأن الشمس كسفت ، واعتذاره بأنه خشي عليه الأرضة ، وأنه كساه يومئذ قُبْطِيَّةً يكون عليه أولينة ، فكان يقال : هو أول من كساه ، قال يحيى : وأثبتهما عندنا أن عثمان هو أول من كساه ، وقد نقل ذلك ابن النجار عن الواقدي عن ابن أبي الزناد ، قال : فسرت الكسوة امرأة ، فأتى بها عثمان ، فقال لها : هل سرت ؟ قولى لا ، فاعترفت ، فقطعها ، واتفق لامرأة مع ابن الزبير مثل ذلك . وفي تاريخ الواقدي : أراد معاوية رضى الله عنه سنة خمسین تحويل منبر

أراد معاوية
أن ينقل المنبر
إلى الشام

(١) الدكان : المكان المرتفع ، شبه الدكة ، ويسمى في ريف مصر (مصطبة)

(٢) القبطية - بضم القاف وسكون الباء - الثوب الرقيق الأبيض من ثياب مصر

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دمشق ، فكسفت الشمس يومئذ ، وكله أبوهريرة رضى الله عنه فيه ، فتركه ، فلما كان عبد الملك أراد ذلك فكلمه قبيصة فتركه ؛ فلما كان الوليد أراد ذلك فأرسل سعيد بن المسيب إلى عمر بن عبد العزيز فكلمه فيه فتركه ، فلما كان سليمان قيل له في تحويله قال : لا ؛ هاالله ، أخذنا الدنيا ونعمد إلى علم من أعلام الإسلام نريد تحويله ؟ ذاك شيء لا أفعله ؛ وما كنت أحب أن يذكر هذا عن عبد الملك ولا عن الوليد ! ما لنا ولهذا ؟

وأسند ابن زبالة عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال : بعث رفع المنبر ست معاوية رضى الله عنه إلى مروان يأمره أن يحمل إليه منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمربه أن يُقْلَعَ ، فأظلمت المدينة ، وأصابتهم ريح شديدة ، قال : فخرج عليهم مروان فخطبهم ، وقال : يا أهل المدينة إنكم تزعمون أن أمير المؤمنين بعث إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمير المؤمنين أعلم بالله من أن يغير منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ما وضعه عليه ، إنما أمرني أن أكرمه وأرفعه ، قال : فدعا نجارا فزاد فيه الزيادة التي هو عليها اليوم ، ووضع موضع اليوم . وفي رواية له عن ابن قطن : قلع مروان بن الحكم منبر رسول الله ، وكان درجتين والجلس ، وأراد أن يبعث به إلى معاوية ، قال : فكسفت الشمس حتى رأينا النجوم ، قال : فزاد فيه ست درجت ، وخطب الناس فقال : إني إنما رفعته حين كثر الناس

وعند يحيى في رواية أخرى : كتب معاوية رضى الله عنه إلى مروان وهو على المدينة أن أرسل لي بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج مروان فقلعه ، فأصابتنا ريح مظلمة بدت فيها النجوم نهارا ، ويلقى الرجل الرجل يصكه^(١) فلا يعرفه ، وذكر اعتذار مروان المتقدم ، وقال : إنما كتب إليّ يأمرني أن أرفعه من

(١) يصكه : أراد أن أحدهما يصطدم بالآخر دون أن يراه .

الأرض ، فدعا له النِّجَاجِرَةُ^(١) ، فعمل هذه الدرجات ورفعوه عليها ، وهى - أى الدرجات التى زادها - ستُّ درجاتٍ ، قال : ثم لم يزد فيه أحد قبله ولا بعده . وقال ابن زباله عقب حديث رواه من طريق سفيان عن كثير بن زيد عن المطلب مانفظه : والذى زاد فى درج المنبر معاوية بن أبى سفيان .

قال سفيان : قال كثير : فأخبرنى الوليد بن رباح قال : كسفت الشمس يوم زاد معاوية فى المنبر حتى رؤيت النجوم .

وروى ابن النجار زيادة مروان فيه ، وأنه صار تسع درجات بالمجلس^(٢) ، عن ابن أبى الزناد ، ثم قال : ولما قدم المهدي المدينة سنة إحدى وستين ومائة ، فقال لمالك بن أنس : إني أريد أن أعيد منبر النبي صلى الله عليه وسلم على حاله ، فقال له مالك : إنما هو من طرفاء ، وقد سُمرَ إلى هذه العيدان وشُدَّ ، فمتى نزعته خِفْتُ أن يتهافت ويهلك ، فلا أرى أن تغيره ، فانصرف المهدي عن تغييره . وروى ابن شبة قصة المهدي عن محمد بن يحيى عن محمد بن أبى فديك .

قلت : وجميع ما قدمناه من كلام المؤرخين مقتضى لاتفاقهم على أن منبره صلى الله عليه وسلم كان درجتين غير المجلس^(٣) ونقله ابن النجار عن الواقدي ، لكن سبق فى رواية الدارمي « هذه المراقى »^(٤) الثلاث أو الأربع على الشك ، وفى صحيح مسلم « هذه الثلاث درجات » من غير شك ، وقال الكمال الدميري فى شرح المنهاج : وكان صلى الله عليه وسلم منبره ثلاث درج غير الدرجة التى تسمى المستراح^(٥) ، ولعل مأخذه ظاهر ذلك مع حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم رقى المنبر فلما رقى الدرجة الأولى قال : آمين ، ثم رقى الدرجة الثانية فقال : آمين ، ثم رقى الدرجة الثالثة فقال : آمين ، فقالوا : يا رسول الله سمعناك قلت آمين ثلاث مرات ، قال : لما

عدد
درجات
المنبر

(١) النجاجة : جمع نجار . (٢) المجلس : الموضع الذى يجلس عليه .

(٣) المراقى : جمع مرقاة ، وهى الدرجة من درجات السلم ، سميت بذلك لأنه يرقى بها

(٤) المستراح : اسم للمكان الذى يستراح فيه ، وهو الذى سمي فى بعض الروايات

بالمجلس وفى بعضها الآخر بالمقعد ووجه التسمية فى كل رواية ظاهر لا يحتاج إلى تنبيه .

رَقِيتُ الدرجةَ الأولى جاء جبريل عليه السلام فقال : شَقِيَ عَبْدُ أَدْرِكَ رَمَضَانَ فَنَسَلَخَ عَنْهُ فَلَمْ يَغْفَرْ لَهُ ، قُلْتُ : آمِينَ ، ثُمَّ قَالَ : شَقِيَ عَبْدُ كَرْتٍ عَنْدهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيْكَ ، قُلْتُ : آمِينَ ، ثُمَّ قَالَ : شَقِيَ عَبْدُ أَدْرِكَ وَالِدِيهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلَاهُ الْجَنَّةَ ، فَقُلْتُ : آمِينَ ، رَوَاهُ يَحْيَى بْنُ الْحَسَنِ عَنْ جَابِرٍ ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ عَنْ كَعْبِ بْنِ عَجْرَةَ ^(١) وَقَالَ : صَحِيحُ الْإِسْنَادِ ، وَلَفْظُهُ : قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : احْضَرُوا الْمَنِيرَ ، فَحَضَرْنَا ، فَلَمَّا رَقِيَ دَرَجَةٌ قَالَ : آمِينَ ، فَلَمَّا ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ قَالَ : آمِينَ ، فَلَمَّا ارْتَقَى الدَّرَجَةَ الثَّالِثَةَ قَالَ : آمِينَ ، فَلَمَّا نَزَلَ قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ سَمِعْنَا مِنْكَ الْيَوْمَ شَيْئًا مَا كُنَّا نَسْمَعُهُ ، قَالَ : إِنْ جَبْرِيلُ عَرَّضَ لِي فَقَالَ : بَعْدَ مَنْ أَدْرِكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يَغْفَرْ لَهُ ، قُلْتُ : آمِينَ ؛ فَلَمَّا رَقِيتُ الثَّانِيَةَ قَالَ : بَعْدَ مَنْ ذَكَرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيْكَ ، فَقُلْتُ : آمِينَ ، فَلَمَّا رَقِيتُ الثَّالِثَةَ قَالَ : بَعْدَ مَنْ أَدْرِكَ أَبُو بَكْرٍ عَنْدهُ أَوْ أَحَدَهُمَا فَلَمْ يَدْخُلَاهُ الْجَنَّةَ ، قُلْتُ : آمِينَ ، وَيُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارْتَقَى حِينَئِذٍ عَلَى الْمَجْلِسِ وَهِيَ الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ .

قال ابن زبالة : وطولُ منبرِ النبي صلى الله عليه وسلم خاصةً ذراعان في السماء ، مساحَة المنبر وعرضه ذراع في ذراع ، وتربيعة سواء ، وفيه مما كان يلي ظهره إذا قعدَ ثلاثةُ أعوادٍ تدور ، ذَهَبَ إِحْدَاهُنَّ ، وَانْقَلَعَتْ إِحْدَاهُنَّ سَنَةً ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةً ، وَأَمَرَ بِهِ دَاوُدُ بْنُ عِيسَى فَأُعِيدَ ، وَفِيهَا عَمَلُ مَرْوَانَ فِي حَائِطِ الْمَنِيرِ الْخَشَبِ عَشْرَةُ أَعْوَادٍ لَا يَتَحَرَّكُنَّ ، وَطُولُ مَنبَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْتَفِعٌ فِي السَّمَاءِ مَعَ الْخَشَبِ الَّذِي عَمَلَهُ مَرْوَانُ — أَيْ الْأَعْوَادِ الْمُتَقَدِّمَةِ — ثَلَاثَ أَذْرَعٍ وَنِصْفٍ .

وقال عقب كلامه الآتي في ذرع ما عليه المنبر اليوم ، يعني زمنه ، ما لفظه : وطول المجلس — أَيْ مَجْلِسُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — شَهْرَانِ وَأَرْبَعُ أَصَابِعٍ فِي مِثْلِ ذَلِكَ . مَرْبَعٌ ؛ فَقَوْلُهُ أَوَّلًا : « وَعَرَّضَهُ ذِرَاعٌ فِي ذِرَاعٍ » إِنَّمَا أَرَادَ بِهِ مَقْعَدَ الْمَنبَرِ ؛

(١) كَعْبُ بْنُ عَجْرَةَ : ابْنُ أُمَيَّةَ بْنِ عَدِي ، أَبُو مُحَمَّدٍ ، الْقَضَاعِيُّ ، الْبَلَوِيُّ ، الْمَدَنِيُّ ، حَلِيفُ الْقَوَاقِلِ ، رَوَى عَنْهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ، مَاتَ سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ .

لما قاله هنا في وصف المقعد بدون درجتيه ؛ ولأنه قال هنا عقب ما تقدم : وما بين أسفل قوائم منبر النبي صلى الله عليه وسلم الأول الى رُمَّانته خمسة أشبار وشيء ؛ وعرض دَرَجِهِ شبران ، وطولها شبر ، وطوله من ورائه — يعنى محل الاستناد — شبران وشيء ؛ فيؤخذ من ذلك أن امتداد المنبر النبوى من أوله — وهو ما يلي القبلة — الى ما يلي آخره في الشام أربعة أشبار وشيء ؛ لقوله : إن عرض درجه شبران ، وإن المجلس شبران وأربع أصابع ، وقوله : « وما بين أسفل قوائم منبر النبي صلى الله عليه وسلم — الى آخره » معناه أن من طرف المنبر النبوى الذى يلي الأرض الى طرف رمانته التى يضع عليها يده الكريمة خمسة أشبار وشيء ؛ وذلك نحو ذراعين ونصف ، وقد تقدم أن ارتفاع المنبر النبوى خاصة ذراعان ؛ فيكون ارتفاع الرمانة نحو نصف ذراع

وقال ابن النجار : طول منبر النبي صلى الله عليه وسلم ذراعان وشبر وثلاث أصابع ، وعرضه ذراع راجح ، وطول صدره — وهو مستند النبي صلى الله عليه وسلم — ذراع ، وطول رُمَانتى المنبر اللتين كان يمسكهما بيده الكرستين إذا جلس شبر وأصبعان ، وعرضه ذراع في ذراع ، يريد وتربيعة سواء ، ولا يخفى ما فيه من المخالفة لكلام ابن زبالة .

وقال ابن زبالة في الكلام على فضل ما بين القبر والمنبر ، بعد ذكر الممر الذى حول المنبر ، مالفظة : وفي المنبر من أسفله الى أعلاه سبع كوى^(١) مستطيرة من جوانبه الثلاث ، وفي جنبه الذى عمل مروان من قبل المشرق ثمانى عشرة كوة^(١) مستديرة شبه المربعة ، ومن قبل المغرب ثمانى عشرة كوة مثل ذلك ، وكان فيه خمسة أعواد تدور ، فذهب بعضها وبقي اثنان منها ، فسقط أحدهما في سلطان داود بن عيسى على المدينة في سنة ثمان وتسعين ومائة ، فأمر به فأعيد .

وقال في موضع آخر : وفيما عمل مروان في حائط المنبر الخشب عشرة أعواد

(١) الكوة — بفتح الكاف أو ضمها وتشديد الواو — أصله الخرق في الحائط ، والمراد به هنا الخرق مطلقا ، والجمع : كوى ، وكواء ، بضم الكاف في الجمع .

لا يتحركن ، ثم قال : وفي منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة خمسة أعواد من جوانبه الثلاث ، فذهب بعضها .

وقال بعد ما تقدم عنه في ذرع منبره صلى الله عليه وسلم ما لفظه : وذرع طول المنبر اليوم أربع أذرع ، وعرضه ذراع وشيء يسير ، وما بين الرمانة المؤخرة والرمانة التي كانت في منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم القديم ذراع وشيء ، وما بين رمانة منبر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرمانة المحدثه في مقدم المنبر ذراعان وعظم الذراع ، وما بين الرمانة والأرض ثلاث أذرع وشيء ، وطول المنبر اليوم من أسفل عتبة إلى مؤخره سبع أذرع — أى بتقديم السين — وشبر ، وطوله في الأرض إلى مؤخره ست أذرع ، هذه عبارته بحروفها ، ويتعين حمل كلامه على أن امتداد المنبر في الأرض من أسفل عتبة الرخام التي أمامه إلى مؤخر المنبر سبعة أذرع وشبر ، وطول امتداده وهو في الأرض إلى مؤخره مع إسقاط العتبة ست أذرع ، حتى يلتئم كلامه ، وقد ذكر فيما قدمناه عنه أن حول المنبر مرمر مرتفع ^(١) قدر الذراع ، وفيه شيء مُحَدَّث غير مرتفع زاده الحسن بن زيد .

وقال في موضع آخر : والمنبر مبنى فوق رخام ، وهو في وسط الرخام ، فسمى المرمر رُخَامًا ، وقال : إن هذا الرخام حَدُّهُ من الأسطوانتين اللتين في قبلة المنبر — أى خلفه — إلى الأسطوانتين اللتين تليانها مما يلي الشام — أى أمام المنبر — وقد سمي ابن النجار هذا الرخام الذي عليه المنبر دِكَّةً ، وقال : إن طولها شبر وعقد ، يعنى في الارتفاع ، وسمى ذلك أبو الحسين بن جبّير في رحلته حَوْضًا ، وكأنه أخذ هذه التسمية مما ورد في أن المنبر على الحوض ، وذكر في طول هذا الرخام وعرضه ما يقرب مما قدمناه في حدود المسجد النبوى ، قال : وارتفاعه شبر ونصف .

قلت : ولما حفر متولى العمارة في زماننا أرضَ المسجد الشريف وسَوَّاهَا بأرض المصلّى الشريف وجَدَ هذا الرخام المذكور ، وارتفاعه عن أرض المصلّى .

(١) كذا ، والعربية تقتضى «مرمرًا مرتفعًا» .

الشریف نحو ما ذكره ابن النجار وابن جُبَيْر ؛ ثم لما أوردوا تأسيس المنبر الرخام الآتي ذكره حَقَرُوا حول الدكة المذكورة فظهر أنها منخفضة عن أرض المصلَّى الشریف التي استقر عليها الحالُ اليومَ يسيرا ، وخلفها من جهة القبلة إفریز نحو ثلث ذراع ، وطولها سبع أذرع ، بتقديم السين ، وشبر ، وهي مجوّفة شبيهة بالحوض ، فصح ما ذكره ابن جُبَيْر في تسميتها حوضا ، وصح أيضا ما سياتي عنه من أن سعة المنبر خمسة أشبار ؛ لأن جوف هذا الحوض الذي وجدناه بما دخل من عمودي المنبر في أحجاره خمسة أشبار ، وقولُ ابن زبالة أولا « وذرع طول المنبر اليوم أربع أذرع » مرادهُ ارتفاعه في الهواء مع الدرج الست التي زادها مروان ؛ فيكون طول الدرج الست ذراعين ؛ فتكون كل درجة ثلث ذراع ، فيقرب مما قدمه ابن زبالة في طول درج منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي تقتضيه المناسبة

ونقلَ الزين المراغي عن ابن زبالة أنه قال : طول منبر النبي صلى الله عليه وسلم بما زيد فيه أربعة أذرع ، ومن أسفل عتبته إلى أعلاه تسعة أذرع وشبر .

قلت : كذا رأيته بخط الزين ، وضبط قوله « تسعة أذرع » بتقديم التاء الفوقية ، وهو غلط في النسخة التي وقعت له ؛ لأن الذي قدمناه عن ابن زبالة إنما هو من أسفل عتبته إلى مؤخره ، وقررناه بما تقدم ، وإنما قضينا على ذلك بالغلط لأنه حينئذ لا يلتزم أطرافُ كلامه ، ولأنه يقتضي أن يكون ارتفاع المنبر في الهواء تسعة أذرع ، بتقديم التاء ، وشبرا ، فإذا قام عليه القائم يقرب من سقف المسجد ، ويبعد كل البعد كون منبر في ذلك الزمان ارتفاعه هذا القدر ، وأيضا فإن زبالة قد صرح بأن الذي زاده مروان ست درج ، فيلزم أن يكون كل درجة ذراعاً وشيئاً ، وهو في غاية البعد ، وما نقلناه عن ابن زبالة يقرب مما ذكره ابن النجار ؛ فإنه قال عقب ما قدمناه عنه في وصف منبر النبي صلى الله عليه وسلم

مالفظه : وطول المنبر اليوم ثلاثة أذرع وشبر وثلاث أصابع ، والدكة التي عليها من رخام طولها شبر وعقد ، ومن رأسه - أي المنبر - دون دكته إلى عتبته خمسة أذرع وشبر وأربع أصابع ، وقد زيد فيه اليوم عتبتان وجعل عليه باب يفتح يوم الجمعة ، انتهى ؛ فهو قريب مما ذكره ابن زبالة من أن طول المنبر - يعنى في الهواء - أربعة أذرع ، وأمداده هو خاصة في الأرض من عتبته إلى مؤخره ستة أذرع ، ويوافق أيضا ما ذكره الفقيه أبو الحسين محمد بن جبير من حديث القدر ، فإنه قال : رأيت منبر المدينة الشريف في عام ثمان وسبعين وخمسمائة ، وأرتفاعه من الأرض نحو القامة أو أزيد ، وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجة ثمانية ، وله باب على هيئة الشباك مُقفل يفتح يوم الجمعة ، وطوله - أي الباب - أربعة أشبار ونصف شبر ، وهذا المنبر هو الذي وصفه ^(١) ابن النجار فيما يظلم ؛ لأنه وضع تاريخه سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، وتوفي قبل حريق المسجد سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وكان احتراق المسجد كما سيأتى سنة أربع وخمسين وستمائة ، وفيه احترق هذا المنبر ، وقد الناس بركته .

وقد زاد ابن جبير على ابن النجار في وصف هذا المنبر فقال : وهو مُنشئ بعود الآبنوس ، ومقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر قد طبق عليه لوح من الآبنوس غير منصل به يَصُونُهُ من القعود عليه ؛ فيدخل الناس أيديهم إليه ، ويمسحونه بها تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم ، وعلى رأس رجل المنبر الأيمن حيث يضع الخطيب يده إذا خطب حلقة فضة بحوطة مسطيلة تشبه حافة الخياط التي يضعها في أصبعه إلا أنها أكبر منها ، وهي لآعبة تستدير في موضعها ، انتهى . والظاهر أن هذا المنبر غير الذي وصفه ابن زبالة لأنه لم يصفه بذلك ، ويوضح ذلك ما ذكره في الطراز لسند من المالكية حيث قال : إن منبر النبي صلى الله عليه

(١) في الطبوعات كلها « وضعه » وما أثبتناه هو الذي يقتضيه المقام ، وهو الذي يعينه قول المؤام بعد قليل « في وصف هذا المنبر » وغيره من العبارات

وسلم جعل عليه منبر كالغلاف ، وجعل في المنبر الأعلى طاق مما يلي الروضة ، فیدخل الناس منها أيديهم يمسحون منبر النبي صلى الله عليه وسلم ويبتبركون بذلك ، انتهى ؛ فهذا شيء حدث بعد ابن زبالة .

وقد قال المطري : حدثني يعقوب بن أبي بكر من أولاد المجاورين ، وكان أبوه أبو بكر فراشاً من قوائم المسجد ، وهو الذي كان حريق المسجد على يده ، أن المنبر الذي زاده معاوية ورفع منبر النبي صلى الله عليه وسلم عليه تهافت على طول الزمان ، وأن بعض خلفاء بني العباس جدده ، واتخذ من بقايا أعواد منبر النبي صلى الله عليه وسلم أمشاطاً للثبرك ، وعمل المنبر الذي ذكره ابن النجار فيما تقدم .

قال يعقوب : سمعت ذلك من جماعة بالمدينة ممن يوثق بهم ، وأن المنبر المحترق هو الذي جدده الخليفة المذكور ، وهو الذي أدركه ابن النجار ؛ لأن وفاته قبل الحريق .

قلت : وظاهر كلام ابن عساكر في تحفته أنه كان قد بقي من المنبر الشريف بقايا فقط إلى احتراق المسجد ، وهو ممن أدرك حريقه ، وأورد في كتابه ما ذكره شيخه ابن النجار ، ولفظه : وقد احترقت بقايا منبر النبي صلى الله عليه وسلم القديمة ، وفات الزائر لمس رمانة المنبر التي كان صلى الله عليه وسلم يضع يده المقدسة للكرمة عليها عند جلوسه عليه ، ولمس موضع جلوسه منه بين الخطبتين وقبلهما ، ولمس موضع قدميه الشريفتين بركة عامة ونفع عائد ، وفيه صلى الله عليه وسلم عوض من كل ذاهب ودرك من كل فائت ، انتهى . وهو صريح في بقاء ما ذكره إلى حين الحريق ، ويؤيده ما تقدم عن رحلة ابن جبير وصاحب الطراز ، بل ظفرنا بما يشهد لصحة ذلك ؛ فإنه لما أراد متولى العمارة تأسيس المنبر الرخام الآتي ذكره حفروا على الدكة التي تقدم أن المنبر كان عليها فوجدت مجوفة كالحوض ، وبه عبر ابن جبير عنها ، فوجدوا فيما يلي القبلة منها قطعاً كثيرة من أخشاب المنبر المحترق - أعنى الذي كان فيه بقايا منبر النبي صلى الله عليه وسلم - فوضعها الأقدمون

في جوف ذلك الحبل جِرساً على البركة ، وَبَنَوْا فوقها بِالْأَجْرِ بِحَيْثُ سَدُوا جُوفَ ذلك الحوض كله ، فصار دكة مستوية ، ووضعوا المنبر الآن في ذكره عليها ، وشاهدت آثار قائمتي المنبر الشريف اللتين كان بأعلاهما رُمَاتَانِ قد نُجِثَتْ لهما في الحبر المحيط بالحوض المذكور على نحو ذراع وثلث من طرف باطن الحوض المذكور ١٤٠ م ، والقبلة ، وَسَمَةُ الحوض المذكور خمسة أشبار كما ذكره ابن جُبَيْر في سعة المنبر ، وعرضُ جدار الحوض المذكور خلف المنبر نحو نصف ذراع ، وقد حرصتُ على وَضْعِ ما وجد من تلك الأخشاب في محلها ، فوضع ما بقي منها في محله من الحوض المذكور ، وبنوا عليه كما سيأتي ، والله أعلم .

ولما احترق المنبر المذكور في جملة الحريق أرسل الملك المظفر صاحب اليمن في سنة ست وخمسين منبراً له رُمَاتَانِ من الصُّنْدُل ، فنُصِبَ في موضع منبر النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكره المطري فمن بعده ، قال : ولم يزل يخُطَبُ عليه عشر سنين ، فلما كان في سنة ست وستين وسبعمائة أرسل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري هذا المنبر الموجود اليوم : أي زمن المطري ، فقلع منبر صاحب اليمن ، وحمل إلى حاص الحرم ، ونُصِبَ هذا المنبر مكانه ، وطوله أربع أذرع في السماء ، ومن رأسه إلى عتقه سبع أذرع يزيد قليلاً ، وعدد درجاته تسع بالمقعد .

قال المجدد : وله باب بمصراعين ، في كل مصراع رمانة من فضة ، ومكتوب على جانبه الأيسر اسم صانعه « أبو بكر بن يوسف النجار » وكان من أكابر الصالحين الأخيار ، وهو الذي قدم بالمنبر إلى المدينة ، فوضعه في موضعه ، وأحسن وضعه ، وأتقن نجارته وصنعه ، ثم انقطع في المدينة .

قال الزين المرافي : وبقي منبر الظاهر بيبرس يُخُطَبُ عليه من سنة ست وستين وسبعمائة إلى سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، فكانت مدة الخطبة عليه مائة سنة واثنين وثلاثين سنة ، فبدأ فيه أكل الأرضة ؛ فأرسل الظاهر برفوق صاحب

مصر هذا المنبر الموجود اليوم : أى زمن المراغى ، أرسله فى آخر سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، وقلع منبر الظاهر ببيرس ، انتهى .

قلت : ولم يزل هذا المنبر موجودا إلى ما بعد العشرين وثمان مائة ، كما أخبرنى به جماعة من مشايخ الحرم منهم الشيخ صالح المعمر الجمال عبد الله بن قاضى القضاة عبد الرحمن بن صالح ، قال : فأرسل سلطان مصر الملك «المؤيد شيخ» هذا المنبر الموجود اليوم عام اثنين وعشرين وثمان مائة .

ثم رأيت فى كلام الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر أن المنبر الموجود اليوم أرسله المؤيد سنة عشرين وثمان مائة ؛ فهذا هو المعتمد ، لكن لم يطلع ابن حجر على ما ذكره المراغى من منبر الظاهر برقوق ، وجعل إتيان منبر المؤيد هذا بدلا عن منبر الظاهر ببيرس ، وكلام المراغى أولى بالاعتماد فى ذلك ؛ فإنه كان بالمدينة حينئذ ، وعلى هذا فمدة الخطبة على منبر الظاهر برقوق ثلاث وأربع وعشرون سنة ، ثم وضع منبر المؤيد .

وأخبرنى السراج النفطى أنه صنعته أهل الشام ، وجاؤا به المؤيد ليضعه بمدرسته المؤيدية ، فوجدوا أهل مصر قد صنعوا لها منبرا ، فجهز المؤيد منبر أهل الشام إلى المدينة الشريفة ، وقال لى الجمال عبد الله بن صالح : شاهدت وضعه موضع المنبر الذى كان قبله .

قلت : ويدل على صحة ذلك ما قدمناه من اختبار ذرع ما بينه وبين المصلّى الشريف ؛ إذ المنقول أن بينهما أربعة عشر ذراعا وشبرا ، وقد اختبرته من ناحية المصلّى الشريف إلى ما حاذاه من المنبر فى المغرب فكان كذلك ؛ فوضع من هذه الجهة صحيح لاشك فيه ، وأما من جهة القبلة فقد قال المطرى : إن المنبر الذى أدركه بينه وبين الدرازين الذى فى قبلة الروضة مقدار أربعة أذرع وربع ذراع ، وقد ذكر الزين المراغى فى كتابه ما ذكره المطرى من الذرع ، ولم يتعقبه ؛ فاقضى أن المنبر الذى تقدم وضعه فى زمنه وضع موضع المنبر الذى كان فى زمان المطرى ، وأقر أيضا قول المطرى فى حدود المسجد أن المنبر لم يغير عن منصبه الأول .

وقد ذكر ابن جماعة أيضا ذراع ما بين المنبر والدرابزين ، وهو يعنى المنبر الموجود زمن المطرى ، فقال : إن بينهما ثلاثة أذرع بذراع العمل ، وهو أزيد مما ذكره المطرى بربع ذراع راجح ؛ لأن ذراع العمل كما تقدم ذراع ونصف ، وكان المطرى يعنى ذراع المدينة اليوم كما يؤخذ من كلام المراغى فيوافق كلام ابن جماعة ، والذي بين هذا المنبر الموجود اليوم وبين الدرابزين المذكور ذراعان وثلاث بذراع العمل ، وذلك ثلاثة أذرع ونصف من الذراع الذى قدمنا أنه المراد عند الإطلاق ؛ فيحتمل أن يكون هذا المنبر مقدم الوضع لجهة القبلة على المنبر الذى كان قبله ، وهو مقتضى ما نقله الأثبات ، لكننى أستبعده للأخبار ممن لقيناه بوضعه موضع ذلك

ثم تبين عند انكشاف الدكة التى تقدم ذكرها من آثار المنبر المحترق قديما ما علمنا به صواب ما ذكره المطرى وغيره أن هذا المنبر مقدم الوضع على الذى قبله من جهة القبلة بما يقرب من ذراع ، وكذا ظهر زيادته من جهة الشام أيضا على الدكة الأصلية المتقدم وصفها بقريب من ذراع ، ووجد محرفا عنها من طرفه الشامى نحو المغرب قدر شبر لما فيها من التيامن الذى تقدمت الإشارة إليه فى التنبيه الثالث من الفصل قبله ، وكنت قد أيدت وضعه بكونه أقرب إلى ماورد فيما كان بين المنبر والجدار القبلى كما سيأتى فأنكشف الحق لذى عينين ، والذي لقيناه وأخبر بوضعه موضع المنبر الذى كان قبله هو الجلال بن صالح فى آخر عمره ، وكان غير تام الضبط حينئذ ، وكنت قد أيدت خبره بأنا قد قدمنا إلى الصندوق الذى فى قبلة المصلى الشريف فى عرض الجدار ، وأن المصلى الشريف لم يغير باتفاق ، وأن منبر النبى صلى الله عليه وسلم كان بينه وبين الجدار القبلى ممر الشاة أو ممر الرجل منحرفا ، وأقصى ما قيل فيه ذراع وشىء كما قدمناه ، فإذا أسقطت قدر ما بين طرف المصلى الشريف والدرابزين الذى أمامه مما بين المنبر اليوم والدرابزين المذكور وهو ثلاثة أذرع ونصف بقى ذراع ، وهو نحو القدر المنقول فيما بين المنبر القديم وجدار المسجد

الشريف ، ثم تبين لنا مما سبق في حدود المسجد النبوي وبانكشاف المرمر الذي في قبلة المنبر تقدم الدرابزين المذكور عن ابتداء المسجد النبوي بأزيد من ذراع كما قدمناه في حدود المسجد النبوي ؛ فالصواب ما ذكره المطري ومن تبعه .
وطول هذا المنبر في السماء سوى قبته وقوائمه ، بل من الأرض إلى محل الجلوس ، ستة أذرع وثلاث ، وارتفاع الخافتين اللتين يمين المجلس وشمالة ذراع وثلاث ، وامتداد المنبر في الأرض من جهة بابه إلى مؤخره ثمانية أذرع ونصف راجحة ، وعدد درجته ثمانية ، وبعدها مجلس ارتفاعه نحو ذراع ونصف ، وقبته مرتفعة ، ولها هلال قائم عليها . ترتفع أيضا ، وما أظن منبرا وضع قبله في موضعه أرفع منه ، وله باب بصريعتين .

وقد احترق هذا المنبر في حريق المسجد الثاني الحادث في رمضان عام ستة وثمانين وثمان مائة ، فكانت مدة الخطبة عليه نحو سبع وستين سنة .

ولما نظف أهل المدينة محله جعلوا في موضعه منبرا من آجر مطلي بالنورة ، واستمر يخطب عليه إلى أثناء شهر رجب سنة ثمان وثمانين ، فهدم رابع الشهر المذكور ، وحفروا لتأسيس المنبر الرخام الموجود اليوم ظاهر الدكة المتقدم ذكرها ، فوجدت على النحو المتقدم ، ونقضوا من بعضها قريب القامة فلم يبلغوا نهايتها ، ووجدوها محكمة التأسيس في الأرض ، فأعادوها كما كانت ، إلا ما كان فوقها من نحو أزيد من نصف ذراع من الآجر ، وسووا ما وجد بجوفها منها كالخوض بالبناء بعد وضع ما تقدم ذكره مما وجد بمقدمها من بقايا المنبر القديم المحترق في الحريق الأول بمقدمها أيضا ، وكانوا قد سألوني عن ابتداء حد المنبر القديم من جهة القبلة والروضة فأخبرتهم بذلك ، وأن ذلك الخوض وما به من محل قوائم المنبر الأصلي إمام يقتدى به لموافقة ما ذكره المؤرخون قديما وحديثا ، فشرعوا في وضع رخام المنبر عليها على سمت ما ظهر من الفرضة التي وجدوها في الخوض المذكور على الاستقامة من غير انحراف ، وبينها وبين طرف الدكة الشرق خمسة أصابع ،

لما ظهر من أن المنبر الأصلي كان بالحوض المذكور ، ومشاهدة محل قوائمه نقرأ في الحجر وبقايا الرصاص الذي كانت القوائم مثبتة به ، وما وصفه المؤرخون في أمر المنبر الأصلي شاهد لذلك ، ومعلوم أن الحوض الموجود في باطن تلك الدكة لا يمكن وضع المنبر فيه إلا على الاستقامة ، سيما وقد طابقت سميته ما ذكره ابن جبير في سعة المنبر الأصلي ، وإحكام تلك الدكة بحيث إنهم حفروا منها قرب القامة ، ولم يدركوا آخرها ، وإتقان فرضتي الحوض المذكور بالرصاص ، وترخيم تلك الدكة قديما ، كلفه قاضٍ يجعل السلف لها من أجل وضع المنبر فيها ، كما صرح به المؤرخون ، ولم يكن السلف مع عظيم إتقانهم يحملونها لوضع المنبر ويحرفونها عن وضعه ؛ لأن وضعها تابع لوضعها إذ جعلت من أجله ، وقد كان وضعه مشاهداً لهم ؛ لوجود المنبر النبوي بين أظهرهم وإتقانها وما سبق من المتقدمين في ذكر ترخيمها شاهد بعملها في عمارة عمر بن عبد العزيز للمسجد إن لم يكن من زمن معاوية رضي الله عنه عند تحريكه المنبر كما سبق ، ولم أرَ تبَّ عند مشاهدتها في وضع المنبر بها كذلك ، وتيامن حوضها الذي كان المنبر به يسيرٌ جداً لا يخرج صدر المستقبل عن القبلة ، وقد أشار يحيى فيما قدمناه عنه في التنبيه الثالث إلى تصويب وضعه ، وأيضاً فقد يكون النبي صلى الله عليه وسلم وضعه متيامناً لما أوضحناه في الرسالة الموسومة بالنصيحة ، والمنبرُ جهادٌ ليس بهصل حتى يحرق أمره في الاستقبال ويترك ما وجد من حدوده الأصلية المجمع عليها في الأعصر الماضية المترتب عليها حدود الروضة الشريفة ، فشرعوا في وضع رُخام المنبر المذكور على النحو الذي ذكرته ، غير أنهم جعلوا جداره من جهة القبلة على الأحجار التي خلف الحوض من جهة القبلة ؛ لاقتضاء نظرهم ذلك ، ولو كان لي من الأمر شيء ما وافقت عليه .

ثم وقع من بعض ذوى النفوس ما أوضحناه في الرسالة الموسومة (بالنصيحة الواجبة القبول ، في بيان وضع منبر الرسول) صلى الله عليه وسلم .

والحاصل أنهم نقضوا ما سبق ، وزادوا خلف أحجار الحوض المذكور نحو ربع ذراع العمل حتى ساوى ذلك محل المنبر المحترق من جهة القبلة ، وحرفوه على تلك الدكة لجهة المغرب أزيد من تحريف المنبر المحترق ، وجعلوا هذا المنبر في محل المحترق من جهة القبلة ومساوٍ لطرفها الشرق مما يلي القبلة أيضاً ، وزعموا أنه لا يعول على كلام من قدمناه من الأئمة ، ويتحرر مما سبق أنه مقدم على محل المنبر الأصلي لجهة القبلة بعشرين قيراطاً من ذراع الحديد ، وهو نحو ذراع اليد ، وأن المنبر النبوي لم يقع في محله تغير إلا من تاريخ وضع المنبر المحترق في زماننا لأنه خفي على واضعه ما في جوف الدكة المذكورة ، ولم يدركه أحد من مؤرخي المدينة ، وكان مفرط الطول بحيث كان قاطعاً للصف الباقي من الروضة ، وقد اقتدى به واضعُ هذا المنبر لكونه من آبائه ، ولم يبال ولي الأمر بتفويته المنقبة العظيمة في إعادة وضع منبر الرسول صلى الله عليه وسلم على ما كان عليه ، وهذا المنبر - أعنى الرخام - أقصر من امتداد المنبر المحترق في الأرض بنحو ثلاثة أرباع ذراع ، وعدد درجه مع مجلسه كالمحترق ، ومحل عود المنبر الأصلي منه مما يلي الروضة وهو الذي كان بأعلاه رمانة المنبر النبوي قبل عمود هذا المنبر بأزيد من قيراط ، وذلك على نحو ذراعين وشيء من طرف المنبر المذكور من القبلة .

وقد اشتهر محله من أحجار الدكة المذكورة بسبب تحريف المنبر المذكور بحيث تغيرت حدود الروضة الشريفة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وفي يوم الجمعة يجعل على باب المنبر ستر من حرير أسود مرقوم بحريز أبيض وقد قدمنا أول من كسا المنبر .

كسوة المنبر

وأُسند ابن زباله عن هشام بن عروة أن ابن الزبير كان يلبس منبر النبي صلى الله عليه وسلم القباطي فسُرقت امرأة قبطية فقطعها ، وقال ابن النجار : ولم ينزل الخلفاء إلى يومنا هذا يرسلون في كل سنة ثوباً من الحرير الأسود له عَلم

ذهب يُكْسَى به المنبرُ ، قال : ولما كثرت الكسوة عندهم أخذوها فجعلوها ستوراً على أبواب الحرم .

ستور الأبواب

قلت : قد استقر الأمر بعد قتل الخليفة المستعصم على نخل الكسوة من مصر كما قاله الزين المراكى ، قال : والأبواب مستقلة اليوم بستور ، قال : وإنما يظهرونها في أوقات المهمات كقدوم أمير المدينة ، وذكر ماسياتى في كسوة الحجر من وقف قرية بمصر على ذلك وعلى كسوة الكعبة الشريفة ؛ فالكعبة تكسى كل عام مرة ، والحجرة والمنبر في كل ست سنين مرة .

وقال الجذد : والمنبر يحمل له في كل سبعة أعوام أو نحوها من الديار المصرية كسوة معظمة ملوكية يُكْسَاهَا من الجمعة إلى الجمعة ، ورايتان سوداوان يُنْسَجَان أبدع نسج يرفعان أمام وجه الخطيب في جانبي المنبر قريباً من الباب .

قلت : في زماننا تمضى السبع سنين والعشرون وأكثر من ذلك ولا تصل كسوة ، والذي يعمل اليوم على المنبر إنما هو الستر المتقدم ذكره مع الرايتين اللتين ذكرهما الجذد ، والله أعلم .

الفصل الخامس

في فضائل المسجد الشريف

قال الله تعالى «لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» (١) .

روينا في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدرى قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت لبعض نسائه ، فقلت : يا رسول الله ، أى المسجدين الذى أسس على التقوى ؟ قال : فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ، ثم قال : هو مسجدكم هذا ، لمسجد المدينة .

المسجد الذى أسس على التقوى

ولأحمد والترمذى من وجه آخر عن أبي سعيد : اختلف رجلان في المسجد الذى أسس على التقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألاه عن ذلك ، فقال : هو هذا ، وفى ذلك - يعنى مسجد قباء - خير كثير ، وأخرجه أحمد من وجه آخر مرفوعاً ، وفى العتبية عن مالك ما لفظه : وقال : المسجد الذى ذكر الله عز وجل أنه أسس على التقوى من أول يوم الآية هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ، أى مسجد المدينة ، ثم قال : أين كان يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أليس فى هذا ؟ ويأتونه أولئك من هنالك .

وقد قال الله سبحانه وتعالى : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً أنفضوا إليها وتركوك قائماً »^(١) فإنما هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال عمر بن الخطاب : لولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سمعته يريد أن يقدم القبلة ، وقال عمر بيده هكذا ، ما قدمتها ، ثم قدمها عمر موضع المتصورة الآن ، انتهى .

قال ابن رشد فى بيانه : ما ذهب إليه مالك مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء ، فاستدلوا بما روى أن الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم خيراً ، الحديث ، قال : ولا دليل فيه ؛ لأن أولئك كانوا فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان معموراً بالمهاجرين والأنصار ومن سواهم ، قال : واستدل مالك بقول عمر المتقدم ظاهر ؛ لأن الله تعالى لما ذكر فيه أنه أسس على التقوى لم يستجز نقض بنائه وتبديل قبلته ، إلا بما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ورآه قد أراد أن يفعله .

(١) من الآية ١١ من سورة الجمعة .

قلت : ما ذكره مالك من كون مسجد المدينة هو المراد هو ظاهر ما قدمناه ، لكن قوله تعالى « من أول يوم » يقضى أنه مسجد قباء ؛ لأنه ليس المراد أول أيام الدنيا ، بل أول أيام حُلُولِهِ صلى الله عليه وسلم بدار الهجرة ، وذلك هو مسجد قباء ، إلا أن يدعى أن النبي صلى الله عليه وسلم شرع في تأسيس مسجد المدينة أيضاً من أول يوم قدومه لها ، أو يقال : المراد من أول يوم تأسيسه ، وسيأتى فى مسجد قباء أشياء صريحة فى أنه المراد ؛ فتعين الجمع بأن كلا منهما يصدق عليه أنه أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه كما هو معلوم ، وأنهما المراد من الآية ، لكن يشكّل عليه كون النبي صلى الله عليه وسلم أجاب عند السؤال عن ذلك بتعيين مسجد المدينة ، وجوابه أن السر فى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أراد به رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء كما هو ظاهر ما فهمه السائل ، وتنويعها بمزية مسجده الشريف لمزيد فضله ، والله أعلم .

وفى الصحيحين حديثُ أبي هريرة « لا تشدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد : فضل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » .
وعند مسلم « إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد : الكعبة ، ومسجدى ، ومسجد إيلياء » .

وعند أبي داود بلفظ « ومسجدى هذا » .
وفى الكبير والأوسط للطبرانى برجال ثقات عن ابن عمر ، وبرجال الصحيح عن أبي الجعد الضمّرى « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » ، وذكر نحو رواية الصحيحين .

وفى صحيح ابن حبان ومسنّد أحمد والأوسط للطبرانى وإسناده حسنٌ من حديث جابر « خير ما رُكِبَتْ إليه الرواحلُ مسجدى هذا والبيت العتيق » .
وهو عند البزار بلفظ « خير ما رُكِبَتْ إليه الرواحل مسجد إبراهيم ومسجد محمد صلى الله عليه وسلم » ورجاله رجال الصحيح إلا عبد الرحمن بن أبي الزناد وقد وثقه غير واحد .

فضل الصلاة
في مسجد
الرسول
صلى الله عليه
وسلم

في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي
هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِي مَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» هذا لفظ
البخاري، زاد مسلم «فَإِنِّي آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنْ مَسْجِدِي آخِرُ الْمَسَاجِدِ» .
قلت: يريد آخر مساجد الأنبياء كما نقله الحب الطبري عن أبي حاتم،
وإلا فهو من أول مساجد هذه الأمة، وإذا كانت الألف واللام هنا للمعهود
— وهو مساجد الأنبياء — فالألف واللام أيضا في قوله «فَمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ»
للعهد، والمراد مساجد الأنبياء؛ فيتحصل من معناه أن الصلاة في مسجده أفضل
من الصلاة في سائر مساجد الأنبياء بألف صلاة إلا المسجد الحرام؛ فيقتضي ذلك
أن تكون الصلاة بمسجده أفضل من ألف صلاة في بيت المقدس؛ لأنه من جملة
مساجد الأنبياء، ولم يُسْتَثْنِ، ويدل على ذلك ما رواه البزار عن أبي سعيد قال:
وَدَّعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ تَرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ بَيْتَ
الْمَقْدِسِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ
صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَأَسْنَدُهُ يَحْيَى بِزِيَادَةِ تَسْمِيَةِ الرَّجُلِ فَقَالَ: عَنْ
الْأَرْقَمِ أَنَّهُ تَجَهَّزَ يَرِيدُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ جِهَازِهِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوَدِّعُهُ، وَقَالَ فِيهِ: فَجَلَسَ الْأَرْقَمُ وَلَمْ يَخْرُجْ، وَأَسْنَدُهُ ابْنُ النُّجَّارِ عَنْ
الْأَرْقَمِ بَلْفَظِهِ: إِنِّي أُرِيدُ الْخُرُوجَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
وَلَمْ؟ قُلْتُ: لِلصَّلَاةِ فِيهِ، قَالَ: هَهُنَا أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ هُنَاكَ أَلْفَ مَرَّةٍ،
وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِرِجَالٍ ثِقَاتٍ عَنِ الْأَرْقَمِ بَلْفَظِهِ: صَلَاةٌ هَهُنَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ
صَلَاةٍ تَمَّ .

وقد روى أبو يعلى برجال ثقات عن ميمونة قالت: يارسول الله أفْتِنَا فِي
بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ: أَرْضُ الْحَشْرِ، وَأَرْضُ الْمَنْشَرِ، اثْنَوْهُ فَصَلُّوا فِيهِ، فَإِنْ صَلَاةٌ
فِيهِ كَأَلْفِ صَلَاةٍ — أَى فِي غَيْرِهِ مِنْ مَسَاجِدِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَمَسَاجِدِ غَيْرِ
الْأَنْبِيَاءِ مَاعِدَا الْمَسْجِدَيْنِ — لِقِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ؛ فَتَكُونُ الصَّلَاةُ بِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ

خيرا من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام والمسجد الأقصى،
فأما المسجد الأقصى فإنها أفضل من ألف صلاة فيه فقط ، ولا يعلم قدر زيادتها
في الفضل على ذلك إلا الله تعالى ، ومثل هذا تضرب آباط الإبل ، وتُستحق
الرحلة ، ولا يعكر على ذلك ما رواه أحمد برجال الصحيح عن أبي هريرة وعائشة
قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدى خير من ألف صلاة
فيما سواه من المساجد إلا المسجد الأقصى » لأن المحفوظ إنما هو استثناء المسجد
الحرام ، وحديث أبي هريرة في الصحيح خلا قوله « إلا المسجد الأقصى » وهو
مُعَارَض بما تقدم ، ولأن الهيثمي أورده في مجمع الزوائد ثم قال : رواه أحمد ،
وأعاده بعد هذا بسنده فقال : إلا المسجد الحرام ، فاتضح بذلك ما قلناه .

وأما المسجد الحرام فاختلف الناس في معنى استثنائه ، فذهب مالك في رواية
أشهب عنه - وقاله ابن نافع صاحبه وجماعة من أصحابه - إلى أن معنى الاستثناء أن
الصلاة في مسجد الرسول أفضل من الصلاة في سائر المساجد بألف صلاة ، إلا المسجد
الحرام فإن الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من الصلاة فيه بدون
الألف ، وذهب بعضهم إلى أن الصلاة في مسجد المدينة أفضل من الصلاة في
مسجد مكة بمائة صلاة ، وحمل على ذلك الاستثناء في الحديث المتقدم ، واحتجوا
برواية سليمان بن عتيق عن ابن الزبير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه « صلاة
في المسجد الحرام خير من مائة صلاة في ما سواه » فيأتي فضيلة مسجد الرسول
عليه بتسمائة ، وعلى غيره بألف ، وتُعَقَّب بأن المحفوظ بالإسناد المتقدم « صلاة في
المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، إلا مسجد الرسول فإنما فضله
عليه بمائة صلاة » .

قلت : وروى الطبراني في الأوسط عن عائشة مرفوعا « صلاة في المسجد
الحرام أفضل من مائة صلاة في غيره » لكن فيه سويد بن عبد العزيز ، قال
(٣ - ٢٠١)

البخارى : في حديثه نظر لا يحتمل ، وقد صح ما يقتضى رد ما ذهب إليه هؤلاء ؛ فقد روى أحمد والبخار وابن خزيمة رجال الصحيح من طريق حبيب المعلم عن عطاء عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في هذا » زاد ابن خزيمة « يعنى في مسجد المدينة » لكن لفظ البزار « صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام فإنه يزيد عليه بمائة » وهى محتملة لأن يكون الضمير فى « فإنه يزيد » لمسجده أو المسجد الحرام ، وقد صحح ابن عبد البر حديث أحمد ، وقال : هو الحجة عند التنازع ، نص فى موضع الخلاف ، قاطع له عند من ألهم رشده ، ولم تمل به العصبية ، قال : ولا مطعن فيه إلا المتعسف لا يعرج على قوله فى حبيب ، وقد كان الإمام أحمد يمدحه ، ويوثقه ، ويثنى عليه ، وكان عبد الرحمن بن مهدي يحدث عنه ، ولم يرو عنه القطان ، وروى عنه أئمة ثقات يقتدى بهم ، ومنهم من أعلاه باختلاف على عطاء ؛ لأن قوما يروونه عنه عن ابن الزبير ، وآخرين يروونه عنه عن ابن عمر ، وآخرين عنه عن جابر ، ومن العلماء من يجعل مثل هذا علة فى الحديث ، وليس كذلك ؛ لأنه يمكن أن يكون عن عطاء عنهم ، والواجب أن لا يدفع خبر نقله العدول إلا بحجة .

قال البزار : هذا الحديث قد روى عن عطاء ، واختلف على عطاء فيه ، ولا نعلم أحداً قال بأنه يزيد على مسجد المدينة مائة إلا ابن الزبير ، وقد تابع حبيب المعلم الربيع بن صبيح ؛ فرواه عن عطاء عن ابن الزبير ، ورواه عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء عن ابن عمر ، ورواه ابن جريج عن عطاء بن أبى سلمة عن أبى هريرة أو عائشة ، ورواه ابن أبى ليلي عن عطاء عن أبى هريرة ، انتهى .

وقال الذهبي فى مختصر سنن البيهقي : إسناده صالح ، ولم يخرج أصحاب السنن .

قلت : هذا أمر آخر ، وهو أن الحديث المذكور لما اختلف لفظه على وجهين أحدهما ليس نصا في الدلالة كما قدمناه احتمل أن تكون الرواية في الواقع به ، ومن رواه بالوجه الآخر رواه بالمعنى بحسب فهمه ، إلا أن وروده من الطرق الأخرى بذلك اللفظ توهن هذا الاحتمال ، وعلى تقدير ثبوته فهو من ابن الزبير ، وهو أعرف بنهم مرويه ؛ لأن عبد الرزاق روى عن ابن جريج قال : أخبرني سليمان بن عتيق وعطاء عن ابن الزبير أنهما سمعا يقول « صلاة في المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيه » ويشير إلى مسجد المدينة ، وقد قال ابن عبد البر : إن رجال إسناد حديث ابن عمر علماء أجلاء ، ورواه ابن وضاح عن ابن الزبير من كلام عمر بن الخطاب بنفسه ، قال ابن حزم : وسنده كالشمس في الصحة ، وروى ابن أبي خيثمة عن أبيه حدثنا مسلم عن الحجاج عن عطاء عن عبد الله بن الزبير قال : الصلاة في المسجد الحرام تفضل على مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بمائة ضعف ، قال : فنظرنا فإذا هي تفضل على سائر المساجد بمائة ألف صلاة ، قال ابن عبد البر وابن حزم : فهذان صحابييان جليلان يقولان بفضل المسجد الحرام على مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يخالف لهما من الصحابة ؛ فصار كالإجماع منهم على ذلك .

وفى ابن ماجة من حديث جابر مرفوعا « صلاة في مسجدى أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه » وفى بعض النسخ « من مائة صلاة فيما سواه » فعلى الأول معناه فيما سواه إلا مسجد المدينة ، وعلى الثانى معناه من مائة صلاة في مسجد المدينة لما تقدم عن جابر .

قلت : وقد روى يحيى حديث الصحيحين المتقدم عن جبير بن مطعم بلفظ « إن صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد غير الكعبة » وفى رواية النسائى وغيره « إلا مسجد الكعبة » ولهذا ذهب بعضهم إلى أن المراد من المسجد الحرام الكعبة ، وبه قال العمرانى من أصحابنا وغيره ،

وروى البزار عن عائشة حديث « أنا خاتم الأنبياء ، ومسجدي خاتم مساجد الأنبياء ، أحق المساجد أن يزار وتُشدَّ إليه الرواحل المسجد الحرام ومسجدي ، وصلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام » وروى ابن ماجه مرفوعاً برجال ثقات إلا أبا الخطاب الدمشقي فهو مجهول « صلاة الرجل في بيته بصلاة ، وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة ، وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمس مائة صلاة ، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة ، وصلاة في مسجدي بخمسين ألف صلاة ، وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » وهو يقتضي أن الصلاة بمسجد المدينة مساوية لمسجد بيت المقدس ، وأنهما معا على النصف من الصلاة بالمسجد الحرام ، وهو مخالف لما في الصحيح ، مع أن مفهوم العدد ليس بحجة ؛ فلا يفي ما ثبت من الزيادة لمسجد المدينة على مسجد بيت المقدس سيما بالطريقة التي قدمناها

وفي الطبراني — وهو حسن ، وفي بعض رجاله كلام — عن أبي الدرداء مرفوعاً « الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، والصلاة في مسجدي بألف صلاة ، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة » ورواه ابن خزيمة في صحيحه بنحوه ، والبزار وحسنه ، وقال المجذبي : أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب ، قال : ولا نعلم حديثاً يشتمل على فضيلة الصلاة بالمساجد الثلاثة خصوصاً^(١) سواه مما يصح عند الاعتبار معناه

قلت : لم أره في الترمذي ، وقد ساقه ابن عبد البر محتجاً به ، وهو غير مانع مما قدمناه من كون الصلاة بمسجد المدينة أفضل من ألف صلاة بمسجد بيت

(١) المساجد الثلاثة : هي الأقصى ، ومسجد المدينة ، والمسجد الحرام ، و« خصوصاً » أراد به بيان فضل الصلاة في كل مسجد منها على انفراده من غير أن يذكر زيادة الصلاة فيه على الصلاة في غيره من المساجد .

المقدس ؛ لأن العدد لا ينفي الزائد ، وكذا حديث الأوسط للطبراني برجال الصحيح عن أبي ذر : تذاكرنا ونحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أيماً أفضل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بيت المقدس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه ، ولنعم المصلّي هو » وقد يقال في ذلك كما قيل في نظائره من احتمال أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أولاً ببعض ذلك بحسب ما أوحى إليه ، ثم أعلم بالزيادة ، ويكون حديث الأقل قبل حديث الأكثر ، ثم تفضل الله بالأكثر شيئاً بعد شيء ، ومحصله ما قررناه من الأخذ بالزائد ، ويحتمل أن ينزل تلك الأعداد على اختلاف الأحوال^(١) ؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى غير نهاية

ونقل الزركشي في أعلام المساجد عن الكبير للطبراني بسند فيه مئة آتٍ عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدي هذا بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة في المسجد الحرام بعشرة أمثالها مائة ألف صلاة ، وصلاة الرجل في بيت المقدس بألف صلاة ، وصلاة الرجل في بيته حيث لا يراه أحد أفضل من ذلك كله »

قلت : وهو ضعيف ، ولم يورده الهيثمي في مجمع^(٢) في فضل الصلاة في المساجد الثلاث هل فضل الصلاة في المساجد الثلاثة يختص بالفرض ؟
وهذه المضاعفة المذكورة في هذه المساجد لا تختص بالفريضة ، بل تعم الفرض والنفل ، كما قال النووي في شرح مسلم إنه المذهب
قال الزركشي : وهو لازم تعليل الأصحاب استثناء النفل بمكة في الأوقات المكروهة بمزيد الفضيلة

وقال الطحاوي من الحنفية : هو مختص بالفرض ، وفعل النوافل بالبيت

(١) اختلاف الأحوال : أي أحوال الناس من احتمال المشقة الشديدة ، والإخلاص

في العمل ، وطهارة الظاهرة والباطن من الدنيا وعلاقتها

(٢) مجمع : هو مجمع الزوائد لابن حجر الهيتمي

أفضل ، وإليه ذهب ابنُ أبي زيد من المالكية ، وهو المرجح عندهم ، وفرق بعضهم بين أن يكون المسجد خاليا أم لا

فإن قيل : كيف تقولون إن المضاعفة تعم الفرض والنفل وقد تطابقت الأصحاب ونص الحديث الصحيح على أن فعل النافلة في بيت الإنسان أفضل ؟

قلنا : لا يلزم من المضاعفة في المسجد أن يكون أفضل من البيت كما قاله الزركشى وغيره ، وغاية الأمر أن يكون في المفضل مزية ليست في الفاضل ، ولا يلزم من ذلك جعله أفضل ؛ فإن للأفضل مزايا إن كان للمفضل مزية ، ولهذا بحث التاج السبكي مع أبيه في صلاة الظهر بمنى يوم النحر إذا جعلنا منى خارجة عن محل المضاعفة: هل يكون أفضل من صلاتها في المسجد لأنه صلى الله عليه وسلم فعلها بمعنى يومئذ أو في المسجد للمضاعفة ؟ فقال والده : بل في منى وإن لم يحصل بها المضاعفة ؛ فإن في الاقتداء بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم ما يرَبُّو على المضاعفة ، على أن الحافظ ابن حَجَر ذكر ما يقتضى إثبات المضاعفة للتنفل في البيوت بالمدينة ومكة ، عملا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم «أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة» فقال : وقد تقدم النقل عن الطحاوى وغيره أن ذلك - يعنى التضعيف - يختص بالفرائض ؛ لحديث «أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة» ويمكن أن يقال : لا مانع من إبقاء الحديث على عمومهِ ؛ فتكون النافلة في بيت بالمدينة أو مكة تضاعف على صلاتها في البيت بغيرهما ، وكذا في المسجدين ، وإن كانت في البيوت أفضل مطلقا

مرجع مضاعفة
فضل الصلاة

ثم إن التضعيف المذكور يرجع إلى الثواب بتلك الأعداد ، لا إلى الإجزاء ، باتفاق العلماء كما نقله النووى وغيره ؛ فلو كانت عليه صلوات فصلى في أحد المسجدين صلاة لم تُجزَّه إلا عن واحدة ، وقد أُوهم كلام أبي بكر النقاش في تفسيره

خلاف ذلك ؛ فإنه قال : حسبت الصلاة في المسجد الحرام فبلغت صلاة واحدة بالمسجد الحرام عمر خمسة وخمسين سنة وستة أشهر وعشرين ليلة ، اهـ . وهذا مع قطع النظر عن التضعيف بالجماعة والسواك ونحوه ، لكن هل تجمع التضعيفات أولا؟ محل بحث

هل يختص
التضعيف
بالصلاة ؟

قلت : وينبغي أن لا يختص هذا التضعيف بالصلاة ، بل سائر أنواع الطاعات كذلك قياسا على ما ثبت في الصلاة ، كما صرحوا به في مسجد مكة المشرفة ، وصرح به فيما يتعلق بالمدينة صاحب الانتصار أبو سليمان داود من المالكية ، ثم رأيت في كلام الغزالي في الإحياء كما قدمناه في فضل الخصاص ، ويشهد له ما في الكبير للطبراني عن بلال بن الحارث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رمضان بالمدينة ^(١) خير من ألف رمضان فيما سواها من البلدان ، وجمعة بالمدينة خير من ألف جمعة فيما سواها من البلدان » ونقل المجد عن أبي الفرج الأموي أنه أخبره بسنده عن ابن عمر

قلت : ورواه ابن الجوزي في شرف المصطفى عن ابن عمر أيضا بلفظ « صيام شهر رمضان بالمدينة كصيام ألف شهر فيما سواها ، وصلاة الجمعة بالمدينة كألف صلاة فيما سواها »

وروى البيهقي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، والجمعة في مسجدى هذا أفضل من ألف جمعة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وشهر رمضان في مسجدى هذا أفضل من ألف شهر رمضان فيما سواه إلا المسجد الحرام » ورواه أيضا عن ابن عمر بنحوه

(١) المراد صيام رمضان كما ورد في الحديث الآخر الذي سيرويه المؤلف بعد هذا بقليل ؛ فالكلام على حذف مضاف ، وكذلك قوله « وجمعة » المراد به « صلاة الجمعة » إلا أن يراد بلفظ الجمعة صلاتها ؛ فإن أريد به ذلك لم يحتج إلى تقدير المضاف .

وهذه الأحاديث وإن كانت ضعيفة فإذا ضمت إلى ما قدمناه من القياس على الصلاة ثم الاستدلال ، وقد قدمنا في حدود مسجده صلى الله عليه وسلم الخلاف المذكور في المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدي هذا » ، وترجيح أن ذلك يتناول ما زيد فيه .

وروى أحمد والطبراني في الأوسط ورجاله ثقات عن أنس بن مالك حديث « من صلى في مسجدي أربعين صلاة » زاد الطبراني « لا تفوته صلاة كتب له براءة من النار ، وبراءة من العذاب ، وبريء من النفاق » . تقدم هذا الحديث بدون زيادة الطبراني ، وهو عند الترمذي بغير هذا اللفظ .

وروى ابن المنذر وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من حين يخرج أحدكم من منزله إلى مسجدي فَرَجُلٌ تَكْتُبُ حَسَنَةً وَرَجُلٌ تَحُطُّ عَنْهُ خَطِيئَةٌ » .

وقال البيهقي بعد ذكر حديث فضل مسجد قباء ما لفظه : ورواه يوسف بن طهمان عن أبي أمامة بن سهل عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وزاد « ومن خرج على طهر لا يريد إلا مسجدي هذا — يريد مسجد المدينة — ليصلي فيه كانت بمنزلة حجة » وقد أسند ذلك ابن زبالة ومن طريقه ابن النجار عن سهل أيضاً ، وفي إسناده ابن طهمان أيضاً ، وهو ضعيف عند البخاري وابن عدي ، وذكره ابن حبان في الثقات ، ولفظ ابن زبالة « مَنْ خَرَجَ عَلَى طَهْرٍ لَا يَرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِي حَتَّى يَصْلِيَ فِيهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ حِجَّةٍ » وأسند هو ويحيى عن سهل بن سعد حديث « مَنْ دَخَلَ مَسْجِدِي هَذَا يَتَعَلَّمُ فِيهِ خَيْرًا أَوْ يَعْلَمُهُ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَنْ دَخَلَ لغير ذلك من أحاديث الناس كان كالذي يرى ما يعجبه وهو لغيره » وفي رواية لهما عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه « مَنْ دَخَلَ مَسْجِدِي هَذَا لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا لِيَعْمَلَ خَيْرًا أَوْ يَتَعْلَمَهُ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْجَاهِدِ

في سبيل الله ، ومن دخله لغير ذلك من أحاديث الناس كان بمنزلة من يرى ما يعجبه وهو في يدى غيره .

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ جاء مسجدي هذا لم يأت به إلا لخير يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله ، ومن جاءه لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره » ورواه الطبراني من حديث سعد مرفوعاً بمعناه ، إلا أنه قال « من دخل مسجدي ليتعلم خيراً أو يعلمه » ورواه ابن حبان في صحيحه بلفظ الطبراني لكن من حديث أبي هريرة .

وأسند ابن زبالة عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دخل مسجدي هذا لصلاة أو لذكر الله أو يتعلم خيراً أو يعلمه كان بمنزلة المجاهد في سبيل الله » ولم يجعل ذلك لمسجد غيره ، وعند يحيى أيضاً عن كعب أنه قال « ما من مؤمن يغدو أو يروح إلى المسجد لا يغدو أو لا يروح إلا ليتعلم خيراً أو يعلمه أو يذكر الله أو يذكر به إلا كان مثله في كتاب الله كمثل الجهاد في سبيل الله ، وما من رجل يغدو أو يروح إلى المسجد لا يغدو ولا يروح إلا لأخبار الناس وأحاديثهم إلا كان مثله في كتاب الله كمثل الرجل يرى الشيء يعجبه ويرى المصلين وليس منهم ، ويرى الذاكرين وليس منهم » ، وعنده أيضاً عن أبي سعيد المقبري عن الثقة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا إخال إلا أن لسكل رجل منكم مسجداً في بيته » قالوا : نعم يا رسول الله ، قال « فوالله لو صليتم في بيوتكم لتركتم مسجد نبيكم ، ولو تركتم مسجد نبيكم لتركتم سننه ، ولو تركتم سننه إذا لصلاتم » .

وفي الصحيح من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في غزوة خيبر « مَنْ أكل من هذه الشجرة — يعني الثوم — فلا يقربن مسجدنا » .

قال الكرماني : قال التيمي : قال بعضهم : النهي إنما هو عن مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، من أجل ملائكة الوحي ، والأكثر على أنه عام ، انتهى . وقد حكى ابن بطال القول بالاختصاص عن بعض أهل العلم ووهاه^(١) ، والله أعلم .

الفصل السادس

في فضل المنبر المنيف ، والروضة الشريفة

روينا في الصحيحين حديث عبد الله بن زيد المازني رضى الله عنه « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » زاد البخاري من حديث أبي هريرة ، « ومنبري على حوضي »

وروى أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه على بن زيد وقد وثق عن جابر بن عبد الله مرفوعا « ما بين بيتي إلى منبري روضة من رياض الجنة ، وإن منبري على ترعة من ترع الجنة » .

وروى أحمد برجال الصحيح عن سهل بن سعد مرفوعا « منبري على ترعة من ترع الجنة » وفيه تفسير التربة بالباب ، وقيل : التربة الروضة تكون على المكان المرتفع خاصة ، وقيل : الدرجة .

ورواه يحيى عن أبي هريرة وغيره بلفظ « على رتعة من رتع الجنة » وكذا هو في رواية لرزين ، وظنه بعضهم تصحيحا فكتب في هامشه « صوابه ترعة » وليس كذلك ، بل معناه صحيح ؛ إذ الرتع الاتساع في الخصب ، والرتعة - بسكون التاء وفتحها - الاتساع في الخصب ، وكل مخصب مرتع .

وفي الحديث : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » ، وروى البزار عن معاذ ابن الحارث نحوه .

(١) وهاء : جعله واهياً أى ضعيفاً .

وفي الكبير للطبراني من طريق يحيى الحماني وهو ضعيف عن أبي واقد الليثي مرفوعاً « قوائم منبري رَوَاتِبُ في الجنة » ورواه ابن عساكر وابن النجار ويحيى عن أم سامة ، وقال المجد: أخرجه عنها النسائي ، وفي رواية لابن عساكر « وضعت منبري هذا على تُرْعَةٍ من تُرْعِ الجنة » .

وأسند يحيى عن أبي المعلى الأنصاري وكانت له صحبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر « إن قدمي على ترعة من ترع الجنة » . وعن أبي سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على منبره « أنا قائم الساعة على عقر حوضي ^(١) » وفي رواية له « إني على الحوض الآن » .

وأسند ابن زبالة عن نافع بن جبير عن أبيه حديث « أَحَدُ شِقَى المنبرِ على عقر الحوض ، فمن حلف عنده على يمين فاجرة يقطع بها حق امرئ مسلم فليتبوأ مقعده من النار » قال : وعقر الحوض من حيث يصب الماء في الحوض .

وفي سنن أبي داود من حديث جابر مرفوعاً « لا يحلف أحد عند منبري هذا على يمين آثمة ولو على سواك أخضر إلا تَبَوَّأَ مقعده من النار ، أو وجبت له النار » ، ورواه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححوه .

وروى النسائي برجال ثقات عن أبي أمامة بن ثعلبة مرفوعاً « مَنْ حَلَفَ عند منبري هذا يميناً كاذبة استحلَّ بها مال امرئ مسلم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عدلاً » .

وفي الأوسط للطبراني وفيه ابن لهيعة عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً « منبري على تُرْعَةٍ من تُرْعِ الجنة ، وما بين المنبر وبين بيت عائشة روضة من رياض الجنة » . وفي الصحيحين حديث ابن عمر « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » .

(١) عقر الحوض : المكان الذي منه يصب الماء في الحوض ، وسيفسره بذلك

المؤلف في الحديث التالي ، وسيفسر عقر الحوض بمؤخره في ص ٤٢٩ .

وروى أحمد برجال الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد حديث « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على حوضي » .

وروى البزار برجال ثقات عن سعد بن أبي وقاص حديث « ما بين بيتي ومنبري ، أو قبرى ومنبري ، روضة من رياض الجنة » وفي الأوسط للطبراني وفيه متروك عن أنس بن مالك حديث « ما بين حُجْرَتِي ومُصَلَّائِي روضة من رياض الجنة » وفي رواية لابن زبالة من طريق عائشة بنت سعد عن أبيها « ما بين منبري والمصلي » وفي رواية « ما بين مسجدى إلى المصلي روضة من رياض الجنة » ورواه أبو طاهر بن الخللص في انتقائه ويحيى في أخبار المدينة بلفظ « ما بين بيتي ومُصَلَّائِي روضة من رياض الجنة » قال جماعة : المراد به مصلى العيد ، وقال آخرون : مُصَلَّاهُ الذى يصلى فيه فى المسجد ، كذا قاله الخطابى .

قلت : ويؤيد الأول أن فى النسخة التى رواها طاهر بن يحيى عن أبيه يحيى عقب الحديث المذكور ما لفظه : قال أبى : سمعت غير واحد يقولون : إن سعدا لما سمع هذا الحديث من النبى صلى الله عليه وسلم بنى داره فيما بين المسجد والمصلى ، وكذا ما سيأتى فى مصلى العيد من رواية ابن شبة عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص .

قلت : وهو شاهد لما سيأتى من عموم الروضة لجميع مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما زيد فيه من جهة المغرب .

وروى عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند برجال الصحيح إلا أن فيهم فليحاً — وقد روى له الجماعة، وقال الحاكم : اتفاقُ الشيخين عليه يقوى أمره، وقال الساجى : ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال الدارقطنى : فليح يختلفون فيه ، وقال بعضهم : إلفه كثير الخطأ — عن عبد الله بن زيد المازنى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بين هذه البيوت — يعنى بيوتهُ — إلى منبري روضة من رياض الجنة ، والمنبر على تُرْعَةٍ من تُرْعِ الجنة » .

معنى كون المنبر
على الحوض

وقد اختلف في معنى ذلك؛ فقال الخطابي: معنى قوله «ومنبرى على حوضى» أن قصد منبره والحضور عنده للملازمة الأعمال الصالحة يورد الحوض ويوجب الشرب منه، وهذا قول الباقي، والثانى: أن منبره الذى كان يقوم عليه صلى الله عليه وسلم يُعيدُه الله كما يعيدُ سائرَ الخلائقِ، ويكون على حوضه فى ذلك اليوم، واعتمد ذلك ابن النجار، وحكى ابن عساكر القولَ بأن المراد منبره بعينه الذى كان فى الدنيا، ثم قال: وهو أظهر، وعليه أكثر الناس، فتبع شيخه ابن النجار فى ذلك، والثالث أن المراد منبر يخلقه الله تعالى له فى ذلك اليوم، ويجعله على حوضه.

قلت: ويظهر لى معنى رابع، وهو أن البقعة التى عليها المنبر تعاد بعينها فى الجنة، ويعاد منبره ذلك على هيئة تناسب ما فى الجنة؛ فيجعل المنبر عليها عند عُقْرِ الحوض، وهو مؤخره، وعن ذلك عبر بترعة من ترع الجنة، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأتمته للترغيب فى العمل فى هذا المحل الشريف ليفضى بصاحبه إلى ذلك، وهذا فى الحقيقة جمع بين القولين الأولين، وسيأتى فى الزيارة ما ذكره ابن عساكر من أن الزائر يأتى المنبر الشريف، ويقف عنده، ويدعو

معنى أن
الروضة من
رياض الجنة

واختلفوا أيضاً فى معنى ما جاء فى الروضة الشريفة، قال الحافظ ابن حجر: محصل ما أول به العلماء ذلك أن تلك البقعة كروضة من رياض الجنة فى نزول الرحمة وحصول السعادة بما يحصل فيها من مُلازمة حِلَقِ الذكر، لا سيما فى عهده صلى الله عليه وسلم؛ فيكون مجازاً، أو المعنى أن العبادة فيها تُؤدَّى إلى الجنة، فيكون مجازاً أيضاً، أو هو على ظاهره، وأن المراد أنها روضة حقيقة بأن ينقل ذلك الموضع إلى الجنة؛ ثم قال: وهذه الأقوال على ترتيبها هذا فى القوة، وهو محتمل لتقوية الأول أو الأخير، والأخير أقواها عندى، وهو الذى ذهب إليه ابن النجار، ونقله البرهان ابنُ فرحون فى منسكه عن ابن الجوزى وغيره عن مالك، فقال: وقوله «ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة» حمله مالك رحمه الله على ظاهره، فنقل عنه ابن الجوزى وغيره أنها روضة من رياض الجنة تنقل إلى الجنة، وأنها ليست

كسائر الأرض تذهبُ وتَفْنَى ، ووافقه على ذلك جماعة من العلماء ، انتهى ونقله الخطيبُ ابن حملة عن الداروردي ، وصححه ابن الحاج في مدخله ؛ لان العلماء فهموا من ذلك مزية عظيمة لهذا المحل

ثم رأيت في كلام الحافظ ابن حجر ترجيحَه في موضع آخر ، فقال في الكلام على الحوض : والمرادُ بتسمية ذلك الموضع روضة أن تلك البقعة تنقل إلى الجنة فتكون روضة من رياضها ، أو أنها على المجاز لتكون العبادة فيه تؤوّلُ إلى دخول العابد روضة الجنة ، ثم قال : وهذا فيه نظر ؛ إذ لا اختصاص لذلك بتلك البقعة ، والخبر مسوق لآز يد شرف تلك البقعة على غيرها ، انتهى قلت : وأحسنُ من ذلك ما ذهب إليه ابن أبي بَجْرَةَ من الجمع بين هذا وما قبله ، ومنه استنبطنا ما قدمناه في أمر المنبر ؛ فإنه لم يُعوّل على ذكر المعنى الأول وقال بعد ذكر المعنيين الأخيرين : الأظهر - والله أعلم - الجمعُ بين الوجهين ؛ لأن لكل منهما دليلاً يُعَضِّدُه ^(١) ، أما الدليلُ على أن العمل فيها يوجب الجنة فلما جاء في فضل مسجدِها من المضاعفة ، وهذه البقعة زيادة على باقي بقعِهِ ، وأما الدليل على كونها بعينها في الجنة فلا يخبره صلى الله عليه وسلم بأن المنبر على الحوض ، لم يختلف أحد من العلماء أنه على ظاهره ؛ وأنه حق محسوس موجود على حوضه .

قلت : وفيه نظر ؛ لما قدمناه

قال : وقد تقرر في قواعد الشرع أن البُقْع المباركة ما فائدة بركتها لنا والإخبار بذلك إلا تهميرها بالطاعات ؛ قال : ويحتمل وجهاً ثالثاً ؛ وهو أن تلك البقعة نفسها روضة من رياض الجنة كما أن الحجر الأسود من الجنة ؛ فيكون الموضع المذكور روضة من رياض الجنة الآن ؛ ويعود روضة في الجنة كما كان ؛ ويكون للعامل بالعمل فيه روضة في الجنة ؛ قال : وهو الأظهر ؛ لعلو مكانته عليه السلام ؛ وليكون بينه

(١) يعضده : يقويه ويؤيده .

وبين الأبوة الإبراهيمية في هذا شبهه ، وهو أنه لما خص الخليل بالحجر من الجنة خص الحبيب بالروضة منها .

قلت : وهو من النقاسة بمكان ، وفيه حمل اللفظ على ظاهره ؛ إذ لا مقتضى لصرفه عنه ، ولا يقدح في ذلك كونها تُشاهد على نسبة رياض الدنيا فإنه مادام الإنسان في هذا العالم لا ينكشف له حقائق ذلك العالم لوجود الحجب الكثيفة والله أعلم .

وتخصيص ما أحاطت به البَيِّنَةُ المذكورة بذلك إما تعبد وإما لكثرة تردده صلى الله عليه وسلم بين بيته ومنبره وقرب ذلك من قبره الشريف الذي هو الروضة العظمى كما أشار إليه ابن أبي جَمْرَةَ أيضا .

وقال الجلال محمد الراساني الريمي : اتفقوا على أن هذا اللفظ معقول المعنى ، مفهوم الحكمة ، وإنما اختلفوا في ذلك المعنى ماهو ، ف قيل : اللفظ على حقيقته ، وإن ذلك روضة من رياض الجنة بمعنى أنه بعينه نُقِلَ من الجنة ، أو أنه سينقل إليها ، وقيل : مجاز معناه أن العبادة فيه تُؤَدِّي إلى الجنة ، أو لا ينزل فيه من الرحمة وحصول المغفرة ، كما سمي مجالس الذكر رياض الجنة في حديث « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا »^(١) وفي رواية لأبي هريرة « قلت : ما رياض الجنة ؟ قال : المساجد ، قلت : وما الرتع ؟ قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر » .

وقال ابن عبد البر : لما كان صلى الله عليه وسلم يجلس في ذلك الموضع ويجلس الناس إليه لتعلم شَبَّه بالروضة ؛ لكريم ما يجتنى فيه ، وأضافها إلى الجنة لأنها تؤول إلى الجنة ، كقوله « الجنة تحت ظلال السيوف » أى أنه عمل يُدْخِلُ الجنة .

وقال الخطابي : روضة بن رياض الجنة بالطاعة فيه ، كقوله « عائد المريض

(١) قال ابن الأثير (النهاية : ٦٤/٢) « ومنه الحديث إذا مررتم برياض الجنة

فارتعوا ، أراد برياض الجنة ذكر الله ، وشبه الخوض فيه بالرتع في الحصب » اهـ .

في مَحْرَفَةِ الجَنَّةِ^(١) « أى يرجى له بذلك مخرفة الجنة؛ فأطلق اسم المسبب على سببه كقوله « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

هذا ما نقله الخطيب ابن حملة من المعاني ، ثم تعقب الأخير بأنه لا يبقى حينئذ لهذه الروضة مزية ، وقد فهم الناس من ذلك المزية العظيمة التي بسببها فضلها مالك على سائر البقاع

وقد تعقب الجلال الريمى الخطيب في ذلك ، وقال : أظهر المعاني تضعيف أجر الطاعات ، وتعليم الناس وجوه الخير ؛ لاتفاق الخطابي وابن عبد البر عليه ، وهما عمدة الأمة في فقه الحديث ، ولأن النظائر تؤيده ، وأما المعنويان الآخران فلم يعزُّهما الخطيبُ إلى أحد ، فدلَّ على ضعفهما ، ولم يذكر عياضُ القول بأن هذا الموضع بعينه نقل من الجنة ، وذكر ما عداه ، فدل على شذوذه ؛ لأن مثل هذا طريقه التوقيفُ كما جاء في الركن والمقام ، على أن القول به يؤدي إلى إنكار المحسوسات أو الضروريات ، وجواب ما ذكره الخطيب أن المزية ظاهرة ، وهو أن العمل في النظائر المتقدمة يؤدي إلى رياض الجنة ، والعمل في هذا الحل يؤدي إلى روضة أعلى من تلك الرياض .

قلت : إنما حملته على هذا ذهابه إلى أن اسم الروضة يعم جميع مسجده صلى الله عليه وسلم ، وأنه إذا ثبت لما زيد فيه حكمُ المضاعفة تعدى ذلك إليه ، فاختر كون التسمية بذلك مجازية ، ووضع في ذلك كتاباً سماه « دلالات المسترشد » ، على أن الروضة هي المسجد » وقد صنف الشيخ صفى الدين الكازرونى المدنى مصنفاً في الرد عليه ، وقد تلخصتهما مع سلوك طريق الإنصاف بينهما في كتابي الموسوم « بدفع التعرض والإنكار ، لبسط روضة المختار » وسنذكر الصواب في ذلك ، واستدلَّ له على ضعف القول بأن ذلك الموضع بعينه نقل من الجنة بأن عياضاً لم يذكره عجيب^١ لاحتمال أنه لم يطلع عليه ، وقوله « إن ذلك طريقه التوقيف

(١) في النهاية « عائد المريض على مخارف الجنة حتى يرجع » والمخارف : جمع مخرف أو مخرفة - بفتح الراء فهما - وهو الحائط من النخل : أى أن العائد فيما يحوز من الثواب كأنه على نخل الجنة يخترق ثمارها ، وقيل : المخارف جمع مخرفة ، وهى سكة بين صفيين من نخل يجتفى من أيهما شاء .

كما جاء في الركن « فنقول : أى توقيف أعظم من إخبار الصادق المصدوق بذلك ؟ وهو الخبر بأمر الركن والمقام ، والأصل في الإطلاق الحقيقة ، فكيف سلمه في الركن والمقام ولم يسلمه هنا ؟ والذي فهمه العلماء من الحديث أن هذا الموضع روضة ، سواء كان به ذا كرون ومصلون أم لم يكن ، بخلاف حلق الذكر مثلاً ، فإن ذلك يزول عنها بقيامهم ، فالروضة ما هم فيه بخلاف هذه ، ولهذا فسر الرثع هناك بالذكر ، والمراد في حديث « الجنة تحت أقدام الأمهات » أن لزوم خدمتهن تؤدي إليها ، وقوله « إن القول بذلك يؤدي إلى ما ذكره » عجيب ، وقد قدمنا السبب المانع من شهود ذلك على حقيقته ، وأى حسن أحسن من القول بأن ذلك روضة من الجنة أكرم الله به نبيه ؟ ويؤيده أحاديث المنبر المتقدمة وماسياتي في أحدي وعير ؛ إذ لم يقل أحد إن المراد أن المتعبد عند أحد يقضى به ذلك إلى الجنة ، والمتعبد عند عير يقضى به ذلك إلى النار ، وأما قوله في بيان المزية « إن العمل في ذلك الحبل يؤدي إلى روضة أعلى » فليس في الحديث وصفه بأنه أعلى الرياض ، بل أطلق ذلك ، فإذا ثبت ذلك لغيره فلا خصوصية ، بل قد يقول الذهاب إلى تفضيل مكة : إن العمل فيها يؤدي إلى روضة أعلى وأفضل ، ولظهور مزية تلك البقعة على غيرها بذلك استدل به بعض الأئمة على تفضيل المدينة على مكة بإضافة حديث « لقاب قورس ^(١) أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها » وتعقبه ابن حزم بأن جعلها من الجنة إنما هو على سبيل المجاز ، إذ لو كانت حقيقة لكانت كما وصف الله الجنة « إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى » قال : وإنما المراد أن الصلاة فيها تؤدي إلى الجنة كما يقال في اليوم الطيب : هذا يوم من أيام الجنة .

قلت : لا يلزم من ثبوت عدم الجوع والعري لمن حل في الجنة ثبوته لمن حل

(١) قاب القورس : مقداره ، وفي القرآن الكريم : (ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى)

في شيء أخرج منها ؛ إذ يلزمه أن ينفي بذلك عن حجر المقام كونه من الجنة حقيقة ، ولا قائل به ، ومسألة عموم الروضة لجميع مسجده صلى الله عليه وسلم ذات خلاف ؛ فقد قال الأقشهري : سئل أبو جعفر بن نصر الداودي المالكي عن قوله « ما بين بيتي ومنبري روضة » فقال : هو روضة كله ، ونقل الرمي عن الخطيب ابن حنبل أنه قال : قوله « ما بين بيتي » مفرد مضاف قد يفيد العموم في بيوته ، ثم ذكر بيان مكان بيوته ، ثم قال : ولهذا قال السمعاني في أماليه : لما فضل الله مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرفه وبارك في العمل فيه وضعفه سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم روضة من رياض الجنة ، فتراه جعل المسجد كله روضة ، والمشهور أن المراد بيت خاص ، وهو بيت عائشة رضي الله عنها ؛ للرواية الأخرى « ما بين قبري ومنبري » قال ابن خزيمة : أراد بقوله ما بين بيتي الذي أقبر فيه ؛ إذ النبي صلى الله عليه وسلم قبر في بيته الذي كانت تسكنه عائشة ، قال الخطيب : فعلى هذا تسامت روضة - يعني الروضة - حائط الحجرة من القبلة والشمال من جهة الحجرة ، ولا تزال تقصر إلى جهة المنبر ، أو توجد المسامطة مستوية فلينظر ، هذا كله كلام الخطيب .

قلت : فتلخص من ذلك ثلاثة آراء : الأول : أنها المسجد الموجود في زمنه صلى الله عليه وسلم ، الثاني : أنها ماسامت^(١) المنبر والحجرة فقط ، فتتسع من جهة الحجرة وتضييق من جهة المنبر لما تقدم في مقداره ، وتكون منحرفة الأضلاع لتقدم المنبر في جهة القبلة وتأخر الحجرة في جهة الشام ، فتكون كشكل مثلث ينطبق ضلعا على قدر المنبر ، الثالث : أنها ماسامت^(١) كلا من طرفي الحدين ، فتشمل ماسامت المنبر من مقدم المسجد في جهة القبلة وإن لم يسامت^(١) الحجرة ، ويشمل ماسامت الحجرة من جهة الشمال وإن لم يسامت^(١) المنبر ، فتكون مربعة ، وهي الأروقة الثلاثة : رواق المصلى الشريف ، والرواقان بعده ، وذلك هو مسقف مقدم المسجد في زمنه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قد تحرر لنا في هذه العمارة التي أدركنها

(١) سامت الشيء الشيء : قابله ووازاه

أن صف أسطوان الوُفود - وهي التي كانت إلى رحبة المسجد كما سيأتى - واقعٌ خلف الحجرة سواء، حتى إن الأسطوانة التي تلى مر بعة القبر في صفها الداخلة في الزور بعضها داخل في جدار الحجرة الشامى كما سيأتى بيانه .

وأما أدلة هذه الأقوال فقد استدل الرىمى للأول بأشياء غايتها ضعيفٌ مبناه على أن إطلاق الروضة من قبيل الجاز لما في ذلك من المضاعفة ونحوه، وأحسنها ما أشار إليه الخطيبُ ابن حملة وأيده الرىمى بأشياء ، فقال : قوله « بيتى » من قوله « ما بين بيتى » مفرد مضاف ، فيفيد العمومَ في سائر بيوته صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت بيوته مَطيَّفةً بالمسجد من القبلة والمشرق - وفيه بيت عائشة - والشام كما سيأتى عن ابن النجار وغيره ، ولم يكن منها في جهة المغرب شيء ، فعرف الحد من تلك الجهة بالمنبر الشريف ، فإنه كان في آخر جهة المغرب بينه وبين الجدار يسير ؛ لأن آخره من تلك الجهة الأسطوانة التي تلى المنبر ، والمنبر على ترعة من ترع الجنة ، فقد حدد الروضة بحدود المسجد كلها .

قلت : وهو مُفَرَّع على ما ذكره ابن النجار في تحديد المسجد من جهة المغرب ، وقد مشيت عليه في تواليه قبل أن أفق على ما قدمته في حد المسجد ، وقد مشى على ذلك الزين المراغى فقال : ينبغي اعتقاد كون الروضة لا تختص بما هو معروف الآن ، بل تتسع إلى حد بيوته صلى الله عليه وسلم من ناحية الشام ، وهو آخر المسجد في زمنه صلى الله عليه وسلم ؛ فيكون كله روضة ، وهذا إذا فرعنا على أن المفرد المضاف ^(١) للعموم ، وقد رجحه في كتب الأصول جماعة ، ثم ذكر ما تقدم .

قلت : وفاتهم الجميع الاستدلال بحديث زوائد مسند أحمد المتقدم بلفظ « ما بين هذه البيوت » يعنى بيوته « إلى منبرى روضة من رياض الجنة » والعجبُ أن المعتنين بأمر الروضة لم يذكروه ، مع أن فيه غنية عن التمسك بكون

(١) هو قوله في الحديث « بيتى » والمراد بعمومه أنه يشمل كل بيوته صلى الله عليه وسلم ، ولهذا كانت رواية « ما بين هذه البيوت إلخ » يغنى عن الرجوع إلى هذه القاعدة

المفرد المضاف يفيد العموم ، فقد ناقش الصنفى الكازرونى فى ذلك بأشياء : منها أن رواية « ما بين قبرى ومنبرى » بينت المراد من البيت المضاف . قلت : ليته قال رواية « ما بين المنبر وبيت عائشة » لأنه يلزم عليه أن يكون الروضة بعرض القبر فقط ، والتخصيصُ بذلك بعيد ، ومن قال « إن المراد من البيت القبر » ليس مراده والله أعلم إلا أن رواية القبر لعدم إبهامها تعين البيت ، ولعله مراد الصنفى ، ولهذا قال الطبرى : وإذا كان قبره صلى الله عليه وسلم فى بيته اتفقت معانى الروايات ، ولم يكن بينها خلاف ، انتهى ، ولك أن تقول : رواية « قبرى » ورواية « حجرة عائشة » من قبيل أفراد فرد من العام ، وذكره بحكم العام ، وهو لا يقتضى التخصيص على الأصح ، بل يقتضى الاهتمام بشأن ذلك الفرد ، على أن القرطبى قال : الرواية الصحيحة « بيتى » ويروى « قبرى » وكأنه بالمعنى ، والله أعلم . ومنها : أن القرافى حمل إطلاق عموم أسم الجنس على ما يقع منه على القليل والكثير كالماء والمال ، بخلاف ما لا يصدق إلا على الواحد كالعبد والبيت والزوجة فلا يعم ، ولهذا قال عبدى حر أو امرأتى طالق لا يعم سائر عبيده ونسائه ، قال : ولم أره منقولاً . قلت : قال التاج السبكي : خالف بعض الأئمة فى تعميم اسم الجنس المعرف والمضاف ^(١) ، والصحيح خلافه ، وفصل قوم بين أن يصدق على القليل والكثير فيعم ، أو [لا] ^(٢) فلا ، واختاره ابن دقيق العيد ، انتهى .

فقد جعل ما بحثه القرافى وجهاً ثالثاً مفصلاً ، وذلك يأتى حمل إطلاق المطلقين عليه ، فما بحثه منقول ، لكن الصحيح خلافه ، وما استدل به من عدم عموم عبدى حر وامراتى طالق جوابه من أوجه ذكرناها فى دفع التعرض ، وأحسنها ما أشار إليه الأسنوى من أن عدم العموم فى ذلك لكونه من باب الأيمان ، والأيمان يسلك فيها مسلك العرف ، انتهى . ونقل الأزرقى فى نفائسه عن ابن

(١) فى جميع المطبوعات « المعروف » تطبيع ، والمراد باسم الجنس المعرف المقترب بالألف واللام مثل : الماء ، والحل ، والزيت

(٢) كلمة « لا » هذه ساقطة من الأصول كلها ، ولا يتم الكلام بدونها .

عبد السلام أنه قال : الذى تبين لى طَلَّاقُ الجميع وعتق الجميع ، وفى كتب الحنابلة نص أحمد على أنه لو قال مَنْ له زوجتان أو عبيدٌ «زوجتى طالق ، أو عبدى حر» ولم ينو^(١) مُعَيَّنًا ، وقع الطلاق والعتق على الجميع ، تمسكا بالقاعدة المذكورة ، فقد جرى ابن عبد السلام والحنابلة على مقتضى ذلك ؛ فهذه الطرق من أحسن الأدلة ، ولكن على شمول الروضة لما بين المنبر والبيوت الشريفة فهو رأى آخر ، وقد قدمنا من الحديث ما يصرح به ، ويؤيده ما أشار إليه الرى من أن المقتضى لكون ذلك روضة كثرة تردده صلى الله عليه وسلم فيه ، وكان يصلى قبل تحويل القبلة فى طرفه الذى يلى الشام ، ومتهجَّده كما سيأتى فى جهة المشرق إلى الشام أيضاً ، ومنبره الشريف فى نهاية هذا الموضع المحدود من جهة المغرب ، ومصلاه الشريف بمقدمه وبه الأساطين الآتية ذوات الفضل .

وأما الرأى الثانى فدليله التمسكُ بظاهر لفظ البينية الحقيقية ، وحمل البيت على حجرة عائشة رضى الله عنها ، ويضعفه أن مقدم المصلى الشريف يلزم خروجه عن اسم الروضة حينئذ ؛ لخروجه عن موازاة طرفى المنبر والحجرة ، مع أن الظاهر أن معظم السبب فى كون ذلك روضة تشرفه بجهته الشريفة ، على أنى لم أر هذا القول لأحد ، وإنما أخذته من تردد الخطيب ابن حملة المتقدم .

وأما الرأى الثالث فهو ظاهر ما عليه غالب العلماء وعامة الناس ، وجَّهه حمل البيت على ما فى الرواية الأخرى من ذكر حجرة عائشة ، وجعل ما تقدم فى أممها خروج متدم المصلى الشريف دليلاً على أن المراد من البينية ما حاذى واحداً من الطرفين ، وأن المراد مقدم المسجد المنتهى من جهة مؤخر الحجرة الشريفة لصف أسطوان الوفود كما قدمناه ، وفى كلام الأقسهرى إشارة له ، وهذا إنما علمناه فى العمارة التى سنذكرها ، ولم يكن معلوماً قبل ذلك ، ولهذا قال المجد فى الباب الأول فى فصل الزيارة من كتابه ما لفظه : ثم يأتى - يعنى الزائر - إلى الروضة المقدسة ،

(١) يريد لم ينو زوجة معينة من الزوجتين أو الزوجات ، ولا عبداً معيناً من العبدین أو العبيد

وهى ما بين القبر والمنبر طولا ، ولم أرَ مَنْ تعرض له عرضاً^(١) ، والذي عليه غلبة الظنون أنه من المحراب إلى الأسطوانة التى تُجَاهَهُ ، وأنا لا أوافق على ذلك ، وقد بينته فى موضعه من هذا الكتاب ، وذكرت أن الظاهر من لفظ الحديث يقتضى أن يكون أكثر من ذلك ؛ لأن بيت النبى صلى الله عليه وسلم بجميع مرافق الدار كان أكثر من هذا المقدار ، انتهى .

ولم يذكر فى الموضع الذى أحال عليه شيئاً ، وقوله « من المحراب إلى الأسطوانة التى تجاهه » كأنه يريد به الأسطوان الخلق وما حاذها ؛ فتكون الروضة على ذلك التقدير الرواق الأول منها فقط ، وهو غلط ؛ لأن الحجرة الشريفة متأخرة عن ذلك الجهة الشام ؛ وصَفَّ الأسطوان المذكور مُحَاذٍ لطرف جدارها القبلى . وقال ابن جماعة : قد تحرر لى طول الروضة ، ولم يتحرر لى عرضها ، يريد أن طولها من المنبر إلى الحجرة ، وهو كما قال ابن زبالة ثلاثة وخمسون ذراعاً وشبراً ، وقال فى موضع آخر : أربعة وخمسون ذراعاً وسدس .

قلت : وما ذكره أولاً أقرب إلى الصواب كما اختبرناه ، فإى ذَرَعَتْ بجبل من صفحة المنبر القبلى إلى طرف صفحة الحجرة القبلى فكان ثلاثة وخمسين ذراعاً .

وذكر ابن جماعة ذراعاً أقل من هذا ، وكأنه ذَرَعَ على الاستقامة ، ولم يعتبر الذَّرْعَ من الطرفين المذكورين ، فقال : وذرعت ما بين الجدار الذى حول الحجرة الشريفة وبين المنبر فكان أربعاً وثلاثين ذراعاً وقيراطاً بذراع العمل . قلت : وذلك نحو اثنين وخمسين ذراعاً بذراع اليد الذى قدمنا تحريره ، وأما قول من قال « إن طول الروضة اليوم ينقص عن خمسين ذراعاً بثلاثى ذراع » فلا وجه له إلا أن يكون اعتبر بذراع اليد المفرط الطول ، والله أعلم .

وأما نهاية الحجرة فلم تكن معلومة لابن جماعة وغيره ، وعليها يتوقف بيان

(١) يريد أنه لم يقف فى كلام أحد على بيان مقدار عرضه ومبدئه ومنتهاه .

العرض ، ولهذا قال الريمي : لا ندرى الحجرة في وسط البناء المحيط بها أم لا ؟ ولا ندرى إلى أين ينتهي امتدادها ؟ وغالب الناس يعتقدون أنها في محاذة أسطوان على رضى الله عنه ، ولهذا جعلوا الدرابزين الذى بين الأساطين ينتهى إلى صفها ، واتخذوا الفرش لذلك فقط ، والصواب ما قدمناه ؛ فقد انجلى الأمر والله الحمد .

الفصل السابع

في الأساطين المنيفة

منها الأسطوان الذى هو علم على المصلّى الشريف ، ويعرف بالخلق ، وقد قدمنا قول ابن زبالة « الخلق نحو من ثلثيها » وقول ابن القاسم « إن المصلّى الشريف حيث الأسطوان الخلق » وبيننا أن المراد أنها أقرب أسطوان إليه ، وأن الجذع الذى كان يخطب إليه صلى الله عليه وسلم لم ويتكى عليه كان هناك ، وأن الأسطوان الموجود اليوم متقدم على الحل الأول ، وأن الحل الأصلى هو موضع كرسى الشمعة التى عن يمين الإمام الواقف فى المصلّى الشريف ، فمن أراد التبرك بذلك فليصل هناك .

وروى ابن زبالة عن يزيد بن عبيد أنه كان يأتى مع سلمة بن الأكوع إلى سبحة الضحى ، فيعمد إلى الأسطوان دون المصحف فيصلّى قريباً منهما ، فأقول : ألا تصلّى ههنا ؟ وأشير له إلى بعض نواحي المسجد ، فيقول : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرّى هذا المقام ، وهذا الحديث فى الصحيحين ، ولفظ البخارى « كنت آتى مع سلمة بن الأكوع ، فيصلّى عند الأسطوان التى عند المصحف ، فقلت : يا أبا سلمة أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة ، قال : فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى الصلاة عندها » ولفظ مسلم عن سلمة أنه كان يتحرّى موضع المصحف يسبح^(١) فيه ، وذكر أن النبى صلى الله عليه

(١) يسبح : يصلّى ، والسبحة ؛ بالضم : صلاة النافلة ، والمراد هنا سبحة الضحى ، كما ورد فى رواية ابن زبالة ، وقال ابن الأثير « وقد تكرّر ذكر السبحة فى الحديث كثيراً ، فمنها الحديث : اجعلوا صلاتكم معهم سبحة ، أى نافلة » اهـ

وسلم كان يتحرى ذلك ، وقد قدمنا في الكلام على المصلى الشريف ما يبين أن المراد هذه الأسطوانة .

أسطوان
القرعة

ومنها أسطوان القرعة ، وتعرف بأسطوان عائشة رضى الله عنها ، وبالأسطوان المخلوق أيضاً ، وبأسطوان المهاجرين .

روينا في كتاب ابن زبالة عن إسماعيل بن عبد الله عن أبيه أن عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وثالثا كان معهما دخلا على عائشة رضى الله عنها فتذاكروا المسجد ، فقالت عائشة : إني لأعلم سارية من سوارى المسجد لو يعلم الناس ما فى الصلاة إليها لاضطربوا عليها بالشهمان^(١) ، فخرج الرجلان وبقى ابن الزبير عند عائشة ، فقال الرجلان : ما تخلف إلا ليسألها عن السارية ، ولئن سألتها لتخبرته ، ولئن أخبرته لا يعلمنا ، وإن أخبرته عمدها إذا خرج فصلى إليها ، فاجلس بنا مكانا نراه ولا يرانا ، ففعلا ، فلم يذشب أن خرج مسرعا فقام إلى هذه السارية فصلى إليها متيامنا إلى الشق الأيمن منها ، فعلم أنها هى ، وسميت أسطوانة عائشة بذلك ، وبلغنا أن الدعاء عندها مستجاب ، هذا لفظ ابن زبالة .

وفى الأوسط للطبرانى عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن فى مسجدى لبقعة قبل هذه الأسطوانة لو يعلم الناس ماصلوا فيها إلا أن تطير لهم قرعة ، وعند عائشة جماعة من أبناء الصحابة فقالوا : يا أم المؤمنين وأين هى ؟ فاستعجبت عليهم ، فكثروا عندها ساعة ثم خرجوا وثبت عبد الله بن الزبير فقالوا : إنها ستخبره بذلك المسكان ، فأرقبوه فى المسجد حتى

(١) السهمان : جمع سهم ، والسهم فى الأصل القدح الذى يضرب به فى الميسر ثم سمي به ما يفوز به الفالج ، وكثر ذلك حتى سمي كل نصيب سهمها ، والمراد من قولها « لاضطربوا عليها بالسهمان » أنهم كانوا لا يسمحون لأحدهم بالصلاة عندها إلا إذا ضربوا عليها بالسهم فخرج لأحدهم سهم بالصلاة فيها ؛ لحرص كل واحد على الصلاة عندها

تنظروا حيث يصلى ، فخرج بعد ساعة فصلى عند الأُسطوانة التى صلى إليها عامر ابن عبد الله بن الزبير ، فقبل لها : أُسطوانة القرعة .

قال عتيق : وهى الأُسطوانة التى [هى] واسطة بين القبر والمنبر : عن يمينها إلى المنبر أُسطوانتان ، وبينها وبين القبر أُسطوانتان ، وبينها وبين الرحبة أُسطوانتان ، وهى واسطة بين ذلك ، وهى تسمى أُسطوانة القرعة ، هذا لفظ الأوسط .

وقال ابن زبالة : حدثنى غير واحد من أهل العلم منهم الزبير بن حبيب أن الأُسطوان التى تدعى أُسطوان عائشة هى الثالثة من المنبر ، والثالثة من القبر ، والثالثة من القبلة ، والثالثة من الرحبة ، أى قبل زيادة الرواقين الآتى ذكرها المتوسطة للروضة أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى إليها بضع عشرة المكتوبة ثم تقدم إلى مُصَلَّاه الذى وُجَّاه الحراب فى الصف الأوسط ، أى الرواق الأوسط ، وأن أبا بكر وعمر والزبير بن العوام وعامر بن عبد الله كانوا يصلون إليها ، وأن المهاجرين من قریش كانوا يجتمعون عندها ، وكان يقال لذلك المجلس مجلس المهاجرين ، انتهى .

وقد ذكر ابن النجار هذه الرواية عن الزبير بن حبيب ، وزاد : وقالت عائشة فيها : لو عرفها الناس لاضطربوا على الصلاة عندها بالسهمان ، فسألوها عنها فأبت أن تسميها ، فأصغى إليها ابن الزبير فسارتهُ بشيء ، ثم قام فصلى إلى التى يقال لها أُسطوان عائشة ، قال : فَظَنَّ مَنْ مَعَهُ أَنَّ عائشة أخبرته أنها تلك الأُسطوانة ، فسميت أُسطوان عائشة ، قال : وأخبرنى بعض أصحابنا عن زيد ابن أسلم قال : رأيت عند تلك الأُسطوانة موضع جبهة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم رأيت دونه موضع جبهة أبى بكر ، ثم رأيت دون موضع جبهة أبى بكر موضع جبهة عمر ، ويقال : الدعاء عندها مستجاب ، هذا لفظ رواية ابن النجار عقب ما قدمناه من رواية ابن زبالة . وزاد فيما ذكره ابن زبالة عقب قوله « إن النبى صلى الله عليه وسلم صلى إليها المكتوبة بضع عشرة ، ثم تقدم إلى مصلاه

اليوم » مالمعه : وكان يجعلها خلف ظهره ، قلت : ولم أره في كلام غيره ، والظاهر أن مراده أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستند إليها إذا جلس هناك ، لا أنه يجعلها خلف ظهره إذا صلى ؛ لما ذكره عن زيد بن أسلم من أنه رأى موضع جبهة النبي صلى الله عليه وسلم عندها ، ووصف هذه الأسطوانة بالخلقة يؤخذ مما تقدم عن ابن زبالة من قول أبي هريرة « وكان مصلاه صلى الله عليه وسلم الذي يصلي فيه بالناس إلى الشام من مسجده أن تضع موضع الأسطوان الخلقة خلف ظهرك ثم تمشي إلى الشام » إلى آخر ما تقدم قلت : وهذه الأسطوان بصف الأساطين التي خلف الإمام الواقف بالمصلى الشريف ، وهي الثالثة من القبلة وكانت الثالثة أيضا من رحبة المسجد كما تقدم ، وذلك قبل أن يزداد في مسقف مقدم المسجد الرواقان الآتي بيانهما في رحبته ، وبهما صارت خامسة من الرحبة .

أسطوان التوبة ومنها أسطوان التوبة ، وتعرف بأسطوان أبي لبابة بن عبد المنذر أخى بنى عمرو بن عوف الأوسى أحد النقباء ، واسمه رفاعه ، وقيل غير ذلك ، سميت به لأنه ارتبط إليها حتى أنزل الله توبته كما قدمناه في غزوة بنى قريظة .

وقال الأقرشي : اختلف أهل السير والتفكير في ذنب أبي لبابة ، فقال قوم : كان من الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، وقال ابن هشام تبعه لابن إسحاق : سببه قضية بنى قريظة واستشارتهم إياه ، وأسند يحيى عن عبد الرحمن بن يزيد قصته معهم ، وأنهم قالوا له : أنزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه ، وهو الذبح . وفي رواية أخرى أنه لما جاءهم قام إليه الرجال ، وأجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرق لهم ، فكان منه ما تقدم ، قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله . قال يحيى في الرواية المتقدمة : فلم يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومضى إلى المسجد ، وارتبط إلى جذع في موضع أسطوانة التوبة ، وأنزل الله عز وجل فيه « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » وفي رواية : فربط نفسه في السارية ، وحلف لا يحل

نفسه حتى يحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تنزل توبته ، قال : فجاءت فاطمة رضى الله عنها تحمله ، فقال : لا ، حتى يحلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنما فاطمة بضعة منى ، وفى رواية لابن النجار أن أبا لبابة عاهد الله تعالى أن لا يطاء بنى قريظة أبدا ، وقال : لا يرانى الله فى بلى خُنتُ الله ورسوله فيه أبدا ، وأن النبی صلى الله عليه وسلم قال لما بلغه خبره - وكان قد أُستبْطأ - «أما لو جاءنى لاستغفرت الله له ، فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » فأنزلت توبته ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أم سلمة ، قالت : فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من السَّحَرِ يضحك ، فقلت : مِمَّ تضحك أضحك الله سنك ؟ قال : تيبَ على أبى لبابة ، قلت : ألا أبشره بذلك يا رسول الله ؟ قال : بلى إن شئت ، فقامت على باب حجرتها قبل أن يُضْرَبَ عليهن الحجابُ فقالت : يا أبا لبابة أبشِرْ فقد تاب الله عليك ، قال : فثار الناسُ إليه ليطلقوه ، قال : لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يُطْلَقْنِي بيده ، فلما مر عليه خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

وروى البيهقى فى الدلائل عن سعيد بن المسيب قصة أبى لبابة فى بنى قريظة ، وأنه تخلف فى غزوة تبوك ، فلما قفل^(١) رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جاءه يُسَلِّمُ عليه ، فأعرض عنه ، ففزع^(٢) أبو لبابة ، فارتبط بسارية التوبة التى عند باب أم سلمة زوج النبی صلى الله عليه وسلم سبعا بين يوم وليلة فى حر شديد لا يأكل فيهن ولا يشرب قطرة .

وروى مالك بن أنس عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم أن أبا لبابة ارتبط إليها بسلسلة ربوض ، والربوض : الثقيلة^(٣) ، بَضْعَ عَشْرَةَ ليلةً ، حتى ذهب سمعه

(١) قفل : رجع (٢) فزع : خاف أشد الخوف (٣) قال ابن الأثير « وفى حديث أبى لبابة أنه ارتبط بسلسلة ربوض ، هى الضخمة الثقيلة اللازمة بصاحبها ، وفعل من أبنية المبالغة يستوى فيه المذكور والمؤنث » اهـ

فما يكاد يسمع ، وكاد بصره يذهب ، وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة وإذا أراد أن يذهب لحاجته حتى يفرغ ثم تأتي به فريده في الرباط كما كان . وأورد الزمخشري قصة ألى لبابة في تفسير قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول » الآية ، وقال فيها : قال أبو لبابة : فما زالت قد آتت حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله ، فنزلت : أي الآية المتقدمة ، فشدد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله عليّ ، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ، ثم تاب الله عليه ، وذكر في القصة أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه فخله فقال : إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالي ، فقال عليه السلام « يُجْزِيكَ الثَلَاثُ أَنْ تَتَصَدَّقَ بِهِ »

ونقل ابن النجار عن إبراهيم بن جعفر أن السارية التي ربط إليها ثمامة ابن أثال الحنفي هي السارية التي ارتبط إليها أبو لبابة ، ونقل ذلك أيضا عن ابن شبة

وروى البيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى « وَآخَرُونَ اعترفوا بذنوبهم » الآية ، قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فلما حضر رجوع النبي صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد ، فلما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم قال : مَنْ هؤلاء ؟ قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك ، الحديث ، وفيه توبة الله عليهم وأنه صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم وأطلقهم

وروى ابن زبالة عن عمر بن عبد الله بن المهاجر عن محمد بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي نوافله إلى أسطوانة التوبة وفي رواية له عن عمر بن عبد الله ، لم يذكر ابن كعب ، أنه قال في أسطوانة التوبة : كان أكثر نافلة النبي صلى الله عليه وسلم إليها ، وكان إذا صلى الصبح

انصرف إليها ، وقد سبق إليها الضعفاء والمساكين وأهل الضر وضيغان النبي صلى الله عليه وسلم والمؤلفة قلوبهم ومن لا مَبِيتَ له إلا في المسجد ، قال : وقد تخلقوا حولها حلقاً بعضها دون بعض ، فينصرف إليهم من مُصَلَّاه من الصبح ، فيتلو عليهم ما أنزل الله عليه من ليلته ، ويحدثهم ويحدثونه ، حتى إذا طلعت الشمسُ جاء أهل الطَّوْلِ والشرف والغنى فلم يجدوا إليه مجلساً ، فَتَأَقَّتْ أنفسهم إليه وتآقت نفسه إليهم ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » إلى منتهى الآيتين ، فلما نزل ذلك فيهم قالوا : يارسول الله اُطْرُدْهُمْ عَنَّا ، ونكون نحن جلساءك وإخوانك ولا نفارقك ، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » إلى منتهى الآيتين .

وفي العُتْبِيَّة عن مالك وَصَفُ أَسْطُوَانِ التَّوْبَةِ بِالْمُخَلَّقَةِ ، وقد قدمنا في الكلام على المصلى الشريف ما ذكره ابن زبالة من خلوقها وخلوق غيرها من الأساطين .

وروى ابن زبالة خبر مالك بن أنس المتقدم عن عبد الله بن أبي بكر بنحو ما تقدم ، وقال فيه : وهي الأَسْطُوَانِ المَخْلُوقُ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِيهَا ، تُدْعَى أَسْطُوَانِ التَّوْبَةِ ، منها حلَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أبا لُبَابَةَ حين نزلت توبته ، وبينها وبين القبر أَسْطُوَانٌ .

وأُسْنَدُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي الْأَسْطُوَانِ الَّتِي ارْتَبَطَ إِلَيْهَا أَبُو لُبَابَةَ : هِيَ الثَّانِيَّةُ مِنَ الْقَبْرِ ، وَهِيَ الثَّلَاثَةُ مِنَ الرَّحْبَةِ .

قلت : كانت الثالثة من الرحبة قبل تجدد الأسطوانتين المشار إليهما في أسطوانة القرعة بسبب تجدد الرواقين الآتي ذكرهما ، وهذه الأسطوانة إلى جانب الأسطوانة المتقدم ذكرها من جهة المشرق ؛ فهي الرابعة من المنبر ، والثانية من

القبر ، والثالثة من القبلة ، والخامسة في زماننا من رحبة المسجد ، وفيها اليوم هيئة محراب من الجيصّ تتميز به عن سائر الأساطين ، لسكنه أزيل في الحريق الثاني

وفهم البدر ابن فرحون من رواية ابن عمر المتقدمة أنها التي تلى هذه الأسطوانة في جهة المشرق ، وهي اللاصقة بالشباك اليوم كما سيأتي ، فقال : إن أسطوان التوبة هي اللاصقة بالشباك على ما قاله عبد الله بن عمر ، وتبعه مالك بن أنس ، وما قيل إنها غيرها فغلط أوجهه أشياء يطول ذكرها ، انتهى كلامه .

قلت : بل الصواب ما قدمناه في بيانها ، ومنشأ ما فهمه عدّه للأسطوانة اللاصقة بجدار القبر ، فحمل قول ابن عمر أنها الثانية من القبر ، وقول مالك بينها وبين القبر أسطوان على الأسطوانة اللاصقة بالشباك اليوم ، وقد علم من كلامهم في أسطوان القرعة أنهم لا يعدّون اللاصقة بجدار القبر لما تقدم من قولهم فيها : إنها الثالثة من المنبر والثالثة من القبر ، ولو عدوا اللاصقة بجدار القبر لكانت الرابعة من القبر ، وأيضاً فاللاصقة بجدار القبر أحدثها عمر بن عبد العزيز ، ولم يدرك ذلك ابن عمر ، وأوضح من ذلك أن ابن زبالة قال : إن بين أسطوان التوبة وبين جدار القبر الشريف عشرين ذراعاً ، وقد اعتبرت ذلك من الأسطوانة التي ذكرناها فكان كذلك .

وقال أيضاً فيما قدمناه عنه : « إن ذرع ما بين مُصَلَّى النبي صلى الله عليه وسلم وبينها سبع عشرة ذراعاً » وقد قدمنا في المصلى الشريف ما يقتضى صحة ذلك عند اختبارنا لما بينهما مع بيان أن المصلى الشريف في طرف الحفر الذي يلي المغرب ، وإن جعل المصلى الشريف على تلك الهيئة حادث ، وفي نسخة من ابن زبالة « تسع عشرة ذراعاً » بتقديم التاء ، فإن صحت^(١) فقد علمت أنه لم يكن المصلى الشريف في عهد ابن زبالة على هذه الهيئات ، بل كانت الأرض مستوية ،

(١) يريد إن صحت هذه النسخة من الرسم ، ولم تكن خطأ من الناسخ فإن لها وجهاً يجعلها غير متخالفة مع النسخة الأخرى

فكأنه اعتبر الذراع من ابتداء طرف المصلّى الشريف الغربى ، ومنه إلى الأسطوان المذكورة تسع عشرة ذراعا بتقديم التواء ، وأما ذرع ما بين المصلّى الشريف والأسطوانة التى يعينها البدر فخمسة وعشرون ذراعا ، فلا يصح إرادتها بوجه .

وأسند ابن زباله ويحيى فى بيان مُعْتَكَفِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف طَرَحَ له فراشه ووضع له سرير وراء أسطوانة التوبة » .

وروى ابن ماجه عن نافع أن ابن عمر أراه المكان الذى كان يعتكف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم روى عن نافع عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف طَرَحَ له فراشه ووضع له سرير وراء أسطوانة التوبة » . قال البدر بن فرحون : ونقل الطبرانى فى معجمه عن ابن عمر رضى الله عنهما أن ذلك مما يلى القبلة « يستند إليها »^(١) .

قلت : ررواه البيهقى بسند حسن ، ولفظه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف يُطَرَحُ له فراشه أو سريره إلى أسطوانة التوبة مما يلى القبلة يستند إليها » ونقل عياض عن ابن المنذر أن مالك بن أنس كان له موضع فى المسجد ، قال : وهو مكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو المكان الذى كان يُوضَعُ فيه فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف ، كذا قال الأويسى .

ومنها : أسطوان السرير ، أسند ابن زباله ويحيى فى بيان معتكف النبى صلى الله عليه وسلم عقب ذكر ما تقدم من وضع فراشه وسريره وراء أسطوان التوبة عن محمد بن أيوب أنه « كان للنبى صلى الله عليه وسلم سرير من جريد فيه سَعْفُهُ^(٢) يوضع بين الأسطوان التى تُجَاهُ القبر وبين القناديل ، كان يضطجع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(١) هذه الجملة « يستند إليها » من تنمة وصف ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعله

(٢) السعف - بفتح السين والعين جميعا - جمع سَعْفَةٍ ، وهى أغصان النخيل

إذا كانت رطبة ، كذا قال ابن الأثير ، والظاهر من هذا الحديث أن السعف هو الخوص ، وأن الجريد هو الغصن .

قلت : وهذه الأسطوانة هي اللاصقة بالشباك اليوم في شرقي أسطوان التوبة وابن فرحون يجعلها إياها كما تقدم ، ويؤيده ما تقدم في أسطوان التوبة من أن سريره صلى الله عليه وسلم كان يوضع إليها ، إلا أن يجاب بأنه كان يوضع مرة عند هذه ومرة عند تلك ، بدليل أنه تقدم في أسطوان التوبة أن وضع ذلك كان مما يلي القبلة يستند إليها ، وذكر في هذه أنه « كان يوضع بينها وبين القناديل » وذلك في جهة شريقها .

وقال البدر ابن فرحون : روينا بالسند الصحيح إلى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف يُطْرَحُ له وسادة ، ويوضع له سرير من جريد فيه سَعْفَه ، يوضع له فيما بين الأسطوان التي وُجَّاه القبر الشريف وبين القناديل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضطجع عليه » قال أبو وحره - بجاء مهلة - السعدى وهو يذكر السرير ويمدح آل الزبير لقرب مجلسهم منه :

وإذا غَدَا آلُ الزبير غدا النَّدى وإذا انتَدَى فإليهم ما يَنْتَدَى
وإذا هُمُ راحوا فإنهم هُمُ هُمُ أهل السرير وأهل صدر المسجد
ومنها : أسطوان المحرس^(١) ، ويسمى أسطوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

أسطوان
المحرس

قال يحيى : حدثنا موسى بن سلمة قال : سألت جعفر بن عبد الله بن الحسين عن أسطوان علي بن أبي طالب ، فقال : إن هذه المحرس^(١) ، كان علي بن أبي طالب يجلس في صفحتها التي تلي القبر مما يلي باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجرسُ النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الجلال المطري وتبعه مَنْ بعده : وهو مقابل الخوخة التي كان النبي

(١) المحرس : اسم مكان من « حرسه يحرسه » لما سيأتى من أن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه كان يجلس إلى هذه الأسطوانة ليحرس النبي صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم يخرج منها إذا كان في بيت عائشة إلى الروضة للصلاة ، وهى خلف أسطوان التوبة من جهة الشمال .

قلت : هى الأسطوان الذى يصلى عندها أمير المدينة يجعلها خلف ظهره ، ولذا قال الأفشهرى : إن أسطوان مُصَلَّى عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ اليوم أشهر من أن تخفى على أهل الحرم ، ويقصد الأمراء الجلوس والصلاة عندها إلى اليوم ، وذكر أنه كان يقال لها مجلس القلادة لشرف من كان يجلس فيه ، وذلك إنما هو فى أسطوان الوفود لما سيأتى .

ومنها : أسطوان الوفود ، قال المطرى : هى خاف أسطوان المحرس من جهة الشمال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إليها لوفود العرب إذا جاءته ، وكانت مما يلي رحبة المسجد قبل أن يزداد فى السقف القبلى الرواقان ، وكانت تعرف أيضاً بمجلس القلادة ، يجلس إليها سَرَوَاتُ الصَّحَابَةِ وأفاضلهم رضوان الله عليهم .

وقال الأفشهرى ، ومن خطه نقلتُ : وأما الأسطوان الذى كان يجلس إليها صلى الله عليه وسلم لوفود العرب إذا جاءته ، فقال : إذا عَدَدَتِ الأسطوان التى فيها مقام جبريل عليه السلام كانت هى الثالثة ، انتهى ، وكأنه سقط من خطه فاعدد فقال ، وقد أخذه من تحفة ابن عساكر ، وقد رأيت فى نسخة معتمدة منها موضع بياض بعد « فقال » .

وهذا مطابق لما تقدم عن المطرى ؛ لأن الأسطوان التى فيها مقام جبريل هى أربعة القبر كما سيأتى ، وبينها وبين أسطوان الوفود المذكور أسطوان .

وقال ابن زبالة : حدثنا غير واحد من أهل العلم منهم عبد العزيز بن محمد أن الأسطوان التى إلى الرحبة التى فى صف أسطوان التوبة بينها وبين أسطوان التوبة مصلى على بن أبى طالب ، وأنه المجلس الذى يقال له مجلس القلادة ، كان يجلس فيه سَرَاةُ النَّاسِ قديما .

وأورده المجد، وزاد في آخره : وإنما سمي القلادة لشرف مَنْ كان يجلس إليها من بنى هاشم وغيرهم .

أسطوان
مربعة القبر

ومنها أسطوان مربعة القبر ، وسيأتى أنه يقال له أيضاً أسطوان مقام جبريل عليه السلام ، وقد تقدم فيما نقله الأفشهرى في أسطوان الوفود ما يشهد له .
وأُسند ابن زبالة ويحيى عن سليمان بن سالم عن مسلم بن أبي مريم وغيره : كان باب بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المربعة التي في القبر ، قال سليمان : قال لى مسلم : لا تنس حظك من الصلاة إليها ؛ فإنها باب فاطمة رضى الله عنها الذى كان على يدخل عليها منه .

قلت : وهى في حائز عمر بن عبد العزيز عند منحرف الصفة الغربية منه إلى جهة الشمال ، في صف أسطوان الوفود ، بينهما الأسطوانة اللاصقة بالشباك التي شرقي أسطوان الوفود ، وسيأتى لها مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

ومن فضلها ما أسنده يحيى عن أبي الحمراء قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين صباحاً يحيى إلى باب على وفاطمة وحسن وحسين حتى يأخذ بعضاً مني^(١) الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » وفي رواية له : رابطة بالمدينة سبعة أشهر كيوم واحد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى باب على كل يوم فيقول : الصلاة ، الصلاة ، ثلاث مرات « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » وقد حرم الناس الصلاة إلى هذه الأسطوان لإدارة الشباك الدائر على الحجرة الشريفة وغلقت أبوابه .

أسطوان
التهجد

ومنها : أسطوان التهجد ، أسند يحيى عن عيسى بن عبد الله عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخْرِجُ حَصِيرًا كُلَّ لَيْلَةٍ إِذَا انْكَفَتَ النَّاسُ^(٢) فَيُطَارِحُ وراء بيت على ، ثم يصلى صلاة الليل ، فرآه رجل فصلى بصلاته ، ثم

(١) عضادتا الباب — بكسر أوله — خشبتان من حانئيه .

(٢) انكفت الناس : انصرفوا إلى منازلهم .

آخر فصلي بصلاته ، حتى كثروا ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا بهم ، تأمر بالحصير فطوى ثم دخل ، فلما أصبح جاءوه فقالوا : يا رسول الله ، كنت فصلي الليل فنصلي بصلاتك ، فقال : إني خشيت أن ينزل عليكم صلاة الليل ثم لا تقومون عليها ، قال عيسى بن عبد الله : وذلك موضع الأسطوان التي على طريق باب النبي صلى الله عليه وسلم مما يلي الزوراء .

قلت : صحّف بعضهم هذه اللفظة فقال : مما يلي الدور^(١) ، ورأيت بخط الأقشيري : لعله مما يلي دوره ، انتهى . والظاهر أن الرواية مما يلي الزور - بالزاي - يعني الموضع المزور في بناء عمر بن عبد العزيز خلف الحجرة كما سيأتي ، والله أعلم .

قال عيسى : وحدثني سعيد بن عبد الله بن فضيل قال : مرّ بي محمد بن الحنفية وأنا أصلي إليها ، فقال لي : أراك تلزم هذه الأسطوانة ، هل جاءك فيها أثر ؟ قلت : لا ، قال : فالزمها فإنها كانت مُصَلّي رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل . قلت : تقدم في حدود المسجد النبوي ما يقتضي أن الموضع المذكور كان خارج المسجد تجاء باب جبريل قبل تحويله إلى محله اليوم ، وهو موافق لما سيأتي عن المؤرخين في بيان موضع هذه الأسطوانة ، والمعروف من حاله صلى الله عليه وسلم أن قيامه في غير رمضان إنما كان في بيته ، وهذا الموضع ليس منه ، وفيما سبق مع أحاديث قيام رمضان ما يوهّم أن القصة المذكورة كانت فيه ، ففي صحيح البخاري عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتخذ حجرة ، قال : حسبت أنه قال : من حصير ، في رمضان فصلي فيها ليالى فصلى بصلاته ناس - الحديث » ورواه مسلم عنه بلفظ أن النبي صلى الله عليه وسلم « اتخذ حجرة في المسجد من حصير ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ليلا ، حتى اجتمع إليه ناس ، فذكره نحوه » وفي رواية لأبي عوانة عن زيد « اتخذ حجرة من

(١) وقع في المطبوعات « الدور » بهاء في آخره ، تطبيع .

حصير في المسجد في رمضان - الحديث . ولعلها القبة التي كان يعتكف صلى الله عليه وسلم فيها في رمضان ، فقد روى الطبراني في الكبير عن أبي ليلى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكف في قبة من خوص ، وفي الكبير والأوسط عن مُعَيْقِب قال : « اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة من خوص بابها من حصير والناس في المسجد » وأسند يحيى عن أبي حازم مولى الأنصار قال : « اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد في رمضان في قبة على بابها حصير » ، وعن ابن عمر قال : بنى النبي صلى الله عليه وسلم بيتا من سعف في المسجد في آخر شهر رمضان يصلي فيه .

وقال المطري في بيان موضع هذه الأسطوانة : هي خلف بيت فاطمة رضي الله عنها ، والواقف إليها يكون باب جبريل المعروف قديما بباب عثمان على يساره ، وحولها الدرازين : أي لاصقاً بهما يميناً ويساراً ، وهو الشباك الدائر على الحجرة الشريفة وعلى بيت فاطمة رضي الله عنها ، وقد كتب فيها بالرخام : هذا مُتَجَدُّ النبي صلى الله عليه وسلم^(١) .

وقال ابن النجار : هذه الأسطوانة وراء بيت فاطمة من جهة الشمال ، وفيها محرابٌ إذا توجه المصلي إليه كانت يساره إلى باب عثمان المعروف اليوم بباب جبريل .

قلت : وقد جدد محرابها في هذه العمارة التي أدركنها أولاً ، وزيد في رخامه فوق المحراب الأول ، وكتبوا في ذلك بالرخام بروز الأمر بتجديد عمارة الحجرة الشريفة من السلطان الأشرف قايتباي - أعز الله أنصاره ! - وأن ذلك على يد الخواجا الجنب الشمسى بن الزمن ، وتاريخ العمارة المذكورة ، كل ذلك مكتوب بالرخام في أعلى محراب الأسطوانة المذكورة ، ثم لما جاء الحريق الحادث

(١) متجدد النبي : موضع تهجده .

بعد تمام هذا التأليف أزال ذلك كله ، ثم اقتضى رأيهم عند بناء الدعائم التي اتخذوها للقبّة المحاذية لأعلى الحجرة والعقود التي خلفها إبدال هذه الأسطوانة بدِعامة اتخذوها فيها محرابا .

وهذه الأسطوانة آخر الأساطين التي ذكر لها أهلُ التاريخ فضلا خاصا ، وإلا فجميعُ سَوَارِي المسجد الشريف لها فضل ؛ ففي البخارى من حديث أنس قال : لقد أدركت كبار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يبتدرون السواري عند المغرب ، قال ابن النجار : فعلى هذا جميعُ سَوَارِي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم يستحب الصلاة عندها ؛ لأنه لا يخلو أن كبار الصحابة صلّوا إليها ، والله أعلم .

الفصل الثامن

وصف الصفة
وموضعها

في الصّفة وأهلها ، وتعليق الأقباء لهم بالمسجد

قال عياض : الصّفة - بضم الصاد وتشديد الفاء - ظُلة في مؤخر مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، يأوى إليها المساكين ، وإليها ينسب أهل الصّفة على أشهر الأقاويل .

وقال الحافظ الذهبي : إن القبلة قبل أن تُحوّل كانت في شمالي المسجد ، فلما حوّلَت القبلة بقي حائط القبلة الأعلى مكان أهل الصّفة .

وقال الحافظ ابن حجر : الصّفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مُظللّ أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل ، وكانوا يكثرون فيه ويقولون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر .

وقد سرّد أسماءهم أبو نعيم في الحلية فزادوا على المائة ، وقد أخرج أبو نعيم في الحلية من مرسل الحسن قال : بُنيت صُفَّةٌ في المسجد لضعفاء المسلمين .

وقال المجد نقلا عن الدارقطني : الصّفة هي ظُلة كان المسجد في مؤخرها ،

ثم قال المجد : وذكر ابن جُبَيْر في رحلته عند ذكر قباء قال : وفي آخر القرية تلّ مشرف يعرف بعرفات يدخل إليه على دار الصفة حيث كان عمار وسلمان وأصحابهما المعروفون بأهل الصفة ، وكان هذا وهم ، والله أعلم .

قلت : يظهر من قول عياض فيما قدمناه عنه « على أشهر الأقوال » أن في ذلك خلافا ؛ فيكون ما ذكره ابن جبیر أحد الأقوال ، لكنه مرجوح أو مؤول بأن من ذكر من أهل الصفة اتخذوا تلك الدار بعد ، فاشتهرت بذلك .

وقد روى ابن سعد في مرسل يزيد بن عبد الله بن قسيط : كان أهل الصفة ناسا فقراء لا منازل لهم ، فكانوا ينامون في المسجد لا مأوى لهم غيره .

وروى البيهقي عن عثمان بن اليمان قال : لما كثرت المهاجرون بالمدينة ولم يكن لهم دار ولا مأوى أنزلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، وسماهم أصحاب الصفة ، فكان يحالسمهم ويأنس بهم .

وأُسند يحيى عن فضالة بن عبيد قال : كننا نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبر قوم من قامتهم من الخصاص^(١) ، حتى يقول الأعرابي : مجانين ، وهم أهل الصفة ، فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فوقف عليهم ، فقال : لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتهم أن تزدادوا فقرا وحاجة .

وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكر أن أصحاب الصفة كانوا ناسا فقراء ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال مرة : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس — الحديث .

وفيه من حديث أبي هريرة قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد ربطوه ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته .

(١) الخصاص — بفتح الخاء المعجمة — الفقر والحاجة ، وفي القرآن الكريم (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

وفيه من حديث أبي هريرة أيضا أنه كان يقول : والله الذى لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشدُّ الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدتُ يوما فى طريقهم الذى يخرجون منه ، فرأى أبو بكر فسأله عن آية من كتاب الله ما سأله إلا ليستتبعنى ، فر ولم يفعل ، ثم مرى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسّم حين رآنى وعرف ما فى نفسى وما فى وجهى ، ثم قال : أباهر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : الحق ، فمضى فتبعته ، فدخل فاستأذن ، فأذن لى ، فدخلت فوجدنا لبنا فى قدح ، فقال : من أين هذا اللبن ؟ فقالوا : أهده لك فلان أو فلانة ، قال : أباهر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : الحق إلى أهل الصفة فأدعهم لى ، وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئا ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها ، فسألتنى ذلك ، فقلت : وما هذا اللبن فى أهل الصفة ؟ كنتُ أحقُّ أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فلما جاؤا أمرنى فكنتُ أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ، فأتيهم فدعوتهم فأقبلوا ، فاستأذنوا فأذن لهم ، فأخذوا بحبالهم من البيت ، قال : يا أباهريرة ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : خذ فأعطهم ، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يردُّ على القدح فأخذه فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم انتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم ، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى فتبسّم ، وقال : يا أباهر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : بقيتُ أنا وأنت ، قلت : صدقت يا رسول الله قال : اقم فاشرب ، فقعدت فشربت ، فقال : اشرب ، فشربت ، فما زال يقول اشرب حتى قلت : لا والذى بعثتك بالحق ما أجده له مسلكا ، قال : فأرني ، فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة .

وقد وقع لأبي هريرة رضى الله عنه قصة أخرى في تكثير الطعام مع أهل الصفة وأخرج ابن حبان من طريق مسلم بن حبان عن أبيه عنه قال : أتت على ثلاثة أيام لم أطعم ، فخذت أريد الصفة ، فجعلت أسقط ، فجعل الصبيان يقولون : خرا أبو هريرة ، حتى انتهيت إلى الصفة ، فوافيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بقصعة من ثريد ، فدعا عليها أهل الصفة وهم يأكلون منها ، فجعلت أطاول كي يدعوني ، حتى قاموا وليس في القصعة إلا شيء في نواحيها ، فجمعه صلى الله عليه وسلم فصارت لقمة ، فوضعها على أصابعه فقال لى : كُلْ باسم الله ، فوالذى نفسى بيده ما زلت آكل منه حتى شبت .

وروى أبو نعيم في الحلية من حديث معاوية بن الحكم فقال : بينا أنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصفة ، فجعل يوجه الرجل مع الرجل من الأنصار ، والرجلين والثلاثة ، حتى بقيت في أربعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم خامسنا ، فقال : انطلقوا بنا ، فقال : يا عائشة عشنا - الحديث .

وروى أيضا من طريق نعيم الجمر عن أبي هريرة : كنت من أهل الصفة ، وكنا إذا أمسينا حضرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل أو أكثر ، فيبقى من بقى عشرة أو أقل أو أكثر ، فيؤتى النبي صلى الله عليه وسلم بعشائه فيتعشى معهم ، فإذا فرغنا قال : ناموا في المسجد . وروى ابن شبة عن طلحة البصرى قال : كان من قديم المدينة فكان له بها عريف نزل على عريفه ، ومن لم يكن له بها عريف نزل الصفة ، فكنت فيمن نزل الصفة ، فوافقت رجلين كان يُجرى علينا في كل يوم مُدَّين من تمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فناداه رجل من أهل الصفة : يا رسول الله أخرج التمر بطوننا وتحرقت علينا الحرف ، فقال

النبي صلى الله عليه وسلم إلى منبره فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر ماله من قومه حتى إن كان ليأتي على وعلى صاحبي بضعة عشر يوماً مالهنا طعام إلا البرير^(١) ، فقدمنا على إخواننا من الأنصار وجُلُّ طعامهم التمر ، فواسونا ، ولو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم ، ولكن لعلكم ستدركون زماناً أو من أدركه منكم يلبسون فيه مثل أستار الكعبة ويغدي ويراح عليكم بالجفان .

مبدأ
تعليق الأقناء

وقال ابن النجار : روى أهل السير أن محمد بن مسleme رأى أضيافاً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، فقال : ألا نفرق هذه الأضياف في دور الأنصار ، ونجعل لك في كل حائط قنواً ليكون لمن يأتيك من هؤلاء الأقوام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى ، فلما جدد ماله^(٢) جاء بقنواً يجعله في المسجد بين ساريتين ، فجعل الناس يفعلون ذلك ، وكان معاذ بن جبل يقوم عليه ، وكان يجعل حبلاً بين الساريتين ثم تعلّق الأقناء على الحبل ، وتجمع العشرين وأكثر فيهم عليهم بعضاً من الأقناء فيأكلون حتى يشبعون ، ثم ينصرفون ويأتي غيرهم فيفعل بهم مثل ذلك ، فإذا كان الليل فعل لهم مثل ذلك .

قلت : يوّب البخاري للقسمة وتعليق القنوا في المسجد ، ولم يذكر في الباب تصريحاً بتعليق القنوا ، فأشار بذلك إلى ما رواه النسائي عن عوف بن مالك الأشجعي قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه عصا ، وقد علّق رجل قنواً حشف ، فجعل يطعم في ذلك القنوا ، ويقول : لو شاء رب هذه الصدقة تصدّق بأطيب من هذا ، إن رب هذه الصدقة يأكل حشفاً يوم القيامة ، وليس على شرط البخاري ، وإن كان إسناده قوياً ، فأشار إليه بالتبويب ولم يذكره كعادته .

وروى ابن زبالة عن إبراهيم بن محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه أن ناساً كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم لأشياء لهم ، فقالت الأنصار :

(١) البرير — بفتح الباء زنة رغيف — تمر الأراك .

(٢) جدد ماله : قطعه ، وماله هو التمر .

يا رسول الله ، لو عجلناك قنوا من كل حائط لهؤلاء ، قال : أجل فافعلوا ، ففعلوا ، فجرى ذلك إلى اليوم ، فهي الأقباء التي تعلق في المسجد عند جدار النخل فيعطاهما المساكين ، وكان عليها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل .

وقال يحيى : حدثني هرون بن موسى عن غير واحد من أهل المدينة أن الناس أصابتهم في ثمارهم عاهة من العاهات في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما على أحدكم لو بعث بقنو من نخله للمساكين ، فبعث ذلك الناس ، واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأقباء معاذ بن جبل ، فكان يمد حبلا بين جذعين ويعلق عليه الأقباء ، فرجع الله تلك العاهة ، فصارت سنة ، ولم تزل الأئمة عليها إلى اليوم .

وروى يحيى أيضاً عن عاصم بن سويد قال : سمعت أبا يقول : عُوِّثِمَ بن ساعدة أتى بقنو إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتسى الناسُ به أهل العالية وأهل السافلة .

وأخرج ثابت في الدلائل أن النبي صلى الله عليه وسلم « أمر من كل حائط بقنو يعلق في المسجد » يعني للمساكين .

وفي رواية له : وكان عليها معاذ بن جبل : أي على حفظها ، أو على قسمتها ، والله أعلم .

الفصل التاسع

في الحجرة الشريفة ، وبيان إحاطتها بالمسجد الشريف إلا من جهة المغرب قد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم لما بنى مسجده الشريف بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة رضي الله عنهما على نعت بناء المسجد من لبن وجريد النخل . قال ابن النجار : وكان لبيت عائشة مصراع واحد من عَرَّعَرٍ أوساج^(١) ، قال :

(١) العرعر — بوزن جعفر — هو شجر السرو ، والساج : شجر يعظم جداً ، وخشبه أسود رزين لا تسكاد الأرض تبليه ، ومنبته بلاد الهند .

ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه بنى لمن حَجَرًا ، وهى تسعة أبيات ، وهى ما بين بيت عائشة رضى الله عنها إلى الباب الذى يلى باب النبي صلى الله عليه وسلم ، انتهى . ومراده بالباب الذى يلى باب النبي صلى الله عليه وسلم الباب الذى فى الجهة المقابلة له من المغرب ، وهو المعروف الآن بباب الرحمة ، وإنما حملنا كلامه على ذلك لأنه وقع فى كلامه استعمال الباب الذى يليه بمعنى الباب الذى يقابله ، ولأنه قال عقبه : قال أهل السير : ضرب النبي صلى الله عليه وسلم الحجرات ما بينه وبين القبلة والشرق إلى الشام ، ولم يضر بها فى غربيه ، وكانت خارجة من المسجد مديرة به إلا من المغرب ، وكانت أبوابها شارعة فى المسجد ، انتهى .

وكان الخطيب ابن حنبل فهم من هذا اختلافًا فى مواضع الحجر ، فقال : قيل كانت كلها فى جهة المشرق ، وقيل : فى جهات المسجد ما عدا المغرب .

قلت : ويرجح ما قررناه ما رواه ابن الجوزى فى شرف المصطفى بسنده إلى محمد بن عمر قال : سألت مالك بن أبى الرجال : أين كانت منازل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فأخبرنى عن أبيه عن أمه أنها كانت كلها فى الشق الأيسر إذا قمت إلى الصلاة إلى وجه الإمام فى وجه المنبر هذا أبعدها ، ولما توفيت زينب أدخل — أى النبي صلى الله عليه وسلم — أم سلمة بيتها ، انتهى ، ووجه المنبر ووجه الإمام يعنى إذا قام على المنبر بجهة الشام فى جهة الباب المعروف الآن بباب الرحمة قبل أن ينقل إلى محله اليوم ، وهو يقتضى أنه لم يكن من الحجر رشيء فى جهة القبلة ، إلا أن تكون الرواية إلى وجه الإمام وفى وجه المنبر فيوافق ما تقدم عن أهل السير .

وأُسند ابن زبالة عن محمد بن هلال قال : أدركت بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كانت من جريد مستورة بمسوح الشعر^(١) مستطيرة فى القبلة وفى

(١) المسوح : جمع مسح — بالكسر — كساء من شعر كُثِبَ الرهبان ، ويجمع على أمساح أيضاً ، وانظر حديث عطاء الخراساني فى ص ٤٦١ الآتية .

المشرق والشام ، ليس في غربي المسجد شيء منها ، وكان باب عائشة مواجَهَ الشام ، وكان بمصرع واحد من يعرعر أوساج .
وأُسند يحيى من طريق الواقدي عن عبد الله بن يزيد الهذلي قال : رأيت بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حين هدمها عمر بن عبد العزيز كانت من لبن^(١) ، ولها حجر من جريد مطرورة بالطين ، عددت تسعة أبيات بحجرها ، وهي ما بين بيت عائشة إلى الباب الذي يلي باب النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزل أسماء بنت حسن اليوم .

قلت : وقوله « إلى الباب الذي يلي باب النبي صلى الله عليه وسلم » قد تقدم ما يؤخذ منه أن المراد به باب الرحمة ، وقوله « إلى منزل أسماء إلى آخره » يقتضي أن البيوت المذكورة كان بعضها خارجاً عن سَمْتِ^(٢) المسجد ؛ لأن بيت أسماء المذكور كان في مقابلة الباب الذي كان يلي باب النساء من شاميهِ ، ويبعد أن يكون المسجد النبوي ممتداً إلى تلك الجهة في زمنه صلى الله عليه وسلم ، لئلا يسأتى في بيت فاطمة رضي الله عنها ما يصرح بأن بيتها كان ينتهي إلى الباب المذكور ؛ فيحتمل أن المسجد كان ممتداً إليه ، ويحتمل أن بعض البيت المذكور لم يكن في محاذ المسجد ، على أن البخاري روى في صحيحه حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وعنده أزواجه فرجعن ، فقال لصفية بنت حيي : لا تعجلي حتى أنصرف معك ، وكان بيتها في دار أسامة ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم معها - الحديث » .

وفي رواية له عن صفية قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً ، فأتته أزوره ليلاً ، فحدثته ثم قمت ، فاقبلت ، فقام معي ليلتين ، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ، فرجلان من الأنصار - الحديث .

وفي رواية له أنها جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوره وهو معتكف

(١) اللبن - بفتح فكسر - الطوب النبيء

(٢) سمت المسجد : طريقه .

في المسجد في العشر الأواخر من رمضان ، ثم قامت تنقلب ، فقام معها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ قريباً من باب المسجد عند باب أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم مر بهما رجلان من الأنصار - الحديث ، وهو يقتضي أن صفة لم يكن مسكنها في الحجر المحيطة بالمسجد .

ولم يتعرض ابن شبة لاتخاذ أسامة لدار ، وذكر أن أباه اتخذ دارين إحداها دخلت في المسجد لما زيد فيه ، ولعلها المرادة والله أعلم .

ولنرجع إلى بقية ما أسنده يحيى عن عبد الله بن زيد ، قال : ورأيت بيت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وحجرتها من اللبن ، فسألت ابن ابنها ، فقال : لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم دومة الجندل بنت حجرتها بلبن ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى اللبن ودخل عليها أول نسائه ، فقال : ما هذا البناء ؟ فقالت : أردتُ يا رسول الله أن أ كُفَّ أبصار الناس ، فقال : يا أم سلمة إن من شر ما ذهب فيه مالُ المسلم البنيان ، قال الواقدي : فحدثت بهذا الحديث معاذ بن محمد الأنصاري ، فقال : سمعت عطاء الخراساني في مجلس فيه عمران بن أبي أنس يقول وهو فيما بين القبر والمقبر : أدركت حُجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود^(١) ، فحضرت كتاب الوليد ابن عبد الملك يقرأ يأمرنا بهدم حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت يوماً كان أكثر با كيما من ذلك اليوم . قال عطاء : فسمعت سعيد بن المسيب يقول : والله لوددت أنهم تركوها على حالها يَنْشَأ نائم من المدينة ويقدم قادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، ويكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها ، قال معاذ : فلما فرغ عطاء الخراساني من حديثه قال عمران بن أبي أنس : كان فيها أربعة أبيات بلبن لها حجير من جريد ، وكانت خمسة أبيات من جريد مُطَيَّنة لا حجير لها على أبوابها مسوح الشعر ، زرعت السائر فوجدته

(١) انظر ص ٤٥٩ السابقة .

ثلاثة أذرع في ذراع وعظم الذراع ، فأما ما ذكرت من كثرة البكاء فلقد رأيتني في المسجد وفيه نفر من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو أمامة بن سهل وخارجة بن زيد وإنهم لي يكون حتى أخضَلَ لحام الدمع ، وقال يومئذ أبو أمامة : ليتها تركت حتى ينقص الناس من البنيان ويروا ماضى الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ومفاتيح خزائن الدنيا بيده .

وروى رزين عن عبد الله بن يزيد الهذلي قال : رأيت بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حين هدمها عمر بن عبد العزيز يُدخلها في المسجد مبنيةً باللبن حولها حُجَر من جريد ممدودة إلا حجرة أم سلمة ، وذكر نحو ما تقدم باختصار . وقال ابن الجوزي في الوفاء : قال محمد بن عمر : كانت لحارثة بن النعمان منازل قرب المسجد وحوله ، وكلاً أحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلاً^(١) نزل له حارثة عن منزله حتى صارت منازل كلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه .

قلت : وظاهره يخالف ما تقدم من أنه صلى الله عليه وسلم بنى أولاً بيتين لزوجتيه ، وأنه لما تزوج نساءه بنى لمن حجرا ، وظاهره أنه كان كلما أحدث زوجة أحدث لها بناء حجرة ، فيحمل ما هنا على أن حارثة كان ينزل له عن مواضع المساكن ، وكان صلى الله عليه وسلم يبننها .

ونقل الزركشي عن الشمس الذهبي أنه قال : لم يبلغنا أنه صلى الله عليه وسلم بنى له تسعة أبيات حين بنى المسجد ، ولا أحسبه فعل ذلك ، إنما كان يريد بيتاً واحداً حينئذ لسودة أم المؤمنين ، ثم لم يحتج إلى بيت آخر حتى بنى لعائشة رضي الله عنها ، في شوال سنة اثنين ، فكأنه صلى الله عليه وسلم بناها في أوقات مختلفة ، انتهى .

وهو مقتضى ما قدمناه ، غير أنه يخالف لما قدمناه في بيت عائشة رضي الله عنها ، لما تقدم أنه بناه مع بناء المسجد ، وهو الظاهر ؛ لأنها كانت حينئذ زوجته ،

(١) أهل الرجل هنا : زوجته ، يريد كلما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم .

غير أنه لم يَبْنِ لها فتأهب لذلك بأن بنى لها حجرتها .
 وذَكَرَ الأَقْشَرِيُّ أن ابن عبد البر روى من طريق الزبير بن بكار عن
 عائشة رضى الله عنها خبراً طويلاً في قدومها المدينة قالت فيه : ثم إنا قدمنا المدينة ،
 فنزلتُ مع آل أبي بكر ، ونزل آلُ النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، وكان رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يبنى مسجده وأبياتنا حول المسجد ، فأنزل فيها أهله ، فكثنا
 أياماً ، ثم قال أبو بكر : يا رسول الله ما يمنعك أن تبني بأهلك ؟ قال : الصداق ،
 فأعطاه أبو بكر اثنتي عشرة أوقية ونَشَأَ^(١) فبعث بها إلينا ، وبني لى رسول الله
 صلى الله عليه وسلم في بيتي هذا الذى أنا فيه ، وهو الذى توفى فيه ودفن فيه .
 قلت : ولم أرَ في كلام المؤرخين مَنْ تعرض للمشربة التى اعتزل فيها رسول الله
 صلى الله عليه وسلم لما آلى من نسائه شهراً ، ومقتضى ذلك أنه لم يكن بابها من
 بيت واحدة منهن ليتأتى عدم الدخول عليهن ، والذى فى الصحيح قول حفصة :
 هو ذاتى المشربة ، وفى رواية تسميتها عِلِّيَّة ، وفى رواية غرفة ، وقد بوب عليه
 البخارى باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم نساءه فى غير بيوتهن ، وفى رواية
 « هو فى خزانته فى المشربة » وفى رواية « فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فى مشربة يرقى عليها بعجلة » وفى رواية « فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول
 الله صلى الله عليه وسلم قاعد على أسكفة المشربة^(٢) مدل رجله على نقي من خشب
 وهو جذع يرقى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وينحدر »
 وقال السهيلي : قال الحسن البصرى : كنت أدخل بيوت رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وأنا غلام مرأوق وأنال السقف بيدي ، وكان لكل بيت حجرة ،
 وكانت حجرة من أكسية من خشب عَرَّعَرَ .

(١) النش — بفتح النون وتشديد الشين — نصف الأوقية ، وهو عشرون
 دورهما . ويطلق النش على النصف من كل شيء .

(٢) الأسكفة — بضم الهمزة وسكون السين وضم السكاف وتشديد القاء
 مفتوحة — الحشبة التى يطاء عليها الداخل من الباب .

وورد أن بابه صلى الله عليه وسلم كان يقرع بالأطافير : أى لا حلق له .
وقال مالك : كان المسجد يضيق عن أهله ، وحُجِرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليست من المسجد ، ولـسكن أبوابها شارعة في المسجد ^(١) .
وقال ابن سعد : أوصت سودة ببيتها لعائشة رضى الله عنها ، وباع أولياء صفية بنت حُصَي ببيتها من معاوية بمائة ألف وثمانين ألف درهم ، واشترى معاوية من عائشة منزلها بمائة ألف وثمانين ألف درهم ، وقيل : بمائتي ألف ، وشرط لها سكنها حياتها ، وحمل إليها المال ، فما قامت من مجلسها حتى قسمته ، وقيل : بل اشتراه ابن الزبير من عائشة ، وبعث إليها خمسة أجمال تحمل المال ، وشرط لها سكنها حياتها ، ففرقت المال .

وأسند ابن زبالة عن هشام بن عروة قال : إن ابن الزبير ليعتد بمكرمتين مايعتد أحد بمثلها : أن عائشة أوصته ببيتها وحجرتها ، وأنه اشترى حجرة سودة . قلت : وهذا يقتضى أن الحجر الشريفة كانت على ملك نساءه صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده ما تقدم من تصرف أم سلمة وبنائها لحجرتها في غيبته صلى الله عليه وسلم ، ويعارضه ما تقدم من أن زينب بنت خزيمة لما توفيت أدخل النبي صلى الله عليه وسلم أم سلمة بيتها ، وقد أضيفت البيوت في القرآن العظيم مرة إليه صلى الله عليه وسلم ومرة إليهن ، والظاهر أن الإضافة الأولى هى الحقيقية ؛ لما تقدم من أن النبي صلى الله عليه وسلم بناها ، ولأنه كان يجب عليه إسكانهن ، غير أن لمن فيها بعده حق السكنى لحبسهن لحقه صلى الله عليه وسلم .

وقال الزبير بن المنير : إن غرض البخارى حيث ترجم بقوله « باب ما جاء في بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم » وما نسب من البيوت إليهن وقول الله عز وجل « وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ » « ولا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم » أن يبين أن بهذه النسبة تحقيق دوام استحقاقهن البيوت ما بقين ؛ لأن نفقتهم وسكناهن من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ، والسرفيه حبسهن عليه ، انتهى

(١) شارعة فى المسجد : مفتوحة فيه .

ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان قد مَلَكَ بعضهن بيتهن ، أو ملكهن كلهن كما ذهب إليه بعضهم .

قال الطبري : قيل : كان النبي صلى الله عليه وسلم مَلَكَ كلا من أزواجه البيت التي هي فيه فسكنَّ بعده فيهن بذلك التملك ، وقيل : إنما لم يُنَازَعَنَّ في مساكنهن لأن ذلك من جملة مؤنتهن التي كان النبي صلى الله عليه وسلم استثناهن منهن مما كان بيده أيام حياته حيث قال : ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة ، قال الطبري : وهذا أرجح ، ويؤيده أن ورثتهن لم يرثوا عنهن منازلهن ، ولو كانت البيوت ملكا لهن لانتقلت إلى ورثتهن ، وفي ترك ورثتهن حقوقهم منها دلالة على ذلك ، ولهذا زيدت بعدهن في المسجد لعموم نفعه للمسلمين ، انتهى . وقد يناقش فيما ذكره من عدم إرث ورثتهن لمنازلهن ؛ إذ لا يلزم من عدم نقله انتفاءه مع أن في قصة إدخال بيت حفصة في المسجد وما وقع من آل عمر في أمر طريق بيت حفصة ما يشهد لأن ورثتهن ورثوا ذلك ، ويحتمل أن إدخال الحُجَّـر في المسجد كان بعد شرائها من الورثة ، وقد تقدم عن ابن سعد ما يشهد لذلك ، وقد قال في طبقاته أيضاً : أخبرنا إسرائيل عن جابر عن عامر قال : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُوصَ إلا بمسكن أزواجه وأرض ، انتهى . وهذا يحتمل الوصية للأزواج بذلك ، ويحتمل غيره ، والله أعلم .

وادعى المذهب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد حبس عليهن بيوتهن ، ثم استدل به على أن مَنْ حبس داراً جاز له أن يسكن منها في موضع ، وتَعَقَّبَهُ ابن المنير بمنع أصل الدعوى ، وقد ترجم ابن شبة لعلم دور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وذكر عن جماعة ممن اتخذ دوراً في أماكن متفرقة من المدينة ، فتلك غير الحُجَّـر المذكورة ، والظاهر أن اتخاذهن لذلك كان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

الفصل العاشر

في حجرة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنها
أسند يحيى عن عيسى بن عبد الله عن أبيه أن بيت فاطمة رضى الله عنها في
الزور الذى فى القبر ، بينه وبين بيت النبي صلى الله عليه وسلم خوخة .
وأسند عن عمر بن على بن عمر بن على بن الحسين قال : كان بيت فاطمة
فى موضع الزور مخرج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت فيه كوة^(١) إلى بيت عائشة
رضى الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى المخرج اطلع من
الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم ، وأن فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى : إن ابني
أمسيًا عليّين فلو نظرت لفا أدم^(٢) نستصبح به^(٣) ، فخرج على إلى السوق فاشتري لهم
أدمًا ، وجاء به إلى فاطمة فاستصبحت ، فدخلت عائشة المخرج فى جوف الليل
فأبصرت المصباح عندهم ، وذكر كلاما وقع بينهما ، فلما أصبحوا سألت
فاطمة النبي صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة ، فسدها رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

وأسند يحيى عقب ذلك حديث عائشة « قلت : يا رسول الله ندخل كنيفك
فلا نرى شيئًا من الأذى ، فقال : الأرض تبلع ما يخرج من الأنبياء من الأذى
فلا يرى منه شيء » فأشعر صنيع يحيى أن المراد من المخرج موضع الكنيف ،
وأفهم ذلك أن المخرج المذكور كان خلف حجرة عائشة رضى الله عنها ، بينها
وبين بيت فاطمة رضى الله عنها ، وذلك يقتضى أن يكون محله فى الزور ، أعنى
الموضع المزور شبه المثلث فى بناء عمر بن عبد العزيز فى جهة الشام .
ويشهد لذلك ما أسنده يحيى عن مسلم عن ابن أبى مريم أن عرض بيت

(١) كوة - بضم الكاف أو فتحها وتشديد الواو مفتوحة - الحرق فى الحائط .

(٢) الأدم : أراد به هنا الزيت ، وأصله كل ما يؤكل مع الخبز

(٣) نستصبح به : نستضىء ، ومعناه الحرقى نطلب به الصباح

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأسطوانة التي خلف الأسطوان
المواجهة الزور ، قال : وكان بابه في المربعة التي في القبر .

وقد أسند أبو غسان كما قاله ابن شبة عن مسلم بن سالم بن مسلم بن أبي
مريم قال : عَرَّسَ على رضى الله عنه بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم إلى الأسطوان التي خلف الأسطوان المواجهة الزور ، وكانت داره في
المربعة التي في القبر ، قال سليمان : وقال مسلم : لا تنسَ حظك من الصلاة
إليها ؛ فإنه باب فاطمة التي كان على يدخل إليها منه ، وقد رأيت حسن بن زيد
يصلى إليها .

وقد ذكرنا في فضل أسطوان مربعة القبر ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم
« كان يأتي باب على كل يوم » وفي رواية « عند صلاة الصبح » وفي رواية يحيى
« إلى باب على وفاطمة وحسن وحسين حتى يأخذ بعضا من الباب ويقول : السلام
عليكم أهل البيت » وفي رواية فيقول « الصلاة الصلاة الصلاة ، ثلاث مرات ، إنما
يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وذكرنا أيضا أن
أسطوان التهجيد خلف بيت فاطمة رضى الله عنها .

وروى الطبراني من حديث أبي ثعلبة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا
قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة ، ثم يأتي أزواجه ،
وفي لفظ : ثم بدأ ببيت فاطمة ، ثم يأتي بيوت نسائه .

وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم من
سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة في سفر وصنعت
فاطمة مسكتين^(١) من ورق وقلادة وقرطين ، وسترت باب البيت لقدم أيها
وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليها ، ووقف أصحابه على

(١) مسكتين : تثنية مسكة - بالتحريك ، والمسكة : السوار يتخذ من قرون
الأوعال ، وقيل من جلود دابة بحرية ، والمراد هنا السوار مطلقاً ؛ لأنه ذكر أنهما
من فضة .

الباب لا يدرون، أيقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عُرِفَ الغَضَبُ في وجهه، حتى جلس على المنبر، ففطنت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر، فنزعت قرطبيها وقلادتها ومسكتيها ونزعتِ الستر وبعثت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت للرسول: قل له تقرأ عليك ابنتك السلام، وتقول لك: اجعل هذا في سبيل الله، فلما أتاها قال: قد فمكت فداها أبوها، ثلاث مرات، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جَنَاحَ بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شربة ماء، ثم قام فدخل عليها.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قومٌ عُرَاةٌ كانوا غُرَاةً بالروم، فدخل على فاطمة وقد سترت ستراً قال: أيسُرُّك أن يسترِكَ الله يومَ القيامة؟ فأعطنيه، فأعطته، فخرج به فشقه لكل إنسان ذراعين في ذراع.

وعن علي رضي الله عنه قال: زارنا النبي صلى الله عليه وسلم، فبات عندنا والحسنُ والحسين نائمان، واستسقى الحسن، فقام النبي صلى الله عليه وسلم إلى قرربة لنا فجعل يعصرها في القدح ثم جعل يصبُه^(١)، فتناول الحسين فمنعه، وبدأ بالحسن، فقالت فاطمة: يا رسول الله كأنه أَحَبُّ إليك، قال: إنما استسقى أول، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني وإياك وهذا الراقد يعني علياً يوم القيامة في مكان واحد، وعن أبي سعيد الخدري أيضاً مثله.

وعن علي قال: زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعملنا له خزيرة^(٢)، وأهدت لنا أم أيمن قعباً من لبن وصحفة من تمر، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكلنا معه، ثم وضأت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمسح رأسه وجهته بيده، ثم استقبل القبلة فدعا بما شاء، ثم أكبَّ إلى الأرض بدموع

(١) وقع في المطبوعات كلها «يعببه» تحريف ما أثبتناه

(٢) خزيرة: هي لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذر عليه الدقيق.

غزيرة^(١)، يفعل ذلك ثلاث مرات، فتهيئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسأله ،
فوثب الحسينُ على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكى ، فقال له : بأبي وأمي
ما يبكيك ؟ قال : يا أبتِ رأيتك تصنع شيئاً ما رأيتك تصنع مثله ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : بأبنيَّ سُرِرْتُُ بكم اليوم سروراً لم أسرَّ بكم مثله قط ،
وإن حبيبي جبريل عليه السلام أتاني وأخبرني أنكم قَتَلْتُمَا ، وأن مصارعكم شَتَّى ،
فأحزنتني ذلك ، ودعوت الله تعالى لكم بالخَيْرَة .

وقال ابن النجار : وبيت فاطمة اليوم حوله مقصورة وفيه محراب ، وهو
خلف حجرة النبي صلى الله عليه وسلم .

قلت : المقصورة اليوم دائرة عليه وعلى حجرة عائشة رضي الله عنها كما سيأتي
بيانه ، والمحراب الذي ذكره خلف حجرة عائشة من جهة الزور بينه وبينه موضع
تحترمه الناس ولا يدوسونه بأرجلهم ، يذكر أنه موضع قبر فاطمة رضي الله
عنها كما هو أحد الأقوال الآتية فيه ، وقد اقتضى ما قدمناه أن بيت فاطمة رضي الله
عنها كان فيما بين أربعة القبر وأسطوان التهجيد ، وأنه عَرَّسَ بها إلى الأسطوان
الذي إليه المحراب الموجود اليوم في بيتها ؛ لأن الأسطوان المواجه للزور هو
الأسطوان الذي في صف المربعة اللاصق بالجدار الداخل من الحجرة الشريفة ،
كان بعضه في حائطها الشامي ، وأدخل كله فيه في العمارة التي أدركناها ، وخلفه
الأسطوانة التي التقى عندها زاويتا الزور ، وخلفها الأسطوانة التي إليها المحراب
المذكور ؛ فيصدق عليها ما تقدم في كلام ابن شبة نقلاً عن رواية أبي غسان من
أن علياً رضي الله عنه عَرَّسَ بفاطمة إلى الأسطوان التي خلف الأسطوان المواجه
الزور ، لكن قال ابن شبة قبل ذلك ما لفظه : واتخذ علي بن أبي طالب بالمدينة
دارين إحداهما دخلت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي منزل فاطمة
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كان يسكن ، وموضعها من المسجديين دار

(١) غزيرة : كثيرة

عثمان بن عفان التي في شرقي المسجد وبين الباب المواجه دار أسماء بنت حسن ابن عبد الله بن عبيد الله بن عباس في شرقي المسجد ، والأخرى دار عليّ التي بالبقيع ، وهي بأيدي ولد عليّ حوز الصدقة ، اهـ .

وقوله « بين دار عثمان » أي ما يحاذيها ، وقوله « وبين الباب المواجه دار أسماء » أي ما يحاذيه أيضا ، وسيأتى أن هذا الباب كان بعد باب النساء مقابلا لرباط النساء المعروف اليوم برباط السبيل ، وهو بعيد من وجوه : أحدها : ما تقدم في أسطوان التهجيد من أنه كان خلف بيت فاطمة .

الثاني : أنهم متفقون على أن باب جبريل المقابل لدار عثمان كان موجودا في زمنه صلى الله عليه وسلم ، فكيف يصح كون دار عليّ في ذلك الموضع .

الثالث : أن عمر بن الخطاب أول من زاد في المسجد وأحدث باب النساء ، وهو فيما بين باب جبريل والباب الذي ذكره ابن شبة ، وبيت فاطمة إنما أدخله في المسجد الوليد ، وسند كرم ما اتفق عند إدخاله في زيادة الوليد .

وقد يقال : إن الشارع كان بين المسجد النبوي وبين بيت فاطمة من جهة مؤخره ، فيتأتى مع ذلك اتخاذ عمر لباب النساء من غير تعرض لبيت فاطمة ، وكذا يقال في باب جبريل : إنه كان في محاذة موضعه اليوم ، لكن كان الشارع بينه وبين بيت فاطمة من تلك الجهة . ويؤيد ذلك أنهم لما حفروا للدعامة الغربية التي إليها باب الحجرة الشامي عند بناء القبّة والعقود التي حولها بالحجرة الشريفة بعد الحريق الذي أدركناه وجدوا في محاذة باب جبريل أمام باب الحجرة المذكور درجا تحت الأرض آخذة لجهة الشام ، وقد سبق في حدود المسجد النبوي ما يقتضي أن جداره في المشرق كان هناك ، فترجح عندي أن تلك الدرج كانت لباب جبريل عليه السلام ، وأنه كان هناك قبل تحويله ، والله أعلم

الفصل الحادى عشر

فى الأمر بسدّ الأبواب الشارعة فى المسجد الشريف

و بيان ما استثنى من ذلك .

قال البخارى : باب قول النّبى صلى الله عليه وسلم سدّوا الأبواب إلا باب أبى بكر ، قاله ابن عباس عن النّبى صلى الله عليه وسلم ، وقد وصّله البخارى فى الصلاة بلافظ سدّوا عنى كل خوخة ، فكأنه ذكره هنا بالمعنى ، ثم أسند البخارى فى الباب حديث أبى سعيد الخدرى قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وقال : إن الله خيّر عبدا بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله . قال : فبكى أبو بكر ، فتمعّبنا لبكائه أن يخبر^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيّر ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الخير ، وكان أبو بكر أعلمنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن آمنّ الناس علىّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذًا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقينّ فى المسجد بابٌ إلا سدّ إلا باب أبى بكر .
ورواه مسلم من طريق مالك بن أنس بنحوه ، وقال : لا يبقينّ فى المسجد خوخة إلا خوخة أبى بكر .

والخوخة : طاقة فى الجدار تفتح لأجل الضوء ، ولا يشترط علوها ، وحيث تكون سفلى يمكن الاستطراق منها لاستقراب الوصول إلى مكان مطلوب ، وهو المقصود هنا ، لهذا أطلق عليها باب ، وقيل : لا يطلق عليها باب إلا إذا كانت تغلق وفى حديث ابن عباس المشار إليه فى الصلاة أن ذلك فى مرضه صلى الله عليه وسلم الذى مات فيه ، ولمسلم من حديث جندب : سمعت النّبى صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بخمس ليال ، وذكر الحديث .

(١) « أن يخبر » أى لأن يخبر ، ومعناه فتمعّبنا لبكائه من أجل أن يخبر النّبى

صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله - إلخ

وروى عبدُ الله بن أحمد برجال ثقات عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار ، سُدُّوا كل خَوْخَةَ في المسجد غير خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ .

وروى الطبراني بإسنادٍ حسنٍ عن معاوية رضى الله عنه نحوه ، وفيه أن ذلك بعد أن صُبَّ عليه صلى الله عليه وسلم من سبع قرب من آبار شتى ، ولفظه : انظروا هذه الأبواب الشَّوَارِعَ ^(١) في المسجد فسدوها إلا ما كان من باب أبي بكر . وروى أبو يَعْلَى - ورجاله ثقات - عن عائشة نحوه أيضا .

وفي طبقات ابن سعد : أخبرنا قتيبة بن سعيد البَليْخِيُّ ثنا الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن أعظم الناس على مَنْنًا في صحبته وذات يده أبو بكر ، فأغلقوا هذه الأبواب الشارعة كلها في المسجد إلا باب أبي بكر .

وقال قتيبة بن سعيد : قال الليث بن سعد : قال معاوية بن صالح : فقال ناس : أغلَقَ أبوابنا وترك باب خليله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بلغني الذي قلتم في باب أبي بكر ، وإني أرى على باب أبي بكر نورا ، وأرى على أبوابكم ظلمة .

وفيها أيضا : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني الزبير بن موسى عن أبي الحويرث قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبواب تسد إلا باب أبي بكر قال عمر : يا رسول الله دَعْنِي افْتَحْ كَوَّةً أَنْظِرْ إِلَيْكَ حين تخرج إلى الصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا

قال الخطابي وابن بطلال : في هذا الحديث إشارة قوية إلى استحقاق أبي بكر رضى الله عنه للخلافة ، ولا سيما وقد ثبت أن ذلك كان في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي أمرهم فيه أن لا يؤمهم إلا أبو بكر

(١) الشوارع : جمع شارع ، ومعناه نافذ ، أى الأبواب النافذة في المسجد

قال الحافظ ابن حجر : وقد ادعى بعضهم أن الباب كناية عن الخلافة ،
والأمر بالسد كناية عن طلبها ، كأنه قال : لا يطلبن أحد الخلافة إلا أبا بكر
ففيه لا حرج عليه في طلبها ، وإلى هذا جَنَحَ ابن حبان ، وقوى بعضهم ذلك بأن
منزل أبي بكر كان بالسُّنْح^(١) من عَوَالِي المدينة فلا يكون له خَوْخَة إلى المسجد

قال الحافظ ابن حجر : وهذا الاستناد ضعيف ؛ لأنه لا يلزم من كون منزله كان
بالسُّنْح^(١) أن لا يكون له دار مجاورة للمسجد ، ومنزله الذي كان بالسُّنْح^(١) هو منزل
أصهاره من الأنصار ، وقد كان له إذ ذاك زوجة أخرى ، وهى أسماء بنت عُمَيْس ،
بالانفاق ، وأم رومان على القول بأنها كانت باقية يومئذ ، وقد ذكر عمر بن شبة في
أخبار المدينة أن دار أبي بكر التى أذن له فى إبقاء الخوخة منها إلى المسجد كانت
ملاصقة للمسجد ، ولم تزل بيد أبي بكر حتى احتاج إلى شيء يعطيه لبعض مَنْ وفَدَ
عليه فباعها فاشتريتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم .

قلت : وسيأتى بقية ما ذكره فى إدخالها فى المسجد فى زيادة عمر رضى الله عنه
وقال ابن شبة أيضا فى ذكر دور بنى تَيْم : اتخذ أبو بكر رضى الله عنه دارا
فى زُقَاقِ البقيع قبالة دار عثمان الصغرى ، واتخذ منزلا آخر أيضا عند المسجد ،
وهو المنزل الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : سدوا عنى هذه الأبواب
إلا ما كان من باب أبي بكر .

قال أبو غسان : أخبرنى محمد بن إسماعيل بن أبى فديك أن عمه أخبره أن
الخوخة الشارعة فى دار القضاء فى غربى المسجد خوخة أبى بكر الصديق التى
قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : سُدُّوا عنى هذه الأبواب إلا ما كان من
خوخة أبى بكر الصديق ، واتخذ أبو بكر أيضا بيتا بالسُّنْح^(١) ، اه كلام ابن شبة .
وقال الجلال المطرى : وأما خوخة أبى بكر رضى الله عنه فإن ابن النجار قال :
قال أهل السير : إن باب أبى بكر كان عربى المسجد ، ونقل أيضا أنه كان قريب المنبر ،

(١) السُّنْح — بضم السين وسكون النون ويقال : بضم السين والنون جميعاً —
موضع بعوالى المدينة فيه منازل بنى الحارث بن الخزرج

ولما زادوا في المسجد إلى حده في الغرب نقلوا الخوخة^(١) وجعلوها في مثل مكانها أولاً، كما نقل باب عثمان إلى موضعه اليوم .

قال المطري : وباب خوخة أبي بكر اليوم هو باب خزانة لبعض حواصل الحرم ، إذا دخلت من باب السلام كانت على يسارك قريباً من الباب . قلت : وهذه الخزانة جعل في جهتها عند عمارة المدرسة الأشرفية ثلاثة أبواب ، ومحل الخوخة من ذلك الباب الثالث من على يسارك إذا دخلت من باب السلام ، وتعرف قديماً بخزانة النورة لوضعها فيها للعمارة .

وكلامه في ذلك يوافق ما ذكره ابن زبالة فإنه قال : وحدثني محمد بن إسماعيل عن إسحاق بن مسلم أن الخوخة التي إلى جنب باب زياد في غربى المسجد الشارعة في رحبة القضاء هي يُمْنَى خوخة أبي بكر ، لما زيد في المسجد نُحِيتْ فجعلت يمينها : أى في موازاتها من جهة اليمين ، ورحبة القضاء خلف الخوخة المتمددة وصفها من جهة الحصن العتيق المتخذ مدرسة للسلطان الأشرف بعد الحريق الذي أدركناه .

قال الخافظ ابن حجر : وقد جاء في سد الأبواب التي حول المسجد أحاديث يخالف ظاهرها ما تقدم : منها حديث سعد بن أبي وقاص قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب الشارعة في المسجد ، وترك باب على ، أخرجه أحمد والنسائي وإسناده قوى ، وفي رواية للطبراني في الأوسط رجالها ثقة : فقالوا يا رسول الله سددت أبوابنا ، فقال : ما أنا سدديتها ولكن الله سدها ، وعن زيد ابن أرقم قال : كان لنفر من الصحابة أبواب شارعة في المسجد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سدّوا هذه الأبواب إلا باب على ، فتكلم ناس في ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني والله ما سددت شيئاً ولا فتحت ، ولكن أمرت بشيء فاتبعته ، أخرجه أحمد والنسائي والحاكم ورجالهم ثقات .

(١) الخوخة - بفتح الخاء وسكون الواو - باب صغير كالنافذة الكبيرة ، وتكون

بين بيتين ينصب عليها باب ، قاله ابن الأثير .

قلت : لفظ رواية أحمد : عن زيد بن أرقم قال : كان لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبواب شارعة في المسجد ، قال : فقال يوماً : سُدُّوا هذه الأبواب إلا باب عليّ ، فتكلم أناس في ذلك ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه وقال : أما بعد فإنني قد أمرتُ بسدِّ هذه الأبواب غير باب عليّ ، فقال فيه قائلكم ، وإني والله ما سدَدْتُ شيئاً ولا فتحتُه ، الحديث .

وعن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبواب المسجد فسُدَّتْ إلا باب عليّ ، وفي رواية : وأمر بسد أبواب المسجد غير باب عليّ ؛ فكان يدخل المسجد وهو جنب ليس له طريق غيره ، أخرجهما أحمد والنسائي ، ورجاهما ثقات .

وعن جابر بن سمرة قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب كلها غير باب عليّ ، فربما مر فيه وهو جنب ، أخرجه الطبراني .
وعن ابن عمر : كنا نقول في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرُ الناس ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ولقد أعطى علي بن أبي طالب ثلاث خصال لأن يكونَ لي واحدةٌ منهن أحبُّ إليّ من حُمُرِ النّعم : زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وولدت له ، وسدَّ الأبواب إلا بابه في المسجد ، وأعطى له الراية يوم^(١) خيبر ، أخرجه أحمد ، وإسناده حسن .

وأخرج النسائي من طريق العلاء بن عرار — بمهمات — قال : قلت لابن عمر : أخبرني عن علي وعثمان ، فذكر الحديث ، وفيه : وأما علي فلا تسأل عنه أحداً ، وانظر إلى منزله من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد سدَّ أبوابنا في المسجد وأقر بابه ، ورجاله رجالُ الصحيح ، إلا العلاء وقد وثقه يحيى بن معين وغيره .

(١) أي بعد أن قال قبل إعطائها إياه : « لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله »

قال الحافظ ابن حجر : وهذه الأحاديث تقوى بعضها بعضاً ، وكل طريق منها صالحة للاحتجاج ، فضلاً عن مجموعها ، وقد أوردنا الجوزي هذا الحديث في الموضوعات ، وأخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص وزيد بن أرقم وابن عمر مقتصرأ على بعض طرقه عنهم ، وأعله ببعض من تكلم فيه من رواته ، وليس ذلك بقادح لما ذكرت من كثرة الطرق ، وأعله أيضاً بأنه مخالف للأحاديث الصحيحة الثابتة في باب أبي بكر ، وزعم أنه من وضع الرافضة قابلوا به الحديث الصحيح في باب أبي بكر .

قال الحافظ ابن حجر : وقد أخطأ في ذلك خطأ شنيعاً ؛ فإنه سلك رد الأحاديث الصحيحة بتوهمه المعارضة ، مع أن الجمع بين القصتين ممكن .

وقد أشار إلى ذلك البزار في مسنده فقال : وَرَدَ من روايات أهل الكوفة بأسانيد حسان في قصة علي ، وورد من روايات أهل المدينة في قصة أبي بكر فإن ثبتت روايات أهل الكوفة فالجمع بينهما بما دل عليه حديث أبي سعيد الخدري — يعني الذي أخرجه الترمذي — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل لأحد أن يطرق هذا المسجد جنباً غيري وغيرك ، والمعنى أن باب علي كان إلى جهة المسجد ، ولم يكن لبيته باب غيره ؛ فلذلك لم يؤمر بسده .

ويؤيد ذلك ما أخرجه إسماعيل القاضي في أحكام القرآن من طريق المطلب ابن عبد الله بن حنطب أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأذن لأحد أن يمر في المسجد وهو جنب إلا لعلي بن أبي طالب ؛ لأن بيته كان في المسجد ، ومحصل الجمع أن الأمر بسد الأبواب وقع مرتين ؛ ففي الأولى استثني علياً لما ذكره من كون بابه كان إلى المسجد ولم يكن له غيره ، وفي الأخرى استثني أبا بكر ، ولكن لا يتم ذلك إلا بأن يحمل ما في قصة علي على الباب الحقيقي ، وما في قصة أبي بكر على الباب المجازي ، والمراد به الخوخة كما صرح به في بعض طرقه ،

وكانهم لما امرُوا بسد الأبواب سدُّوها وأحدثوا خوفاً يستقربون الدخول إلى المسجد منها ، فأمرُوا بعد ذلك بسدها .

فهذه طريقة لا بأس بها في الجمع بين الحديثين المذكورين ؛ وبها جَمَعَ بينهما الطحاوي في مشكل الآثار ، والمكلا باذی في معانی الأخبار ، وصرح بأن بيت أبي بكر كان له باب من خارج المسجد وخوذة إلى داخل المسجد ، وبيت على لم يكن له باب إلا من داخل المسجد ، انتهى ما أورده الحافظ بن حجر في ذلك .

قلت : والعبارة تحتاج إلى تنقيح ؛ لأن ما ذكره بقوله « ومحصل الجمع » طريقة أخرى في الجمع غير الطريقة المتقدمة ؛ إذ محصل الطريقة المتقدمة أن البابين بَقِيَا ، وأن المأمورين بالسد هم الذين كان لهم أبواب إلى غير المسجد مع أبواب من المسجد ، وأما على فلم يكن بابه إلا من المسجد ، وأن الشارع صلى الله عليه وسلم خصّه بذلك ، وجعل طريقه إلى بيته المسجد لما سبق ، فباب أبي بكر هو المحتاج إلى الاستثناء ، ولذلك اقتصر الأَكْثَرُ عليه ، وَمَنْ ذَكَرَ باب على فإنما أراد بيان أنه لم يسد ، وأنه وقع التصريح بإبقائه أيضاً ، والطريقة الثانية تعدد الواقعة ، وأن قصة على كانت متقدمة على قصة أبي بكر رضي الله عنهما .

ويؤيد ذلك ما أسنده يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن عبد الله بن مسلم الهلالي عن أبيه عن أخيه قال : لما أمر بسد أبوابهم التي في المسجد خرج حمزة بن عبد المطلب يجرُّ قطيفةً له حمراء ، و ينها تَذَرِفَانِ يبكي يقول : يا رسول الله أخرجتَ عمك وأسكنت ابن عمك ، فقال : ما أنا أخرجتك ولا أسكنته ، ولكن الله أسكنه ، فذكر حمزة رضي الله عنه في القصة يدل على تقدمها .

وروى البزار وفيه ضعفاء قد وثقوا عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انطلق فرهم فليسدوا أبوابهم ، فانطلقت فقلت لهم ،

ففعّلوا إلا حمزة ، فقلت : يا رسول الله قد فعلوا إلا حمزة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لحمزة فليحول بابك ، فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أن تحول بابك ، فحولته ، فرجعت إليه وهو قائم يصلي ، فقال : ارجع إلى بيتك .

وروى البزار بإسناد قال الهيثمي : فيه من لم أعرفه ، عن علي رضي الله عنه قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ، فقال : إن موسى سأل ربه أن يطهر مسجده بهارون ، وإني سألت ربي أن يطهر مسجدي بك وبذريتك ، ثم أرسل إلى أبي بكر أن سدّ بابك ، فاسترجع ثم قال : سمع وطاعة ، فسد بابك ، ثم أرسل إلى عمر ، ثم أرسل إلى العباس بمثل ذلك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أنا سدّدتُ أبوابكم وفتحت باب علي ، ولكن الله فتح باب علي وسد أبوابكم »

قلت : ذكرُ العباس بدل حمزة هنا وفيما سيأتي فيه نظر ؛ لأنه يقتضي تأخر ذلك ؛ لأنه إنما قدم المدينة عام الفتح

وأُسند ابن زبالة ويحيى من طريقه عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينما الناسُ جلوس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ خرج مُنَادٍ فنادى : أيها الناسُ سدّوا أبوابكم ، فتحسحس^(١) الناس لذلك ولم يقيم أحد ، ثم خرج الثانية فقال : أيها الناس سدّوا أبوابكم ، فلم يقيم أحد ، فقال الناس : ما أراد بهذا ؟ فخرج فقال : أيها الناس سدّوا أبوابكم قبل أن ينزل العذاب ، فخرج الناس مبادرين ، وخرج حمزة بن عبد المطلب يجر كساءه حين نادى سدّوا أبوابكم ، قال : ولكل رجل منهم باب إلى المسجد أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم ، قال : وجاء علي حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما يقيمك ؟

(١) تحسحس الناس لذلك : توجهوا ، يقال : حسست لهذا الأمر أحس -

من باب ضرب - وحسست وتحسحست : أي توجهت له ورققت ونحركت

ارجع إلى رَحْلِكَ ، ولم يأمره بالسد ، فقالوا : سدَّ أبوابنا وترك باب على وهو أخذنا^(١) ، فقال بعضهم : تركه لقربا به ، فقالوا : حزة أقرب منه ، وأخوه من الرضاة وعمه ، وقال بعضهم : تركه من أجل ابنته ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم بعد ثلاثة فحمد الله وأثنى عليه حمرا وجهه - وكان إذا غضب احمر عرق في وجهه - ثم قال : أما بعد ذلكم فإن الله أوحى إلى موسى أن اتخذ مسجدا طاهرا لا يسكنه إلا هو وهارون وأبناء هارون شبرا وشيبرا ، وإن الله أوحى إلى أن اتخذ مسجدا طاهرا لا يسكنه إلا أنا وعلى وأبناء على حسن وحسين ، وقد قدمت المدينة ، واتخذت بها مسجدا ، وما أردت التحول إليه حتى أمرت ، وما أعلم إلا ما علمت ، وما أصنع إلا ما أمرت . فخرجت على ناقتي ، فلقيني الأنصار يقولون : يا رسول الله انزل علينا ، فقلت : خلوا الناقة فإنها مأمورة حتى نزلت حيث بركت ، والله ما أنا سددت الأبواب وما أنا فتحتها ، وما أنا أسكنت عليا ، ولكن الله أسكنه .

وروى أحمد بإسناد حسن عن سعد بن مالك قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب الشارعة في المسجد ، وترك باب على رضى الله عنه ، ورواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط ، وزاد : قالوا : يا رسول الله سددت أبوابنا كلها إلا باب على ، قال : ما أنا سددت أبوابكم ، ولكن الله سدها .

وأسنده يحيى عنه بلفظ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأبواب فسدت إلا باب على ، فقال العباس : يا رسول الله سددت أبوابنا إلا باب على ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا سددها ولا أنا فتحتها .

وعن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سدوا أبواب المسجد إلا باب على ، فقال رجل : أترك لي قدرا ما أخرج وأدخل ، فقال رسول

(١) أخذنا : أصغرنا سنّا

الله صلى الله عليه وسلم : لم أؤمر بذلك ، قال : أترك بقدر ما أخرج صدرى
يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أؤمر بذلك ، وانصرف ،
قال رجل : فبقدر رأسى يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم
أؤمر بذلك ، وانصرف واجدا^(١) ، يا كيا حزيننا ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : لم أؤمر بذلك ، سدوا الأبواب إلا باب على .

ورواه الطبرانى عن جابر مختصرا ، وفيه ناصح بن عبد الله ، وهو متروك ،
ولفظ الطبرانى : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب كلها غير باب على
رضى الله عنه ، فقال العباس : يا رسول الله أترك لى قدر ما أدخل أنا وحدى
وأخرج ، فقال : ما أمرت بشيء من ذلك ، فسدّها كلها غير باب على ، قال :
وربما مر وهو جنب .

وأُسند ابن زبالة ويحيى من طريقه عن عمرو بن سهل أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أمر بسد الأبواب الشوارع فى المسجد ، قال له رجل من أصحابه :
يا رسول الله دَعْ لى كُوَّةً أنظر إليك منها حين تغدو وحين تروح ، فقال : لا والله
ولا مثل ثقب الإبرة .

قلت : وقد اقتضى ذلك المنع من الخوذة أيضا ، بل ومما دونها ، عند الأثر
بسد الأبواب أولا ، فإن صح ذلك فيحمل الإذن بعده فى اتخاذ الخوخ ، ثم كانت
قصة أبى بكر بعد ذلك .

وفى طبقات ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنى عبد الرحمن بن الواقفى
عن صالح بن حسان عن أبى البداح بن عاصم بن عدى قال : قال العباس بن
عبد المطلب : يا رسول الله ما باللك فتحت أبواب رجال فى المسجد ، وما باللك
سدّدت أبواب رجال فى المسجد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عباس
ما فتحتُ عن أمرى ولا سدّدت عن أمرى ، والله أعلم .

(١) واجداً : غضبان ، وجد يجد وجداً وموجدة : أى غضب ، وفى حديث
الإيمان « إنى سائلك فلا تجد على » أى لا تغضب من سؤالى

الفصل الثاني عشر

في زيادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المسجد

سيأتي في الفصل الرابع عشر من رواية البخاري وأبي داود عن ابن عمر أن أبا بكر رضي الله عنه لم يَزِدْ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، وزاد فيه عمر ، وسيأتي في رواية لأبي داود أن سَوَارِيَّ المسجد نَحَرَتْ في خلافة أبي أبي بكر ، فبناها بجذوع النخل ، وهو لا ينافي رواية أنه لم يزد فيه ، وقال أهل السير : لم يزد أبو بكر في المسجد شيئاً لأنه اشتغل بالفتح ، فلما ولي عمر قال : إنني أريد أن أزيد في المسجد ، ولولائي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغي أن يزداد المسجد » ما زدت فيه شيئاً .

وفي تاريخ الياقبي أن زيادته فيه كانت في سنة سبع عشرة ، وذكر غيره أنه زاد في هذه السنة في المسجد الحرام ، ولم يتعرض لتاريخ زيادته في مسجد المدينة .

وأُسند ابن زبالة عن أنس قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى أبو بكر لم يحول المسجد ، فلما ولي عمر جعل أساطينه من لَبْنٍ^(١) ، ونزع الخشب ، ومده في القبلة ، وكان حد جدار عمر من القبلة ، على أول أساطين القبلة التي إليها المقصورة : أي التي كانت بين صف الأساطين التي تلي القبلة على الرواق القبلي .

والذي في صحيح البخاري وسنن أبي داود كما سيأتي أن عمر رضي الله عنه زاد في المسجد ، وبنّاه على بنائه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللَّبْنِ^(١) والجريد ، وأعاد عمده خَشَباً ، وهذا مخالف لما في رواية ابن زبالة من أن عمر جعل أساطينه من لَبْنٍ^(١) ، والمُعَوَّلُ عليه رواية الصحيح .

وروى أحمد عن نافع أن عمر رضي الله عنه زاد في المسجد من الأسطوانة

(١) اللَّبْن - بفتح فكسر - الطوب النيء الذي لم يحرق بالنار .

إلى المقصورة ، ، وقال عمر : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغى أن نزيد فى مسجدنا » ما زدت .
 وأسند يحيى عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنهما قال : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغى أن نزيد فى المسجد » ما زدت فى المسجد شيئاً .

وفى رواية له أن ابن عمر قال : إن الناس كثروا فى عهد عمر ، فقال له قائل : يا أمير المؤمنين لو وسّعت فى المسجد ، فقال عمر : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إني أريد أن أزيد فى قبلة مسجدنا » ما زدت فيه .
 وأسند ابن زبالة عن مسلم بن حباب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً وهو فى مصلاه فى المسجد « لو زدنا فى مسجدنا » وأشار بيده نحو القبلة ، فأدخلوا رجلاً وأجلسوه فى موضع مصلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رفعوا يده الرجل وخفضوها حتى رأوا أن ذلك نحو ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم رفع يده ، ثم مدوا مِقْطاً^(١) فوضعوا طرفه بيد الرجل ، ثم مدوه ، فلم يزلوا يقدمونه ويؤخرونه حتى رأوا أن ذلك فيه بما أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزيادة ، فقدم عمر القبلة ، فكان موضع جدار عمر فى موضع عيدان المقصورة .

بين عمر
والعباس

وقال ابن سعد : أنا يزيد بن هارون ، أنا أبو أمية بن يعلى عن سالم أبى النضر قال : لما كثرت المسامون فى عهد عمر رضى الله عنه وضاق بهم المسجد فاشتري عمر ما حول المسجد من الدور إلا دار العباس بن عبد المطلب وحُجِرَ أمهات المؤمنين ، فقال عمر للعباس : يا أبا الفضل ، إن مسجد المسامين قد ضاق بهم ، وقد ابتغيت ما حوله من المنازل نوسع به على المسامين فى مسجدهم لإدارك وحُجِرَ أمهات المؤمنين ، فأما حُجِرَ أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها ، وأما دارك فبعنيها بما شئت من بيت مال المسامين أو سّع بها فى مسجدهم ، فقال العباس : ما كنت لأفعل ، قال : فقال له عمر :

(١) المقاط - بكسر الميم ، بزنة الكتاب - جبل صغير شديد الفتل يكاد يقوم من شدة قتله ، قاله ابن الأثير ، وقد وقع فى المطبوعات «مدوا مقطاً» بدون ألف .

أختر منى إحدى ثلاث : إما أن تبيعنيها بماشئت من بيت المال ، وإما أن أخطك حيث شئت من المدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين ، وإما أن تصدّق بها على المسلمين فتوسع في مسجدهم ، فقال : لا ، ولا واحدة منها ، فقال عمر : اجعل بيني وبينك مَنْ شئت ، فقال : أبي بن كعب ، فانطلقا إلى أبي فقصّا عليه القصة ، فقال أبي : إن شئتما حدثكما بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالا : حدّثنا ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله أوحى إلى داود أن أبن لي بيتاً أذكر فيه ، فيخط له هذه الخطة خطة بيت المقدس ، فإذا تربيعةا بزاوية بيت رجل من بنى إسرائيل ، فسأله داود أن يبيعه إياها ، فأبى ، فحدث داود نفسه أن يأخذه منه ، فأوحى الله إليه : أن يداود أمرتك أن تبني لي بيتاً أذكر فيه ، فأردت أن تدخل في بيتي الغضب ، وليس من شأنى الغضب ، وإن عقوبتك أن لا تبنيه ، قال : يارب فمن ولدى ، قال : فمن ولدك ، فأخذ عمر بمجامع أبي بن كعب فقال : جئت بك بشيء عجبت بما هو أشد منه ، لتخرجن مما قلت ^(١) ، فجاء يقوده حتى دخل المسجد ، فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أبوذر ، فقال أبي : نشدتُ الله رجلاً سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه إلا ذكره ، فقال أبوذر : أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال آخر : أنا سمعته ، يعنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأرسل أيبا ، قال : فأقبل أبي على عمر فقال : يا عمر أتهمنى على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : والله يا أبا المنذر ما أتهمتك عليه ، ولكن أردت أن يكون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهراً ، قال : وقال عمر للعباس : اذهب فلا أعرض لك في دارك ، فقال العباس : أما إذ قلت ذلك فإنى قد تصدقت بها على المسلمين أوسع عليهم في مسجدهم ،

(١) كان عمر - رضى الله تعالى عنه - شديد الحرس على ألا يروى أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عن تثبت ، وله في ذلك حوادث كثيرة ، ومقصده بقوله « لتخرجن مما قلت » أن يجزيه بمن يشهد له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال ذلك .

فأما وأنت تخصمني فلا ، قال : فخط له عمر داره التي هي اليوم ، و بناها من بيت مال المسلمين .

وفي سنن البيهقي قبل كتاب الرجعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما أراد عمر رضي الله عنه أن يزيد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت زيادته على دار العباس رضي الله عنه ، فأراد عمر أن يدخلها في المسجد ويعوضه منها ، فأبى ، وقال : قطيعة^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاختلعا ، فجعل بينهما أبي بن كعب رضي الله عنه ، فأتيآه في منزله ، وكان يسمى سيد المسلمين ، فأمر لهما بوسادة ، فألقيت لهما فجلسا عليها بين يديه ، فذكر عمر ما أراد ، وذكر العباس قطيعة^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبي رضي الله عنه : إن الله عز وجل أمر عبده ونبيه داود أن يبني له بيتا ، قال : أي رب ، وأين هذا البيت ؟ قال : حيث ترى الملك شاهرا سيفه ، فرآه على الصخرة ، وإذا ما هناك يومئذ أنذر^(٢) لغلाम من بني إسرائيل ، فأتاه داود عليه السلام فقال : إني قد أمرت أن أبنى هذا المكان بيتا لله تعالى ، فقال له الفتى : الله أمرك أن تأخذ مني بغير رضاي ؟ قال : لا ، فأوحى الله إلى داود إني قد جعلت في يدك خزانة الأرض فأرضه ، فأتاه داود عليه السلام فقال : إني قد أمرت برضاك ، فلك بها قنطار من ذهب ، فقال : قد قبلت ، فيا داود هي خير أم القنطار ؟ فقال : بل هي ، قال : فأرضني ، قال : فلك بها ثلاث قناطير ، فلم يزل يشدد على داود حتى رضي منه بتسع قناطير ، قال العباس رضي الله عنه : اللهم لا آخذ لها ثوبا ، وقد تصدقت بها على جماعة المسلمين ، فقبلها عمر ، فأدخلها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وهذا يُفهم أن داود صلوات الله وسلامه عليه بنى بيت المقدس ، وأنه

(١) قطيعة رسول الله : أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعها إياها ، والإقطاع يكون تملكيا يستبد به وينفرد ، ويكون غير تملك كعارية وإباحة وما أشبه ذلك ، وظاهر من كلام العباس رضي الله عنه أنه كان لمسكه هذه البقعة .

(٢) الأندر والبيدر بمعنى ، وهما في لغة أهل مصر الجرن .

أول مَنْ بناه ، والرواية المتقدمة تقتضى أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه هو الذى بناه ، ويؤيده ما روى الطبرانى من حديث رافع بن عميرة مرفوعا قال : قال الله عز وجل لداود : انى لى بيتا فى الأرض ، وإن داود عليه السلام بنى المسجد ، فلما تم السور سقط ثلثاه ، فشكا ذلك إلى الله تعالى ، فأوحى الله إليه إنه لا يصلح أن يبنى لى بيتا ، وذكر قصة غير ما تقدم ، فشق ذلك على داود ، فأوحى الله تعالى إليه : إنى سأقضى ببناءه على يد أبنك سليمان .

وروى النسائى من حديث عمرو بن العاص مرفوعا بإسناد صحيح أن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خلالا ثلاثا - الحديث .

وسواء كان البانى له داود أو سليمان عليهما السلام يشكل عليه ما فى الصحيحين عن أبى ذر : سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع على الأرض ، فقال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى ، قلت : وكم بينهما ؟ قال : أربعون عاما ، ووجه الإشكال كما ذكره ابن الجوزى أن إبراهيم عليه السلام بنى الكعبة وبينه وبين سليمان أكثر من ألف سنة ، وقد مشى ابن حبان على ظاهر الحديث المذكور ، فقال : فيه رد على من زعم أن بين داود وإبراهيم ألف سنة ، ولو كان كما قال لكان بينهما أربعون سنة ، وهذا عين الحال ؛ للاتفاق على طول الزمان بين إبراهيم وموسى عليهما السلام ، ثم إن نص القرآن أن قصة داود فى قتل طالوت كانت بعد موسى بمدة .

وأجاب ابن الجوزى بأن الإشارة فى حديث الصحيحين إلى أول البناء ، ووضع أساس المسجد ، وليس إبراهيم أول من بنى الكعبة ، ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس ؛ فقد روى أن أول من بنى الكعبة آدم ، ثم انتشر ولده فى الأرض ، فجائز أن يكون بعضهم قد وضع بيت المقدس بعد ذلك بأربعين سنة ، ثم بنى إبراهيم الكعبة بنص القرآن .

وذكر ابن هشام في كتاب التيجان أن آدم عليه السلام لما بنى البيت أمره جبريل عليه السلام بالمسير إلى بيت المقدس وأن يبنيه ، فبناه ونَسَكَ فيه^(١).

وأجاب بعضهم بأن داود وسليمان عليهما السلام إنما كان لهما من المسجد الأقصى تجديدُهُ لا تأسيسه ، والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق عليهما السلام بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا القدر

ويشكل على ذلك ذكر القصة المتقدمة ؛ لأنه حينئذ لا يحتاج إلى شراء أرضه ، نعم قال الخطابي : يشبه أن يكون المسجد الأقصى وُضِعَ قبل داود وسليمان ، ثم زادا فيه ووسَّعاه فأضيف إليهما بناؤه ، فيحتمل حينئذ أن القصة المتقدمة وقعت فيما وقع الأمر بزيادته فيه ، ويؤيد ذلك ما رواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي يحيى الضريس زيد بن الحسن البصري حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب أنه قال للعباس رضى الله عنهما : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : نزيد في المسجد ، ودارك قريبة من المسجد ، فأعطيناهما نزيدهما فيه ، وأقطع لك أوسع منها ، قال : لا أفعل ، قال : إذا أغلبك عليها ، قال : ليس لك ذلك ، قال : فأجعل بيني وبينك من يقضى بالحق ، قال : ومن هو ؟ قال : حذيفة بن اليمان ، قال : فجاءوا إلى حذيفة رضى الله عنه ، فقصوا عليه ، فقال حذيفة : عندى في هذا خبر ، قالوا : وما ذاك ؟ قال : إن داود النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يزيد في بيت المقدس ، وقد كان بيت قريب من المسجد لَيْتِيْمٍ ، فطلب إليه فأبى ، فأراد أن يأخذه منه ، فأوحى الله عز وجل إليه أن أنزله البيوت عن الظلم لَيْتِيْمٍ ، قال : فتركه ، فقال له العباس : فبقي شيء ؟ قال : لا ، قال : فدخل عمر المسجد فإذا ميزاب للعباس شارعٌ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسيل ماء المطر منه ، فقال عمر بيده فقلع الميزاب ، فقال : هذا الميزاب لا يسيل في مسجد رسول الله

(١) نسك فيه : النسك - بضم النون والسين جميعاً - العبادة والطاعة وكل ما تقرب به إلى الله تعالى ، وما أمرت به الشريعة ، والناسك : العابد ، وأصل مأخذه من النسيك ، وهى سبيكة الفضة المصفاة ، كأنه سعى بذلك لأنه صفى نفسه لله تعالى .

صلى الله عليه وسلم ، فقال له العباس : والذي بعث محمدا بالحق إنه هو الذي وضع هذا الميزاب في هذا المكان ونزعتته أنت يا عمر ، فقال عمر رضى الله عنه : ضَع رجلك على عنقي لترده إلى ما كان ، ففعل ذلك العباس ، ثم قال العباس رضى الله عنه [قد أعطيتك الدار تزويدها^(١)] في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادها عمر في المسجد ، ثم قطع للعباس دارا أوسع منها بالزوراء ، وقال الحاكم : هذا الحديث كتبناه [عن أبي جعفر وأبي على الحافظ^(٢)] ولم يكتبه إلا بهذا الإسناد ، والشيخان لم يحتجا بعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال : وقد وجدت له شاهدا من حديث أهل الشام ، ثم ساقه من طريق شعيب الخراساني عن عطاء الخراساني عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أراد أن يزيد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت منازعة على دار العباس ، فذكر نحوه .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن عبد الله بن أبي بكر قال : كان للعباس بيت في قبلة المسجد ، وكثر الناس ، وضاق المسجد ، فقال عمر للعباس : إنك في سعة فأعطني بيتك هذا أوسع به في المسجد ، فأبى العباس ذلك عليه ، فقال عمر : إني أئمنك وأرضيك ، قال : لا أفعل ، لقد ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عاتقي وأصلح ميزابه بيده فلا أفعل ، قال عمر : لا أخذته منك ، فقال أحدهما لصاحبه : فأجعل بيني وبينك حكما ، فجعلا بينهما أبي بن كعب ، فأتياه فاستأذنا على الباب ، فحبسهما ساعة ثم أذن لهما وقال : إنما حبستكما أنى كنتم كما كانت الجارية تغسل رأسى ، فقص عليه عمر قصته ، ثم قص عباس قصته ، فقال : إن عندي علما مما اختلفتما فيه ، ولأفضين بينكما بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعته يقول : إن داود لما أراد أن يبنى بيت المقدس وكان بيت ليتيمين من بنى إسرائيل في قبلة المسجد

(١) هذه الزيادة عن كتاب المستدرک لأبى عبد الله الحاكم (ج ٣ ص ٣٣٢ طبع حيدرآباد سنة ١٣٤١) وفي موضعها بياض في أصول كتابنا هذا .

فأراد منهما البيع فأبى عليه ، فقال : لآخذنه ، فأوحى الله عز وجل إلى داود : إن أغنى البيوت عن المظامة بيتي ، وقد حرمت عليك بنيان بيت المقدس ، قال : فسلیمان ، فأعطاه سلیمان ، فقال عمر لأبي : ومن لي بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا ؟ فقال أبي لعمر : أتظن أني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لتخرجن من بيتي ، فخرج إلى الأنصار فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ؟ فقال هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ، حتى قال ذلك رجال ، فلما علم ذلك عمر قال : أما والله لو لم يكن غيرك لأجزت قولك ، ولكني أردت أن أستثبت .

وفي رواية ليحيى عن أبي الزناد أن عمر بن الخطاب لما زاد في المسجد دعا من كان له إلى جانبه منزل فقال : اختاروا مني بين ثلاث خصال : إما البيع فأثمن ، وإما الهبة فأشكر ، وإما الصدقة على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابه الناس ، وكان للعباس دار عن يمين المسجد ، فدعاه عمر ، فقال : يا أبا الفضل اختر مني بين ثلاث خصال ، وذكر نحو ما تقدم ، فقال العباس : ما أجيبك إلى شيء مما دعوتني إليه ، فقال عمر : إذا أهدمها ، فقال العباس : مالك ذلك ، وذكر التحاكم إلى أبي ، وقصة بيت المقدس مع مخالفة في ذكر قصته لبعض ما تقدم .

وفي رواية له عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه كلف العباس في داره ، وكانت في ما بين موضع الأسطوان المربعة التي تلي دار مروان بن الحكم ، قطعة كان قطع له النبي صلى الله عليه وسلم ، فكلمه عمر رضى الله عنه يدخلها في المسجد ، وأعطاه بها ثمننا حسنا ، وقال : يا أبا الفضل إن الناس قد شكوا ضيق مسجدكم ، وأحبوا الاتساع ، فأبى العباس أن يبيعه ، فقال عمر : أنا أعطيك خيرا منها في أي نواحي المدينة شئت ، فأبى العباس ذلك ، فقال عمر : فتصدق على الناس ، فأبى

فقال عمر : لآخذنه ، فقال العباس : ايس ذلك لك ، قال عمر : اجعل بيني وبينك رجلا ، فجعلأبى بن كعب ، فأتياه فحبسهما ساعة ثم أذن لهما ثم قال : إن جاريتى كانت تغسل رأسى ، فأيسكما يستعدى على صاحبه ؟ فقال عمر : أنا ، جعلناك حكما بيننا ، وما رأيت من أمرٍ لزمنا ، فقال أبى : ماتقول يا أبا الفضل ؟ قال : أقول ذلك ، فذهب عمر يتكلم ، فقال أبى : تكلم يا أبا الفضل ، دعه يابن الخطاب يتكلم لمكانه من نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فتكلم العباس فقال : هذه خِطَّة خَطَّها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابتنيتهُ وبنها رسول الله صلى الله عليه وسلم معى ، وهو والله شدَّ هذا الميزاب الذى يصبُّ فى المسجد ، وذكر القصة أيضا ، وأن العباس قال : أما إذ قضيت به لى فهو صدقة على المسلمين أما والله يا عمر لقد هدمت الميزاب وما شددته إلا ورجلاى على عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عمر : فوالله لا تشدُّه إلا ورجلاك على عاتق ، قال : ثم هدم الدار ووسَّع فى المسجد وغيَّر جذوعا كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أسفلها قد أكلته الأرَّضة .

وقد أورد رزين فى كتابه خبر ابن عمر المتقدم ، ولفظه : عن نافع عن ابن عمر قال : إن الناس كثروا فى عهد عمر رضى الله عنه ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين لو وسَّعت لنا فى المسجد ، فزاد فيه عمر ، فكلّم عمر العباس فى داره ، وكانت لاصقةً بالمسجد ، وقال له : أعطيك خيرا منها وتصدق به على الناس ، فأبى العباس ، وقال : خَطَّها لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ووضع ميزابها بيده ، فقال عمر : فإى آخذها ، قال العباس : ليس لك ذلك ، فجعلأبى بينهما أيما ، فحبسهما ساعة ثم أذن لهما فقصَّصا عليه خبرهما ، فقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لما أراد داود عليه السلام أن يبنى بيت المقدس كان ليتيمين من بنى إسرائيل بيتٌ فى الموضع الذى خط أن يبنى المسجد عليه ، فقال لهما : ييمعاهُ منى

(١) الحطة - بالكسر - الأرض يخطها الإنسان لنفسه ، بأن يعلم عليها علامة ويخط عليها خطا ليعلم أنه قد احتازها ، قاله ابن الأثير .

ورغبهما في الثمن ، فباعاه ثم قال له : الذي أخذت منا خير أم الذي أعطيتنا ؟ قال الذي أخذت ، قالوا : فإننا لا نجيز البيع ، فزادها حتى كان ذلك منهما ومنه سبع مرات ، فقال : أزيد كما كذا وكذا على أن لا تسألاني ، فقال له : نبيعتك بحكمنا ولا نسألك ، قال : افعل ، فطلباه منه مالا كثيرا ، فتعاضم ذلك داود^(١) ، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى داود : إن كنت إنما تعطيهم ما من مالك فأنت أعلم ، وإن كنت إنما تعطيهم ما من رزقنا فأعطيهم حتى يرضوا فإن أغنى البيوت عن مظلمة بيتي ، وقد حرمت عليك بناءه ، فقال داود : يارب فأعطه سليمان ، ففرض به أبي للعباس : فقال العباس : أما إذ قضيت لي به فهو صدقة على المساكين ، فذهب عمر فهدم الميزاب فأسف العباس لما وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال : والله لقد وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن رجليه لعل عاتق^(٢) ، فقال عمر للعباس : والله لتردنه ورجلاك على عاتق^(٣) ، فرده ، ثم قال عمر للعباس : أهدم الآن بيدك . وقد روى أن نزع الميزاب كان قبل ذلك لأجل أنه كان يسكب الماء داخل المسجد المزوق به^(٤) ، انتهى لفظ رواية رزين .

وروى يحيى بسند جيد عن سفیان ابن عيينة عن موسى بن أبي عيسى قال : كان في دار العباس ميزاب^(٥) يصب في المسجد ، فجاء عمر فقلعه ، فقال العباس : إن النبي صلى الله عليه وسلم الذي وضعه بيده ، فقال عمر للعباس : لا يكن لك سلم إلا ظهرى حتى ترده مكانه .

وروى ابن إسحاق عن أسباط بن محمد عن هشام بن سعد عن عبد الله بن عباس قال : كان للعباس ميزاب على طريق عمر ، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة وقد كان ذبح للعباس فرخان ، فلما وافى الميزاب صب فيه ماء من دم الفرخين ،

(١) تعاضم ذلك : رآه عظيما ، يريد أنه استكثر المقدار الذي طلبا .

(٢) المزوق به : يعنى أنه واقع في اصق المسجد ، والزاي والسین والصاد حروف يقع بعضها موقع بعض .

فأصاب عمر ، فأمر عمر بقلعه ، ثم رجع فطرح ثيابه ، ثم لبس غيرها ، ثم جاء فصلى بالناس ، فأثابه العباس فقال : والله إنه الموضع الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر للعباس : فأنا أعزم عليك ^(١) لما صعدت على ظهري حتى تضعه فى الموضع الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم [فيه ^(٢)] ، ففعل ذلك العباس .

ورواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث هشام بن سعد عن عبيد الله بن عباس أخى عبد الله فذكره ، وكذا رواه ابن سعد ، وقال ابن أبى حاتم : إنه سأل أباه عنه ، وقال : هو خطأ ، وأخرجه ابن سعد من طريق موسى بن عبيدة عن يعقوب أن عمر خرج فى يوم جمعة ، فذكره بنحوه .

وروى يحيى عن أبى مصعب الزهرى الفقيه قال : حدثنا يوسف بن الماجشون عن الثقة أنه كان فى دار مروان ميزابٌ يصبُّ على الناس إذا خرجوا من المسجد فى المطر ، وكانت دار مروان للعباس بن عبد المطلب ، فأمر عمر بن الخطاب بذلك الميزاب فنزع ، فجاءه العباس بن عبد المطلب فقال : أما والله لو ضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، قال : فأعاده عمر حيث كان ، وقال : والله لا تعيده إلا وأنت على رقبتى ، فأعاده العباس يومئذ على رقبة عمر .

قلت : وهذه الدار بقية من التى وقع النزاع المتقدم فيها ، ونسبتها إلى مروان لما سيأتى أنها دخلت فى داره ، وروى أنها مرَّ بدُّها ، فكأن هذا الميزاب كان فى تلك البقية ، فيجمع بين الروايات بأنه كان للدار المذكورة ميزابان : ميزاب يصب فى المسجد ، وميزاب يصب فى الطريق ، واتفق فى كل منهما قصة ، ويؤيد ذلك ما رواه يحيى فى زيادة عثمان رضى الله عنه عن الأعمش قال : بنى عباس بن عبد المطلب داره التى إلى جنب المسجد ، فجعل يرتجز يقول :

(١) أعزم عليك : أشدد عليك وأوجب وأؤكد

(٢) كلمة « فيه » ساقطة من المطبوعات كلها .

بنيتهما باللبن والحجارة * والخشبات فوقها مطاره

* ياربنا بارك لأهل الدار^(١) *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَللّهُمَّ بَارِكْ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، قَالَ : وَجَعَلَ الْعَبَّاسُ مِيزَابَهَا لاصِقًا بِبَابِ الْمَسْجِدِ يَصُبُّ عَلَيْهِ ، فَطَرَحَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ عَبَّاسٌ : أَمَّا وَاللّهِ مَا شَدَّه إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنَّهُ لَعَلَى^(٢) مِنْكِبِي^(٢) ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : لَا جَرَمَ وَاللّهِ لَا تَشْدُهُ إِلَّا وَأَنْتَ عَلَى مِنْكِبِي^(٢) ، فَشَدَّهُ عُمَرُ ، وَابْتَاعَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ تِلْكَ الدَّارَ فَزَادَهَا فِي الْمَسْجِدِ إِلَّا ثَلَاثَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا أَوْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا ، فَقَالَ : لَا أَدْرَى كَانَ ابْتِاعَ الْبَقِيَّةَ أَمْ لَا ؟ .

قلت : فالذي يظهر أن العباس أبقى لنفسه بقية الدار بعد أخذ ما احتجج إلى زيادته منها ، وأنه كان في تلك البقية ميزاب ، فلما أحدث عمر الباب الذي عند دار مروان كما سيأتي صار الميزاب يصب على الباب في طريق المسجد ، ثم اشترى عثمان من تلك البقية ما احتاج إلى إدخاله في زيادته .

وروى ابن أبي الدنيا قصة دار العباس هذه مطولة ، وقال : إن العباس قال لعمر : أَمَّا وَاللّهِ مَا شَدَّه إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا مَعَهُ ، كَحَمَلَنِي وَاللّهِ عَلَى عَاتِقِهِ حِينَ شَدَّهُ ، قَالَ : وَبَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ : بَلِ الْعَبَّاسُ حَمَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال محمد بن عتبة — يعنى راويه — : مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَضَعَ قَدَمِيهِ عَلَى رَقَبَةِ أَبِيهِ أَوْ عَمِّهِ ، وَلَسْكَنَهُ حَمَلَ الْعَبَّاسِ عَلَى عَاتِقِهِ ، وَقَوْلُ يُحْيَى فِي رِوَايَةِ ابْنِ عَمْرِو الْمُتَقَدِّمَةِ « وَكَانَتْ — يَعْنِي دَارَ الْعَبَّاسِ — فِيمَا بَيْنَ الْأَسْطُوَانِ الْمَرْبُوعَةِ الَّتِي تَلَى دَارَ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ » أَيْ وَالْبَابِ الَّذِي يَلِي دَارَ مَرْوَانَ لِدُخُولِ بَعْضِهَا فِي دَارِ مَرْوَانَ . قَالَ الزَّيْنُ الْمُرَاغِي : وَسَيَأْتِي بَيَانُ الْمَرْبُوعَةِ ، أَيْ فِي زِيَادَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ

(١) الدارة ، والدار : بمعنى واحد .

(٢) المنكب — بفتح الميم وكسر الكاف — وهو ما بين الكتف والعنق .

عنه ، وقد ذكر هناك تبعاً للمطري أنها الأسطوانة التي في صف الأساطين التي تلي القبلة ، وقد رفع أسفلها مر بما قدر الجلسة .

قلت : والتي تليها مر بعة أيضا ، وهي التي تلي دار مروان ؛ فهي المراد هنا كما قدمنا الإشارة إليه في تحديد المسجد النبوي ، وهي الخامسة من المنبر في جهة المغرب ، فيكون ابتداء زيادة عمر رضى الله عنه من جهة المغرب من الأسطوانة المذكورة ، خلاف قول المطري والمراغى إن المربعة التي ذكرها قبل هذه منتهى زيادة عمر رضى الله عنه ، وكيف يكون منتهى زيادته مع كونها مبتدأ دار العباس التي هي أول الزيادة ؟ وأيضا فذرع ما بين الأسطوان التي ذكرها والحجرة الشريفة نحو تسعين ذراعا ، وقد قال يحيى في رواية ابن عمر أيضا « إن المسجد كان طوله أى من القبلة إلى الشام على عهد عمر رضى الله عنه أربعين ومائة ذراع وعرضه عشرون ومائة ، وطول السقف أى ما بينه وبين الأرض أحد عشر ذراع » انتهى . وكيف يصح أن يكون الأسطوان المذكور نهاية زيادته ؟ بل ابتداء زيادته من الأسطوان التي تليها ، فيكون زيادته بعد الأسطوان المذكورة في جهة المغرب عشرين ذراعا ، لما قدمناه من رواية أن المسجد كان عرضه مائة ذراع فزيادته عشرون ، وذلك نحو أسطوانين ، فيكون نهاية المسجد في زمنه من تلك الجهة الأسطوانة السابعة من غربى المنبر ، ومن المشرق الحجرة الشريفة ، لأنه لم يزد في تلك الجهة شيئا ، ومن القبلة صف الأساطين التي تلي القبلة ، وكانت إليها المقصورة الآتى ذكرها ، وقد احترقت ، ومن بقاياها خشبة في سفلى الأسطوان التي في هذا الصف عن يسار مستقبل الحراب العثمانى ، مثبتة تلك الخشبة في الأسطوان المذكور مما يلي الأرض ، وقد زالت في الحريق الثانى ؛ فزيادة عمر رضى الله عنه من جهة القبلة الرواق المتوسط بين الروضة ورواق القبلة ، وذلك نحو عشرة أذرع ، وأما الشام فيستفاد من كون المسجد كان طوله في زمنه أربعين

ومائة ذراع ، وأن منها في جهة القبلة نحو عشرة أذرع أنه يمتد في زمنه بعد الحجرين المتقدم ذكرهما في حدود المسجد الأصلي اللذين في صحنه نحو ستين ذراعا ؛ لأننا قدمنا أن من مقدم المسجد الأصلي إليهما نحو السبعين فقط .

وبقى أمر آخر لم أر من نبه عليه ، وهو أن حُجَرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كان بعضها في جهة الشام كما تقدم ، ومقتضى ما قدمناه من رواية ابن سعد — وهو ظاهر ما سيأتى في زيادة الوايد — أن عمر رضى الله عنه لم يُدْخِلْ منها شيئا في المسجد ، وإنما أدخلها الوليد ، فكأن عمر ترك ما كان منها في جهة الشام قائما على حاله ، وصار المسجد حواليتها .

وقال السيد القرافى في ذيله : واشترى عمر أيضا نصف موضع كان خطه النبي صلى الله عليه وسلم لجعفر بن أبي طالب وهو بالحبيشة دارا بمائة ألف فزاده في المسجد .

قلت : سيأتى من رواية يحيى أن الذى شَرَى ذلك عثمان رضى الله عنه ، كذا في النسخة التى رواها ابن ابنه الحسن بن محمد عنه ، ثم رأيت فى النسخة التى رواها ابنه طاهر عنه ما ذكره القرافى ، ولم يذكر ابن زباله ويحيى وغيرها إدخال عمر دار أبى بكر رضى الله عنه فى المسجد ، ويتعين أن يكون عمر هو الذى أدخلها ؛ لما سبق فى الفصل قبله من أن باب خَوْخَتِها كان غربى المسجد ، وأن الخَوْخَةَ المجمولة فى محاذاتها عند إدخال الدار هى الخَوْخَةُ الموجودة اليوم غربى المسجد ، وهذا لا خلاف فيه عند المؤرخين ، ولهذا قال ابن الفجار نقلا عن أهل السير : كانت خَوْخَةُ أبى بكر فى غربى المسجد ، فعلمنا بذلك أن دار أبى بكر كانت فى غربى المسجد ، وأن عمر رضى الله عنه أدخلها ، لكن قال الحافظ ابن حجر : إن ابن شبة ذكر فى أخبار المدينة أن دار أبى بكر التى أُذِنَ له فى إبقاء الخَوْخَةَ منها إلى المسجد كانت مُلَاصِقَةً للمسجد ، ولم تزل بيد أبى بكر حتى احتاج

إلى شيء يُعطيه لبعض مَنْ وفد عليه ، فباعها ، فاشتريتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم ، فلم تزل بيدها إلى أن أرادوا توسيع المسجد في خلافة عثمان ، فطلبوها منها ليوسعوا بها المسجد ، فامتنعت وقالت : كيف بطريق إلى المسجد ؟ فقيل لها : نعطيك دارا أوسع منها ونجعل لك طريقا مثلها ، فسلمت ورضيت .

قلت : هذه القصة إنما ذكرها ابن شبة في دار حفصة التي في قبلة المسجد ^(١) ، وذكر معها شراءها لدار أبي بكر المذكورة بصيغة تقتضي التضعيف ، واقتضى ذلك أن دار أبي بكر كانت في قبلة المسجد على تلك الرواية الضعيفة ، وأن طريق آل عمر اليوم منها ، فنسب إليه الحافظ ابن حجر الجزم به ^(٢) ، وليس الأمر كذلك كما سنوضحه إن شاء الله تعالى في الفصل الرابع عشر .

وقال يحيى في روايته المتقدمة : وجعل أساطينه من جذوع نخل وسقفه بالجريد ذراعين فوق المسجد سترة حائطه ثلاثة أذرع ، وعبر ابن النجار عن ذلك بقوله : وسقفه جريد ذراعان ، وبنى فوق ظهره سترة ثلاثة أذرع ، انتهى . والذي يظهر أن في عبارة يحيى خللا ، وتبعه عليه ابن النجار ، وأن المراد ما ذكره رزين في هذه الرواية بعينها ، فإنه قال فيها : وجعل عمر سترة المسجد فوقه ذراعين أو ثلاثة ، فكان لفظ « أو » سقط قبل قوله ثلاثة أذرع .

وقال يحيى ورزين عقب ذلك : وكان بنى أساسه بالحجارة إلى أن بلغ قامة ، زاد يحيى : وكان لبنه ضرب به بالبقيع ، وجعل له ستة أبواب : بابين عن يمين القبلة ، وبابين عن يسارها ، وبابين خلف القبلة ، ولم يغير باب عائكة - أى المعروف بباب الرحمة - ولا الباب الذى كان يدخل منه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو فتحة الباب الذى عند القبر ، فهذان البابان من الشق الأيسر : أى

(١) يريد في جهة القبلة منه .

(٢) الجزم به : أى القطع به وعدم التردد فيه .

المشرق ، وفتح الباب الذى عند دار سروان بن الحسك ، وفتح بابين من مؤخر المسجد ، انتهى .

وقوله : « إنه لم يغير باب عاتكة ، ولا الباب الذى كان يدخل منه النبي صلى الله عليه وسلم » مُسَلَّم فى الباب الذى كان يدخل منه النبي صلى الله عليه وسلم . قال المراغى تبعاً للمطري : وهو باب جبريل ؛ لأنه لم يزد فى جهة المشرق شيئاً ، وأما باب عاتكة ففيه نظر ؛ لأنه زاد من جهة المغرب كما تقدم ، فالمراد بكونه لم يغير أنه أخره فى محاذاة الباب الأول ، وهذه الرواية تقتضى أن الباب المعروف اليوم بباب النساء لم يكن موجوداً فى زمن عمر رضى الله عنه ؛ لأن الاستفادة مما ذكره أن الباب الذى زاده فى جهة المشرق جعله عند القبر ، ولعله تصحيف ؛ لأنه إذا لم يزد من جهة المشرق شيئاً كيف يحدث باباً عند القبر ويترك الجهة التى زادها من جهة الشام بغير باب ؟ والمنقول كما سيأتى أن إحداث الباب الذى عند القبر إنما هو فى زيادة الوليد ، وسيأتى فى سبب تسميته باب النساء أن عمر رضى الله عنه قال حين بنى المسجد : هذا باب النساء ، كما رواه يحيى ؛ فتبين أن باب النساء هو الباب الباقي فى جهة المشرق على عهد عمر رضى الله عنه ، وأنه الذى أحدثه ، وسيأتى فى زيادة عثمان عند ذكر اقتصاره على الأبواب التى جعلها عمر ما هو كالصریح فى ذلك ، والله أعلم .

وفى البخارى تعليقا عن أبي سعيد قال : أمر عمر ببناء المسجد ، وقال : أكنُ الناس من المطر ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس^(١) .

وروى ابن شبة ويحيى من طريق عبد العزيز بن عمران عن مايح بن سليمان عن ابن أبي عمرة قال : زاد عمر بن الخطاب فى المسجد من شاميهِ ، ثم قال : لوزدنا فيه حتى يبلغ به الجبَّانة كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زاد

(١) أكنُ الناس فيه : أى أسترهم فيه ، و«إياك أن تحمر أو تصفر» يريد لا تجعل فيه ألواناً من الطلاء فتشغل الناس بالنظر إليه عن الخشوع الواجب للصلاة .

يحيى : وجاء الله بعامر، وعبد العزيز هو ابن أبي ثابت ، تركوه ، كانت كتبه قد احترقت فحدث من حفظه فاشتد غلظه .

وروى يحيى من طريق ابن زبالة وهو ضعيف : حدثني محمد بن إسماعيل عن ابن أبي ذئب قال : قال عمر بن الخطاب : لو مدَّ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذى الحليفة لكان منه ، ورواه ابن شبة من طريق أبي غسان المدني بدل ابن زبالة ، وعلى كل حال هو مُعْضَل^(١) .

وروى ابن شبة ويحيى والديلمي في مسند الفردوس بسندٍ فيه متروكٌ عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو بنى هذا المسجد إلى صنعاء كان مسجدي ، وكان أبو هريرة يقول : لو مد هذا المسجد إلى باب دارى ما عدّوت أن أصلى فيه ، ثم قال يحيى : وحدثنا هرون بن موسى نبأ عمر بن أبي بكر الموصلى عن ثقاتٍ من علمائه قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مسجدي ، وما زيد فيه فهو منه ، ولو بلغ بمسجدي صنعاء كان مسجدي .

قلت : وهو منقطع ، لكن اجتماع هذه الروايات تقوى ما قدمناه في آخر الفصل الثانى عن مالك رحمه الله من أن المضاعفة الواردة في المسجد النبوى تعم ما زيد فيه ، والله أعلم .

الفصل الثالث عشر

في البطيحاء التى بناها عمر رضى الله عنه بناحية المسجد ، ومنعه من إنشاد الشعر ورفع الصوت فيه ، وما جاء فى ذلك .

روى ابن شبة ويحيى بسندٍ جيد عن سالم بن عبد الله أن عمر - يعنى ابن الخطاب - اتخذ مكاناً إلى جانب المسجد يقال له « البطيحاء » وقال : مَنْ أراد

(١) المعضل من الحديث : نوع من المنقطع ، وهو - فى الأشهر - الذى سقط من روايته اثنان على الولاء فأكثر ، وذلك بأن يروى تابع التابعى حديثاً يقفه على التابعى ، فيسقط منه الصحابى والرسول صلى الله عليه وسلم ، مثلاً .

أن يلفظ^(١) أو يرفع صوتاً أو ينشد شعراً فليخرج إليه، ولَفْظُ يحْيى : أن عمر بن الخطاب بنى في ناحية المسجد رحبة تدعى البطيحاء ، ثم قال : مَنْ أراد أن يلفظ^(١) أو ينشد شعراً أو يرفع صوتاً فليخرج إلى هذه الرحبة ، زاد ابن شبة عقيب روايته من طريق محمد بن يحيى : قال محمد : وقد دَخَلْتُ تلك البطيحاء في المسجد فيما زيد فيه بعد عمر رضى الله عنه .

وذكر ابن شبة في موضع آخر ما يبين أن البطيحاء كانت في جهة شرق المسجد مما يلي مؤخره زمنَ عمر رضى الله عنه ، فإنه قال : اتخذ خالد بن الوليد داره التي كانت بالبطيحاء ، إلى آخر ما سيأتى عنه ، مع بيان أنها الرباط المعروف اليوم برباط السبيل في شرق المسجد .

وروى ابن شبة أيضاً بسند جيد عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه كان إذا خرج من الصلاة نادى في المسجد : إياكم واللفظ^(١) ، ويقول : ارتفعوا في أعلى المسجد

ورواه يحيى بلفظ : كان إذا خرج إلى الصلاة

و روى ابن شبة بسند جيد إلا أن فيه عن عنة ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة أن عمر رضى الله عنه سمع ناساً من التجار يذكرون تجارتهم والدنيا في المسجد ، فقال : إنما بنيت هذه المساجد لذكر الله ، فإذا ذكرت تجارتكم ودنياكم فاخرجوا إلى البقيع

وروى أيضاً عن شيخه سليمان بن داود قال : حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع صوت رجل في المسجد ، فقال : أتدرى أين أنت ؟ كأنه كره الصوت

وعن عبد الرحمن بن حاطب قال : كان بين عثمان وطلحة تلايح في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ عمر رضى الله عنه ، فأتاها وقد ذهب عثمان

(١) لفظ يلفظ لفظاً - بوزن فرح يفرح فرحاً - ضج وصوت صوتاً لا يفهم معناه

وبقى طلحة ، فقال : أتى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقولان الهُجْرَ وما لا يصلح من القول ؟ قال : فجئنا طلحة على ركبتيه وقال : إني والله لأنا المظلوم المشتوم ، فقال : أتى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقولان الهُجْرَ وما لا يصلح من القول ؟ ما أنت منى بنكاج ، فقال : الله الله يا أمير المؤمنين ، فوالله إني أنا المظلوم المشتوم ، فقالت أم سامة من حُجْرَتِها : والله إن طلحة هو المظلوم المشتوم ، قال : فكفَّ عمرُ رضى الله عنه

وعن السائب بن يزيد قال : كنت مضطجعا في المسجد ، فحَصَبَنِي رجل^(١) ، فرفعتُ رأسي ، فإذا عمر رضى الله عنه فقال : اذْهَبْ فَأَتْنِي بِهِذَيْنِ الرَّجْلَيْنِ ، فُجِّتَ بهما ، فقال : مَنْ أَتَمَّا ؟ أو من أين أَتَمَّا ؟ قالا : من أهل الطائف ، قال : لو كنتما من أهل البلد ما فارقتما حتى أوجعكما جَلْدًا ، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم !؟

وعن طارق بن شهاب أن عمر رضى الله عنه أتى برجل في المسجد وقد أخذ في شيء ، فقال : أَخْرِجَاهُ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاضْرِبَاهُ ، أو أضربوه وروى يحيى عن نافع أن عمر بينما هو في المسجد عِشَاءَ إذ سمع ضحك رجل ، فأرسل إليه فقال : من أنت ؟ فقال : أنا رجل من ثقيف ، فقال : أمن أهل البلد أنت ؟ فقال : بل من أهل الطائف ، فتوَعَّدَهُ فقال : لو كنت من أهل البلد لنكَلْتُ بك ، إن مسجدنا هذا لا تُرْفَعُ فِيهِ الْأَصْوَاتُ

وعن ابن سيرين أن ابن مسعود سمع رجلا يرفع صوته في المسجد ، فسَبَّه ، فقيل له : ما كنت فِجَّاشًا ، فقال : أَمِرُّنَا بِهَذَا

وروى ابن زبالة ويحيى عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب مرَّ بِحَسَّانِ ابن ثابت وهو ينشد في المسجد ، فلحظ إليه ، فقال حسان : قد كنتُ أنشد وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال : أنشدك الله هل سمعت

(١) حصبي : رماني بالخصباء ، وهى صغار الحصى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أَجِبْ عَنِّي ، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ »
قال : اللهم نعم ، وقد رواه البخاري في الصحيح بنحوه ، وفي رواية ليعحي عقب
قوله « قد كنت أنشد فيه من هو خير منك » فانصرفت عمر وقد عرف أنه يريد
النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية ذكرها الحافظ ابن حجر فقال : كنت أنشد
فيه وفيه من هو خير منك ، وفي الترمذي من طريق أبي الزناد عن عمرو بن
عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصبُ لسان منبره في المسجد ،
فيقوم عليه يهجو الكفار

وأما ما رواه ابن خزيمة في صحيحه والترمذي وحسنه من طريق عمرو بن
شعيب عن أبيه عن جده قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تناشد
الأشعار في المساجد ، قال الحافظ ابن حجر : صحيح إلى عمرو ، فمن يصحح نسخته
يصححه ، وفي هذا المعنى عدة أحاديث ، لكن في أسانيدھا مقال ، والجمع بينها
وبين ما تقدم أن يُحمَل النهي على تناشد أشعار الجاهلية والمبطلين ، وهو مراد عمر بقوله :
من أراد أن ينشد شعرا فليخرج إلى هذه ، يعني البطيحاء ، والمأذون فيه ما سلم من
ذلك ، وقيل : النهي عنه ما إذا كان غالبا على المسجد حتى يتشاغل به مَنْ فيه ،
وأبعد بعضهم فأعمل أحاديث النهي ، وادعى نسخ الإذن ، ولم يوافق على
ذلك . وروى ابن زبالة عن علي بن زيد بن جدعان قال : أنشد كعب بن زهير
رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد أبياتا

* بَأَنْتَ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبِعُ^(١) * والله أعلم

الفصل الرابع عشر

في زيادة عثمان بن عفان رضي الله عنه

روينا في صحيح البخاري وسنن أبي داود عن نافع أن عبد الله - يعني
ابن عمر - أخبره أن المسجد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) هذا صدر مطلع قصيدة كعب ، وعجزه * متيم إثرها لم يفد مكبول * .

مَبْنِيًّا بِاللِّبْنِ ، وسقفه الجريد ، وعمده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئا ، وزاد فيه عمر و بناه على بناءه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم باللبن والجريد ، وأعاد عمده خشبا ، ثم غيره عثمان فزاد فيه زيادة كبيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصَّة^(١) ، وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسقفه بالساج

وروى أبو داود أيضا - وسكت عليه - عن عطية عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كانت سَوَارِيه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من جُدُوع النخل ، أعلاه مُظْلَلٌ بجريد النخل ، ثم إنها تَحَرَّتْ في خلافة أبي بكر رضى الله عنه فبناها بجُدُوع النخل وبجريد النخل ، ثم إنها تَحَرَّتْ في خلافة عثمان رضى الله عنه فبناها بالآجر ، فلم تزل ثابتة حتى الآن ، هكذا رأيته في أصول متعددة معتمدة من السنن ، وأورده المجد بلفظ : ثم إنها تَحَرَّتْ في خلافة عمر - بدل أبي بكر - ولم أره في شيء من النسخ .

وفي هذا الخبر ما يقتضى أن السبب في بناء عثمان للمسجد كون الجذوع التي هي السواري تَحَرَّتْ ، وأن عثمان بناها بالآجر لا الحجر ، فلعل البعض كان في زمنه مبنيا بالآجر وهو بعيد ، وما تقدم من رواية الصحيح أصح .

وفي صحيح مسلم عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان أراد بناء المسجد ، فسكره الناسُ ذلك ، وأحبوا أن يدَّعَوه على هيئته ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ بَنَى « مسجداً لله » بَنَى الله له في الجنة مثله

وفيه وفي البخارى عن عبيد الله الخولاني أنه سمع عثمان عند قول الناس فيه حين بنى مسجد الرسول : إنكم قد أكثرتم ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ بَنَى مسجدا لله عز وجل ، الحديث

وقوله في الرواية الأولى إن عثمان أراد بناء المسجد يبين أن المراد من قوله حين بناء المسجد حين أراد بناءه ، إلا أن يكون ذلك قد تكرر من عثمان

(١) القصة - بفتح القاف وتشديد الصاد مفتوحة - الجص ، وسمى موضع قرب

المدينة بنى القصة لأنه قد كان به قصة : أى جص .

لتكرار كلامهم قبل البناء وبعده ، وهو الأقرب ، وقوله « وأحبوا أن يدّعه على هيئته » أى مجذوع النخل واللبن كما فعل عمر رضى الله عنه لموافقته لفعله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال البغوى فى شرح السنة : لعل الذى كره الصحابة من عثمان بناؤه بالحجارة المنقوشة ، لا مجرد توسيعه ، اهـ . ويؤيده ما سيأتى من أن الناس شَكَّوْا إليه ضيقَ المسجد ؛ فقوله « لما أراد عثمان بناء المسجد » أى على الهيئة التى بناه عليها ، ويؤخذ من هذا إطلاق البناء المرغَّب فيه فى حق من جَدَّدَ ووسَّعَ ؛ لأن عثمان لم يبنِ المسجد كله إنشاءً ، وقوله « إنكم أكثرتم » أى الكلامَ بالإنكار ونحوه

وروى يحيى عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال : لما ولى عثمان بن عفان سنة أربع وعشرين كلَّه الناسُ أن يزيد فى مسجدهم ، وشكوا إليه ضيقه يوم الجمعة ، حتى إنهم كَيَّصَلُّونَ فى الرحاب ، فشاور فيه عثمان أهل الرأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه ، فصلى الظهر بالناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إني قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزيد فيه ، وأشهد لَسَمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة ، وقد كان لى فيه سَلَفٌ وإمام سبقنى وتقدمنى عمر بن الخطاب ، كان قد زاد فيه وبنَّاه ، وقد شاورتُ أهل الرأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمعوا على هدمه وبَنَائه وتوسيعه ، فحَسَّنَ الناسُ يومئذ ذلك ودعوا له ، فأصبح فدعا العمال وباشَرَ ذلك بنفسه ، وكان رجلاً يصوم الدهر ويصلى الليل ، وكان لا يخرج من المسجد ، وأمر بالقَصَّة المنخولة تعمل ببطن نخل ، وكان أول عمله فى شهر ربيع الأول من سنة تسع وعشرين ، وفرغ منه حين دخلت السنة لهلال الحرم سنة ثلاثين ، فكان عمله عشرة أشهر .

قلت : قوله أولا « لما ولي عثمان سنة أربع وعشرين » إلى قوله « فأصبح ودع العمال » يفهم أنه في تلك السنة ، وقوله أخيراً « وكان أول عمله إلى آخره » يأباه ، وما ذكره أخيراً هو الصواب المذكور في كلام غيره ؛ فيحمل ما ذكره أولاً على أنه لم يشرع في المشاورة والعمارة عقب كلام الناس له ، بل استمر تلك السنين ، وربما تكرر الكلام فخطبهم في السنة التي وقعت فيها العمارة .

وقد روى رزين الخباز المذكور عن المطلب المذكور بلفظ : لما ولي عثمان وكان سنة أربع من خلافته كلمة الناس أن يزيد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكوا إليه ضيقه ، فشاور عثمان أهل الرأي ، فأشاروا عليه بذلك ، وذكر نحو ما تقدم ، وينبغي حمله أيضاً على أن الكلام وقع من الناس سنة أربع من خلافته وتأخرت العمارة إلى سنة تسع وعشرين - بتقديم المئنة الفوقية على السين - وإلا فهو مخالف لما تقدم ؛ لأن عثمان رضى الله عنه ولي غرة الحرم افتتاح سنة أربع وعشرين ، فسنة أربع من خلافته هي سنة سبع وعشرين - بتقديم السين على الموحدة - والأول هو الأصح ؛ فقد روى يحيى وابن زبالة أن عثمان زاد في المسجد قبل أن يقتل بأربع سنين ، وعثمان قتل في ذى الحجة سنة خمس وثلاثين .

وقال الحافظ ابن حجر : كان بناء عثمان للمسجد سنة ثلاثين على المشهور ، وقيل : في آخر سنة من خلافته ؛ ففي كتاب السير عن الحارث بن مسلم عن ابن وهب : أخبرني مالك أن كعب الأحبار كان يقول عند بنيان عثمان المسجد : لوددت أن هذا المسجد لا ينجز^(١) ؛ فإنه إذا فرغ من بنيانه قتل عثمان ، قال مالك : فكان كذلك .

قال الحافظ ابن حجر : ويمكن الجمع بأن الأول كان تاريخ ابتدائه ، والثاني تاريخ انتهائه .

(١) لا ينجز : لا يتم بناؤه ولا يكمل ، مخافة ما يقع بعد تمامه .

قلت : قد تقدم ما يردُّ هذا الجمع ، وأن الفراغ منه كان في سنة ثلاثين ، لكن يمكن أن عثمان رضى الله عنه أحدث فيه عمارة أخرى آخر سنة من خلافته وقد وصل ابن شبة ما نقله مالك عن كعب ؛ فروى بسنده من طريق الأعمش عن أبي صالح قال : قال كعب ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم يُدْنَى : والله لوددت أنه لا يفرغ من برج إلا سقط برج ، فقليل له : يا أبا إسحاق أما كنت تحدثنا أن صلاةً فيه أفضل من ألف صلاة في غيره إلا المسجد الحرام ، قال : بلى ، وأنا أقول ذلك الآن ، ولكن فتنةً نزلت من السماء ليس بينها وبين أن تقع إلا شهر ، ولو فرغ من بناء هذا المسجد وقعت ، وذلك عند قتل هذا الشيخ عثمان بن عفان ، فقال رجل : وهل قاتله إلا كقاتل عمر ، قال : بل مائة ألف أو يزيدون ، ثم يحل القتل ما بين عدن أبين إلى دروب الروم ^(١) .

وروى يحيى عن أفلح بن حميد عن أبيه قال : لما أراد عثمان أن يكلم الناس على المنبر ويشاورهم قال له مروان بن الحكم : فِدَاكَ أبى وأُمى ، هذا أمرٌ خير لو فعلته ولم تذكر لهم ، فقال : ويحك ! إني أكره أن يَرَوْا أنى أَسْتَبِدُّ عليهم بالأُمور ، قال مروان : فهل رأيت عمر حيث بناه وزاد فيه ذكر ذلك لهم ؟ قال : اسكت ، إن عمر اشتدَّ عليهم فخافوه ، حتى لو أدخلهم في جُحْر ضب دخلوا ، وإني لِنْتُ لهم حتى أصبحت أخشاهم ، قال مروان بن الحكم : فِدَاكَ أبى وأُمى لا يسمع هذا منك فيجتراً عليك .

وعن عبد الرحمن بن سفيينة قال : رأيت القَصَّةَ تحمل إلى عثمان وهو يبنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من بطن نَحْلٍ ، رأيتَه يقوم على رجله ^(١) عدن أبين - بفتح الهجزة والياء وسكون الباء بينهما - مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند ، لا ماء بها ولا مرعى ، وشربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو يوم ، قاله ياقوت ، والدروب : جمع درب ، وهو الطريق الموصل إلى بلاد الروم .

والعمالُ يعملون فيه حتى تأتى الصلاة فيصلى بهم ، وربما نام ثم رجع ، وربما نام فى المسجد .

وعن خارجة بن زيد قال : هدم عثمان بن عفان المسجد وزاد فى قبلته ، ولم يزد فى شرقيه ، وزاد فى غربيه قدر أسطوان ، وبنى بالحجارة المنقوشة والقصة وعُشِب النخل والجريد ، وبيضه بالقصة ، وقدر زيد بن ثابت أساطينه فجعلها على قدر النخل ، وجعل فيه طيقان مما يلى المشرق والمغرب ، وذلك قبل أن يقتل بأربع سنين ، وزاد فيه إلى الشام خمسين ذراعاً .

وعن محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي عن أبيه قال : زاد عثمان فى المسجد قبل أن يقتل بأربع سنين فزاد من القبلة ، فوضع جداره على حد المقصورة اليوم ، وزاد فيه من المغرب أسطواناً بعد المربعة ، وزاد فيه من الشام خمسين ذراعاً ، ولم يزد من المشرق شيئاً ، وزعم المطري وتبعه المراغى أن المراد بهذه المربعة المتقدم وصفها فى تحديد المسجد النبوى فى زيادة عمر رضى الله عنه ، وهى الأولى من المربعتين اللتين يليان القبلة فى صف الأسطوان الرابع من المنبر فى جهة المغرب ، وجعلنا نهاية زيادة عثمان إلى الأسطوانة التى تليها فى المغرب المقابلة للطراز المتقدم وصفه ، فقالا : أراد بالمربعة الأسطوانة التى تليها فى المغرب التى فى القبلة التى رفع أسفلها مربعة قدر الجلسة ، وهى منتهى زيادة عثمان من المغرب ، وقبلالة الأسطوانة التى زادها عثمان فى الحائط القبلى طرازاً آخر من العصابة السفلى إلى سقف المسجد ، وهو حد زيادة عثمان ، انتهى .

ومحصله أن زيادة عثمان هى الرواق الكائن بين الأسطوانتين المذكورتين ، ولم أر من سبقهما لذلك ، وقد قدمنا فى تحديد المسجد النبوى ما يقتضى أن الطراز المذكور فى موازاة حد المسجد النبوى على الراجح ، وأن زيادة عمر وعثمان رضى الله عنهما من بعد ذلك فى جهة المغرب ، وأن عمر رضى الله عنه جعل المشرق

إلى المغرب مائة وعشرين ذراعاً ، وأن من المربعة التي ذكرنا أنها نهاية زيادته إلى الحجرة الشريفة ينقص عن تسعين ذراعاً ، وإلى محاذة الطراز نحو المائة ؛ فيبقى لعمر في جهة المغرب بعد الطراز رواقان آخران ؛ فيكون نهاية للمسجد في زمنه الأسطوانة السابعة من المنبر ، وفي صف السابعة من المنبر أسطوان أسفله مربع لكنه ليس مرتفعاً عن الأرض بقدر الجلسة ، بل تربيعه على وجه الأرض ، وقد زال تربيعه في العمارة الحادثة بعد الحريق الثاني ، وليس هو في صف الأساطين التي تلى القبلة ، بل في صف الأساطين التي خلف محراب الحنفية ؛ فالظاهر أن هذه المربعة هي المرادة هنا ؛ فيكون لعثمان رضى الله عنه في جهة المغرب الرواق الذي بعدها ؛ فيكون نهاية المسجد في زمنه الأسطوانة الثامنة من المنبر في جهة المغرب ، ويدل على صحة ذلك ما سيأتى أن الوليد زاد بعد عثمان رضى الله عنه في جهة المغرب أسطوانين ، ولم يزد أحد بعد الوليد في جهة المغرب شيئاً ، والباقي من الأسطوانة الثامنة من المنبر أسطوانتان فقط في جهة المغرب ، فهما زيادة الوليد ، وهناك أسطوان مربعة مرتفعة قدر الجلسة أيضاً أمام الأسطوانة بوجه الداخل من باب السلام ، الظاهر أنها جملة علامة لنهاية زيادة عثمان رضى الله عنه ، وابتداء زيادة الوليد ، وإن قلنا بأن نهاية المسجد النبوي المربعة الأولى التي تلى القبلة كما سبقت الإشارة إليه فحينئذ يكون لعمر رضى الله عنه منها إلى جهة المغرب أسطوانتان فيكون نهاية زيادة الأسطوانة السادسة من المنبر ، وفي صفها أسطوان مربع قدر الجلسة أيضاً أمام الأسطوانة المثلثة اليوم ، وتكون زيادة عثمان رضى الله عنه إلى الأسطوانة التي بعدها في جهة المغرب وهي السابعة ، وتبقى للوليد منها إلى جدار المسجد ثلاثة أساطين ، وسيأتى في عمارته رواية تقتضى ذلك ، على أن الذى أفهمه من كلام متقدمى المؤرخين كما قدمناه في حدود المسجد أن المربعة حيث أطلقت في جهة المغرب فالمراد بها الأسطوانة المقابلة لمربعة القبر في جهة المغرب

عند ركن صحن المسجد قبل زيادة الرواقين الآتى ببيانها ، وهى المئمة اليوم ، وفى ركنى الصحن الشاميين أسطوانتان على هيأتها أيضاً ، وتتمينها حادث كما تقدم بيانه ، ويعبرون عنها بالمر بعة الغربية ، وهى السادسة من المنبر ؛ فيترجح بذلك أنها نهاية زيادة عمر وابتداء زيادة عثمان رضى الله عنه ، ولو كان كما زعم المطرى ومن تبعه لكان بعد نهاية زيادة عثمان رضى الله عنه فى المغرب خمس أساطين ، فيكون كلها للوليد ، ولا قائل بذلك ، وفيما قدمناه فى تحديد المسجد النبوى كفاية فى رد ما قالاه .

وروى يحيى عن عبد الله بن عطية بن عبد الله بن أنيس قال : بنى عثمان المسجد بالحجارة المنقوشة والقصة ، وجعل عمده حجارة منقوشة ، وسها عمدا الحديد فيها الرصاص ، وسقفه ساجا ، وجعل طوله ستين ومائة ذراع ، وعرضه خمسين ومائة ذراع ، وجعل أبوابه ست أبواب على ما كان على عهد عمر رضى الله عنه : باب عاتكة ، أى المعروف بباب الرحمة ، والباب الذى يليه أى يقرب من محاذاته فى المشرق ، وهو باب النساء ، وباب مروان : أى المعروف بباب السلام ، والباب الذى يقال له باب النبی صلى الله عليه وسلم : أى المعروف بباب جبريل ، وبابين فى مؤخر المسجد . قلت قوله « وجعل طوله ستين ومائة ذراع » مخالف لما تقدم من كونه زاد فيه من جهة الشام خمسين ذراعاً ؛ لأنه قد تقدم أن عمر رضى الله عنه جعل طول المسجد أربعين ومائة ذراع ، فلو زاد فيه عثمان خمسين ذراعاً لكان طوله فى زمنه تسعين ومائة ذراع ، على أن الأقرب أن طوله فى زمن عثمان كان ستين ومائة ذراع ، لما سيأتى فى الزيادة بعده . وقوله « وعرضه خمسين ومائة ذراع » مخالف لما تقدم من كونه لم يزد من جهة المغرب سوى أسطوانة واحدة ، ولم يزد فى جهة المشرق شيئاً ، بل هذه الرواية خطأ ؛ الاتفاق على أن عثمان رضى الله عنه لم يزد من جهة المشرق شيئاً ؛ فيكون نهايته فى زمنه الحجرة الشريفة ، وذرع المسجد اليوم من جداره الغربى إلى جدار الحجرة الشريفة لا يبلغ خمسين ومائة ذراع ، بل ينقص عن ذلك أكثر من سبعة أذرع ، ثم تبقى زيادة الوليد من جهة المغرب ،

وهي متفق عليها أيضا ؛ فالصواب أنه لم يزد من المغرب سوى أسطوانة ، وأن عرض المسجد في زمنه نحو مائة وثلاثين ذراعا ، والله أعلم .

وروى يحيى كما في النسخة التي رواها ابنه عن أبي الحسن المدائني أنه قال في حديث ساقه : إن النبي صلى الله عليه وسلم خط لجعفر بن أبي طالب دارا وهو بأرض الحبشة ، فاشتري عثمان نصفها بمائة ألف ، فزادها في المسجد .

قلت : تقدم في زيادة عمر رضى الله عنه ثقل مثل ذلك عن فعل عمر رضى الله عنه ؛ فيحتمل أن كلا منهما شَرى نصف ذلك وأدخله مرتبا ، والله أعلم .

وروى ابن زبالة عن عبد الله بن عمر بن حفص قال : مَدَّ عمر بن الخطاب جدار القبلة إلى الأساطين التي إليها المقصورة اليوم ، ثم زاد عثمان بن عفان حتى بلغ جداره اليوم ، قال : فسمعت أبي يقول : لما احتيج إلى بيت حفصة قالت : فكيف بطريقى إلى المسجد ؟ فقال لها : نعطيك أوسع من بيتك ، ونجعل لك طريقا مثل طريقك ، فأعطاها دار عبيد الله بن عمر ، وكانت مِرْبَدًا^(١) .

قلت : وهذه العبارة محتملة لأن القائل « نعطيك إلى آخره » عمر أو عثمان رضى الله عنهما ، ويرجع الثانى أنه أورده في سياق زيادة عثمان رضى الله عنه ، وأنه روى عقبة عن عبد الرحمن بن سعد عن أشياخه أن عمر قدم جدار القبلة إلى المقصورة ، ثم قدمه عثمان إلى موضعه اليوم ، وأدخل بقية دار العباس بن عبدالمطلب مما يلي القبلة والشام والمغرب ، وأدخل بعض بيوت حفصة بنت عمر مما يلي القبلة ، فقام المسجد على تلك الحال حتى زاد فيه الوليد .

قلت : تقدم في زيادة عمر رضى الله عنه أن الحافظ ابن حجر نقل عن

(١) المربد - بزنة منبر - الموضع الذى تحبس فيه الإبل والغنم ، واشتقاقه من « ربد بالمكان » إذا أقام فيه . و « ربد ربد » إذا حبسه .

ابن شبة أن دار أبي بكر التي أذن له في إبقاء الخوخة منها إلى المسجد اشترتها حفصة أم المؤمنين ، فلم تزل في يدها إلى أن أرادوا توسيع المسجد في خلافة عثمان ، فطلبوها منها ليوسّع بها في المسجد ، فامتنعت وقالت : كيف بطريقي إلى المسجد ؟ فقيل لها : نعطيك دارا أوسع منها ونجعل لك طريقا مثلها ، فسألت ورضيت ، والذي ذكره ابن شبة في علم دور أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سذكروه عنه في الدور التي كانت حول المسجد من أن حفصة اتخذت دارها التي في قبلة المسجد لها خوخة في المسجد ، فورثها عبد الله بن عمر ، وذكر ما سيأتي في أصل هذه الدار من كونها كانت مَرَبْدًا كما سيأتي ، ثم ذكر لحفصة دارا أخرى ، ثم قال : وأخبرني مخبر قال : كان بيت أبي بكر الذي أذن له النبي صلى الله عليه وسلم في إبقاء خوخته بيد عبد الله بن عمر ، وهو البيت الذي على يمينك إذا دخلت دار عبد الله من الخوخة التي في المسجد ، فتلقاك هناك خوخة في جوف الخوخة التي هي الطريق للبواب ، فتلك الخوخة خوخة أبي بكر ، قال : وكانت حفصة ابتاعت ذلك المسكن من أبي بكر ، والدار الذي ذكرت فوق هذه الشارعة على باب دار عبد الله إلى جنب دار هشام ، فباع أبو بكر رضي الله عنه ذلك المسكن وتلك الدار من حفصة بأربعة آلاف درهم ، ونقدها عنها عثمان بن عفان ، وإنما باع ذلك أبو بكر لناس قدموا عليه من بني تميم فسألوه .

ثم قال ابن شبة : حدثنا محمد بن يحيى عن عبد الله بن عمر بن حفص قال : سمعت أبي يقول : لما احتيج إلى بيت حفصة قالت : وكيف طريقي في المسجد ؟ فقيل لها : نعطيك أوسع من بيتك ونجعل لك طريقا مثل طريقك ، فأعطاه دار عبد الله بن عمر ، وكانت مَرَبْدًا ، انتهى . والذي يقتضيه قوله « وأخبرني مخبر » تضعيف هذه الرواية .

وقد روى في ذكر دور بنى تميم كما قدمناه أن دار أبي بكر المذكورة كانت
شارعة في دار القضاء في غربى المسجد ، وقد صدّر كلامه بأن أصل دار حفصة
إمسا هو المربد ، وختم كلامه بذلك . وقوله « لما احتيج إلى بيت حفصة »
المراد به سكنها ، هو الذى كان شارعاً في المسجد في زمنه صلى الله عليه وسلم
كما سيأتى بيانه ، والله أعلم .

وتقدم في زيادة عمر رضى الله عنه ما رواه يحيى من أن عثمان رضى الله عنه
شرى دار العباس فزادها في المسجد إلا ثلاثة عشر ذراعاً أو أربعة عشر ذراعاً ،
فقال الراوى : لا أدري أكان ابتاع البقية أم لا ، وحملناه على أن المراد بدار
العباس ما بقى منها بعد ما زاده عثمان رضى الله عنه ، والظاهر أن تلك البقية هى
التي دخلت في دار مروان . وقد ذكر ابن زبالة ويحيى وابن النجار اتخاذ مروان
لداره عقب ذكر زيادة عثمان رضى الله عنه ؛ فيحتمل أنه اتخذها في حال
زيادة عثمان رضى الله عنه أو بعده ، وهو الظاهر ؛ لأنهم ذكروا أنه اتخذ لها
خَوْخَةً في المسجد من جهة القبلة ، ثم قال : أخشى أن أمنعها ، فجعل لها باباً
عن يمينك حين تدخل ، ثم جعل الباب الثالث الذى على باب المسجد ،
كما سيأتى ، والله أعلم .

الفصل الخامس عشر

في المقصورة التي اتخذها عثمان رضى الله عنه في المسجد
وما كان من أمرها بعده

روى ابن زبالة وابن شبة عن عبد الرحمن بن سعد عن أشياخه أن أول من
عمل المقصورة بلبين عثمان بن عفان ، وأنه كانت فيه كوى ينظر الناس منها إلى
الإمام ، وأن عمر بن عبد العزيز هو الذى جعلها من ساج حين بنى المسجد .

وروى الأول أيضا عن عيسى بن محمد بن السائب ومحمد بن عمرو بن مسلم بن السائب بن خباب وعمر بن عثمان بن عبد الرحمن أن عثمان بن عفان أول من وضع المقصورة من لبن ، واستعمل عليها السائب بن خباب ، وكان رزقه دينارين في كل شهر ، فتوفي عن ثلاثة رجال : مسلم ، وبكير ، وعبد الرحمن ، فتواسوا في الدينارين ، فحريا في الديوان على ثلاثة منهم إلى اليوم ، قال ابن زبالة : وقال مالك بن أنس : لما استخلف عثمان بعد مقتل عمر بن الخطاب عمل عثمان مقصورة من لبن ، فقام يصلي فيها للناس خوفا من الذي أصاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكانت صغيرة

وروى يحيى هذا كله في زيادة عثمان رضى الله عنه ، ثم روى في زيادة الوليد عن عبد الحكيم بن عبد الله بن حنطب قال : أول من أحدث المقصورة في المسجد مروان بن الحكم ، بناها بالحجارة المنقوشة ، وجعل لها كوى ، وكان بعث ساعيا^(١) إلى تهامة ، فظلم رجلا يقال له دب ، فجاء دب إلى مروان ، فقام حيث يريد أن يقوم مروان ، حتى [إذا] أراد أن يكبر ضربه بسكين فلم يصنع شيئا ، فأخذه مروان فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : بعثت عاملا فأخذ ذردى بمر^(٢) ، وتركنى وعلالى لاجد شيئا ، فقلت : أذهب إلى الذى بعثك فأقتله ؛ فهو أصل هذا ، فجاء ما ترى ، فحبسه مروان حينما في السجن ، ثم أمر به فاغتيل سرا ، فكانت المقصورة .

ورواه ابن شبة بنحوه ، إلا أنه سمي الرجل في موضع دبا ، وفي آخر ذبابا ، وقال : بعثت عاملا ، فأخذ منى بقره ، فتركنى وعلالى لاجد شيئا ، وأنا امرؤ خبيث النفس ، فقلت : أذهب إلى الذى بعثه فأقتله فهو أصل هذا ، فجاء ما ترى ، فحبسه مروان في الحبس حينما ، ثم أمر به فاغتيل سرا ، وعمل المقصورة .

(١) الساعى : الذى يجي الزكاة .

(٢) الذود - بفتح الدال وسكون الواو - الجماعة من الإبل من ثلاثة إلى عشرة

ويقال : من اثنين إلى تسعة ، ومعنى « أخذها بمر » أنه أخذها كلها .

قلت : وجزم بذلك في العتبية فيما حكاه ابن رشد في بيانه ، فقال في كتاب الصلاة : مسألة قال مالك : أول من جعل المقصورة مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ، قال : فجعل مقصورة من طين ، وجعل فيها تشبيكا ، انتهى . قال ابن رشد في شرح ذلك : وَجْهُ قوله هذا الإِعلامُ بأن المقصورة مُحَدَّثَةٌ لم تكن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا على عهد الخلفاء بعده ، وإنما أحدثها الأمراء للخوف على أنفسهم ، فاتخاذها في الجوامع مكرره^(١) ، انتهى .

وفي شرح مسلم للنووي أن أول من اتخذ المقصورة في المسجد معاوية رضي الله عنه حين ضربه الخارجي ، انتهى .

وأفهم كلام ابن زبالة أنها كانت في زمن عمر بن عبد العزيز مرتفعة عن أرض المسجد ؛ لأنه ذكر في زيادة المهدي أنه أمر بالمقصورة فهدمت وخفضت إلى مستوى المسجد ، وكانت مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد ، فأوطأها مع المسجد ، وكان المراغى فهم أن المراد بذلك سقف المقصورة لا أرضها ، فإنه قال في زيادة المهدي : وخفض سقف المقصورة ، وكانت مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد فأوطأوها مع المسجد ، انتهى .

ورأيت لفظة « سقف » مُلَحَّقة بخطه ، والظاهر أن ذلك هو المراد ، وذكر المطري ما يقتضي أن المهدي جعلها من خشب على الرواق القبلي بأجمعه ، وهو مراد ابن جُبَيْر بقوله في رحلته - بعد أن ذكر أن في الجهة القبلية من المسجد خمس بلاطات - يعني أروقة ، قال : والبلاط المتصل بالقبلة من الخمس المذكورة تحويه مقصورة تَكْنُفُهُ طولا^(٢) من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها ، انتهى .

وقد احترقت هذه المقصورة في حريق المسجد الأول ، والله أعلم .

(١) وجه الكراهة أنها شيء لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما هو ظاهر .
(٢) تَكْنُفُهُ : تحيط به .

الفصل السادس عشر

في زيادة الوليد بن عبد الملك على يد عمر بن عبد العزيز

نقل رزين أن المسجد بعد أن زاد فيه عثمان رضى الله عنه لم يزد فيه على ولا معاوية رضى الله عنهما ، ولا يزيد ولا مروان ، ولا ابنه عبد الملك شيئا ، حتى كان الوليد بن عبد الملك — وكان عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة ومكة — بعث الوليد إلى عمر بن عبد العزيز بمال وقال له : مَنْ باعك فأعطه ثمنه ، ومن أبى فاهدم عليه وأعطه المال ، فإن أبى أن يأخذه فاصرفه إلى الفقراء ، انتهى وقال ابن زبالة : حدثني عبد العزيز بن محمد عن بعض أهل العلم قال : قدم الوليد بن عبد الملك حاجا ، فبينما هو يخطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ حانت منه التفاتة فإذا بحسن بن حسن بن علي بن أبي طالب في بيت فاطمة في يده مرآة ينظر فيها ، فلما نزل أرسل إلى عمر بن عبد العزيز فقال : لا أرى هذا قد بقي بعد ، أشتر هذه المواضع ، وأدخل بيت النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ، وأسدده .

وروى يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن عبد العزيز بن محمد بنفحوه .
وروى أيضا عن موسى بن جعفر بن أبي كثير قال : بينما الوليد يخطب على المنبر إذ انكشفت السككة^(١) عن بيت فاطمة عليها السلام ، وإذا حسن بن حسن يُسَرِّح لحيته ، وهو يخطب على المنبر ، فلما نزل أمر بهدم بيت فاطمة رضى الله عنها قال يحيى : وحدثني عبد الله بن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي رضى الله عنهما مثله ، وزاد فيه أن حسن بن حسن وفاطمة بنت الحسين أبوا أن يخرجوا منه ، فأرسل إليهم الوليد بن عبد الملك : إن لم تخرجوا منه هدمته عليكم ، فأبوا أن يخرجوا ، فأمر بهدمه عليهم وهما فيه وولدهما ، فنزع أساس البيت وهم فيه ،
(١) السككة — بكسر الكاف وتشديد اللام — ستر مربع يحاط كالبيت يتوقى فيه من البعوض ونحوه .

فلما نزع أساس البيت قالوا لهم : إن لم تخرجوا قَوْضَنَاهُ^(١) عليكم ، فخرجوا منه حتى أتوا دار على نهارا .

وروى ابن زبالة عن منصور مولى الحسن بن علي قال : كان الوليد بن عبد الملك يبعث كل عام رجلا إلى المدينة يأتيه بأخبار الناس وما يحدث بها ، قال : فأتاه في عام من ذلك ، فسأله ، فقال : لقد رأيت أمرا لا والله ما لك معه سلطان ولا رأيت مثله قط ، قال : وما هو ؟ قال : كنت في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا منزل عليه كَلَّةٌ ؛ فلما أقيمت الصلاة رفعت الكلة وصلى صاحبه فيه بصلاة الإمام هو ومن معه ، ثم أرخيت الكلة ، وأتى بالغداء فتغدى هو وأصحابه ، فلما أقيمت الصلاة فَعَلَ مثل ذلك ، وإذا هو يأخذ المرأة والكحل وأنا أنظر ، فسألت ، فقليل : إن هذا حسن بن حسن ، قال : ويحك ! فما أصنع هو بيته وبيت أمه ، فما الحيلة في ذلك ؟ قال : تزيد في المسجد وتدخل هذا البيت فيه ، قال : فكتب إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بالزيادة في المسجد ويشترى هذا المنزل ، قال : فعرض عليهم أن يبتاع منهم فأبوا ، وقال حسن : والله لانا كل له ثمنا أبدا ، قال : وأعطاهم به سبعة آلاف دينار أو ثمانية ، فأبوا ، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك في ذلك ، فأمره بهدمه وإدخاله ، وطرح الثمن في بيت المال ، ففعل ، وانتقلت منه فاطمة بنت حسين بن علي إلى موضع دارها بالحرة فابتنها .

قلت : وسيأتي بقية هذا الخبر في ذكر بئرها ، إن شاء الله تعالى .

قال ابن زبالة : وحدثني غير واحد من أهل العلم منهم : إبراهيم بن محمد الزهري عن أبيه عن عبد الرحمن بن حميد ، ومحمد بن إسماعيل عن محمد بن عمار عن جده ، ومحمد بن عبد الله عن عبيد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمر بن حفص وعبد العزيز بن محمد عن عبيد الله بن عمر بن حفص ، وسليمان بن محمد بن أبي سبرة

(١) قَوْضَنَاهُ : هدمناه ، وأصله تقويض الخيام ، وهو نقضها وإزالتها عن مكانها إلى مكان آخر .

ومحمد بن طلحة عن عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان ، وبعضهم يزيد على بعض ، أن عمر بن عبد العزيز لما جاءه كتاب الوليد بهدم المسجد والزيادة فيه بعث إلى رجال من آل عمر ، فقال : إن أمير المؤمنين كتب إلى أن أبتاع بيت حفصة ، وكان عن يمين الخوخة : أي خوخة آل عمر ، وكان بينه وبين منزل عائشة الذي فيه قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق ، وكانت يَتَمَّهَدِيَانِ^(١) الكلام وهما في منزليهما من قرب ما بينهما ، فلما دعاهم قال : إن أمير المؤمنين قد أمرني أن أبتاع هذا المنزل وأدخله في المسجد ، قالوا : ما نبيعه بشيء ، قال : إذا أدخله في المسجد ، قالوا : أنت وذاك ، فأما طريقنا فإننا لا نقطعها ، فهدم البيت وأعطاهم الطريق ووسّعها لهم حتى انتهى بها إلى الأسطوان ، وكانت قبل ذلك ضيقة قدر ما يمر الرجل منحرفا . قال عبد العزيز بن محمد : فكنت أسمع عبيد الله بن عمر يقول : لا أخرجني الله من الدنيا حتى أراها قد سدت ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يلقى الصور الصور .

قلت : وسنورد بقية هذا الخبر .

وروى يحيى في قصة هذه الدار عن مالك بن أنس في جملة خبر أن الحجاج قال لعبيد الله بن عبد الله بن عمر : بعني منزل حفصة ، قال : لا والله ما كنت لأخذ لبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمنا أبدا ، قال : إذا والله أهده ، قال : والله لا تهده إلا على ظهري ، فأمر الحجاج صائحا صاح في الناس بالعتل والمساحي والفوس^(٢) ، فقام عبد الله فدخل بيت حفصة ، وجاء الغوغاء بالعتل والفوس ، فأمرهم الحجاج بهدمه ، فصعدوا ليهدموه وعبيد الله فيه ، فجاءت بنوعدي إلى عبيد الله فقالوا له : ما أضعفك ! هو يتأسف على قتل أبيك ويَزَعُ عن قتلك^(٣) ، فأخرجوه ، فهدمه الحجاج ، وكتب إلى الوليد يعلمه ما صنع ، وامتناع عبيد الله

(١) انظر هذه العبارة في ص ٥٤٣ .

(٢) العتل : جمع عتلة - بالتحريك - وهو عمود من حديد تهدم به الأبنية ، والمساحي : جمع مسحاة ، والفوس : جمع فأس ، وأصله فؤوس ، فلما سهل الهمزة اجتمع واوان فحذف إحداها . (٣) في الخلاصة « ويزع عن قتلك »

من الثمن ، فكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره يعرض على عبيد الله الثمن ، فإن أبى جعل له مكرمة بدله في المسجد ، فجعل له عمر الخوخة التي في قبلة المسجد التي إلى دار حفصة اليوم ، وهو يقتضى أن الذى هدم دار حفصة هو الحجاج . وعن جعفر بن وردان عن أبيه قال : لما استعمل الوليد عمر بن عبد العزيز على المدينة أمره بالزيادة في المسجد وبنائه واشتراء ما حوله من المشرق والمغرب والشام ، فلما خلع إلى القبلة قال له عبيد الله بن عبد الله بن عمر : لست أبيع هذا ، هو من حق حفصة ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسكنها ، فقال له عمر : ما أنا بتارككم أو أدخلها المسجد ، فلما كثر الكلام بينهما قال له عمر : أجعل لكم في المسجد باباً تدخلون منه ، وأعطيك دار الدقيق^(١) مكان هذا الطريق ، وما بقى من الدار فهو لكم ، ففعلوا ، وأخرج بابهم في المسجد وهو الخوخة التي في المسجد تخرج في دار حفصة بنت عمر ، وأعطاهم دار الدقيق^(١) ، وقدم الجدار في موضعه اليوم ، وزاد في المشرق ما بين الأسطوان المربعة إلى جدار المسجد اليوم ، ومعه عشرة أساطين من مربعة القبر إلى الرحبة إلى الشام ، ومده في المغرب أسطوانين ، وأدخل فيه حُجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأدخل فيه دور عبد الرحمن بن عوف الثلاث التي كان يقال لها القرائن اللاتي يقول فيهن أبو قطفة بن الوليد بن عتبة بن أبي مُعَيْط :

ألا ليت شعري هل تغير بعدنا بَقِيعُ المصلّى أو كَهْدَى القرائنُ
وقد سمعنا من يقول : القرائن كانت جناباً^(٢) ثلاثاً لعبد الرحمن بن عوف ، انتهى
قلت : وأخبار المؤرخين متطابقة على أن حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم
أدخلت في المسجد بأمر الوليد ، وقد قدمنا في الفصل التاسع قول عطاء الخراساني :
أدركت حُجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المسُوح
من شعر أسود ، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ يأمر بإدخال حُجَر

(١) في المطبوعات « دار الرقيق » باراء .

(٢) جناب : جمع جنبة — بضم كل من الجيم والباء وبينهما ياء ساكنة —
وهي القبة ، وفي الحديث في صفة الجنة « فيها جناب من أولو » .

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت يوماً كان أكثر باكياً من ذلك اليوم ، قال عطاء : فسمعت سعيد بن المسيب يقول : والله لو ددت أنهم تركوها على حالها ، لكن نقل الزين المرائي عن السهيلي أنه نقل أن الحجر والبيوت خلطت بالمسجد في زمن عبد الملك بن مروان ، قال : ويرده تصريح رزين وغيره بضد ذلك .

قلت : ولعل مراد من نسب ذلك إلى عبد الملك أنه جعلها للمسلمين يصلون فيها لضيق المسجد من غير هدم لها ، وقد كان الناس يصلون فيها قبل إدخالها في المسجد في يوم الجمعة ، فقد نقل مالك رحمه الله عن الثقة عنده أن الناس كانوا يدخلون حُجَرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يصلون فيها يوم الجمعة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان المسجد يضيق عن أهله ، قال : وحُجَرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليست من المسجد ، ولكن أبوابها شارة في المسجد ، انتهى . وأما بقية خبر ابن زبالة المتقدم فقد قال عقب ذلك : ثم ساء^(١) عمر بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عوف بدارهم ، فأبوا ، فهدمها عليهم وأدخلها في المسجد ، قال عبد الرحمن بن حميد : فذهب لنا متاع في هدمهم ، وأدخل حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مما يلي المشرق ومن الشام ، وأخل القرائن دور عبد الرحمن بن عوف ، وأدخل دار عبد الله بن مسعود التي يقال لها دار القراء ، وأبيات هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ، وأدخل فيه من المغرب دارا كانت لطلحة بن عبيد الله ، ودارا كانت لأبي سبرة بن أبي رهم كانت في موضع المربعة التي في غربى المسجد ، وداراً لمار بن ياسر كانت إلى جنب دار أبي سبرة ، وبعض دار العباس بن عبد المطلب ، فأعلم ما دخل منها في المسجد ، فجعل منابر سواريتها التي تلى السقف أعظم من غيرها من سوارى المسجد ، وأدخل دارا كانت لخارق مولى العباس ابن عبد المطلب .

(١) ساء : أصل المساومة المجاذبة على السلعة بين البائع والمشتري ، وتقول : سامه يسومه ، وسأومه ، واستام السلعة .

قلت: قوله « وأدخل إلى آخره » وإن كان مبنيا لما لم يسم فاعله ، لكن إirاده هنا يقتضى أن ذلك كله فى زيادة الوليد المذكورة ، وفيه نظر ؛ لما تقدم من أن عثمان رضى الله عنه زاد فى المسجد أسطوانا بعد المربعة ، فيكون زيادة الوليد بعد ذلك فى جهة المغرب ، فلا يصح إدخاله لدار أبى سبرة ؛ لقوله إنها كانت فى موضع المربعة ، إلا أن يريد بالمربعة هنا الأسطوانة التى عن يمينك إذا دخلت من الباب الذى إلى دار مروان ، وهو باب السلام ، وهى الثانية من الباب المذكور ، فإنها أول زيادة الوليد ؛ لقوله فى رواية يحيى المتقدمة « ومدّه فى المغرب أسطوانين » لكن قال ابن شبة نقلا عن ابن أبى يحيى : إنه كانت لأبى سبرة بن أبى رهم دار موضعها عند الأسطوان المربعة التى فى المسجد اليمانية الغربية ، وكانت جديدة ، وكانت هناك دار لعمار بن ياسر ، فأدخلتنا فى المسجد ، انتهى . وهو ظاهر فى أن المراد بالمربعة الأسطوان المثمنة اليوم التى قدمنا وصفها فى زيادة عثمان رضى الله عنه ، وقوله « و بعض دار العباس بن عبد المطلب » ظاهر أيضا فى أن الوليد أدخل من دار العباس شيئا ، ولعله مما كان بقى منها وأدخله مروان فى داره ، فيستفاد منه أن الوليد أدخل بعض دار مروان وهو ظاهر ؛ لما قدمناه من أن دار مروان كانت ملاصقة للمسجد فى جهة المغرب ولها خوخة فيه ، ولا شك أنه اتخذها قبل زيادة الوليد ، فإن وفاة مروان كانت فى سنة خمس وستين بعد أن أقام فى الخلافة عشرة أشهر .

ولنرجع إلى تكميل خبر ابن زباله المتقدم ، قال : قالوا : وكتب الوليد بن عبد الملك إلى ملك الروم « إنا نريد أن نعمار مسجد نبينا الأعظم ، فأعنا فيه بعمال وفُسَيْفَساء^(١) » ، قالوا : فبعث إليه بأحمال من فسيفساء وبضعة وعشرين عاملا ، وقال بعضهم : بعشرة عمال ، وقال : قد بعثت إليك بعشرة يعدلون مائة ، وبثمانين ألف دينار عونا له .

(١) الفسيفاء : قطع صغيرة ملونة من الرخام وغيره يؤلف بعضها إلى بعض ثم تركب فى حيطان البيوت من داخل ، ويقال : هذه الكلمة رومية وليست بعربية

قلت : روى ذلك يحيى أيضاً ، وذكر في رواية أخرى عن قدامة بن موسى أن ملك الروم بعث إليه بأربعين ، يعنى عاملاً من الروم ، وأربعين من القبط ، وأربعين ألف مثقال ذهب . وفي رواية لرزين : فبعث إليه ثلاثين عاملاً ، وأربعين من الروم ، ومثلهم من القبط ، وثمانين ألف مثقال ، وأحمال من الفسيفساء ، وأحمال من سلاسل القناديل ، انتهى .

وانرجع إلى تكميل خبر ابن زبالة له أيضاً ، قال عقب ما تقدم : وبعث بهذه السلاسل التي فيها القناديل ، قالوا : وهدمه عمر بن عبد العزيز سنة إحدى وتسعين - أي بتقدیم التاء الفوقية على السين - وبناه بالحجارة المنقوشة المطابقة وقصة^(١) بطن نخل ، وعمله بالفسيفساء والمرمر ، وعمل سقفه بالساج وماء الذهب ، وهدم حجير أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فأدخلها في المسجد ، ونقل كِبَنَ المسجد ولبن الحجرات فبنى به داره التي بالحرة فهو فيها اليوم له بياض على اللبَن ، قال : فبينما أولئك العمال يعملون في المسجد إذ خلاهم المسجد فقتل بعض أولئك العمال من الروم : ألا أبول على قبر نبيهم ، فتنبأ لذلك فنهاه أصحابه ، فلما هم أن يفعل اقتلع فألقى على رأسه ، فانتثر دماغه ، فأسلم بعض أولئك النصارى ، وعمل أحد أولئك الروم على رأس خمس طاقات في جدار القبلة في صحن المسجد صورة خنزير ، فظهر عليه عمر بن عبد العزيز فأمر به فضربت عنقه ، وقال بعض أولئك العمال الذين عملوا الفسيفساء : إنا عملناه على ما وجدنا من صور شجر الجنة وقصورها ، انتهى خبر ابن زبالة .

وفي خبر يحيى المتقدم عن قدامة بن موسى أن عمر بن عبد العزيز أضر النورة التي تعمل بها الفسيفساء سنة ، وحملوا القصة^(١) من بطن نخل منخولة ، وعمل الأساس بالحجارة والجدار بالحجارة المطابقة والقصة^(١) ، وجعل عمد المسجد من حجارة حشوها عمد الحديد والرصاص ، وكان طوله مائتي ذراع وعرضه في مقدمته مائتين وفي

(١) القصة - بفتح القاف وتشديد الصاد - الجص .

مؤخره ثمانين ومائة ، وهو من قبل كان مقدمه أعرض ، انتهى .
وما ذكره في ذرع عرض المسجد غير صحيح ؛ لما سيأتى عن ابن زباله في
الفصل الحادى والثلاثين أنه ذكر فى موضع آخر أن عرض المسجد من مقدمه فى
زمنه مائة وخمسة وستون ذراعاً ، وعرضه من مؤخره مائة وثلاثون ذراعاً ، وسيأتى
أيضاً أن الذى حررناه أن عرضه اليوم من مقدمه فى جهة القبلة مائة ذراع وسبعة
وستون ذراعاً ونصف ، وأن عرضه من مؤخره فى جهة الشام مائة وخمسة وثلاثون
ذراعاً ، ولا شك أن المسجد لم ينقص من عرضه شىء ، فهذا الذرع المذكور فى
هذه الرواية غير صحيح ، وقد نقله ابن النجار عن أهل السير ، وتعقبه المطرى
بنحو ما ذكرناه .

وروى ابن زباله عن محمد بن عمار عن جده قال : لما صار عمر بن عبد العزيز
إلى جدار القبلة دعا مشيخة من أهل المدينة من قریش والأنصار والعرب والموالى
فقال لهم : تعالوا احضروا بنيان قبلكم ، لا تقولوا غير عمر قبلتنا ، فجعل لا ينزع
حجراً إلا وضع مكانه حجراً ، فكانت زيادة الوليد بن عبد الملك من المشرق
إلى المغرب ستة أساطين ، وزاد إلى الشام من الأسطوان المربعة التى فى القبر
أربع عشر أسطواناً منها عشر فى الرحبة وأربع فى السقايف الأولى التى كانت
قبل ، وزاد من الأسطوان التى دون المربعة إلى المشرق أربع أساطين فى السقايف ،
فدخل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، وبقى ثلاث أساطين فى السقايف .
قلت : فاستفدنا من ذلك أن الستة أساطين^(١) التى زاده فى المشرق والمغرب
ليس منها فى جهة المغرب سوى اثنتين ، وأن أربعة منها فى جهة المشرق ؛ فيكون
ابتداء زيادته فى المشرق من الأسطوان اللاصق اليوم بالشباك الدائر حول

(١) الستة أساطين : هذا التعبير خطأ فى العربية ، لا يقول بصحته بصرى
ولا كوفى ، والبصريون يوجبون أن يقال «ست الأساطين» والكوفيون يميزون
هذا الذى أوجبه البصريون ، ويميزون وجهاً آخر وهو «الست الأساطين» بإدخال
لام التعريف على العدد وعلى المحدود جميعاً ، والعدد يقع فى هذا الكتاب مضطرباً .

الحجرة الشريفة على ما قدمناه في تحديد المسجد النبوى ، وذلك هو المراد بقوله « من الأسطوان التي دون المربعة إلى المشرق » وقوله « وبقي ثلاث أساطين » أى من الأربعة المذكورة « فى السقايف » أى المسقف الشرق كما هو اليوم ، لكن فى رواية يحىي المتقدمة أنه زاد فى المشرق ما بين الأسطوان المربعة أى مربعة القبر إلى جدار المسجد يعنى الشرقى ؛ فعلى هذا يكون له فى المشرق ثلاثة أساطين فقط ؛ فيحتمل أن يكون له فى المغرب ثلاث أيضاً ، وقوله « وزاد إلى الشام من الأسطوان المربعة التي فى القبر - إلى آخره » معناه أنه لما أحدث المسقف الشرقى جعل ابتداءه مما يلي رحبة المسجد مربعة القبر ، وجعل فى صفها إلى جهة الشام أربع عشر أسطواناً منها عشر فى الرحبة وأربع فى السقايف التي كانت قبل : أى فى المسقف الشامى ، فيكون قد صيّر المسقف الشامى رحبة ، وجعل المسقف الشامى بعد أربع عشر أسطواناً ، فهذا معنى زيادته لهذا العدد .

وبستفاد منه أن جدار المسجد من جهة الشام فى زمنه كان بعد ثمان عشرة أسطوانة ، من مربعة القبر ؛ لأنك إذا ضمنت أربع أساطين للسقايف التي أحدثها بدل الأولى إلى الأربع عشرة المذكورة بلغ ذلك ، فيكون محل الجدار المذكور قريباً مما يوازى الأسطوان التي قبل المسقف الشامى بأسطوان فيما يليه من الرحبة ، وذلك موافق لما تقدم من أنه جعل طوله - يعنى من القبلة إلى الشام - مائتى ذراع ، فيتحرر من ذلك أن زيادته من جهة الشام على ما ذكر من الذرع فى زمن عثمان رضى الله عنه أربعون ذراعاً ، ويحتمل أن يكون معنى قوله « وزاد إلى الشام من الأسطوان المربعة التي فى القبر أربع عشرة أسطوانة » أن المسجد ينتهى فى جهة الشام فى زمنه بعد أربع عشرة أسطواناً من المربعة إلى جهة الشام ؛ فيكون الجدار الشامى فى موازاة الأسطوانة الخامسة من طرف الدكاك التي هى المسقف الشامى ، وهناك أسطوان فى الصف الأوسط من المسقف الشرقى مربع أسفله قدر الجلسة ؛ فعلى هذا يكون علامة لذلك ، لكنه يخالف لما تقدم من أنه جعل طوله مائتى ذراع ، بل يكون طوله على هذا التقدير نحو مائة زحيتين ذراعاً ، وذلك هو

ما تقدم في طوله زمن عثمان رضى الله عنه ، فيكون هذا الاحتمال مردوداً ، ولكن سيأتى في زيادة المهدى ما يقتضيه ، والله أعلم .

وروى يحيى عن محمد بن إسماعيل بن أبى فديك عن يثيق به من مشايخ البلد أن عمر بن عبد العزيز أمر حين بنى المسجد بأسفل الأساطين فجعل قدر ستره اثنين يصليان إليها وقدر مجلس اثنين يتساندان إليها .

وعن صالح بن كيسان قال : لما جاء كتاب الوليد من دمشق لهدم المسجد سار خمس عشرة ، فجرد في ذلك عمر بن عبد العزيز ، قال صالح : واستعملنى على هدمه وبنائه ، فهدمناه بعمال المدينة ، فبدأنا بهدم بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى قدم علينا الفعلة الذين بعث بهم الوليد ، وقال ابن زبالة فيما رواه عن محمد ابن عمار عن جده : وكان في موضع الجنائز - أى شرقى المسجد في زمان الوليد - ابن عبد الملك - نخلتان إذا أتى بالموتى وضعوا عندهما فيصلى عليهما ، فأراد عمر بن عبد العزيز قطعهما حين ولى عمل المسجد للوليد بن عبد الملك ، وذلك في سنة ثمان وثمانين ، فاقتتل فيهما بنو النجار من الأنصار ، فابتاعهما عمر بن عبد العزيز فقطعهما . قلت : ولا ينافى ذلك ما تقدم من أن عمر هدم المسجد في سنة إحدى وتسعين ؛ لجواز أن يكون ولايته لذلك سنة ثمان وثمانين ، واستمر في تحصيل الأهبة وشراء الأماكن وتخميم النورة^(١) إلى سنة إحدى وتسعين .

وفما رواه يحيى عن حفص بن مروان عن أبيه أن عمر مكث في بنائه ثلاث سنين .

قلت : فعلى هذا يكون قد فرغ منه في آخر سنة ثلاث وتسعين ، وهى السنة التى عزل فيها عمر عن المدينة ، وفيه رد لقول من زعم أن هدمه كان في سنة ثلاث

(١) النورة : من الحجر الذى يحرق ويسوى منه السكس ، وقيل : إن هذه الكلمة ليست عربية في الأصل ، واشتقاقها يشبه اشتقاق العربى ، يقال : انتور الرجل ، وانتار ، إذا تطلّى بالنورة .

وتسعين ، لكن في رواية لابن زبالة ما يقتضى أن البداءة في هدم المسجد وعمارته كانت في سنة ثمان وثمانين ؛ فإنه قال فيها : وابتدأ عمر بن عبد العزيز بناء المسجد سنة ثمان وثمانين ، وفرغ سنة إحدى وتسعين ، وفيها حج الوليد .

قال : ولما فرغ عمر بن عبد العزيز من بنيان المسجد أرسل إلى أبان بن عثمان ، فحمل في كساء خز حتى انتهى به إليه ، فقال : أين هذا البناء من بنيانكم ؟ فقال : بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس ، قال : وقال الوليد حين رأى خوخة آل عمر : صانعتهم لمكان الخوخة ، هكذا في النسخة التي وقعت لنا ، ولعلها لمكان الخوذة ؛ لأن المطري قال : إن الوليد قال له : صانعت أخوالك ، وقد كانت أم عمر بن عبد العزيز منهم .

وروى يحيى عن جعفر بن وردان عن أبيه ما يقتضى أن الخطاب لأبان بن عثمان هو الوليد ؛ فإنه قال : فلما قدم الوليد حاجا جعل يطوف في المسجد وينظر إليه وبصيح بعمر : ها هنا ، ومعه أبان بن عثمان ، فلما استنفذ الوليد النظر إلى المسجد التفت إلى أبان وقال : أين بناؤنا من بنائكم ؟ قال أبان : إنا بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس .

قلت : وكان قد اعتنى عمر بتحسينه ؛ فقد روى يحيى عن النضر بن أنس قال : كان عمر بن عبد العزيز إذا عمل العامل الشجرة الكبيرة من الفسيفساء فأحسن عملها نفله^(١) عمر ثلاثين درهما ، وذكر هو وابن زبالة ما كان فيه من الكتابات داخله وخارجه وعلى أبوابه فتركناه لزواله .

وروى ابن زبالة عن إبراهيم بن محمد الزهرى عن أبيه قال : ولما قدم الوليد ابن عبد الملك المدينة حاجا بعد فراغ عمر بن عبد العزيز من المسجد جعل يطوف في المسجد وينظر إلى بنيانه ، فقال لعمر بن عبد العزيز حين رأى سقف المقصورة :

(١) نفله : أراد أعطاه زيادة عن أجره ، وأصله النفل - بالتحريك - وهو العطاء ، واستعمل في الشرع لما يعطيه الإمام للمقاتلين من الغنائم .

ألا عملت السقف كله مثل هذا ، قال : إذا يا أمير المؤمنين تعظم النفقة جداً ، قال : وإن ، قال : وكان نفقته في ذلك أربعين ألف دينار .
وروى ابن النجار هذا الخبر عن أهل السير بهذا اللفظ ، إلا أنه قال : فقال : يا أمير المؤمنين إذا تعظم النفقة جداً ، قال : وإن ، قال : أتدرى كم أنفقت على عمل جدار القبلة وما بين السقفين ؟ قال : وكم ، قال : خمسة وأربعون ألف دينار ، وقال بعضهم : أربعون ألف دينار ، قال : والله لكأنك أنفقتها من مالك ، وقيل : كانت النفقة في ذلك أربعين ألف مثقال ، انتهى .

وذكر يحيى رواية ابن زبالة المتقدمة من غير طريقه ، وقال عقب قوله : « وكانت النفقة في ذلك أربعين ألف دينار » قال : ثم انتهى إلى القبر فقال ابن الوليد لعمر بن عبد العزيز : من هذا في القبر ؟ قال : رسول الله وأبو بكر وعمر ، قال : فأين أمير المؤمنين عثمان ؟ قال : فأعرض عنه ، فألح عليه ، فقال : دفن في حال تشاغل من الناس وقد أسبى أدباك (١) .

وروى ذلك ابن زبالة أيضاً ، وزاد فقال : وسمعت بعض أهل العلم يقول : السائل بكار بن عبد الملك ، وكان ضعيفاً .

وقال ابن شبة : حدثنا أيوب بن عمر بن أبي عمرو ، قال : أخبرني موسى ابن عبد العزيز قال : قال عمر بن عبد العزيز لى : أتكأ الوليد على يدي حين قدم المدينة ، فجعل يطوف المسجد ينظر إلى بنائه ، ثم أتى بيت النبي صلى الله عليه وسلم فوقف عليه ، ثم أقبل على فقال : أمعه أبو بكر وعمر ؟ قلت : نعم ، قال : فأين أمير المؤمنين عثمان ؟ قال : فإله أعلم إنى لظننت أنه لا يبرح حتى يخرجهما ، فقلت : يا أمير المؤمنين إن الناس كانوا حين قتل عثمان في فتنة وشغل فذاك الذي منعهم من أن يدفنوه معهم ، فسكت .

وروى يحيى أنه جعل المقصورة من ساج ، قال : وكانت قبل من حجارة ، وأن الواقدي قال : حدثني عبد الله بن يزيد قال : كان عمل القبط مقدم المسجد ،

(١) كذا ، والعبارة ليست على ما ينبغي .

وكانت الروم تعمل ما خرج من السقف جوانبه ومؤخره ، فسمعت سعيد بن المسيب يقول : عمل هؤلاء أحكم ، يعنى القبط .

الفصل السابع عشر

فما اتخذ عمر في المسجد في زيادة الوليد من الحراب والشرفات والمنائر ، واتخاذ الحرس ، ومنعهم من الصلاة على الجنائز فيه

أُسند يحيى عن عبد المهيمن بن عباس عن أبيه قال : مات عثمان رليس في المسجد شرفات ولا محراب ، فأول مَنْ أحدث الحراب والشرفات عمر بن عبد العزيز ، وعن القاسم وسالم أنهما نظرًا إلى شرفات المسجد فقالا : إنها من زينة المسجد ، وأسند أيضًا من طريق ابن زبالة ورأيته فيه أن عمر بن عبد العزيز هو الذى عمل الرصاص على طنّف^(١) المسجد والميازيب التى من الرصاص ، فلم يبق من الميازيب التى عمل عمر بن عبد العزيز غير ميزابين : أحدهما فى موضع الجنائز ، والآخر على الباب الذى يدخل منه أهل السوق الذى يقال له باب عاتكة ، ولم يكن للمسجد شرفات حتى عملها عبد الواحد بن عبد الله النصرى ، وهو والى على المدينة ، سنة أربع ومائة ، انتهى .

فهذا يقتضى أن عمر بن عبد العزيز لم يحدث الشرفات فى زيادة الوليد ، بل ولا فى زمن خلافته بعده ؛ لأن وفاته كانت فى رجب سنة إحدى ومائة .

وفى سنن البيهقى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ابنوا المساجد واتخذوها جماء » وعن ابن عمر : نهانا - أو نهيتنا - أن نصلى فى مسجد مشرف .

قال أبو عبيد : الجم التى لا شرف لها ، حكاه فى شرح المذهب .

قال الزين المرازى : وليس للمسجد شرفات منذ حريقه ، وقد جددت له

(١) طنّف - بوزن قفل أو عنق أو جبل أو فلس - مائتاً من الجبل ، وإفريز

الحائط ، وما أشرف خارجاً عن البناء ، والسقيفة تشرع فوق باب الدار .

شرفات سنة سبع وستين وسبعائة في أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد صاحب مصر ، انتهى .

والمراد بالشرفات المذكورة ما على ما أحاط بمجدرات صحن^(١) المسجد من جوانبه الأربعة ، وبينها فرج شبه طاقات الشباك ، وهى المراتة فيما حكاه البدر بن فرحون عن القاضى فخر الدين بن مسكين الفقيه الشافعى أنه كان يجلس فى مُصَلَّاه حتى تطلع الشمس فيصلى الضحى ، وأنه رأى الناس يرتقبون بصلاتهم الشيخ أبا عبد الله بن فرحون ولد البدر ، قال : وكان يقوم إذا وصلت الشمس فى الحائط الغربى إلى تحت الشبايك الصغار ، قال : فاجتمعت به ، وكنت به جاهلا ، فقلت له : رأيتك تقوم للضحى قبل وقتها ، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنها حتى ترتفع الشمس وتبيض ، فالتفت إلى وقال : بعد اليوم نؤخر كما قلت ، وسكت عنى . قلت : وإنما ذكرت ذلك لأن كثيرا من الناس اليوم يشرعون فى الصلاة عند وقوع الشمس على رؤس الشرارييف ، وذلك قبل ارتفاع الشمس كرمح ، والله أعلم

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن محمد بن عمار عن جده ، قال : جعل عمر بن عبد العزيز لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بناه أربع منارات فى كل زاوية منه منارة .

المنازل
التي عملها
عمر بن
عبد العزيز

قال كثير بن حفص : وكانت المنارة الرابعة مُطَلَّة على دار مروان ، فلما حج سليمان بن عبد الملك أذن المؤذن ، فأطل عليه ، فأمر سليمان بتلك المنارة فهدمت إلى ظهر المسجد ، وبابها على باب المسجد ، وفى نسخة يحيى « وبابها على المسجد مما يلي دار مروان من قبل المسجد »

قلت : فكان المسجد بعد ذلك له ثلاث منارات فقط ، وهو المراد من قول

(١) كذا ، ولعل أصله « بمجدران صحن المسجد » فإن ثبتت الكلمة على ما فى الأصل فهي جمع جدر الذى هو جمع جدار .

ابن زباله في موضع آخر : ولمسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث منارات طول كل منارة ستون ذراعا ، وقال في موضع آخر : وطول المنارة الشرقية اليمانية في السماء خمس وخمسون ذراعا ، والمنارة الشرقية الشامية خمس وخمسون ، والمنارة الغربية الشامية ثلاث وخمسون ، وعرض المنارات ثمان أذرع في ثمان أذرع ، اه .

وذكر ابن جبير في رحلته ما يقتضى أن المنارتين الشاميتين كانتا صغيرتين ، بخلاف الشرقية اليمانية ، فإنه قال : والمسجد المبارك ثلاث صوامع إحداها في الركن الشرقى المتصل بالقبلة ، والاثنان في ركني الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على هيئة بُرْجَيْن ، والصومعة الأولى المذكورة على هيئة الصوامع

قلت : فكان الشاميتين غيرتا بعد ابن جبير ؛ فإنهما اليوم على هيئة الشرقية اليمانية المعروفة اليوم بالرئيسية ؛ لاختصاص الرئيس بها ، وكان طول المنارة الرئيسة في زماننا أولا من رأس هلالها إلى أسفلها خارج المسجد بالبلاط سبعة وسبعين ذراعا ، بتقديم السين ، ثم سقط منها نحو ثلثها بسبب الصاعقة التي نشأ عنها حريق المسجد الثاني كما سيأتى ، فاقتضى الحال هدم جميعها ، ثم أعيدت فكان طولها اليوم أزيد من مائة ذراع ، فصارت أطول المنارات ، ثم ظهر منها خلل بعد ، فبعث السلطان الأشرف الشجاعى شاهين الجمالى وأمره بهدمها ، فهدمها غير محكم ، فحفر أساسها إلى الملك ، وأعادها متقنة جدا في عرض جدارها الشرقى من موضع الجنائز شرقى المسجد ، وزاد في ارتفاعها أيضا حتى بلغ زيادة عن مائة وعشرين ذراعا ، وطول المنارة الشرقية الشامية وهى المعروفة بالسنجارية تسعة — بتقديم التاء على السين — وسبعون ذراعا ، وطول الشامية الغربية المعروفة بالخشبية اثنان وسبعون ذراعا — بتقديم السين فيهما — كل ذلك من أعلى الهلال إلى الأرض الخارجة عن المسجد ، وبه يعلم أن المنارات التي كانت في زمن ابن زباله ليست هى الموجودة اليوم .

قال المطرى : ولم يزل المسجد على ثلاث منارات إلى أن جددت المنارة

الرابعة ، وذكر في موضع آخر تجديدها ، فقال بعد ذكر خوخة مروان المتقدم ذكرها في ركن المسجد الغربى : إنه شاهد الخوخة المذكورة عند بناء المنارة الكبيرة المتجددة في سنة ست وسبعائة ، أمر بإنشائها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون

قال المطرى : وكان باب الخوخة عليها ، وهو من ساج ، فلم يَبْلَ إلى هذا التاريخ ، كان مروان يدخل من داره إلى المسجد منها ، وقد انسدت - يعنى الخوخة - بمحائط المنارة الغربى ، اهـ

قلت : وقد ذكر البدر بن فرحون بناء هذه المنارة فإنه أدرك ذلك ، وذكر أنه لم يوجد عند الحفر أثر لما ذكر من وجود منارة قبلها ، فقال ما ملخصه : إنه لما حج سِلَّار وبيبرس كلهما شيخ الخدام شبل الدولة كافور المظفرى المعروف بالحريرى فى بناء المنارة التى بباب السلام اليوم ، فأنعم^(١) ، ثم خشى أنهما يشتغلان عن ذلك ويستنقلان النفقة ، فقال : أنا لأطلب منكم مالا ، عندى من قناديل الذهب والفضة ما يقوم بها وزيادة ، فأنعم^(١) له بإرسال الصناع ، وأمر بالحفر لها فى مكانها اليوم ، فلم ينزلوا إلا قليلا إذ وجدوا باب مروان بن الحسك أسفل من أرض المسجد بقدر قامة ، ثم وجدوا تحصيب المسجد فى أيام مروان بالرمل الأسود يشبه أن يكون من جبل سَلْع ، ثم نزلوا فى الأساس حتى بلغوا الماء ، ثم أمر الحريرى مَنْ كان بالمدينة يتعانى البناية كالشيخ إبراهيم البنا والشيخ على الفراش الحجار وغيرها ممن ليس له فى البناية كبير قدم ، فدكوا الأساس ، فلما حضر الصناع فى الموسم قال مقدمهم للشيخ : لاتبنى حتى تنقض ذلك ، فإننا لآمن عاقبته ، فامتنع الشيخ ، فرجع إلى مصر من حينه ، فقال الشيخ لمن كان معه من المعلمين : اعملوا أتم ، فعملوها على ما هى عليه اليوم ، وعمَّ نفعها ؛ لأنها متوسطة المدينة حتى إن رئيس المؤذنين محمد بن إبراهيم قال لى : لو تركت لى هذه المأذنة لكفيت

(١) أنعم : المراد أنهما استجابا له ، يقال : « أحسنت إلى وأنعمت » أى زدت على الإحسان ، ويقال : معنى أنعم دخل فى النعيم ، كما يقال : « أشمل » أى دخل فى الشمال .

المدينة ، وهو حق ؛ فإن امتداد المدينة وقوة عمارتها من جهة المغرب ، يعنى فى محاذاة المنارة المذكورة .

قال : وكان بعض المؤرخين يذكر أنه كان هناك مأذنة مُشْرِفة^(١) على دار مروان ، فهدمها غيرة على أهله من مؤذنيها ، فلم يوجد لذلك صحة ولا أثر البتة ، انتهى ما ذكره ابن فرحون .

قلت : وجواب ما ذكره أخيراً أن تلك المنارة تحتمل أن تكون على باب المسجد وسطحه مما يلي دار مروان ، وليس لها فى الأرض أساس ، ويدل على ذلك قوله فى الرواية المتقدمة : وبابها على المسجد ، أو على باب المسجد ؛ فلا يلزم من عدم وجود أثرها عند الحفر عدم وجودها أصلاً ورأساً فى تلك الجهة ، ولم يتعرضوا لذرع هذه المنارة ، وكانت أطول منارات المسجد . وقد ذَرَعُوا من أعلى هلالها إلى الأرض ، فكان ذلك خمسة وتسعين ذراعاً - بتقديم التاء على السين - لكن صارت المنارة الرئيسية المجددة بعد الحريق أطول منها كما سبق ، والله أعلم .

ويظهر من سياق ما تقدم أن أول جعل المنارات فى المسجد كان فى زيادة الوليد ، ويشهد لذلك ما رواه ابن إسحاق وأبو داود والبيهقى أن امرأة من بنى النجار قالت : كان يبنى من أطول بيت حول المسجد ، وكان بلال يؤذن عليه الفجر كل غداة ، فيأتى بسحر ، فيجلس على البيت لينظر إلى الفجر ، فإذا رآه تمطى ، ثم قال : اللهم إني أحمدك وأستعينك على قریش أن يقيموا دينك ، قالت : ثم يؤذن .

وروى خالد بن عمرو عن أبي بَرَزَةَ الأسلمى قال : من السنة الأذان فى المنارة والإقامة فى المسجد .

(١) مشرفة : أى مطلة ؛ لأنها فى جهتها .

وروى غيره أن الأذان في زمنه صلى الله عليه وسلم كان على أسطوانة في دار عبد الله بن عمر التي في قبلة المسجد .

قال ابن زبالة : حدثني محمد بن إسماعيل وغيره قال : كان في دار عبد الله بن عمر أسطوان في قبلة المسجد يؤذن عليها بلال يرقى إليها بأقتاب^(١) ، والأسطوان مربعة قائمة إلى اليوم يقال لها المطار ، وهي في منزل عبيد الله بن عبد الله بن عمر . قلت : والظاهر أنها المرادة بقوله في الرواية المتقدمة في قصة الخوخة التي جعلت بدل طريق بيت حفصة : ووسعها لهم حتى انتهى بها إلى الأسطوان .

وقال الأقرشي ، ومن خطه نقلت : عن عبد العزيز بن عمران قال : كان في دار عبد الله بن عمر أسطوان في قبلة المسجد يؤذن عليها ، وهي مربعة قائمة إلى اليوم . قال الأقرشي : وهي باقية إلى يومنا هذا ، قال ، يعني عبد العزيز : وكان يقال لها المطار .

وأُسند يحيى من طريق عبد العزيز بن عمران عن قدامة العمرى عن نافع عن ابن عمر ، قال : كان بلال يؤذن على منارة في دارة حفصة بنة عمر التي تلي المسجد ، قال : وكان يرقى على أقتاب^(١) فيها ، والأسطوان في البيت الذي كان بيد عبيد الله بن عمر الذي يقال له بيت عبد الله بن عمر ، وقد كانت خارجة من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن فيه ، وليست فيه اليوم ، والظاهر أنه تجاوز في تسمية الأسطوان منارة ، وعبد العزيز بن عمران كان كثير الغلط ؛ لأن كتبه احترقت ؛ فكان يروى من حفظه ، فتركوه ، ثم الظاهر أن عمر وعثمان رضي الله عنهما لم يتخذا في المسجد منارة ، وإلا لنقل .

وروى يحيى عن جابر بن عبد الله قال : كان أول من خلق المسجد ، ورزق المؤذنين^(٢) ، وجلس على الدرجة الثالثة من المنبر بعد النبي صلى الله عليه وسلم عثمان رضي الله عنه .

عثمان أول
من خلق
المسجد ورزق
المؤذنين

(١) الأقتاب : جمع قتب ، وأصله إكاف صغير على قدر سنام البعير يوضع عليه
(٢) رزق المؤذنين : جعل لهم رزقا على الأذان .

وروى ابن زباله عن موسى بن عبيدة أن عمر بن عبد العزيز استأجر حرساً للمسجد لا يحترف فيه أحد .

وعن كثير بن زيد قال : نظرت إلى حرس عمر بن عبد العزيز يطردون الناس من المسجد أن يُصَلَّى على الجنائز فيه .

وعن عثمان بن أبي الوليد عن عروة بن الزبير أنه قال له : تضرعون الناس في الصلاة في المسجد على الجنائز ؟ قال : قلت : نعم ، قال : أما إن أبا بكر قد صَلَّى عليه في المسجد .

قلت : وذكر يحيى ما يقتضى أن الحرس كانوا قبل زمن عمر بن عبد العزيز يمنعون الناس من الصلاة على الجنائز في المسجد ؛ فإنه روى عن ابن أبي ذئب عن المقبري أنه رأى حرس مروان بن الحكم يخرجون الناس من المسجد يمنعونهم أن يصلوا فيه على الجنائز .

قلت : وأما ما كان من ذلك في زمنه صلى الله عليه وسلم فقد روى ابن شبة عن صحابي سقط اسمه من النسخة التي وقفتُ عليها حديثاً محصله أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كان إذا احتضر الميت آذَنُوهُ فحضره واستغفر له ، حتى إذا قبض انصرف النبي صلى الله عليه وسلم وَمَنْ مَعَهُ ، وربما قَعَدَ وَمَنْ مَعَهُ فربما طال حَبْسُ ذَلِكَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فلما خشينا مشقة ذلك عليه قال بعض القوم لبعض : لو كنا لا نُؤْذِنُ النبي صلى الله عليه وسلم بأحدٍ حتى يُقَبَّضَ ، فإذا قبض آذَنَاهُ^(١) ، فلم يكن عليه في ذلك مشقة ولا حبس ، ففعلنا ذلك ، وكنا نُؤْذِنُهُ بالميت بعد أن يموت فيأتيه فيصلى عليه ، فربما انصرف ، وربما مكث حتى يدفن ، فكنا على ذلك حيناً ، فقلنا : لو لم تُشْخِصْ^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملنا جنازتنا إليه حتى يصلى عليها عند بيته كان ذلك أرفق به ، ففعلنا ، فكان ذلك الأمر إلى اليوم .

(١) آذناه : أعلمناه وأخبرناه . (٢) أشخصه يشخصه : أزعجه

الصلاة على
الجنائز في
المساجد

وعن ابن شهاب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هلك الهالكُ شهده يصلى عليه حيث يدفن ، فلما نَقَلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وَبَدَنَ (١) نقل إليه المؤمنون موتاهم فصلى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجنائز عند بيته في موضع الجنائز اليوم ، ولم يزل ذلك جارياً .

قال ابن شبة : وحدثني محمد بن يحيى قال : حدثني من أثنى به أنه كان في موضع الجنائز نخلتان إذا أتى بالموتى وُضِعَا عندهما فصلى عليهما ، فأراد عمر ابن عبد العزيز حين بنى المسجد قَطْعَهُمَا ، فاقتتلت فيهما بنو النجار ، فابتاعهما عمر فقطعهما .

وفي صحيح البخارى من حديث ابن عمر في قصة اليهوديين « فَرَجَا قَرِيبًا من موضع الجنائز عند المسجد » فدل ذلك على أن الموضع المذكور كان معروفاً بذلك .

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة أنها أمرت أن يمر بجنائزة ابن أبي وقاص في المسجد فتصلى عليه ، فأنكر الناس ذلك عليها ، فقالت : ما أَسْرَعَ ما نَسَى الناسُ ! ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سُهَيْل بن البيضاء إلا في المسجد ، وفي رواية لها : والله لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابْنِ بِيضَاء في المسجد سُهَيْل وأخيه .

قلت : ويفهم منه أن ذلك نادر ، وأن الكثير من فعله صلى الله عليه وسلم ما تقدمت الإشارة إليه .

وروى يحيى بسند جيد عن عبد الله بن عمر أنه صلى على عمر بن الخطاب في المسجد ، وفي رواية أخرى له عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب صلى على أبي بكر في المسجد ، وأن سُهَيْبًا صلى على عمر بن الخطاب في المسجد ، وبيّن في رواية أخرى أن ذلك كان عند المنبر ، وقد روى ذلك ابن أبي شيبة ، وقال في رواية : وضعت الجنائزة في المسجد تُجَاه المنبر .

قال الحافظ ابن حجر : وهذا يقتضى الإجماع على جواز ذلك ، وقد تقررت المذاهب فى ذلك .

وقال ابن النجار عقب ذكر ماتقدم عن عمر بن عبد العزيز فى ذلك : والسنة فى الجنائز باقية إلى يومنا هذا ، إلا فى حق العلويين ومن أراد الأسراء من الأعيان وغيرهم ، والباقون يصلّون عليهم خلف الحائط الشرقى من المسجد ، إذا وقف الإمام على الجنائز هناك كان النبى صلى الله عليه وسلم عن يمينه . انتهى .

قلت : وقد انتسخ ما ذكره ابن النجار ، وصار يصلّون على الجنائز كلها فى المسجد ، ويخص الأعيان بالصلوة عليهم بالروضة الشريفة بين القبر والمنبر ، وغيرهم يصلّون عليه أمام الروضة بعد أن يوقف بالجنائز بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم أمام الوجه الشريف إلى عام اثنين وأربعين وثمانمائة فى دولة السلطان الظاهر جقمق ، فوردت مراسيمه على شيخ الحرم فارس بالأمر بمنع جناز الشيعية من المسجد ، فنع المنسوبون للشيعية من إدخال جنازهم إلى المسجد إلا الأشراف الشيعية العلويين ، وجرى الأمر على ذلك إلى يومنا هذا ، لا يدخل المسجد إلا جناز غير الأشراف أهل السنة ، وحاول بعض أهل المدينة إدخال بعض الشيعية غير الأشراف فقام فى ذلك بعض أمراء الترك ومنع منه ، وكان صاحبنا العلامة أحد شيوخ المالكية الشيخ شهاب الدين أحمد بن يونس القسنطينى يُنكر الصلاة على الموتى بالروضة الشريفة ومقدم المسجد ؛ لكون رجلى الميت تصيران إلى جهة الرأس الشريف ، حتى إنه أوصى أن يصلّ عليه خارج المسجد فى موضع الجنائز ، وأكثر قبل وفاته من الاستفتاء فى ذلك ، وأرانى خطوط جماعة من علماء الشام وغيرها من الشافعية وغيرهم يتضمن موافقته على ذلك ، وفى كلام بعض الشافعية : ينبغى أن تكون الصلاة بالمسجد خلف الحجرة الشريفة أو شرقيها ، والتمس منى الكتابة فى ذلك ، فكتبت بما حاصله أن الله تعالى قد أوجب على هذه الأمة

تعظيم نبيها صلى الله عليه وسلم وتوقيره وسلوك الأدب التام معه ، ولا شك أن الميت إذا وُضِعَ في مقدم الروضة أو المسجد كما يوضع اليوم وإن لم تكن رجلاه في محاذاة الرأس الشريف حقيقة ؛ لأن الرأس الشريف في محاذاة صف أسطوان التوبة والحلقة: أى حذاء الأسطوانات التي تكون خلف المصلى على الميت ، لكن تكون رجلاه في محاذاة الجهة المذكورة ، وقد تصدق المحاذاة مع البعد ، ولو رأينا شخصا اضطلع بذلك الحل من الروضة وجعل رجله لتلك الجهة الشريفة لأنكرنا ذلك عليه ، وما ننكره على الأحياء لا ينبغي أن نفعله بالأموات ، وقد تأملت كتب المذاهب الأربعة فلم أر فيها تعرضا لذكر السنة في جهة رجل الميت ، بل ذكر الشافعية فيما إذا حضرت جنازة وصلى عليها الإمام دفعة وجهين : أصحهما وضع الجميع صفا بين يدي الإمام في جهة القبلة ، زاد أبو زرعة العراقي في شرح البهجة : والأولى جعلها عن يمينه ، والثاني يوضع الجميع صفا واحدا رأس كل إنسان عند رجل الآخر ، ويجعل الإمام جميعهم عن يمينه ، ويقف في محاذاة الأخير ، هذا إذا اتحد النوع ، فإن اختلف النوع تعين الوجه الأول ، ذكره في أصل الروضة ، ويؤخذ منه استحباب جعل رجل كل ميت عن يمين الإمام على الوجه الثاني ، وإلا فلا يكون الجميع صفا عن يمينه ، وأما على الوجه الأول فيؤخذ ذلك أيضا مما تقدم عن أبي زرعة ، ولعل مأخذه فيه ما ذكر في الثاني ، وإذا ثبت ذلك في الجماعة فالواحد كذلك ؛ فيكون الأولى جعل رجله عن يمين الإمام ، ولكن الذي عليه الناس جعلهما على يساره .

ورأيت في كتب المالكية ما يقتضى أن ذلك هو الأولى ، وأن الناس مضوا على ذلك .

وقد ظهر لى أن السر في ذلك أن السلف - كما يؤخذ مما قدمناه - إنما كانوا يصلون على الجنازة خارج المسجد في شرقيه في الموضع المعروف بذلك ، والواقف

هناك يكون القبر الشريف عن يمينه ، فأروا- والله أعلم- أن الأدب جعل الرجلين عن يسار الإمام صَرَفاً لهما عن تلك الجهة الشريفة ، ثم توارثوا ذلك ، واستمر العمل عليه ، فلما ترك ذلك وصلوا على الجنائز في المسجد مَشَوْا على ما اعتادوه من جعل رجلي الميت عن يسار الإمام مع الغفلة عن ذلك ، وإذا لم تثبت سنة في جعل رجلي الميت عن يسار الإمام فينبغي جعلهما عن يمينه في هذا الحل الشريف ، استعمالاً لكمال الأدب .

وقد قال لي الشيخ فتح الدين بن تقي الدين الكازروني- وكان يُعَدُّ من فضلاء الشافعية -وقد ذاكرته بذلك : إذا أنأمت فليجعل رجلاي عن يمين الإمام، ففعل به ذلك رحمه الله ، على أن الموضع الذي يلي الأرجل الشريفة من المسجد هو من موضع الجنائز في زمنه صلى الله عليه وسلم فيما يظهر ، ويدل عليه ما أتفق لابي النجار لما أراد عمر بن عبد العزيز قطع النخلتين عند عمارته للمسجد ؛ فلو صلى فيه اليوم على مَنْ يدخل به المسجد من الجنائز لكان أولى ؛ فإنه يتأتى فيه كون الرجلين عن يسار الإمام والرأس في جهة الأرجل الشريفة ، ويكون أفضل لما جرت به العادة من الخروج بالميت من باب جبريل ، وأوفق لفعل السلف في الصلاة على موتاهم هناك ، ولم يوافق على شيء من ذلك المتمسكون بالعادات ، وقد ذكرت نص ما أجبت به في ذلك مبسوطا استطرادا في كتابي «دفع التعرض والإنكار ، لبسط روضة المختار» والله أعلم .

الفصل الثامن عشر

في زيادة المهدي

نقل ابن زبالة ويحيى أن المسجد لم يزل على حالة ما زاد فيه الوليد إلى أن هم أبو جعفر المنصور بالزيادة فيه ، ثم توفي ولم يزد فيه ، حتى زاد فيه المهدي ،

لكن ذكر يحيى في حكاية ما كان مكتوباً في جدار القبلة ما لفظه : ثم إلى جنب هذا الكتاب - أى ما كتب في زمن المهدي - كتاب كتب في ولاية أبي العباس ، يعنى السفّاح ، وصل هذا الكتاب أى كتاب المهدي إليه ، وهو : أمرَ عبدُ الله عبد الله أميرُ المؤمنين بزينة هذا المسجد وتزيينه وتوسعته مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ابتغاء رضوان الله وثواب الله ، وإن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعاً بصيراً ، انتهى .

وهو يقتضى أن أبا العباس السفّاح - وهو أول خلفاء بني العباس - زاد في المسجد أول ولايته ، وولايته سنة اثنتين وثلاثين ، ووفاته سنة ست وثلاثين ومائة ، وسنشير إلى محل ذلك آخر الفصل .

ولفظ ما نقله ابن زباله عن غير واحد من أهل العلم - منهم عبد العزيز بن محمد ومحمد بن إسماعيل - قالوا : لم يزل المسجد على حال ما زاد فيه الوليد بن عبد الملك حتى ولى أبو جعفر عبدُ الله - يعنى المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس - فهمم بالزيادة ، وأراد ، وشاور فيه ، وكتب إليه الحسن بن زيد يصف له ناحية موضع الجنائز ، ويقول : إن زيد في المسجد من ناحيته الشرقية توسّط قبرُ النبي صلى الله عليه وسلم المسجد ، فكتب إليه أبو جعفر : إني قد عرفت الذى أردت ، فاكفف عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فتوفى أبو جعفر ولم يزد فيه شيئاً ، ثم حج المهدي - يعنى ابن أبي جعفر - سنة ستين ومائة ، فقدم المدينة مُنْصَرَفَهُ عن الحج ، فاستعمل عليها جعفر بن سليمان سنة إحدى وستين ومائة ، وأمر بالزيادة فيه ، وولى بناءه عبد الله بن عاصم بن عمر بن عبد العزيز وعبد الملك بن شبيب الغساني ، فمات ابنُ عاصم ، فولى مكانه عبد الله بن موسى الحمصي ، وزاد فيه مائة ذراع من ناحية الشام ، ولم يزد في القبلة ولا في المشرق والمغرب شيئاً ، وذلك عشر أساطين في صحن المسجد إلى سقائف النساء ، وخمس سقائف النساء الشامية .

وروى يحيى ذلك من طريق ابن زبالة وغيره ، وقال فى رواية له عقب قوله واستعمل عليها جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس : وأمره بالزيادة فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وولاه بناءه هو وعبد الله بن عاصم بن عمر بن عبد العزيز بن مروان وعبد الملك بن شبيب الغساني من أهل الشام ، فزيد فى المسجد من جهة الشام إلى منتهاه اليوم ، وكانت زيادته مائة ذراع ، ولم يزد فيه من المشرق ولا المغرب ولا القبلة شيئاً .

قلت : ما روياه من أنه زاد فى مؤخر المسجد مائة ذراع يخالفه ما تقدم فى زيادة الوليد أنه جعل طوله مائتى ذراع ؛ لأنه يقتضى أن يكون طول المسجد بعد زيادة المهدي ثلاثمائة ذراع ، وطول المسجد اليوم على ما صرح به ابن زبالة مائتا ذراع وأربعون ذراعاً ، وقد اختبرته فزاد على ذلك ثلاثة عشر ذراعاً كما سيأتى ، ومع ذلك فهو مؤيد لما قدمناه من الاحتمال المتبادر إلى الفهم فى الرواية المتقدمة فى زيادة الوليد المقتضى لأن نهاية المسجد من جهة الشام فى زمنه كانت بعد أربع عشر أسطوانة من مربعة القبر ، ومنها إلى آخر المسجد أربع وعشرون أسطوانة فإذا أسقطنا من ذلك أربع عشرة للوليد بقى عشرة أساطين وقدرها نحو مائة ذراع ، وهذا معنى قوله فى الرواية المتقدمة « وذلك عشر أساطين فى صحن المسجد إلى سقائف النساء » أى إلى آخر سقائف النساء ، وهى المسقف الشامى ، وقوله « وخمس فى السقائف » أى من العشرة المذكورة ، مع أنه يقتضى أن المهدي جعل المسقف المذكور خمس أساطين ، وهذا كان فى ذلك الزمان كما سنوضحه ، وهو اليوم أربع فقط ، وقد قدمنا ترجيحاً أن المراد مما ذكر فى زيادة الوليد أنه جعل أربع عشرة أسطوانة فى الرحبة بما فيها من أربع أساطين فى السقائف التى كانت أولاً ، وأنه جعل السقائف الشامية فى زمنه بعد الأربع عشرة المذكورة ؛ لواقعة ما ذكره فى ذرع المسجد فى زمنه ولما ذكر فى زيادة عثمان

رضى الله عنه من أنه جعل المسجد مائة وستين ذراعاً ، فإن ذلك يقتضى أن يكون نهايته في جهة الشام يقرب من أربعة عشر أسطوانة من المربعة المذكورة ، فيتحصل من ذلك أن زيادة الوليد على ما ذكر في زيادة عثمان رضى الله عنه أربعون ذراعاً ، وأن زيادة المهدي نحو خمسة وخسين ذراعاً فقط ؛ فيكون للمهدي نحو ستة أساطين في مؤخر المسجد ، لكن سيأتى في ذكر أبواب المسجد ما يقتضى أن الباب الذى كان يواجه دارَ خالد بن الوليد كان مكتوباً عليه : زيادة المهدي ، وكذا الباب الذى بعده في الشام عليه ما يقتضى ذلك ، وكذا البابان المقابلان لهما في جهة المغرب ، دون ما قبل ذلك من الأبواب ، وذلك يقتضى ترجيح رواية أنه زاد في المسجد مائة ذراع ، وقد رأيت في المستف الشرفى أسطوانة هي التاسعة من جدار المسجد الشامى مربع أسفلها مرتفع عن الأرض بقدر الجلسة ، وهي محاذية لما وُصفوه من الباب المقابل لدار خالد بن الوليد ، فإن صحت هذه الرواية فهي علامة على ابتداء زيادة المهدي ، والله أعلم .

وقال ابن زبالة ويحيى في روايتهما المتقدمة أيضاً : وكان - يعنى المهدي - قبل بنيانه قد أمر به ، فقدَّروا ما حوله ، فابتاع ، وكان مما أدخل في المسجد من الدور دار مليكة .

قال ابن زبالة : وأخبرني إبراهيم بن محمد الزهرى عن أبيه قال : كانت دار مليكة لعبد الرحمن بن عوف ، وإنما سميت دار مليكة لأن عبد الرحمن أنزلها مليكة ابنة خارجة بن سنان ، فطلب عليها أسماً ، ثم باعها بنو عبد الرحمن بن عوف من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فباعها عبد الله حين بناء المسجد ، فأدخل بعضها في المسجد ، وبعضها في رحبة المسارب ، وبعضها في الطريق ، قالوا : وأدخل دار شرحبيل بن حسنة ، وكانت صدقة ، فابتاعوا دوراً ومنازل فأوقفوها صدقة و بقيت منها بقية ، فابتاعها منهم يحيى بن خالد بن برمك فدخلت في الحش حش طلحة .

قلت : وقد ذكر ابن شبة دار مليكة وقال : فباعها عبد الله من معاوية رضى الله عنه ؛ فصارت فى الصوافى ؛ فأدخلها المهدي فى المسجد ، وذكر دار شرحبيل هذه فى ترجمة علم دور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة : أى غير الحِجَر ، فقال : قال أبو غسان : اتخذت أم حَبِيبَةَ بنتُ أبي سفيان رضى الله عنها الدار التى يقال لها دار آل شرحبيل ، فوهبتها لشرحبيل بن حَسَنَةَ ، فلم تزل لبنيه حتى باعوا صدرها من المهدي فزادها فى مؤخر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة إحدى وستين ومائة ، ثم ذكر ما سنورده فى ذكر الدور المطيفة بالمسجد .

وقال ابن زباله عقب ما تقدم : وأدخل بقية دار عبد الله بن مسعود التى يقال لها دار القُرَاء ، ودار المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف ابن زُهْرَةَ .

قلت : ذكر ابن شبة هذه الدار فى دور بنى زُهْرَةَ ، فقال : واتخذ مخرمة ابن أهيب بن نوفل داراً ، وهى فى زاوية المسجد عند المنارة الشرقية اليمانية ، فاشتري المهدي بعضها فأدخله فى رحبة المسجد القُصْيا وفى الطريق ، وبيعت بقيتها فصارت لرجل من آل مطرف ثم صارت لبعض بنى بَرْمَك ثم صارت صافية اليو ، انتهى .

وقوله « المنارة الشرقية اليمانية » تحريفٌ والصواب الشامية .

قال ابن زباله ويحيى عقب ما تقدم : وفرغ من بنيان المسجد سنة خمس وستين ومائة ، وقد كان هم بسد خَوْخَةَ آل عمر ، وأمر بالمقصورة فهدمت وخفضت إلى مستوى المسجد ، وكانت مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد ، فأوطأها مع المسجد ، فكلّمه آلُ عمر فى خَوْخَتِهِمْ حتى كثر الكلام بينهم ، فأذن لهم ففتحوها وخَفَضُوهَا فى الأرض شبه السَّرْب ؛ فصارت فى المسجد : أى خارج المقصورة عليها شبك حديد ، وزاد فى المسجد لتلك الخَوْخَةُ ثلاث درجات ؛ فهى على ذلك إلى اليوم .

ويؤخذ مما ذكره ابن زبالة من الكتابة على أبواب المسجد في زمن المهدي أنه زخرَفه بالفُسَيْفَسَاء^(١) كما فعل الوليد، ويشهد لذلك بقية من الفسيفساء كانت فيما زاده في مؤخر المسجد عند المنارة الغربية الشامية ، وفيما يقرب منها من الحائط الغربي ، ولم أر في كلام أحد من مؤرخي المدينة أن المسجد الشريف زيدَ فيه بعد المهدي ، اسكن قال الزين المراغي ما لفظه : وقيل : إن المأمون زاد فيه ، وأتقن بنيانه أيضاً في سنة اثنتين ومائتين .

قال السهيلي : وهو على حاله ، ورزين ينكر ذلك ، ويمكن الجمع بأنه جددّه ولم يزد ، انتهى .

قلت : ولم أر في كلام رزين تعرضاً لحكاية ذلك حتى ينكره ، وهذا بعيد جداً ؛ لأن من أدرك زمن المأمون من مؤرخي المدينة لم يتعرض لشيء من ذلك ، نعم رأيت في المعارف لابن قتيبة بعد ذكر زيادة المهدي ما لفظه : وزاد فيه المأمون زيادةً كثيرةً ووسعه ، وقرأت على موضع زيادة المأمون : أمرَ عبد الله بعمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين ومائتين ، وذكر أشياء من الأمر بالعدل وتقوى الله ، وهذا لا دلالة فيه على زيادة المأمون في المسجد ؛ لاحتمال أنه وقع في زمنه عمارة من غير أن يزيد فيه ، على أن في كلام يحيى وغيره في حكاية ما كان مكتوباً في المسجد ما يدل على كتابة مثل ذلك لمن تجددت ولايته من الخلفاء فقط ، والله أعلم .

الفصل التاسع عشر

فما كانت عليه الحجرة الشريفة الحاوية للقبور المنيفة في مبدأ الأمر قد قدمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بنى المسجد بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة رضي الله عنهما على نعت بناء المسجد من لبنٍ وجريد النخل ، قال ابن الفجار : وكان لبيت عائشة رضي الله عنها مصراع واحد من عَرَعَرٍ أوساج ، وتقدم أيضاً

(١) الفسيفساء : انظر ص ٥١٨ من هذا الجزء .

في الفصل التاسع عن جماعة ممن أدرك بيوت النبي صلى الله عليه وسلم لما أدخلت في المسجد أنها كانت من جريد مستورة بمسوح الشعر ، وأن عمران بن أبي أنس قال : كان فيها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد ، الخبز المتقدم

أول من بنى
جداراً على
بيت عائشة

قلت : وكان بيت عائشة رضى الله عنها أحد الأربعة المذكورة ، لكن سيأتي من رواية ابن سعد أنه لم يكن عليه حائط زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن أول من بنى عليه جداراً عمر بن الخطاب ، وليحمل على أن حجرة الجريد التي كانت مضافة له ، أبدلها عمر بجدار ، جمعاً بين الروايات ، وتقدم أيضاً قول عبد الله بن يزيد الهذلي : ورأيت حُجْرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حين هدمها عمر بن عبد العزيز مبنية باللبن حولها حجر من جريد مدودة ، إلا حجرة أم سلمة ، وقول الحسن البصري : كنت أدخل بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مرّاهق ، وأنال السقف بيدي ، وكان لكل بيت حجرة ، وكانت حُجْرُهُ من أكسية من شَعَرٍ مربوطة في خشب غُرْعَرٍ

قلت : والظاهر أن ما يستر به الحجر المذكورة هو المراد في حديث كشفه صلى الله عليه وسلم لسَجْفٍ^(١) حجّرتَه ، كما في الصحيح ، والسجف لغة : الستر وفي الشحنة لابن عساكر عن داود بن قيس أنه قال : أظن عرض البيت من الحجرة إلى باب البيت نحو من ست أو سبع أذرع ، وأظن سمكه بين الثمان والتسع نحو ذلك ، ووقفت عند باب عائشة فإذا هو مستقبل المغرب ، وهو صريح في أن الباب كان في جهة المغرب ، وسيأتي ما يؤيده .

وكذا ما روى في الصحيح من كشفه صلى الله عليه وسلم سَجْفَ الباب^(٢) في مرضه وأبو بكر رضى الله عنه يؤم الناس ، وترجيل عائشة رضى الله عنها شَعْرَهُ وهو في معتكته وهي في بيتها كما تقدم في حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف يُدْنِي إلى رأسه فأرجله^(٣) ، وفي رواية النسائي : يأتيه وهو

(١) السجف - بكسر السين وفتححه - ومثله السجاف - بوزنة الكتاب - الستر

(٢) أرجله : أسرح شعره

معتكف في المسجد ، فيتكى على عتبة باب حجرتي ، فأغسل رأسه وأنا في حجرتي وسائر في المسجد ، لكن سبق أيضا ما يقتضي أن الباب كان مستقبل الشام ، وهو ضعيف أو مؤول ، أما ضعفه فلما تقدم من أن بيت فاطمة رضي الله عنها كان ملاصقا له من جهة الشام وأن أربعة القبور كانت باب على ، ويحتمل أن بعضه من جهة الشام كان ملاصقا بيت فاطمة دون بعضه ، فيتأتى ذلك ، ويدل له ما قدمناه في بيت فاطمة رضي الله عنها من أن الموضع المزور في بناء عمر ابن عبد العزيز كان مخرجا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأما تأويله فأحد أمرين كما أشار إليه الزين المراغي : أحدهما تحمله على أنه باب شرعته عائشة رضي الله عنها لما ضربت حائطها بينها وبين القبور المقدسة بعد دفن عمر رضي الله عنه ، لا أنه الباب الذي كان في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وفيه بعد ؛ لأنه سيأتي ما يؤخذ منه أن الحائط الذي ضربته كان في جهة المشرق ، ثانيهما لأنه كان له بابان ؛ إذ لا مانع من ذلك ، وهذا يحمل ما رواه ابن عساكر عن محمد بن أبي فديك عن محمد بن هلال أنه رأى حُجَرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من جريد مستورة بمُسُوح الشَّعَر ، فسألته عن بيت عائشة ، فقال : كان بابها من جهة الشام ، قلت : مصراعا كان أو مصراعين ؟ قال : كان باب واحد ، قلت : من أي شيء كان ؟ قال : من عرعر أو ساج ، وهذا مستند ابن عساكر في قوله : وباب البيت شامي ، ولم يكن على الباب غلق مدة حياة عائشة ، اهـ

ثم ظفرت في طبقات ابن سعد بما يصرح بأن الحجرة الشريفة كان لها بابان ؛ فإنه روى من طرق أنهم صلوا على النبي صلى الله عليه وسلم بحجرتي ، وروى في أثناء ذلك عن أبي عسيم قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : كيف نصلى عليه ؟ قالوا : ادخلوا من دا الباب أرسالا^(١) فصلوا عليه ، واخرجوا من الباب الآخر ، والله أعلم

(١) أرسالا : جمع رسل - بفتح كل من الراء والسين - وهي الجماعة

وكان بيتُ حفصة بنت عمر رضى الله عنها ملاصقا لبيت عائشة رضى الله عنها من جهة القبلة

ونقل ابن زبالة فيما رواه عن عبد الرحمن بن حميد وعبيد الله بن عمر بن حفص وأبى سبرة وغيرهم أنه كان بين بيت حفصة وبين منزل عائشة الذى فيه قبر النبي صلى الله عليه وسلم طريق، وكانتا يتهاديان الكلام وهما فى منزليهما^(١)، من قُرب ما بينهما، وكان بيت حفصة عن يمين اتلوة^(٢)

قلت : فهو موقف الزائرین اليوم داخل المقصورة وخارجها ، كما ذكره المطرى ، وتقدم فى حدود المسجد النبوى أن جدار الحجرة مما يلى المسجد كان فى حد القناديل التى بين الأساطين اللاصقة بجدار القبر ، وبين الأساطين المقابلة لها ، وهى التى إليها المقصورة الدائرة على الحجرة من جهة المغرب ، وأن المسجد زيد فيه من تلك الجهة شئ من الحجرة ، وأن الظاهر أن ما ترك فى المسجد من الحجرة كان من مرافقها كالدھليز للباب ، وأن ما بنى عليه من ذلك هو صفة بيت عائشة رضى الله عنها التى وقع الدفن بها

هذا ما تحصل لى من كلام متقدمى المؤرخين ، خلاف ما اقتضاه كلام متأخريهم ، من أن جدار الحجرة الذى [فى] جوف الحائز الدائر عليها اليوم هو جدارها الأول ، وإليه ينتهى حد المسجد ، وأن جدار الحائز الذى جعله عمر بن عبد العزيز إنما جعله فيما يلى الحجرة من المسجد ، وقد قدمنا من كلام ابن زبالة والمحاسبى نقلا عن مالك ما يرد ذلك ، والله أعلم

الفصل العشرون

فما حَدَّثَ من عمارة الحجرة بعد ذلك ، والحائز الذى أدير عليها روى ابن زبالة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ما زِلْتُ أَضَعُ خمارى^(٣)

(١) انظر هذه العبارة فى ص ٥١٥ من هذا الجزء

(٢) الخمار - بكسر الخاء - غطاء الوجه ، ومعنى وضعه أنها تركه ولا تلبسه

وَأَتَفَضَّلَ فِي ثِيَابِي^(١) حَتَّى دَفِنَ عَمْرٌ؛ فَلَمْ أَزَلْ مَتَحَفِظَةً فِي ثِيَابِي حَتَّى بَنَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقُبُورِ جِدَارًا

وَعَنِ الْمَطْلَبِ قَالَ : كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْ تَرَابِ الْقَبْرِ ، فَأَمَرْتُ عَائِشَةَ بِجِدَارٍ فَضَرَبَ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَتْ فِي الْجِدَارِ كُوفَةٌ فَكَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهَا ، فَأَمَرْتُ بِالْكُوفَةِ فَسَدَّتْ

وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ : أَخْبَرَنِي مُوسَى بْنُ دَاوُدَ قَالَ : سَمِعْتُ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ يَقُولُ : قَسَمَ بَيْتُ عَائِشَةَ بِاثْنَيْنِ : قَسَمَ كَانَ فِيهِ الْقَبْرُ ، وَقَسَمَ كَانَ تَكُونُ فِيهِ عَائِشَةُ وَبَيْنَهُمَا حَائِطٌ ؛ فَكَانَتْ عَائِشَةُ رُبَّمَا دَخَلَتْ حَيْثُ الْقَبْرُ فَضُلًّا^(١) ، فَلَمَّا دَفِنَ عَمْرٌ لَمْ تَدْخُلْهُ إِلَّا وَهِيَ جَامِعَةٌ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا

وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ أَيْضًا : أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ عُبَادٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ : سَمِعْتُ عَمْرُ بْنَ دِينَارٍ وَعَبِيدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي يَزِيدٍ قَالَا : لَمْ يَكُنْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَائِطٌ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ بَنَى عَلَيْهِ جِدَارًا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي يَزِيدٍ : كَانَ جِدَارُهُ قَصِيرًا ، ثُمَّ بَنَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وَقَالَ الْأَقْشَهْرِيُّ : قَالَ أَبُو زَيْدٍ بْنُ شَبَّةٍ : قَالَ أَبُو غَسَّانَ بْنُ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ ابْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ - وَكَانَ عَالِمًا بِأَخْبَارِ الْمَدِينَةِ وَمِنْ بَيْتِ كِتَابَةٍ وَعِلْمٍ - : لَمْ يَزَلْ بَيْتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي دَفِنَ فِيهِ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ظَاهِرًا حَتَّى بَنَى عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَيْهِ الْحِطَّارَ^(٢) الْمَزُورَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ حِينَ بَنَى الْمَسْجِدَ فِي خِلَافَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ مَزُورًا كِرَاهَةً أَنْ يُشَبَّهَ تَرْبِيعُهُ تَرْبِيعَ الْكَعْبَةِ ، وَأَنْ يَتَّخِذَ قِبْلَةً فَيُصَلِّيَ إِلَيْهِ

قَالَ أَبُو زَيْدٍ : قَالَ أَبُو غَسَّانَ : وَقَدْ سَمِعْتُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَزْعُمُ

(١) فضلا - بضم كل من الفاء والضاد - أى مقتصرة على ثياب المهنة ، وتفضلت : اقتصرت في لباسها على ذلك

(٢) الحطار - بكسر الحاء ، بزفة السكتاب - الحائط وكل ما حال بينك

أن عمر بنى البيت غير بنائه الذى كان عليه ، وسمعت من يقول : بنى على بيت
النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أجدُر ، فدور القبر ثلاثة أجدُر : جدار بناء بيت
النبي صلى الله عليه وسلم ، وجدار البيت الذى يزعم أنه بنى عليه يعنى عمر بن
عبد العزيز ، وجدار الحِطَار الظاهر ، انتهى ما نقله الأشمهرى .

قلت : ولم يوجد على الحجرة الشريفة عند انكشافها فى العمارة التى أدركنها
غير جدار واحد جوف الحِطَار الظاهر .

وقال ابن سعد : أخبرنا أحمد بن محمد بن الوليد الأزرق المسكى قال : حدثنا
مسلم بن خالد قال : حدثني إبراهيم بن نوفل بن سعيد بن المغيرة الهاشمي عن أبيه
قال : إنهم — دم الجدار الذى على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فى زمان عمر بن
عبد العزيز ، فأمر بهارته ، قال : فإنه جالس وهو يبنى إذ قال لعلى بن حسين :
قم يا على فقم البيت^(١) ، يعنى بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام إليه القاسم بن
محمد قال : وأنا أصلحك الله ، قال : نعم وأنت فقم ؛ ثم قال له سالم بن عبد الله :
وأنا أصلحك الله ، قال : اجلسوا جميعا ، وقم يا مزاحم ، فقمه ، فقام مزاحم فقمه ،
قال مسلم : وقد أثبت لى بالمدينة أن البيت الذى فيه قبر النبي صلى الله عليه وسلم
بيت عائشة ، وأن بابها و باب حجرتها تجاه الشام . وأن البيت كما هو سقفه على حاله ،
وأن فى البيت جرة وخلق رخالة ، انتهى .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن غير واحد منهم إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز
الزهري عن أبيه قال : جاف^(٢) بيت النبي صلى الله عليه وسلم من شرقيه ، فجاء عمر بن
عبد العزيز ومعه عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر ، فأمر ابن وردان أن يكشف
عن الأساس ، فبينما هو يكشفه إلى أن رفع يده وتنجى^(٣) واجبا ، فقام عمر بن عبد العزيز
فزعاه ، فقال عبد الله بن عبيد الله : أيها الأمير لا ير وعَنكَ فتانك قدما جدك عمر
ابن الخطاب ضاق البيت عنه فحفر له فى الأساس ، فقال : يا ابن وردان^(٤) غط ما رأيت ، ففعل .

(١) قم البيت يقيه — مثل شده يشده — أى كنسه ، والفحامة كالكناسة وزناومعنى

(٢) جاف : أى ظهرت له رائحة ، وقد جاء فى بعض الروايات أن هرة ماتت داخله

(٣) تنجوا : ابتعدوا

(٤) لعل ابن وردان كان يعمل مع أبيه فتارة يسند العمل إليه وتارة يسنده إلى أبيه

وروى أيضاً عن المطلب أنه لما سقط الجدار من شق موضع الجنائز أمر عمر بقباطي فخيّطت^(١)، ثم ستر بها، وأمر أبا حفصة مولى عائشة وناسامعه فبنوا الجدار، فجعلوا فيه كوة، فلما فرغوا منه ورفعوه دخل مزاحم مولى عمر فقمّ ماسقط على القبر من التراب والطين، ونزع القباطي، وكان عمر يقول: لَأَنْ أَكُونَ وَلَيْتَ مَا وَلَى مُزَاحِمٍ مِنْ قَمِّ الْقُبُورِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي مِنَ الدُّنْيَا كَذَا وَكَذَا، وَذَكَرَ مَرْغُوبًا مِنَ الدُّنْيَا.

وروى يحيى من طريقه أيضاً عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال: كنت أخرج كل ليلة من آخر الليل حتى آتيت المسجد، فأبدأ بالنبي صلى الله عليه وسلم، فأسلم عليه، ثم آتيت مُصَلَّيَّ فَأَجْلَسَ بِهِ حَتَّى أَصْلَى الصُّبْحَ، فَخَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ مَطِيرَةٍ حَتَّى إِذَا كُنْتُ عِنْدَ دَارِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ لَقِيتَنِي رَاحَةً لَا وَاللَّهِ مَا وَجَدْتُ مِثْلَهَا قَطُّ، فَجِئْتُ الْمَسْجِدَ فَبَدَأْتُ بِقَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا جِدَّارُهُ قَدْ انْهَدَمَ، فَدَخَلْتُ فَسَلَّمْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَكَّمْتُ فِيهِ مَلِيًّا، وَذَكَرَ صِفَةَ الْقُبُورِ كَمَا سَيَأْتِي عَنْهُ، قَالَ: فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ سَمِعْتُ الْحَسَّ، فَإِذَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَدْ أَخْبَرَ فِجَاءً، فَأَمَرَ بِهِ فَسُتِرَ بِالْقَبَاطِي^(١)، فَلَمَّا أَصْبَحَ دَعَا وَرْدَانَ الْبَنَاءَ فَقَالَ لَهُ: أَدْخُلْ فَدَخَلَ فَكَشَفَ فَقَالَ: لَا بَدَلَ لِي مِنْ رَجُلٍ يَنَاولُنِي، فَكَشَفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ سَاقِيَهُ يَرِيدُ يَدْخُلُ، فَكَشَفَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، فَكَشَفَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ عُمَرُ: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: نَدْخُلُ وَاللَّهِ مَعَكَ، قَالَ: فَلَبِثَ عُمَرُ هَنِيئَةً ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَا نُؤْذِيهِمْ بِكَثْرَتِنَا الْيَوْمَ، أَدْخُلْ يَا مُزَاحِمُ، فَنَاولُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا مُزَاحِمُ كَيْفَ تَرَى قَبْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: مُتَطَاطِيًا، قُلْ: فَكَيْفَ تَرَى قَبْرَ الرَّجُلَيْنِ؟ قَالَ: مَرْتَفِعَيْنِ. قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَوَاهُ رَزِينٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ الْمَذْكُورِ بِاخْتِصَارٍ، وَخَالَفَ سِيَاقَ يَحْيَى فِي وَصْفِ الْقُبُورِ كَمَا سَيَأْتِي التَّنْبِيْهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ فِيهِ: فَأَخْبَرْتُ بِذَلِكَ عُمَرَ، فَجَاءَ فَأَمَرَ بِهِ فَسُتِرَ بِالْقَبَاطِي^(١)، وَذَكَرَهُ بِنَحْوِهِ.

(١) القباطي: ثياب كانت تصنع في مصر

وفي العتبية: قال مالك : انهدم حائط بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فيه قبره ، فخرج عمر بن عبد العزيز واجتمعت رجالات قريش ، فأمر عمر ابن عبد العزيز فستر بثوب ، فلما رأى ذلك عمر بن عبد العزيز من اجتماعهم أمر مَزَاحِمَا أن يدخل ليخرج ما كان فيه ، فدخل فَقَمَّ ما كان فيه من كَيْنِ أوطين ، وأصلح في القبر شيئاً كان أصابه حين انهدم الحائط ، ثم خرج وستر القبر ثم بنى ، انتهى .

وروى البخارى فى الصحيح من حديث هشام بن عُرْوَةَ عن أبيه ، قال : لما سقط عنهم الحائط زمان الوليد بن عبد الملك أخذوا فى بنائه ، فَبَدَتْ لهم قَدَمٌ ، ففرعوا وظنوا أنها قدم النبي صلى الله عليه وسلم ، فما وجدوا أحداً يعلم ذلك ، حتى قال لهم عروة : لا والله ما هى قدم النبي صلى الله عليه وسلم ، ما هى إلا قدم عمر . ويستفاد مما تقدم أن السبب فى هذا البناء سقوطُ الجدار المذكور بنفسه ، ولعله بسبب المطر المشار إليه فى الرواية المتقدمة .

ويخالفه ما رواه أبو بكر الآجرى من طريق شعيب بن إسحاق عن هشام ابن عُرْوَةَ قال : أخبرنى أبى قال : كان الناس يَصِلُونَ إلى القبر ، فأمر به عمر ابن عبد العزيز فرفع حتى لا يصل إليه أحد ، فلما هدم بَدَتْ قَدَمٌ بساق وركبة ، ففرع عمر بن عبد العزيز ، فأتاه عروة فقال : هذا ساق عمر وركبته! فُسِّرَى^(١) عن عمر بن عبد العزيز .

ومن طريق مالك بن مغول عن رجاء بن حَيَّوَةَ قال : كتب الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان قد اشترى حُجْرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، أن اهْدِمَهَا ووسّع بها المسجد ، فقعد عمر فى ناحية ، ثم أمر بهدمها ، فما رأيت باكياً أكثر من يومه ، ثم بناها كما أراد ، فلما أن بَنَى البيت على القبر وهدم البيت الأول ظهرت القبور الثلاثة ، وكان الرمل الذى عليها قد انهار ،

(١) سرى عن عمر : ذهب عنه ما كان أصابه من الفزع

ففرغ عمر بن عبد العزيز، وأراد أن يقوم فيسويها بنفسه ، فقلت له : أصلحك الله ! إنك إن قتت قام الناس معك ، فلو أمرت رجلاً أن يصلحها ، ورجوت أن يأمرني بذلك ، فقال : يامزاحم - يعنى مولاه - قم فأصلحها .

ونقل الأتقشهرى عن الرشيد أبى المظفر الكازرونى شارح المصابيح أنه قال : سألت جمعا من العلماء عن سبب ستر القبور عن أعين الناس : أى بالمخاض جدار لا باب له ، فذكر بعضهم أنه لما مات الحسن بن على أوصى أن تحمل جنازته ويحضر بها قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يرفع ويقبر فى البقيع ، فلما أراد الحسين أن يميز وصيته ظن طائفة أنه يدفن فى الحضرة ، فمنعوه وقاتلوه ، فلما كان عبد الملك أو غيره سدّوا وستروا .

وقال أبو غسان فيما حكاه الأتقشهرى : أخبرنى الثقة عن عبد الرحمن بن مهدي عن منصور بن ربيعة عن عثمان بن عروة قال : قال عروة : نازلت^(١) عمر بن عبد العزيز فى قبر النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يجعل فى المسجد أشد المنازلة ، فأبى ، وقال : كتاب أمير المؤمنين لا بد من إنفاذه ، قال : فقلت : فإن كان لا بد فاجعل له حوجوا (أى وهو الموضع المزور خلف الحجرة) .

وروى ابن زبالة عن محمد بن هلال وعن غيره واحد من أهل العلم أن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيه قبره صلى الله عليه وسلم ، وهو بيت عائشة الذى كانت تسكن ، وأنه مَرَّبَع مبنى بحجارة سود وقصة الذى يلى القبلة منه أطوله ، والشرق والغربى سواء ، والشامى أنقصهما ، وباب البيت مما يلى الشام ، وهو مسدود بحجارة سود وقصة ، ثم بنى عمر بن عبد العزيز على ذلك البيت هذا البناء الظاهر ، وعمر بن عبد العزيز زوّاه لأن يتخذة الناس قبلة نخص فيه الصلاة من بين مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قاتل الله اليهود اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ » وقال « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد - الحديث » قالوا : والبناء الذى حول البيت بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم نازلت عمر أشد المنازلة : غالبته فى الزول ، كل منابر يدهر اغبا فى ذلك أشد الرغبة

الله عليه وسلم بينه وبين البناء الظاهر اليوم مما يلي المشرق ذراعان، ومما يلي المغرب ذراع، ومما يلي القبلة شبر، ومما يلي الشام فضاء كله، وفي الفضاء الذي يلي الشام مكن مكنسور^(١) ومكيل خشب، قال عبد العزيز بن محمد: يقال إن البنائين نسوه هناك، انتهى. وروى يحيى عن أبي غسان محمد بن يحيى قال: سمعت من يقول في الحظار الذي على قبر النبي صلى الله عليه وسلم مكن ومكن خشبة وحديدة مسندة، قال محمد بن يحيى: وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد: هو مكن تركه العمال هناك، وقال محمد بن يحيى - يعني أبا غسان - فأما أنا فإني أطلعت في الحظار فلم أرى شيئاً، فزعم لي زاعم أنه قد رأى المكن وشيئاً موضوعاً مع المكن، وأما أنا فلم أراه، ولم أعلم أحداً يدري من أخذه، ولم أر للبيت الذي في الحظار باباً ولا موضع باب، وقد أخبرني ابن أبي فديك أنه رأى باب بيت النبي صلى الله عليه وسلم مما يلي الشام، انتهى. وقد حكى الأشمري عن أبي غسان أيضاً نحو ذلك.

قلت: ولم نر للبيت عند انكشافه في العمارة التي أدركنها باباً ولا موضع باب، ولم يوجد في الفضاء الذي يلي الشام من الحظار المذكور مكن^(١) ولا غيره مما ذكر، وسيأتي في الفصل الثالث والعشرين أن ابن عاث ذكر أنهم وجدوا عند عمارة حائط سقط بالحجرة قعياً انكسر عند سقوط الحائط، وأنه حمل إلى بغداد، فإن صح فلهذا المراد، وفيما قدمناه إشعار بأن موضع القبور الشريفة كان مسقفاً تحت سقف المسجد كما سيأتي التصريح به، ولهذا لما انكشف سقف المسجد رأوا ما بين الحظار الظاهر والحجرة، ولم يروا جوف الحجرة، ويدل له ما سيأتي عن أبي الجوزاء قال: قُحِطَ أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة، فقالت: فانظروا قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، ففعلوا، فمُطِرُوا، الخبر الآتي، لكن سيأتي في الفصل الرابع والعشرين عن ابن رشد أنه قال في بيانه: إن الثقة أخبره أنه لا سقف له في زمنه تحت سقف المسجد، وكنت أظن أن ذلك بعد حريق المسجد، فإن

(١) المكن - بوزن المنبر - الإجانة التي تنسل فيها الثياب، ويجمع على مراكن

كلام المؤرخين الاتى متطابق على أنه لا سقف للحجرة بعد الحريق إلا سقف المسجد ، ثم تبين أن زمن ابن رشد كان قبل الحريق بمدة مديدة^(١) ؛ لأن وفاته سنة عشرين وخمسمائة ، ثم أطلعنا فى العمارة التى أدركناها على وجود سقف جعل بعد الحريق وعلى آثار السقف الذى كان قبله كما سيأتى بيانه ، والله أعلم .

الفصل الحادى والعشرون

فما روى من الاختلاف فى صفة القبور الشريفة ، بالحجرة المنيفة وما جاء من أنه بقى بها موضع قبر ، وأن عيسى بن مريم عليه السلام يدفن بها ، وما جاء فى تنزل الملائكة حافين بالقبر الشريف ، وتعظيمه ، والاستسقاء به .

اعلم أن ابن عساکر ذكر فى تحفته الاختلاف فى صفة القبور الشريفة ، فذكر فى ذلك سبع روايات ، وسبقة إلى ذلك شيخه ابن النجار ، لكنه ذكر ستاً فقط .

رواية نافع فى وضع القبور الأولى : ما رواه عن نافع بن أبى نعيم أن صفة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقبر أبى بكر وقبر عمر ، قبر النبى صلى الله عليه وسلم أمامها إلى القبلة مقدماً ، ثم قبر أبى بكر حذاء منكبي^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبر عمر حذاء منكبي أبى بكر ، وهذه صفة :

النبى صلى الله عليه وسلم

أبو بكر رضى الله عنه

عمر رضى الله عنه

(١) مدة مديدة : أى طويلة ممتدة

(٢) المنكب - بوزن المسجد - الموضع الذى يجتمع فيه رأس الكتف والعضد

قلت : وهذه الرواية هي التي عليها الأكثر وتقل الزين المراغي أن رزينا ويحيى جزّما بها ، وهو كذلك في كلام رزين ، ورواها عن عبد الله بن محمد بن عتيل فقال عقب خبره المتقدم في قصة سقوط جدار الحجرة : ورأيت القبور ، فإذا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمام ، وقبر أبي بكر خلفه ، وقبر عمر خلف قبر أبي بكر ، ورأس أبي بكر عند منكبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر عند منكبي أبي بكر ، وأما يحيى فلم أر في كلامه الجزم بذلك ، بل رأيته حكى اختلاف الروايات كغيره ، ولفظه في حكاية هذه الرواية : حدثنا همرون بن موسى قال : سمعت أبي يذكر عن نافع بن أبي نعيم وغيره من المشايخ ممن له سنّة وثقة أن صفة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر ما تقدم ، ورأيت في نسخة من كتاب يحيى تصوير القبور الشريفة على هذه الصفة ، وقال : إنها صفة القبور الشريفة فيما وصّف بعض أهل الحديث عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها ، ثم ذكر ما سيأتي في الصفة السادسة .

وروى ابن سعد في طبقاته في ذكر أبي بكر رضي الله عنه من طريق الواقدي عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي سبرة عن عمر بن عبد الله بن عروة أنه سمع عروة والقاسم بن محمد يقولان : أوصى أبو بكر عائشة أن يُدفنَ إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما توفي حُفر له ، وجعل رأسه عند كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألصق اللحد بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبر هناك .

ثم روى من طريق الواقدي أيضاً عن ربيعة بن عثمان عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : رأس أبي بكر عند كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر عند حَقْوَيَّ أبي بكر .

قلت : وفي هذه مخالفة يسيرة لما تقدم بالنسبة إلى عمر رضي الله عنه .

رواية
القاسم بن
محمد

الثانية : روى أبو داود والحاكم من طريق القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها : يا أُمّة اكشفي لي عن قبر النبي

صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، فكشفت لى عن ثلاثة قبور لا مُشْرِفة ولا لاطية، مبطوحة ببطحاء العَرْصة الحمراء . زاد الحاكم : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدماً ، وأبا بكر رأسه بين كتفى النبي صلى الله عليه وسلم ، وعمر رأسه عند رجلي النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن عساكر : وهذه صفته .

النبي صلى الله عليه وسلم
عمر رضى الله عنه
أبو بكر رضى الله عنه

قلت : وقد صحح الحاكم إسناد هذه الرواية ، والله أعلم .

الثالثة : ما رواه الزبير بن بكار عن ابن زبالة قال : حدثني إسحاق بن عيسى عن عثمان بن نسطاس قال : رأيت قبر النبي صلى الله عليه وسلم لما هدم عمر بن عبد العزيز عنه البيت مرتفعاً نحواً من أربع أصابع عليه حصباء إلى الحمرة ماهى ، ورأيت قبر أبى بكر وراء قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأيت قبر عمر أسفل منه ، وصوّره لنا كما صور له عثمان .

رواية عثمان
ابن نسطاس

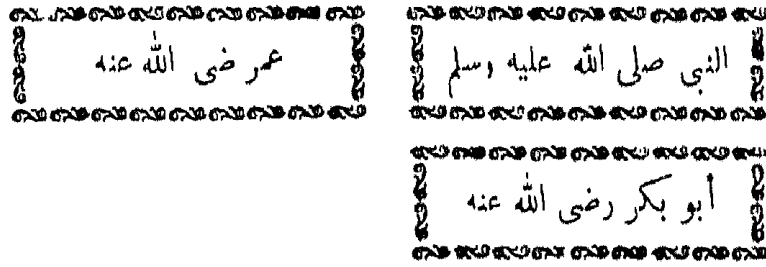
قلت : ولم يكن فى النسخة التى وقفتُ عليها من ابن زبالة تصويرٌ ، وصوّر ذلك ابنُ عساكر هكذا :

النبي صلى الله عليه وسلم
أبو بكر رضى الله عنه
عمر رضى الله عنه

قلت : وابن زبالة ضعيف ، وإسحاق بن عيسى هو ابن بنت داود بن أبى هند، صدوق يخطئ، وعثمان بن نسطاس هو عُثَيْمٌ مصغر بن نسطاس بكسر النون المدنى أخو عبيد مولى آل كثير بن الصلت، مقبول حيث يتابع، وإلا فلين الحديث . وقد ذكر الحافظ

ابن حجر أن أبا بكر الأجرى روى هذا الخبر في كتاب صفة قبر النبي صلى الله عليه وسلم من طريق إسحاق بن عيسى المذکور عن ابن نسطاس ، وليس فيه ذكر تصوير ، ولم يذكر الحافظ ابن حجر الواسطة بين الأجرى وإسحاق بن عيسى ، وهذه الرواية مع ما فيها من الضعف قابلة للتأويل بردها إلى الرواية التي قبلها ، وإن كان التصوير ياباه ؛ لجواز حمله على التقريب ، والله أعلم

الرابعة : روى ابن زبالة عن المنكدر بن محمد عن أبيه قال : قبر النبي صلى الله عليه وسلم هكذا ، وقبر أبي بكر خلفه ، وقبر عمر خلفه عند رجلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وصورة ابن عساكر هكذا :



قلت : ويمكن رد هذه الرواية مع ضعفها إلى الثانية ؛ لأن قوله « وأبو بكر خلفه » صادق بأن يكون رأسه عند منكبي النبي صلى الله عليه وسلم

الخامسة : روى يحيى بإسناد فيه إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس عن أبيه - وإسماعيل صدوق ، لكن أخطأ في أحاديث من قبل حفظه ، وأبوه صدوق يهيم ، وبقية رجاله ثقات - عن عمرة عن عائشة رضي الله عنها وصفت لنا قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبر أبي بكر وقبر عمر ، وهذه القبور في سَهْوَةٍ في بيت عائشة ، رأسُ النبي صلى الله عليه وسلم مما يلي المغرب ، وقبر أبي بكر رأسه عند رجلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبر عمر خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، وبقي موضع قبر ، وهذه صفة قبورهم على ما وصف ابن أبي أويس عن يحيى بن سعيد وعبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة ، ولم يصور يحيى لذلك شيئاً وروى ابن زبالة نحو ذلك وقد ذكره من طريق ابن عساكر ، ثم قال : وهذه صفته

النبي صلى الله عليه وسلم
أبو بكر رضى الله عنه
عمر رضى الله عنه

قلت : ويردها ما روى من أن رجلى عمر رضى الله عنه ضاق عنها الحائط
فخفر لهما فى الأساس

وفى الصحيح كما سبق قول عروة « ما هى إلا قدم عمر »

السادسة : روى ابن زبالة عن القاسم بن محمد قال : دخلت على عائشة
فقلت : يا أمة أرينى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، فكشفت لى
عن قبورهم ، فإذا هى لا مرتفعة ولا لاطية ، مبطوحة ببطحاء حمراء من بطحاء
العرصة ، فإذا قبر النبى صلى الله عليه وسلم أمامهما ، ورجلا أبى بكر عند رأس
النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر عند رجليه
قال ابن عساکر : وهذه صفتها :

رواية أخرى
عن القاسم
بن محمد

النبي صلى الله عليه وسلم
أبو بكر رضى الله عنه
عمر رضى الله عنه

قلت : وهذه الرواية مع ضعفها معارضة بما تقدم فى الرواية الثانية عن القاسم
ابن محمد المذكور ، وتلك أصح ، وما سياتى فى صفة الحجرة الشريفة بأبى ذلك
أيضا ، وقد رأيتها فى نسخة من كتاب يحيى رواه ابنه طاهر عنه على هذه الصورة :

النبي صلى الله عليه وسلم
أبو بكر رضى الله عنه
عمر رضى الله عنه

وقال : إنها عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها ، ثم قال ابن فراس
أحد رواة النسخة المذكورة عن طاهر بن يحيى : سألت طاهر بن يحيى أن يصور
لى بخطه صفة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ،
فصور لى بيده هذه الصورة ، انتهى

السابعة : ما روى يحيى من طريق ابن زباله فى الخبر المتقدم فى الفصل قبله رواية عبد الله
ابن محمد
ابن عقيل
فى قصة سقوط جدار الحجرة الشريفة فى تلك الليلة المظلمة عن عبد الله بن محمد
ابن عقيل ، قال عقب قوله فيما تقدم « فدخلت فسلمت على النبي صلى الله عليه وسلم
ومكثت فيه ملياً ، ورأيت القبور فإذا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبر أبى بكر
عند رجله ، وقبر عمر عند رجلى أبى بكر ، وعليهما حصى من حصباء العرصة »
قال ابن عساكر : وهذه صفته :

النبي صلى الله عليه وسلم

أبو بكر رضى الله عنه

عمر رضى الله عنه

قلت : وهذه الرواية نقلها رزين عن عبد الله بن عقيل ، وساقها باللفظ السابق ،
إلا أنه قال : ورأيت القبور ، فإذا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمام ،
وذكر ما قدمنا عنه فى الرواية الأولى ، وهو مخالف لما فى هذه الرواية ، وهو أولى
بالاعتماد ؛ لأن هذه الرواية ضعيفة مع بُعدها مما سيأتى فى وصف الحجرة الشريفة ،
سواء على ما سبق من قسم عائشة رضى الله عنها الحجرة بائنين ، ولها شاهد لكنه
ضعيف أيضاً ، وهو ما فى طبقات ابن سعد عن مالك بن إسماعيل - أظنه مولى
لآل الزبير - قال : دخلت مع مُصَنَّب بن الزبير البيت الذى فيه يعنى قبر رسول

الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فرأيت قبورهم مستطيلة . انتهى

وفى رواية للآجرى ما يومهم صفة ثامنة ؛ فإنه ذكر عقب الخبر المتقدم عن رجاء ابن خثومة فى إدخال الحجرة فى المسجد ما لفظه : قال رجاء : فكان قبر أبى بكر وسطه ، ولم يذكر فيه عمر رضى الله عنه ، فإن الضمير فى قوله « وسطه » إن كان للبيت فواضح ، وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم فهذه صفة أخرى ، لكن ينبغى تأويلها أيضا على التجوز فى لفظ الوسط ليوافق رواية غيره

وأما ما أخرجه أبو يعلى عن عائشة : أبو بكر عن يمينه ، وعمر عن يساره ؛ فسندُه ضعيف أيضا ، ويمكن تأويله كما قاله الحافظ ابن حجر

وحينئذ فلم يبق إلا الروايتان الأوليان فهما اللتان يتردد بينهما فى الترجيح ، والأولى هى المشهورة ، ومقتضى تصحيح الحاكم لإسناد الثانية ترجيحها ، وهى أصح الروايات ، وقد اشتملت على أن القبور لم تكن مُسَنَّمَةً^(١) وقد قال يحيى : حدثنى هرون بن موسى - قلت : ولا بأس به - قال : حدثنى غير واحد من مشايخ أهل المدينة أن صفات القبور الشريفة مسطوحة عليها بطحاء من بطحاء العرصة حمراء

وروى ابن زبالة من طريق عمرة عن عائشة قالت : رُبِعَ قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل رأسه مما يلى المغرب

وأما ما فى صحيح البخارى عن سفيان الثمار أنه رأى قبر النبي صلى الله عليه وسلم مُسَنَّمًا^(١) ، زاد أبو نعيم فى المستخرج : وقبر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما كذلك ، ورواه ابن سعد عنه بلفظ : رأيت قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر مُسَنَّمًا^(١) ، فلا يعارض ما قدمناه ؛ لأن سفيان وُلِدَ فى زمان معاوية فلم ير القبر الشريف إلا فى آخر الأمر ، فيحتمل - كما قال البيهقى - أن القبر لم يكن فى الأول

(١) سَنَمَ البناء : جعله على هيئة سنام البعير ، والتسنيْم يقابل التسطيح

مسما ، ثم سئم لما سقط عن الجدار ؛ فقد روى يحيى عن عبد الله بن الحسين قال : رأيت قبر النبي صلى الله عليه وسلم مسما في زمن الوليد بن هشام . وفي رواية أخرى عنه أن القبر جثوة^(١) مرتفعة مُسَنَّمَةٌ غير شديدة الارتفاع ، عليها قزع من حصي وتربة طيبها الله عز وجل . وروى ابن سعد من طريق جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان نبيث^(٢) قبر النبي صلى الله عليه وسلم شبرا .

ويؤيد التسطيح ما رواه مسلم من حديث فضالة بن عبيد أنه أمر بقبر فسوى ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها .

وقد تقدم في الرواية الرابعة أنه بقي بعد القبور الشريفة موضع قبر ، ويؤيده ما روى أن عائشة رضی الله عنها أرسلت إلى عبد الرحمن بن عوف حين نزل به الموت: أن هلمَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أخويك، فقال : ما كنت مضيقا عليك ببيتك ، الخبر الآتي في ذكر قبره ، وكذلك ما سيأتي في إذهنها للأحسن أن يدفن عندها ، ومنع بني أمية له . وكذلك ما في صحيح البخاري عن هشام بن عروة أن عائشة أوصت عبد الله بن الزبير : لا تدفني معهم : أي النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، وادفني مع صواحي بالبقيع لا أزكي به أبدا . وقد أخرجه الإسماعيلي وزاد فيه : وكان في بيتها موضع قبر ، ولكن في الصحيح أن عمر بن الخطاب رضی الله عنه لما أرسل إلى عائشة فسأها أن يدفن مع صاحبيه قالت : كنت أريده لنفسى فلا أثره اليوم على نفسي .

قال الخافظ ابن حجر : فكأن اجتهداها في ذلك تغيّر ، أو لما قالت ذلك لعمر كان قبل أن يقع لها قصة الجمل ، فاستحيت بعد ذلك وإن كانت زوجته صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة كما قاله عمار أحد من حاربها ، انتهى .

وقال ابن التين : كلامها في قصة عمر يدل على أنه لم يبق ما يسع إلا موضع قبر واحد ، فهو يغير قولها « لا تدفني عندهم » فإنه يشعر بموضع للدفن ، والجمع

(١) الجثوة - بتثنية الجيم - الحجارة المجموع بعضها إلى بعض

(٢) البيشة : أراد أن ماحوله من التراب كان بهذا القدر

بقي بعدها
موضع قبر

بينهما أنها كانت تظن أولاً أنه لا يسع إلا قبر واحد ، فلما دفن [عمر] ظهر لها أن هناك وسعاً لقبر آخر ، أو أن الذي آثرته به المكان الذي دفن فيه من وراء قبر أبيها بقرب النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لا ينفي وجود مكان آخر في الحجرة .
وروى يحيى بسنده إلى عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله ابن سلام عن أبيه عن جده قال : يدفن عيسى بن مريم مع النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ويكون قبره الرابع .

وفي سنن الترمذى من طريق أبي مودود عن عثمان بن الضحاك عن محمد ابن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده قال : مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى بن مريم يدفن معه ، قال : فقال أبو مودود : وقد بقى في البيت موضع قبر ، قال الترمذى : هذا حديث غريب ، وفي بعض النسخ : حسن غريب ، هكذا قال عثمان بن الضحاك ، والمعروف الضحاك بن عثمان المدني ، انتهى كلام الترمذى .

وفي رواية للطبرانى عن عبد الله بن سلام قال : يدفن عيسى بن مريم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ؛ فيكون قبراً رابعاً ، وهو من رواية عثمان بن الضحاك ، وقد وثقه ابن حبان وضعفه أبو داود .

وذكر الزين المراغى أن ابن الجوزى روى في المنتظم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ينزل عيسى بن مريم إلى الأرض ، فيتزوج ويولد له ، فيمكث خمسا وأربعين سنة ، ثم يموت فيدفن معى في قبرى ، فأقوم أنا وعيسى بن مريم من قبر واحد بين أبى بكر وعمر .

وقال ابن النجار : قال أهل السير : وفي البيت موضع قبر في السهوة الشرقية ، قال سعيد بن المسيب : فيه يدفن عيسى بن مريم .

والسهوة : بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً شبيه بالخدع والخزانة ، وقيل :

هو كالصفة يكون بين يدي البيت ، وقيل : هو شبيه بالرف والطاق يوضع فيه الشيء ، ولعل المراد بذلك الموضع الذي ضربت عليه عائشة جدارا وسكنت به كما سبق .

وسندكر فيما استقر عليه بناء الحجرة أنه عقد على نحو ثلثها الشرق عقد ، فصار ذلك المحل مميزا عن بقية البيت ، وكان قبله في البناء ما يشهد لجدار آخر من الشام إلى القبلة في تلك الجهة ، فلعله الموضع المذكور .

وروى يحيى وابن النجار عن كعب الأحبار قال : ما من فجر يطلع إلا نزل الملائكة
يحفون بالقبر
سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفّوا بالقبر ، يضربون بأجنحتهم ، ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا أمسوا عرجوا ، وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة ، صلى الله عليه وسلم .

وفي صحيح الدارمي نحوه من رواية عائشة رضى الله عنها ، وقال فيه : سبعون ألفا بالليل وسبعون ألفا بالنهار ، ذكره في باب ما أكرم الله به نبيه صلى الله عليه وسلم بعد موته ، رواه البيهقي في شعبه .

وقد تقدم قول عمر رضى الله عنه «إن مسجدا هذا لا ترتفع فيه الأصوات» لا ينبغي رفع
الصوت في
المسجد
وقال أبو بكر رضى الله عنه : لا ينبغي رفع الصوت على نبي حيا ولا ميتا .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن غير واحد منهم عبد العزيز بن أبي حازم ونوفل بن عمار قالوا : إن كانت عائشة تسمع صوت التذويذ والمسمار يضرب في بعض الدور المطيفة بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فترسل إليهم لا يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وما عمل على مصراعى داره إلا بالمناصح ، توقيا لذلك .

وفي الوفاء لابن الجوزي من طريق أبي محمد الدارمي بسنده عن أبي الجوزاء

قال : قُحِطَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ قَحْطًا شَدِيدًا ، فَشَكُّوا إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ :
فَانْظُرُوا قَبْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَاجْعَلُوا مِنْهُ كُؤَةً إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى لَا يَكُونَ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ سَقْفٌ ، ففَعَلُوا ، ففَطَرُوا حَتَّى نَبَذَتِ الْعُشْبُ وَسَمِنَتِ الْإِبِلُ حَتَّى
تَفْتَقَتْ مِنَ الشَّحْمِ ، فَسَمِيَ عَامُ الْفَتْقِ .

سنة أهل المدينة
في أعوام
الجذب

قال الزين المراغى : واعلم أن فتح الكؤوة عند الجذب سنة أهل المدينة
حتى الآن ، يفتحون كوة في سفلى قبة الحجرة : أى القبة الزرقاء المقدسة من جهة
القبلة ، وإن كان السقف حائلًا بين القبر الشريف وبين السماء .

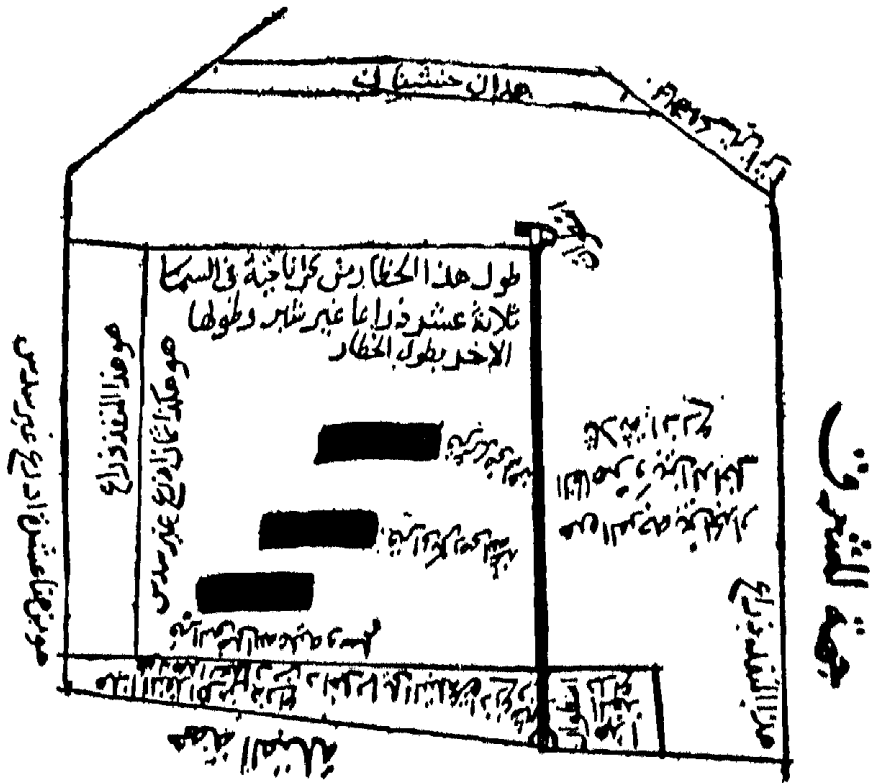
قلت : وسنتهم اليوم فتح الباب المواجه للوجه الشريف من المقصورة
المحيطة بالحجرة ، والاجتماع هناك ، والله أعلم .

الفصل الثانى والعشرون

فيما ذكرناه من صفة الحجرة الشريفة ، والحائز الخمس الدائر عليها ، وبيان
ما شاهدناه مما يخالف ذلك .

قال الأقسهرى ، فيما رواه من طريق ابن شبة : قال أبو غسان - يعنى محمد
ابن يحيى - : وأما الحِطَارُ الظاهر والبيت الذى فيه فإنى اطلعت فيه من بين سقفى
المسجد حتى عاينت ذلك الحِطَارَ الذى على البيت وما فيه ، وصورته وما فيه ،
وذرعته على ما فيه من الذرع ، وذلك حين انكسر خشب سقف المسجد فكشف
السقف من تلك الناحية لعمارتها ، وأبو البحتري بن وهب بن رشد يومئذ على
المدينة ، وذلك فى جمادى الأولى من سنة ثلاث وتسعين ومائة .

وقال أبو زيد - يعنى ابن شبة - فهذه صورته ، ثم صورها الأقسهرى فى كتابه
المسمى « بمنسك القاصد الزائر » بهذه الصورة :

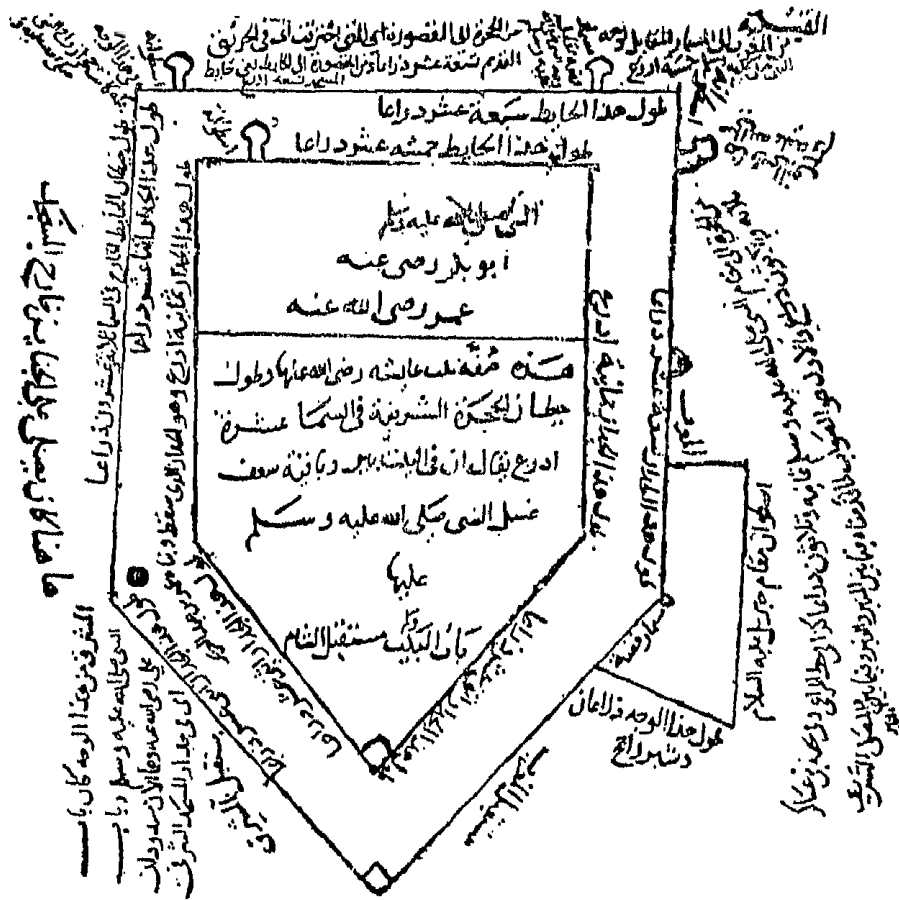


وفي هذا التصوير وما ذكر فيه من الذرع مخالفة لما تقدم عن نقل ابن زبالة حيث قال - والبناء الذي حول البيت بينه وبين البناء الظاهر اليوم مما يلي المشرق ذراعان ، والتصوير المذكور قد اشتمل على أن الفرجة المذكورة ثلاثة أذرع ، ويستفاد من التصوير أيضاً أن الفرجة بينهما في جهة القبلة مختلفة ، فبعضها دون الذراع وهو الشبر المشار إليه في كلام ابن زبالة ، وبعضها ذراع وسنذكر أن ما شاهدناه في صورة الحجرة الشريفة عند انكشافها أقرب إلى التصوير المذكور مما ذكره ابن زبالة ، وأن الحال شاهد بأنه وقع في بنائها الداخل تغيير ؛ فلم يبق على الصورة المذكورة

وقد أدرك ابن زبالة عمارة أبي البحتري التي كشف فيها سقف المسجد مما يلي الحجرة الشريفة ، وذكرها في كتابه فقال : وكان أبو البحتري - إذ كان والياً على المدينة لهارون أمير المؤمنين - كشف سقف المسجد في سنة ثلاث وتسعين (١٣ -- وفاة الوفا ٢)

ومائة ، فوجد فيه سبعين خشبة مكسورة ، فأدخل مكانها خشبا صحاحا ، اه
وكأنه لم يشاهد ذلك كما شاهده أبو غسان ، وعبارة يحيى في ذكر هذه العماره :
وقد كان خشب من خشب المسجد فوق القبر مما يليه انكسر في ولاية أبي
البحترى ، فأمر بكشف السقف ، وذكر ما تقدم عن ابن زباله ، على أن ابن زباله
ويحيى أشارا في كتابيهما إلى تصوير الحجرة والخائز الدائر عليها ، لكن الصورة
ساقطة من النسخة التي وقعت لنا

وقد صور ذلك ابن النجار في كتابه ، وأظنه أخذه من نسخة وقعت له من
ابن زباله مشتملة على تلك الصورة ، وتبعه عليها ابن عساكر في « تحفة الزائر »
والمراغى في تاريخه ، وهى بعيدة مما وجدنا عليه صورة الحجرة الشريفة ؛ فلنبدا
بتصويره ، ثم تصوير الصورة التي شاهدها ، ثم الصورة التي استقرّ بناء الحجرة
الشريفة عليها ، وقد تبعنا في حكاية تصوير ابن النجار ما صنعه المراغى ؛ فأنى
نقلته من خطه ، فقال : وجعل عمر بنیان الحجرة الشريفة على خمس زوايا لثلا يستقيم
لأحد استقبالها بالصلاة ؛ لتحذيره صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وهذه صورتها
وصورة الخائز حولها كما ضبطه ابن النجار ، والله أعلم .



صاهنا بیت فاطمة الزهراء رضى الله عنها

وهذا التصوير ينأى ما تقدم من رواية ابن زبالة وغيره أن البيت مربع مبنى
بمجاراة سود وقصة

ثم بنى عليه عمر بن عبد العزيز هذا البناء الظاهر الخمس ؛ لأنه صَوَّرَ فيه البيت خمسا أيضا كما ترى ، وهو خلاف الذى شاهدناه عند انكشافه فى العمارة التى أدركناها ، فرأيناه مر بعا مبنيا بالأحجار السود المنحوتة لونها يقرب من لون أحجار الكعبة الشريفة ، ولها من الهيبة والأنس مالا يدرك إلا بالذوق ، ولم نجد بين الجرار الخارج والداخل من جهة المغرب فضاء أصلا ، ولا مغرزا ، ولم نجد للبيت الداخل بابا أصلا ، ولا موضع باب ، لا فى الجهة الشامية ولا فى غيرها ، ووجدنا الفضاء الذى خلف البيت الشريف من جهة الشام ، بينه وبين البناء الظاهر ، شكله مثلث ، ومساحته نحو ثمانية أذرع بذراع اليد المتقدم تحريره ،

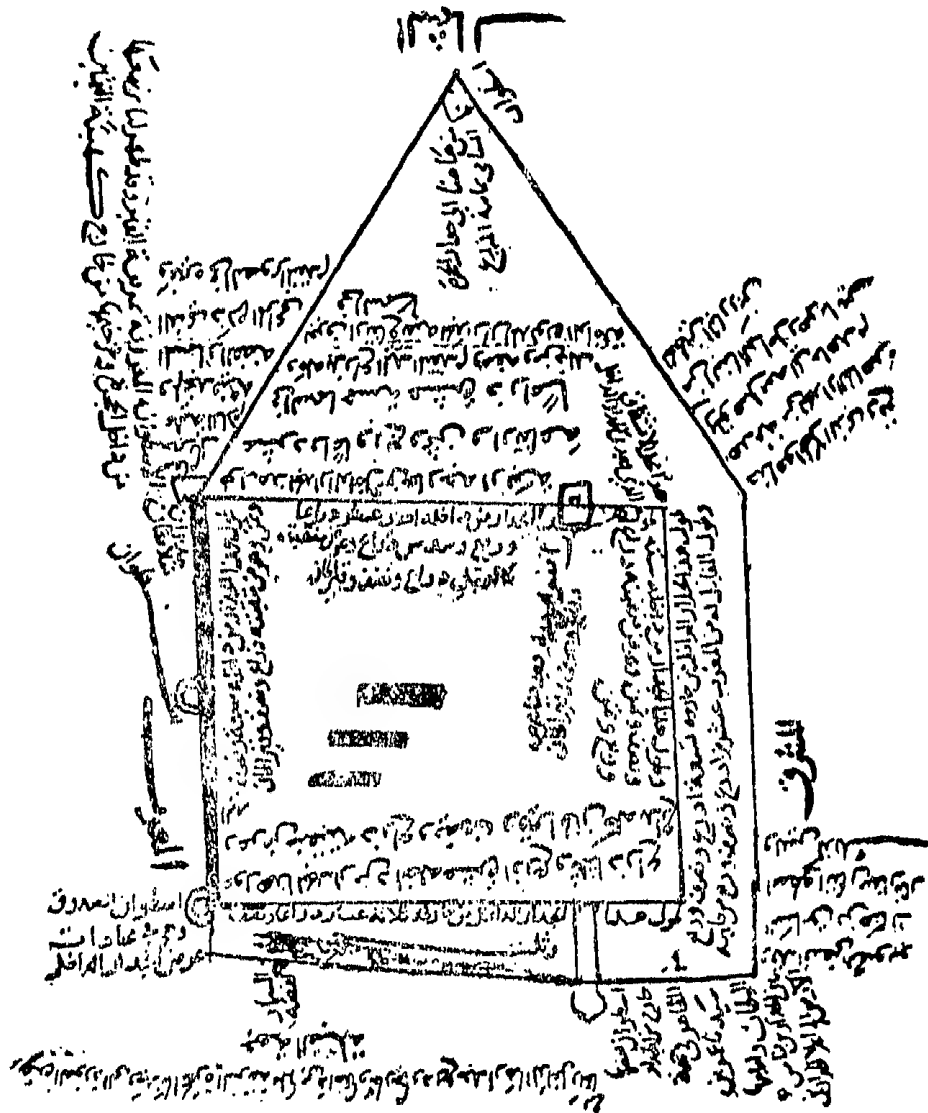
وذلك من جدار البيت الشامى إلى زاوية البناء الظاهر المقابلة له ، وهى الزاوية الشمالية التى ينحرف عنها صفحتا الشكل المثلث المذكور ، وهناك أسطوانة ملاصقة لجدار البيت الشامى فى صف أسطوانة مربعة القبر وأسطوانة الوفود ، وبعض الأسطوانة المذكورة داخل فى الجدار المذكور ، وقد طوق على أعاليها بأطواق من الحديد ، وأدعمت بمجذع من جذوع النخل رأسه فى أعاليها ورأسه الآخر فى زاوية البناء الظاهر الشمالية المتقدم ذكرها ، والظاهر أن ذلك جعل بعد الحريق لتشقق الأسطوانة المذكورة وتأثير النار فيها ، وهى الأسطوانة التى تقدم ذكرها فى التصوير الأول المأخوذ من كلام ابن شبة عند نهاية جدار البيت الشامى مما يلي المشرق ، لكننا لم نجد لها كذلك ، بل قريبة من وسط الجدار الشامى ، غير أن متولى العمارة ومن كان معه أخبرونى أنهم وجدوا عند نقض جدار البيت الشامى من داخله رأس جدار فى محاذة الأسطوانة المذكورة يشهد الحال أنه كان آخذا من الشام إلى ما يحاذيه من القبلى ، فكأنه كان نهاية الحجرة الشريفة من جهة المشرق ، وكأنه لما انهدم زيد فيها ذلك القدر ، قالوا : ولا يخفى على الناظر أن بقية الجدار الشامى مما يلي المشرق لم يُبين مع الجانب الآخر منه ، بل هى مُلصقة إلى رأس الجدار المذكور بحيث لم يدخل أحجار أحدهما فى الآخر ، ولا هى مرتبطة كما هو عادة البناء الواحد ، ورأيت أنا ما يقابل هذا الجانب من الجدار القبلى مما يلي المشرق ؛ فرأيت ما يشهد بإحداث بنائه بحيث إنه مبنى بالحجارة غير الوجوه كنسبة الجدار الشرقى ، بخلاف بقية جدارات الحجرة الشريفة فإنها كلها من داخلها وخارجها مبنية بالحجارة الوجوه المنحوتة ، وإنما لم أشاهد ما قدمته مما حكى لى فى أمر الجدار الشامى لأنى اجتنبت حضور الهدم احتياطا لنفسى ، وظهر بذلك أن البيت الشريف كان من جهة المشرق على ما صورته ابن شبة ، ثم حدث ذلك بعده ، ولم ينبه عليه أحد من المؤرخين ، ويحتمل أن ذلك الجدار هو الذى أحدثته عائشة رضى الله عنها بينها وبين القبور الشريفة ؛ فقد تقدم عن ابن سعد روايته عن مالك بن أنس قال : قسم بيت

عائشة بائنين ، قسم كان فيه القبر ، وقسم كان تكون فيه عائشة وبينهما حائط .
قلت : فهذا الاحتمال هو الذى يترجح عندى ، والله أعلم .

ووجد بين جدار البيت الشرقى وبين الجدار الظاهر الشرقى فضاء مختلف
كالزقاق الرقيق ، فعند ابتدائه من جهة الشام نحو ذراع اليد يمر فيه الرجل
منحرفا ، فإذا قرب من جهة القبلة تضاعف بحيث لا يمر فيه إلا الصغير منحرفا ،
وسعته هناك نحو ثلث الذراع .

وقد نقل ابن شبة أنه كان ثلاثة أذرع ؛ فهذا مؤيد لما قدمناه من حدوث
التغيير فى الجدار الشرقى الداخلى ، ورؤيته تقضى بذلك دون بقية الجدران .

ووجدنا بين جدار البيت القبلى والجدار الظاهر القبلى فضاء مختلفا أيضا
كالزقاق الرقيق ؛ فأوله من جهة الشرق نحو ذراع اليد ، فإذا قرب من الوجه
الشريف تضائق بحيث يصير نحو شبر ثم أقل من ذلك إلى ملتقى الحائطين فى
جهة المغرب ، وهذا الفضاء لا يمكن المرور فيه ؛ لأن الأسطوانة التى فى البناء
الظاهر عند مواجهة مواقف الزائر لسيدنا عمر رضى الله عنه بعضُها بارز فى الفضاء
المذكور ، وفى محاذاتها بناء بنحو عرضها قد سُدَّ ما بين الجدارين من الفضاء ،
وكأنه جعل لإدعام الجدار من أجل الانشقاق الآتى ذكره ، أو لمنع المرور هناك ،
جزى الله فاعله خيرا !



وأما طول جدران الحائز الظاهر من كل زاوية إلى الأخرى من خارجه فطول
 الجدار القبلي من زاويته التي تلي القبلة من المغرب إلى زاويته التي تلي المشرق
 سبعة عشر ذراعا ، بتقديم السين ، ينقص يسيرا ، وذلك موافق لما تقدم في
 تصوير ابن النجار . وطول الجدار الغربي من القبلة إلى طرف مقام جبريل ستة
 عشر ذراعا ونحو نصف ذراع ، ومنعطف مقام جبريل هناك الشام ، وذرعُ منعطفه
 ذراعان ونصف ذراع ، وجملة ذلك تسعة عشر ذراعا ؛ فهو المراد مما تقدم في تصوير
 ابن النجار ، لكنه يوم أن وجه مقام جبريل غير داخل في التسعة عشر ذراعا

التي ذكرها للجدار الغربي ، وليس كذلك . وطول الجدار المنعطف من مقام جبريل إلى الزاوية الشمالية اثنا عشر ذراعا ونصف ذراع راجح . وطول الجدار الشرقي من القبلة إلى الزاوية التي ينحرف منه إلى جهة الشمال اثنا عشر ذراعا ونصف ذراع راجح . وطول الجدار المنعطف من الجدار المذكور عند الزاوية المذكورة إلى الزاوية الشمالية نحو أربعة عشر ذراعا ، وفيما ذكرناه من الذرع في الثلاثة الجدر الأخيرة مخالفة لما تقدم في تصوير ابن النجار ومن تبعه .

وأما طول الحائز الظاهر في السماء فثلاثة عشر ذراعا وثلاث ذراع ، ويرجح من بعض الجوانب يسيرا ، وعرض منقبته ذراع وربع ثمن .

ونقل الأشمري أن ابن شبة نقل عن أبي غسان أن طول الخطار الذي على البيت - يعنى الحائز المذكور - من جهة ارتفاعه ثلاثة عشر ذراعا غير سدس . قلت : وقد رأيت بأعلاه سترة من آجرٍ قدر نصف ذراع يشهد الحال أنها محدثة لإحداث السقف الآتى ذكره للحجرة الشريفة بعد حريق المسجد الأول ؛ فلا مخالفة بين ما وجدناه وبين ما ذكره أبو غسان .

وأما ارتفاع الجدار الداخل في السماء فقيسُته من خارجه من جهة الشام فكان خمسة عشر ذراعا ، وارتفاع تلك الأرض التي في شامى الحجرة بين الجدارين على أرض الحجرة ذراع ونحو ربع ذراع ، ومع ذلك فالحائز الخارج أرجح من الداخل يسيرا أو مساو له ، وسبب ذلك علو الأرض الخارجة عن هذا الحائز على الأرض الداخلة بين الحائزين بأرجح من ذراع ونصف ، مع أن الأرض الداخلة بين الحائزين من جهة الشام التي هي كهيئة المثلث وجدت مجدولة بالحجارة والقصة بحيث لم يتأت لهم حفر أساس فيها ، والله الحمد على ذلك .

وأما ما تقدم فيما نقلناه من خط المرائى - وهو موجود في كلام ابن النجار وابن عساكر - من أن طول حيطان الحائز الخارج في السماء ثلاثة وعشرون ذراعا ، فهذا يخالف لما شاهدناه ولما قدمناه عن أبي غسان ، وكأنهم أرادوا بهذا ذرع

ما بين الأرض المحيطة بالحجرة وبين سقف المسجد ، وهذا البناء لم يبلغ به عمر ابن عبد العزيز سقف المسجد اتفاقاً ، بل فوقه شبك من خشب متصل ذلك الشباك بسقف المسجد كما يظهر عند رفع الكسوة ، وكأن ابن النجار توهم أن الحائط المذكور متصل بالسقف ؛ لأنه قال : وبنى عمر بن عبد العزيز على حجرة النبي صلى الله عليه وسلم حائزاً من سقف المسجد إلى الأرض ، وصارت الحجرة في وسطه وهو على دورانها .

وينبغي حل كلامه على أن المراد أنه بناء من سقف المسجد إلى الأرض بما جعل عليه من الشباك ، وكذلك يحمل ما ذكره في ذكره ؛ لأن الشباك المذكور له ذكر في كلامه ، فإنه ذكر ما سيأتي من أن الجمال الأصفهانى جدد تأزير الحجرة بالرخام ، ثم قال : وعمل لها مشبكاً من خشب الصندل والآبنوس ، وأداره حولها مما يلي السقف : أى على رأس الجدار المذكور .

قلت : ولعله أول من أحدث هذا الشباك ؛ لأنه ذكر له ^(١) في كلام متقدمي المؤرخين ، والله أعلم .

وقال ابن الفجار : واعلم أن على حجرة النبي صلى الله عليه وسلم أى على سقفها ثوباً مشمعاً مثل الخيمة ، وفوقه سقف المسجد ، وفيه - أى فيما تحت المشمع المذكور - خَوْخَةٌ عليها مرق أى طابق مقفول ، وفوق الخوخة فى سقف السطح خوخة أخرى فوق تلك الخوخة ، وعليها مرق مقفول أيضاً ، وبين سقف المسجد وبين سقف السطح أى السقف الثانى لسطح المسجد فراغ نحو الذراعين .

قلت : أما المرق الذى ذكره فى سقف المسجد الذى يلي الحجرة الشريفة فقد أدركناه موجوداً عليه قُفْل من حديد ومشمع جددته متولى العمارة التى أدركناها إلى أن احترق المسجد فى زماننا ، وعملت القبة التى جعلت بدلاً عن القبة الزرقاء .

(١) كذا ، ولعل أصل الكلام « لأن له ذكرًا فى كلام - إلخ »

وأما الممرق الذى ذكره فى سقف الحجرة تحت المسمع الذى أشار إليه فهذا كان قبل حريق المسجد الأول ، ولم يوجد فى السقف الذى عمل بدله بعد الحريق ممرق ، نعم وجد عليه ستارة من المحابس اليمينية مُبَطَّنة ، وسنذكر وصفه إن شاء الله تعالى عند ذكر العمارة المتجددة فى زماننا ، على أن الذى يقتضيه كلام المطرى ومن بعده أنه ليس تَمَّ غير طابق واحد فى سقف المسجد ، فإنه قال : وعلى سقف الحجرة بين السقفين أى سقفى المسجد ألواح ، وقد سُمِّرَ بعضها على بعض ، وسمر عليها ثوب مشمع ، وفيها طابق مقفل إذا فتح كان النزول منه إلى ما بين حائط بيت النبى صلى الله عليه وسلم وبين الحائط الذى بناه عمر ابن عبد العزيز .

قلت : وليس ما ذكره فى وصف هذا الطابق بصحيح ؛ لأن النزول منه يكون على وسط الحجرة سواء كما شاهدناه ، مع أن المطرى ومن تبعه اتفق كلامهم كما سيأتى على أن سقف الحجرة بعد الحريق إنما هو سقف المسجد ، وهو خلاف ما وجدنا الأمر عليه أيضاً ، والله أعلم .

الفصل الثالث والعشرون

فى عمارة اتفقت بالحجرة الشريفة على ما نقله الأقسهرى عن ابن عاث ، وما وقع من الدخول إليها عند الحاجة له وتأزيرها بالرخام .

قال الأقسهرى ، ومن خطة نقلت مالفظة : أخبرنا الشيخ الراوية أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى الشاطبى قال : حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله القضاعى الحافظ قال : حدثنا صاحبنا الرحال أبو عمر أحمد بن أبى محمد هارون بن عاث النفرى قال : حدثت بالمدينة الشريفة ، أو قال بمدينة السلام ، بأنهم سمعوا منذ سنين قريباً من الأربعين هذّة فى الروضة الشريفة أى الحجرة فإنه يعبر عنها بذلك ، فكتب فى ذلك إلى الخليفة ، فاستشار الفقهاء ، فأفتوا أن يدخلها رجل فاضل من القوامة على المسجد ، فاختراروا لذلك بدر الضعيف ، وهو شيخ فاضل

يقوم بالليل ويصوم النهار ، وهو من فتيان بنى العباس ، فدى حتى دخل الروضة
أى الحجرة ، فوجد الحائط الغربى قد سقط ، وهو حائط دون الحائط الظاهر ،
فصنع له آبن من تراب المسجد ، فبناه وأعاده على هيئته كما كان ، ووجد هناك
قعباً من خشب قد أصابه وقوع الحائط فكسره ، فحمل إلى بغداد مع شيء من
تراب الحائط ، وكان يوم وصول ذلك بغداد يوماً مشهوداً تجتمع لاستقباله الناس ،
وازدحموا على رؤيته ، وعطلت الصناعات والبيع ، وكانت رحلة ابن عاث سنة
ثلاث عشرة وستائة ، وقد قال «قريباً من أربعين سنة» فيكون ذلك سنة سبعين
 وخمسة أو ما دون ذلك ، وهكذا ذكره فى رحلته ومنها نقلته ، ويكون ذلك
فى دولة المستضىء بالله بن المستنجد بالله ، انتهى كلام الأقمهرى .

ولعل هذا الحائط المنهدم فى هذه العمارة إنما هو الشرقى من الجدار الداخلى ،
وأطلق عليه اسم الغربى بالنظر إلى الجدار الخارج الذى يليه ، فتكون هذه الواقعة
هى التى اتفق فيها بناء الجدار المتقدم وصفه ، ووقع فيها تقديمه عن محله الأول ،
وأبقوا رأسه كما تقدمت الإشارة إليه ، وهو إنما بنى بالحجر ، ولا يتأتى هناك بناء
باللبن إلا فى السترة التى جعلت على رأس الجدار ، فلهذا أراد باللبن المتخذ من
تراب المسجد هذا ، لكن فى كلام ابن النجار ونقله من بعده وأفره ، ما يقتضى
أنه لم يقع دخول إلى الحجرة الشريفة من سنة أربع وخمسين وخمسة إلى زمانه ،
وقد توفى سنة ثلاث وأربعين وستائة ، فإنه قال فى كتابه « الدرّة الثمينة » ما لفظه :
واعلم أن فى سنة ثمان وأربعين وخمسة سمعوا صوت هدة فى الحجرة ، وكان
الأمير قاسم بن مهنى الحسينى ، فأخبروه بالحال ، فقال : ينبغى أن ينزل شخص
إلى هناك ليبصر ما هذه الهدّة ، فافتكروا فى شخص يصلح لذلك ، فلم يجدوا
لذلك إلا عمر النسائى شيخ شيوخ الصوفية بالموصل ، وكان مجاوراً بالمدينة ،
فذكروا ذلك له ، فذكر أن به فتقاً والريح والبول يحوجه إلى دخول الغائط مراراً ،
فألزموه ، فقال : أمهلونى حتى أروض نفسى ، وقيل : إنه امتنع من الأكل

والشرب وسأل النبي صلى الله عليه وسلم إمساك المرض عنه بقدر ما يبصر ويخرج ،
ثم إنهم أنزلوه فى الحبال من أنلَوْخَه إلى الحظير الذى بناه عمر ، ودخل منه إلى
الحجرة ومعه شمعة يستضيء بها فرأى شيئاً من طين السقف قد وقع على القبور ،
فأزاله وكَنَسَ التراب بلمحيته ، وقيل : إنه كان مليح الشيبة ، وأمسك الله تعالى
ذلك الداء قدر ما خرج من الموضع وعاد إليه ، وهذا ما سمعته من أفواه جماعة ،
والله أعلم بحقيقة الحال فى ذلك .

وعبارة المراغى تبعاً للمطرى فى النقل عن ابن النجار : فأنزلوه بالحبال
من بين السقفين من الطابق المذكور ، ونزل بين حائط النبي صلى الله عليه
وسلم وبين الحائز ومعه شمعة يستضيء بها ، ومشى إلى باب البيت ، ودخل من
الباب إلى القبور المقدسة ، فرأى شيئاً من الردم ، إما من السقف أو من الحيطان
إلى آخره .

قلت : وهذا لا يطابق ما ذكره ابن النجار وعليه رتب المراغى إشكاله
الآتى بيانه .

ثم قال ابن النجار : وفى شهر ربيع الآخر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة
فى أيام قاسم أيضاً وجدوا من الحجرة رائحة منكرة ، وكثر ذلك حتى ذكره
للأمير ، فأمرهم بالنزول إلى هناك ، فنزل بيان الأسود الخصى أحد خدام
الحجرة ، ومعه الصفي الموصلى متولى عمارة المسجد ، ونزل معهما هارون
الشادى الصوفى بعد أن سأل الأمير فى ذلك ، وبذل له جملة من المال ، فلما
نزلوا وجدوا هراً قد هَبَطَ ومات وجَيَّفَ ، فأخرجوه ، وكان فى الحائز بين
الحجرة والمسجد .

وقال المراغى وغيره فى النقل عن ابن النجار : فوجدوا هراً قد سقط من
الشباك الذى فى أعلى الحائز ، ووقع بين الحائز وبيت النبي صلى الله عليه وسلم .
وقال ابن النجار : وكان نزولهم يوم السبت الحادى عشر من ربيع الآخر ،
ومن ذلك التاريخ إلى يومنا هذا لم ينزل أحد إلى هناك ، فاعلم ذلك ، انتهى .

فهذا يخالف ما نقله الأتشمهرى عن ابن عاث ؛ لاقتضائه أن تلك الواقعة في سنة سبعين وخمسة أو ما قاربها ، والظاهر أن القضية واحدة ، ولم نجد من دونها فنقل كل منهما بحسب ما بلغه .

وقال الزين المراغى عقب ذكره للواقعة الأولى التى حكها ابن النجار المتضمنة للدخول إلى القبور الشريفة ما لفظه : وينبغى تأمل هذا النقل ؛ لأن الوصول إلى القبور الشريفة متعذر ، إن كان الجدار الذى أحدثته عائشة المتقدم ذكره باقياً ، فإن جاء نقل بإزالته وبإمكان الاستطراق معه من باب أو نحوه فهو واضح ، وإلا فقيه نظر .

قلت : نظره إنما يتوجه على ما قدمه من أن النزول كان إلى ما بين الحائطين وأنه مشى إلى باب البيت ، وليس فى كلام ابن النجار تعرض لشيء من ذلك ، بل مقتضى ما قدمناه عنه من أن الحجرة الشريفة بها ممرق ، وبسقف المسجد مثله أن النزول إنما هو من العلو إلى سقف الحجرة ، ثم منه إليها ؛ فلا نظر ، على أن الجدار الذى أشار إليه وأن عائشة بنته ولم نجد له أثراً إلا ما تقدمت الإشارة إليه من رأس جدار الحائط الشامى مقتضى لأنه كان هناك جدار من الشام إلى القبلة ، وكذلك الباب لم نجد له أثراً كما قدمناه .

وأما تآزير الحجرة بالرخام فليس له ذكر فى كلام ابن زبالة ، وله ذكر فى كلام يحيى ؛ فإنه روى ما حاصله أن بيت فاطمة الزهراء لما أخرجوا منه فاطمة بنت حسين وزوجها حسن بن حسن وهدموا البيت بعث حسن بن حسن ابنه جعفرأ ، وكان أسنً ولده ، فقال له : اذهب ولا تبرحن حتى يبنوا فتنظر الحجر الذى من صفته كذا وكذا هل يدخلونه فى بنيانهم ، فلم يزل يرصدُهم حتى رفعوا الأساس وأخرجوا الحجر ، فجاء جعفر إلى أبيه فأخبره ، فخر ساجداً وقال : ذلك حجر كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى إليه إذا دخل إلى فاطمة ، أو كانت فاطمة تصلى إليه ، الشك من يحيى .

وقال على بن موسى الرضى : ولدت فاطمة عليها السلام الحسن والحسين على ذلك الحجر .

قال يحيى : ورأيت الحسين بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين ولم أرفينا رجلا أفضل منه إذا اشتكى شيئاً من جسده كشف الحصى عن الحجر فيمسح به ذلك الموضع ، ولم يزل ذلك الحجر نراه حتى عمّر الصانع المسجد ففقدناه عندما أزر القبر بالرخام ، وكان الحجر لاصقاً بجدار القبر قريباً من المربعة .

قال بعض رواة كتاب يحيى : الصانع هذا هو إسحاق بن سلامة ، كان المتوكل وجهه به على عمارة المدينة ومكة .

قلت : وكانت خلافة المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وتوفي في شوال سنة سبع وأربعين ، وكان هذا مأخذ بن النجار في قوله إن المتوكل في خلافته أمر إسحاق بن سلامة وكان على عمارة الحرم من قبله أن يؤزر الحجر بالرخام ففعل .

ثم في خلافة المقتدى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة جده جمال الدين وزير بني زنكي ، وجعل الرخام حولها قائمة وبسطة .

قلت : ولم يذكر أحد من المؤرخين تجديداً لهذا الرخام بعد ذلك ، وقد جده في زماننا متولى العمارة الآن ذكرها الجنب الشمس الحسنى الخواجكى بن الزمن بأمر المقام الشريف السلطان قايتباى عز نصره ، ووجد في الصفحة القبليّة عند ابتدائها من جهة المغرب في اللوح السماوى اللون الثانى في تلك الجهة من الألواح الملونة التى يحيط بها الرخام الأبيض البارز قطعة أوسع من الدنار ملصقة في ظاهر اللوح المذكور بالجلس ، فأشيع أنها جوهرة نفيسة ذات أمعان ، ثم إن متولى العمارة أراها فإذا هى حَجَر عسلى اللون يميل حمرة إلى الصفرة ، قال : وأظنه حجر البَرَقان ، وقد خشى عليه متولى العمارة إن أعيد لصقاً كهيئة الأولى ، فأمر بنقر الرخامة المذكورة وتنزيله فيها ، ففعلوا ذلك ، وأعادوا تلك الرخامة إلى محلها .

ولم أر من نبه على ابتداء حدوث الرخام الذى حول الحجر الشريفة بالأرض والظاهر أنه حدث عند حدوث تأزيرها بالرخام ؛ لما تقدم من كلام يحيى في أمر

'الحجر الذى كان يتبرك به من أن الحسين بن عبد الله كان يكشف عنه الحصى ، وأنه لم يدخل فى البناء ، وأنه فقدته عند تآزير الحجر بالرخام ، فدل ذلك على أنه رخم الأرض أيضاً ، وإلا لما استتر الحجر المذكور .
وأما ترخيم المصلّى الشريف فلا أدرى متى زمنُ حدوثه ، وله ذكر فى رحلة ابن جبير .

وأما الرخام الذى بالحراب العثمانى وما حوله فالقديم منه - أعنى بعد الحريق الأول - ترخيم الحراب وشىء يسير عن جنبتيه ، وفى دولة السلطان الملك الظاهر جتمق فى أول عشر الستين وثمانمائة أمر بعمل الوزرة التى فى الجدار القبلى ، فاتصل ذلك بترخيم الحراب المذكور ، وقد جدد غالب ذلك فى العمارة التى أدركناها أيضاً ، وأبدل الطراز الأول الذى كان بأعلى الوزرة وكان محمراً بماء الذهب بالطراز الموجود اليوم ، ثم زال ذلك كله فى حريق المسجد الثانى ، ثم أعيد مع زيادة فيه مما يلى المنارة الرئيسية ، ومع ترخيم ما حول الحجر الشريفة وتآزيرها بالرخام ، ومع ما سبق من عمل محراب المصلّى الشريف وترخيمه ، ورخموا أيضاً الدعائم المواجهة للوجه الشريف التى أحدثوها عند عمارة القبة الثانية من داخل المقصورة وخارجها ، وجميع ما يوجد من الرخام بالمسجد اليوم من عمل سلطان زماننا الأشرف قايتباى ، أعز الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ! والله أعلم .

الفصل الرابع والعشرون

فى الصندوق الذى فى جهة الرأس الشريف ، والمسماة الفضة المواجهة للوجه الشريف ، ومقام جبريل من الحجر الشريفة ، وكسوتها ، وتخليقها
أما الصندوق فلم أعلم ابتداء حدوثه ، وكذلك القائم الحلى فوقه ، إلا أنه قد ظهر لنا فى هذه العمارة التى أدركناها أنه كان موجوداً قبل حريق المسجد الأول ؛ لأن متولى العمارة كان قد قلعه لاقتضاء رأيه قلّع حلية الفضة التى كانت على القائم الخشب الذى فوق الصندوق ليخسبكم صوغها ، وزاد ذلك فضة وتمويهها

بالذهب، وأصلح حلية الصندوق أيضا ، وكان ذلك سببا لإصلاح أصل الأسطوانة التي كان بها ، فلما قلعوا الصندوق المذكور ظهر فيه قوائم صندوق عتيق ، وفي تلك القوائم أثر الحريق ، وكأنهم جدّدوا عليه صندوقا ، وجعلوا ذلك المحترق في جوفه ، وقد أعيد كذلك

وقد ذكر المجد الشيرازي هذا الصندوق والقائم فقال : وفي الصفحة الغربية من الحجرة الشريفة صندوق آبنوس مختم بالصنّْدَل مصفّح بالفضة مكوكب بها ، هو قبالة رأس النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه أسطوان ، وفوق الصندوق قائم من خشب مجدد ، وأما الصندوق فطوله خمسة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار وارتفاعه في الهواء أربعة أشبار

قلت : وقد ظفرت بذلك كله في كلام ابن جبير في رحلته ، غير ما يتعلق بالقائم المذكور ، ومن ذلك أخذ المجد وصف القائم بكونه مجددا ، وكانت رحلة ابن جبير عام ثمانين وخمسمائة ، فاستفدنا بذلك وجود ذلك الصندوق قبل الحريق في ذلك الزمان ، وما ذكره من أن الصندوق المذكور قبالة الرأس الشريف فيه تجوّز ؛ لأنه قد ظهر لنا في هذه العمارة أنه في محاذة الجدار الداخل القبلي ، وسيأتي أن الوجه الشريف إلى الجدار ؛ فالرأس الشريف متأخر عن الصندوق المذكور يسيرا

ومستند المجد وغيره في هذا الإطلاق ما روى جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رضى الله عنه عن أبيه عن جده أنه كان إذا جاء يُسَلِّم على النبي صلى الله عليه وسلم وقف عند الأسطوانة التي تلى الروضة ، ثم يسلم ، ثم يقول : ها هنا رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد به ما قدمناه ، والله أعلم

وذرع الصندوق المذكور في الارتفاع ذراع ونصف وربع بذراع اليد ، وأعلى القائم فوقه محاذ لرأس الوزرة الرخام ، وطول القائم المذكور ثلاثة أذرع ، وهو خمس صفحات ألصق بعضها على بعض وجعلت محيطها بمظهر من الأسطوانة التي

الصندوقُ بأصلها فوقه ؛ فإن بعض الأسطوانة في البناء الملاصق لها من الحائز المذكور ولو أحاطت الصفحات بجميع الأسطوانة لكانت أكثر من خمس ، وكانت شكلها مثنى ، وهو مختم بالخشب الأسود الهندي ، معصّب بصفائح الفضة المموّهة طولاً وعرضاً بأحسن صناعة ، وصفائحها الطولية من الفضة أربع ، والمقاطعة لها من جهة العرض خمس ، وفي رأسه من أعلاه حلقة رقيقة كالزريق ، وزنة ما عليه من الفضة زيادة على ألفي قفلة ، وأخذوا لأجل تمويهه من حاصل المسجد أربعين مثقالاً من الذهب كما أخبرني به متولى العمارة

وأما الصندوق فلم يغير ، وكله مغطى بالفضة ، وقد احترق في حريق المسجد الثاني ، ووجدوا حلته من الفضة ، فجددوا صندوقاً في محله ، وجعلوا موضع القائم الذي كان فوقه رخاماً مكتوباً فيه البسملة والصلاة والتسليم على النبي صلى الله عليه وسلم والترضى عن أصحابه وغير ذلك

وأما المسار المواجه للوجه الشريف فقد تقدم أن بينه وبين أول الصفحة الغربية من المغرب خمسة أذرع ، وقد اعتبرت ذلك فنقص يسيراً نحو سدس ذراع ، وكأنه لاختلاف الأذرع ، ولم أعلم ابتداء حدوث التعليم بهذا المسار أيضاً ، والمذكور في كلام المتقدمين إنما هو التعريف بأن يجعل القنديل على رأسه ، لكن قال المطري : إن ما ذكر من القيام تحت القنديل تجاه الحجرة الشريفة للسلام كان قبل احتراق المسجد الشريف ؛ فإنه لم يكن يقابل وجه النبي صلى الله عليه وسلم إلا قنديل واحد ؛ ولما جدد جعل هناك عدة قناديل ، وإنما علامة الوقوف تجاه الوجه الكريم اليوم مسار فضة في رخامة حمراء ، انتهى . وهو يوم حدوث التعليم به بعد الحريق ، وليس كذلك ؛ لأن ابن النجار ذكر التعليم به كما سيأتى ، ولم يدرك الحريق ، ولأن ابن جبير ذكره في رحلته وهو أقدم من ابن النجار فقال عند وصف الحجرة الشريفة : وفي الصفحة القبليّة أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم مسار فضة هو أمام الوجه الكريم ، فتقف الناس أمامه للسلام ، انتهى . وأيضاً فقد روى ابن الجوزى في « مثير الغرام الساكن » أن ابن أبي مليكة كان يقول : من أحب أن يقوم وجّه النبي صلى الله عليه وسلم

فليجعل القنديل الذى فى القبلة عند القبر على رأسه ، ثم قال ابن الجوزى : و ثم ما هو أوضح علما من القنديل ، وهو مسمار من صُفْر فى حائط الحجرة ، إذا حاذاه القائم كان القنديل فوق رأسه ، انتهى .

وقال يحيى فى كتابه : كان ابن أبى مليكة يقول : إذا جعلت القنديل على رأسك والمرسمة المدخولة فى جدار القبر قبالة وجهك استقبلت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وكأن هذا المسمار فى موضع تلك المرسمة ، ولهذا قال ابن النجار : إن اليوم هناك علامة واضحة ، وهى مسمار من فضة فى حائط حجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا قابله الإنسان كان القنديل على رأسه ، فيقابل وجه النبي صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

ولم أر لهذا المسمار ذكرا فى كلام مَنْ صَنَّف فى المناسك قبل ابن جماعة ، والذى فى مناسك ابن الصلاح أخذنا من الإحياء ذكر القنديل ، وجعله حذاء رأس الزائر ، ونقله عن ابن أبى مليكة ، واقتضى كلامه أن الواقف هناك يكون بينه وبين السارية التى عند رأس القبر عند زاويته الغربية وهى أسطوان الصندوق نحو أربعة أذرع ؛ فهو قريب مما تقدم فى التعليم بالمسمار المذكور ، وإن لم يصرح به ، لكن قال الأقسهرى ومن خطه نقلت : أخبرنا الإمام العالم رضى الدين أبو أحمد إبراهيم بن محمد بن أبى بكر إمام مقام إبراهيم الخليل بمكة توفى فى تاسع شهر ربيع الأول من عام اثنين وعشرين وسبعمائة والشيخ الوزير أبو عبد الله محمد بن أبى بكر محمد بن عيسى المومنانى قال : أخبرنا الإمام أبو عمرو عثمان ابن عبد الرحمن بن الصلاح السهروردى قال : ثم يأتى الزائر الضريح المقدس فيستدبر القبلة ويستقبل جداره نحو ثلاثة أذرع أو أربعة أذرع من الجدار وجاء المسمار الذى فى الجدار القبلى من الحجرة المشرقة ، هذا ما نقلته من خط الأقسهرى بحروفه ، ولم أره فى كلام ابن الصلاح ، والذى نقله ابن عساكر فى تحفته عن (١٣ — وفاء الوفا ٢)

ابن الصلاح وهو من تلامذته إنما هو ما قدمناه ، وروايته عن إبراهيم الطبرى عن ابن الصلاح تخليط ؛ فإن وفاة ابن الصلاح فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، والذى أدركه إنما هو والد إبراهيم المذكور ، وهو المعروف بالرضى الطبرى ، فإن مولد الوالد المذكور سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، فإنما أدرك من زمن ابن الصلاح عشر سنين ، فكيف يكون ولده راويا عن ابن الصلاح بلا واسطة ؟ .

وقال الأقسهرى عقب ما تقدم عنه : وقد سقط هذا المسار سنة عشرين وسبعائة ، ولم يردّ إلى موضعه إلا فى رجب عام أربع وعشرين وسبعائة .

قلت : وقد أخرج فى هذه العمارة من موضعه عند ترخيم جدار الحجرة الشريفة ، ثم أعيد فى محله الأول بعينه فى الرخامة الحمراء التى كان بها ، ثم سقط من محله فى الحريق الثانى ، ووجدت مسار آخر فى محله ، ولا يختلف أحد من أدركناه بالمدينة الشريفة فى أن ذلك الموضع تجاه الوجه الشريف ، وهو الذى يقتضيه الحال عند مشاهدة الحجرة الشريفة من داخلها ، غير أنى رأيت فى كلام يحيى ما يوم خلاف ذلك ، فإنه ذكر أن الموضع الذى يواجه الوجه الشريف هو ما بين الأسطوانة المتوسطة فى قبلة جدار قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، بين هذا الموضع وبين الأسطوانة شبران وثلاث أصابع متفرجة من الحفرة إلى الوسطى ، وإن كل من أدركه من أهل بيته كانوا إذا وقفوا للسلام على النبى صلى الله عليه وسلم وقفوا قريباً من هذا الموضع ، وكانت ثمّ علامة قد تعلموا بها خُفيرة ولم تزل ثمّ منذ عملت إلى أن عمر الصانع المسجد فى ولاية أمير المؤمنين المتوكل فإنه أزرّ القبر بالرخام فذهبت العلامة منذ ذلك . وقال : إن موسى بن جعفر قال : مَنْ وقف فى هذا الموضع منحرفاً واضعاً شق وجهه الأيمن استقبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان على بن الحسين يقف ثمّ ، انتهى .

قلت : الأسطوانة الوسطى التى يشير إليها هى البارزة فى الصفحة القبلىة من جدار القبر ، يقف قربها المسلم على عمر رضى الله عنه ، وبينها وبين المسار المذكور

نحو ثلاث أذرع أو أزيد ، وقد قال : إن الموضع الذى ذكره بينه وبين الأسطوانة المذكورة شبران وثلاثة أصابع ، فيكون بعيداً من المسار المذكور بنحو الذراعين وقد شاهدنا الأسطوانة المذكورة من داخل الحجرة فرأيناها قريبة من نهايتها ، بحيث إن من دفن هناك ووجهه فى محاذة الموضع الذى ذكره يحى كانت رجلاه فى جدار الحجرة الشرقى كما نقل ذلك فى دفن عمر رضى الله عنه ، فبعد كل البعد كون الوجه الشريف فى محاذة ذلك الموضع ، على أن ما نقله عن موسى ابن جعفر يقتضى أن استقبال الوجه الشريف للواقف فى الموضع الذى ذكره إنما يكون مع الانحراف ووضع شق الوجه الأيمن على جدار القبر ، وعلى هذا فيستقبل الزائر جهة المغرب حتى يحصل ذلك ، وذلك لأن الحائط القبلى منحرف كما أشرنا إليه فى التصوير المتقدم ، فلا يقتضى ذلك أن المستقبل للمحل الذى عيّنه من غير وضع وجهه يكون مقابلاً للوجه الشريف ، وإنما يُسَامِتُ الواقفُ الوجه الشريف إذا حاذى المسار المتقدم وصفه ، وكأن يحى يرى أن الزائر يلصق خده بجدار القبر على الهيئة السابقة ، فيصير محل المسار المذكور أمامه ، ولذلك أورد عقب ما تقدم عنه قصة أبى أيوب الأنصارى الآتى ذكرها فى التزامه القبر .

واعلم أن تشبيك باب المقصورة التى حدثت إدارتها على ما حول الحجرة الشريفة قد يمنع من مشاهدة المسار المذكور إلا لمن يتأمل ذلك من تشبيكه ، وذلك يشغل قلب الزائر ، وقد تحرر لنا أن ما يقابله من ذلك هو الصرعة الثانية من باب المقصورة القبلى الذى على يمين مستقبل القبر الشريف ، فنحاذى هذه الصرعة كان محاذياً لذلك ، وهذا المسار بموه بالذهب رأسه مستدير ، وقد أحدث متولى العمارة مساراً آخر رأسه فضة ، لكنه فى أول هذه الصفحة القبلية مما يلى المغرب قريباً من جهة الصندوق المتقدم وصفه ، ورأس هذا المسار مُكَوَّب كالقبة ، فلا يشتبه بالمسار المتقدم ، وأحدث أيضاً مسارين آخرين فى ابتداء الصفحة الغربية مما يلى القبلة قريباً من مساره المتقدم ، وما علمت السبب فى

إحداث ذلك ، وقد زالت هذه المسامير الثلاثة المحدثثة بالحريق الثانى .

وأما الموضع المعروف بمقام جبريل عند مر بعة القبر فقد تقدم أنه كان هناك مسمار فى منحرف المربعة إلى الزاوية الشمالية من الحجرة علامة عليه ، فلم نجده هناك ، وسألت عنه الخدام والمرخين فقالوا : إنهم لم يجدوا هناك شيئاً ، وتسمية ذلك الموضع بمقام جبريل تقدم مستنده فى السكلام على أسطوا مر بعة القبر ، ولم أدر لم سمي بذلك ، إلا أن ابن جُبَيْر ذكر هذا الحبل من الحجرة الشريفة ، وقال : وعليه سِتْر مُسْتَبَل يقال : إنه كان مهبط جبريل عليه السلام ، انتهى . لكن ترجم ابن شبة فى كتابه لمقام جبريل ثم قال : قال أبو غسان : علامة مقام جبريل عليه السلام التى يُعْرَف بها اليوم أنك تخرج من الباب الذى يقال له باب آل عثمان ، فترى على يمينك إذا خرجت من ذلك الباب على ثلاثة أذرع وشبر وهو من الأرض على نحو من ذراع وشبر حَجَرًا أكبر من الحجارة التى بها جدار المسجد ، قال : فكان مالك بن أنس يقول ، وسقط ما بعد ذلك من كتاب ابن شبة فلم أدر ما هو ، لكن يستفاد من ذلك حكاية خلاف فى مقام جبريل : هل هو داخل المسجد عند المربعة المذكورة أو خارجه عند باب آل عثمان وهو المعروف اليوم بباب جبريل ؟ ولعل ذلك سبب تسمية الباب المذكور بذلك ، كما ستأتى الإشارة إليه .

وقال ابن زبالة : أخاف المسجد من شرقيه فى سلطان محمد بن عبد الله عبد الله بن سليمان الربعى من ولد ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب من ناحية موضع الجنائز ، فأمر به فبنى ، وتعلم مقام جبريل عليه السلام بحجر ونقش فيه خاتم سليمان ومُشَق لأن يعرف به مقام جبريل ، ومقام جبريل يمتد داخل فى المسجد ، فبلغ ذلك مالك بن أنس ، فتكلم فيه وأنكره وعابه ، فغير وجعل مكانه حجر طويل مُعْصَمَت لا علم فيه بخلاف لجارة المسجد ، انتهى ؛ فيحتمل أن يريد بقوله « ومقام جبريل يمتد داخل فى المسجد » الموضع المتقدم ذكره من

الحجرة الشريفة ، ويحتمل أن يريد أن الباب قد قدم عن محله الأول في محاذاته ، فصار مقام جبريل داخل المسجد في محاذة ذلك ، ويرجح هذا أن الظاهر أن الأصل في مقام جبريل ما قدمناه في غزوة بني قُرَيْظَةَ من رواية صاحب الاكتفاء أن جبريل عليه السلام أتى في ذلك اليوم على فَرَسٍ عليه الأمانة حتى وقفت بباب المسجد عند موضع الجنائز ، وإن على وجه جبريل لأثر الغبار ، اه ؛ فلذلك سمي الباب المذكور بباب جبريل ؛ إذ لم يكن حينئذ المسجد باب في ناحية الجنائز غيره .

وفي رواية البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم عندنا ، فسلم علينا رجل ونحن في البيت ، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله فزِعَا ، فقامت في أثره ، فإذا بدِخْيَةِ السكبي ، فقال : هذا جبريل عليه السلام يأمرني أن أذهب إلى بني قُرَيْظَةَ ، والله أعلم .

وأما كسوة الحجرة الشريفة فقد ذكر ابن النجار ما قدمناه في تأزير الحجرة كسوة الحجرة الشريفة بالرخام وعمل الجواد الأصمعي في الشباك المتخذ من خشب الصندل النبوية المتقدم وصفه على جدارها ، ثم قال : ولم تزل الحجرة الشريفة على ذلك حتى عمل لها الحسين بن أبي الهيجاء صهرُ الصالح وزير الملوك المصريين ستارة من الديبقي الأبيض ، وعليها الطروز والجلامات المرقومة بالإبريسم الأصفر والأحمر ، ونيطها وأدار عليها زائارا من الحرير الأحمر ، والزائر مكتوب عليه سورة (يس) بأسرها ، وقيل : إنه غرم على هذه الستارة مبلغاً عظيماً من المال ، وأراد تعليقها على الحجرة ، فنهه قاسم بن مهزيب أمير المدينة وقال : حتى تستأذن الإمام المستضيء بأمر الله .

فبعث إلى العراق يستأذن في تعاميقها ، فجاءه الإذن في ذلك ، فعلقها نحو العامين ، ثم جاءت من الخليفة ستارة من الإبريسم البنفسجي عليها الطروز والجلامات البيضاء المرقومة وعلى دَوْرَانِ جاماتها مكتوب بالرقم : أبويكر ، وعمر ،

وعثمان، وعلى، وعلى طرازها اسم الإمام المستضىء بأمر الله، فشيلت تلك ونفذت إلى مشهد على بن أبي طالب بالكوفة، وعلقت هذه عوضها، فلما ولى الإمام الفاصر لدين الله نفذ ستارة أخرى من الإبريسم الأسود، وطرزها وجاماتها من الإبريسم الأبيض، فعلمت فوق تلك، فلما حجت الجهة أم الخليفة وعادت إلى العراق عملت ستارة من الإبريسم الأسود أيضاً على شكل المذكورة ونفذتها فعلمت على هذه، ففي يومنا هذا على الحجرة ثلاث ستائر بعضهن على بعض، انتهى .

وهو يقتضى أن ابن أبي الهيجاء أول من كسا الحجرة في خلافة المستضىء بأمر الله، وكانت خلافته في سنة ست وستين وخمسة ، ومات سنة خمس وسبعين وخمسة ، وفي كلام رزين ما يقتضى مخالفته ؛ فإنه قال في ضمن كلام نقله عن محمد ابن إسماعيل مالفظة : فلما كانت ولاية هرون أمير المؤمنين وقدمت معه الخيزران أمرت بتخليق مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخليق القبر وكسته الزناير وشبائك الحرير ، انتهى .

وقد رأيت في العُتبية ما يصلح أن يكون مستنداً في أصل الكسوة ، فإنه قال في أوائلها : قيل للمالك : قلت إنه ينبغى أن ينظر في قبر النبي صلى الله عليه وسلم كيف يكسون سقفه ، فقيل : يجعل عليه خيش ، فقال : وما يعجبني الخيش ، وإنه ينبغى أن ينظر فيه ، انتهى .

قال ابن رشد في بيانه : كره مالك كشف سقف قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأى من صونه أن يكون مغطى ، ولم ير أن يكتفى من ذلك بالخيش ، وكأنه ذهب إلى أن يغطى بتغطية البيوت المسكونة . ولقد أخبرني من أثق به أنه لاسقف له اليوم تحت سقف المسجد ، انتهى .

وقد يضم إلى ذلك أنه إنما جاز كسوة الكعبة لما فيه من التعظيم ، ونحن مأمورون بتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعظيم قبره من تعظيمه ، وهذا أولى

بالجواز مما سيأتى عن السبكي فى مسألة القناديل من الذهب حيث سلك بها هذا المسلك ، وليس فى كلام ابن زباله ويحيى تعرض لأمر كسوة الحجرة ، ولعله لأنها إنما حدثت بعدها ، مع أن ابن زباله ذكر ما قدمناه فى كسوة المنبر الشريف وجعل الستور على الأبواب ، ونقل أن كسوة الكعبة كان يؤتى بها المدينة قبل أن تصل إلى مكة ، فتتشر فى مؤخر المسجد ، ثم يخرج بها إلى مكة ، ولم يذكر لاحجرة كسوة .

ثم ذكر تخليق الحجرة والمسجد فقال : وقدمت الخيزران أم موسى أمير المؤمنين المدينة فى سنة سبعين ومائة ، فأمرت بمسجد النبى صلى الله عليه وسلم فخلق ، وولى ذلك من تخليقه مؤنسة جاريتها ، فقام إليها إبراهيم بن الفضل ابن عبيد الله بن سليمان مولى هشام بن إسماعيل فقال : هل لكم أن تسبقوا من بعدكم وأن تفعلوا ما لم يفعل من كان قبلكم ؟ قالت له مؤنسة : وما ذلك ؟ قال : تَحْلَقُونَ القبر كله ، ففعلوا ، وإنما كان يخلق منه ثلثاه أو أقل ، وأشار عليهم فزادوا فى خَلْقِ أسطوان التوبة والأسطوان التى هى عَمَ عند مصلى النبى صلى الله عليه وسلم فحلَقوها حتى بلغوا بهما أسفلهما ، وزادوا فى الخلق فى أعلاهما ، انتهى ولو كان لكسوة الحجرة وجود فى زمانه لتعرض له .

واعلم أن فى عشر السنين وسبعمائة فى دولة السلطان الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاون اشترى قرية من بيت مال المسلمين بمصر ، ووقفها على كسوة الكعبة المشرفة فى كل سنة ، وعلى كسوة الحجرة المقدسة والمنبر الشريف فى كل خمس سنين مرة ، هكذا ذكره التقي الفاسى فى شفاء الغرام .

وذكره الزين المراغى إلا أنه قال فى الوقف على كسوة الحجرة : فى كل ست سنين مرة ، تعمل من الديباج الأسود المرقوم بالحرير الأبيض ، ولها طراز منسوج بالفضة المذهبة دائر عليها ، إلا كسوة المنبر فإنها بتقصيص أبيض . قلت : وما ذكره من المدة المذكورة بالنسبة إلى الحجرة كأنه كان معمولاً به

في زمانهما ، وأما في زماننا فيمضى عشرُ سنين ونحوها ولا تعمل ، نعم كلما ولى ملك بمصر فإنه يعتنى بإرسال كسوة .

وذكر الحافظ ابن حجر في الكلام على كسوة الكعبة أن الصالح هذا اشترى حصة من بلد يقال لها سنديس ، اشترى الثلثين منها من وكيل بيت المال ، ووقفها على هذه الجهة ، ولم يتعرض لكسوة الحجرة ، فلعل الثلث الثالث الذى لم يذكره يتعلق بكسوة الحجرة لما قدمناه ، ويحتمل أن ما يرد من الكسوة من جهة الملوك ، لا من وقف ، وعادتهم إذا وردت كسوة جديدة قَسَمَ شيخُ الخدام الكسوة العتيقة على الخدام ومن يراه من غيرهم ، ويحمل إلى السلطان بمصر منها جانباً ، وحكم بيع كسوة الحجرة كحكم بيع كسوة الكعبة ، وقد اختلف العلماء في ذلك قديماً ، وفي المسألة عندنا وجهان .

وقال الحافظ صلاح الدين خليل العلأى : إنه لا يتردد في جواز ذلك الآن ؛ لأن وقف الإمام للضيعة المتقدمة على الكسوة كان بعد استقرار هذه العادة والعلم بها ، فينزل لفظ الواقف عليها ، انتهى ، والله أعلم .

الفصل الخامس والعشرون

في قناديل الذهب والفضة التى تعلق حول الحجرة الشريفة ، وغيرها من محاليقها .

اعلم أنى لم أر فى كلام أحد ذكر ابتداء حدوث ذلك ، إلا أن ابن النجار قال ما لفظه : وفى سقف المسجد الذى بين القبلة والحجرة على رأس الزُّوَار إذا وقفوا مُعَلَّقٌ نَيْفٌ وأربعون قنديلاً كباراً وصغاراً من الفضة المنقوشة والساذجة ، وفيها اثنان بللور ، وواحد ذهب ، وفيها قر من فضة مغموس فى الذهب ، وهذه تنفذ من البلدان من الملوك وأرباب الحشمة والأموال ، انتهى .

قلت : واستمر عمل الملوك وأرباب الحشمة إلى زماننا هذا على الإهداء إلى

الحجرة الشريفة قناديل الذهب والفضة

القناديل

ورأيت بخط شيخنا العلامة ناصر الدين العثماني أشياء نقلها من خط قاضي طيبة الزين عبد الرحمن بن صالح يتضمن ما كان يَرِدُ في كل سنة من ذلك ؛ فذكر في سنة خمسة عشر قنديلا ، وفي أخرى ثلاثة عشر ، وفي أخرى عشرة ، وفي أخرى إحدى وعشرين .

قلت : وفي زماننا هذا يَرِدُ في غالب السنين ما يزيد على العشرين ، ولا ضابط لذلك ؛ فإنه يرد من ندور من ناسٍ مختلفين ، وكأن هذه القناديل كانت إذا كثرت رفعوا بعضها ووضعوه بالحاصل الذي في وسط المسجد ، فاجتمع فيه شيء كثير فاتفق على ما ذكره الحافظ ابن حجر في سنة إحدى عشرة وثمانمائة أن فوض السلطان الناصر فرج لحسن بن مجلان سلطنة الحجاز ، فاتفق موت ثابت ابن نغير ، وقرر حسن مكانه أخاه مجلان بن نغير المنصوري ، فثار عليهم جاز ابن هبة بن جاز الجازي الذي كان أمير المدينة ، وأرسل إلى الخدام بالمدينة يستدعيهم ، فامتنعوا من الحضور إليه ، فدخل المسجد الشريف ، وأخذ ستارتي باب الحجرة ، وطلب من الخدام تسعة آلاف درهم على أن لا يتعرض لحاصل الحرم ، فامتنعوا ، فضرب شيخهم ، وكسر قفل الحاصل ، هكذا رأيت في « أبناء النعمر » للحافظ ابن حجر

والذي رأيت في تحضري عليه خطوطُ غالب أعيان المدينة الشريفة ما حاصله : أن جاز بن هبة المذكور كان أمير المدينة ، فبرزت المراسيم الشريفة بتولية ثابت ابن نغير إمرة المدينة وأن يكون النظر في جميع الحجاز لحسن بن مجلان ، ولم يصل الخبر بذلك إلا بعد وفاة ثابت بن نغير ، فأظهر جاز بن هبة الخلاف والعصيان وجمع جموعا من المفسدين وأباح نهب بعض بيوت المدينة ، ثم حضر مع جماعة إلى المسجد الشريف ، وأهان من حضر معه من القضاة والمشايخ وشيخ الخدام باليد واللسان ، وشهّر سيفه عليهم ، وكسر باب القبة حاصل الحرم الشريف ، وأخذ جميع ما فيها من قناديل الذهب والفضة التي تُحمَل على تعاقب السنين من سائر

الآفاق تقرّباً إلى الله ورسوله وأشياء نفيسة وختمات شريفة وزيت المصابيح وشموع التراويح وأكفان ودراهم يوارى بها الطرحاء ، وقطع مكاتيب الأوقاف وغسلها ، وقصد الحجرة الشريفة ، وأحضر السلم لإنزال كسوة الضريح الشريف والقناديل المعلقة حوله ، فلم يُقدَّرْ له ذلك ومنعه الله منه ، وأخذ ستر أبواب الحجرة الشريفة من خزانة الخدام ، وتعطل في ذلك اليوم وليلته والذي يليها المسجد الشريف من الأذان والإقامة والجماعة ، وأخذ جماعته وأقاربه في نهب بيوت الناس ومصادرتهم ، وأخذ جمال السواني ، وارتحل هارباً عقب ذلك ، ولما اتصل بحسن ابن عجلان ما فوض إليه من أمر الحجاز استدعى بعجلان بن نغير وأقامه في إمرة المدينة ، وعرفه ما برزت به المراسيم أولاً في ولاية أخيه ، انتهى .

وذكر الحافظ ابن حجر أنه أخذ من الحاصل المذكور إحدى عشر خوشخانا وصندوقين كبيرين وصندوقاً صغيراً بما في ذلك من المال وخمسة آلاف شقة من البطاين ، وصادر بعض الخدام ، ونزع عنها ؛ فدخل عجلان بن نغير ومعه آل منصور ففودى بالأمان ، ثم قدم عقبه أحمد بن حسن بن عجلان ومعه عسكر ، يعنى من مكة .

قلت : ورأيت بخط شيخنا العلامة ناصر الدين المراغى قائمة ذكر أنه نقلها من بخط قاضى طيبة الزين عبد الرحمن بن صالح صورتها ؛ الذى كان فى القبة ، وأخذه جواز بن هبة ، هو من القناديل الفضة ثلاثة وعشرون قنطاراً وثلاث قنطار ، غير الذى فى الرفوف ، والصندوقين الذهب ، ثم ذكر تفصيل ذلك فى ثمان عشرة وزنة ، ثم كتب ما صورته : خوشخانه مختومة لم تفتح ، والظاهر أنها ذهب ، وزنة القناديل التى فى الرفوف أربع قناطر إلا ثلث ، وتسع قناديل ذهب بالعدد فى صندوق ، وصندوق صغير مقفول ، انتهى .

وبلغنا أنه دفن غالب ذلك ، ثم أخذه الله أخذاً وبَيْلاً فقتل هو ومن اطلع معه على دفن ذلك ، فلم يعلم مكانه إلى اليوم .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر قَتْلَهُ في سنة اثنتى عشرة وثمانمائة فقال : وفيها قتل جواز بن هبة بن جواز بن منصور الحسينى أمير المدينة ، وقد كان أخذ حاصل المدينة ونزع عنها ، فلم يُمَهَّلْ وقتل في حرب جرت بينه وبين أعدائه ، انتهى . قلت : إنما يبتته بعض عرب مطير فاغتاله وهو نائم .

ورأيت في القائمة المتقدم ذكرها التى نقلها شيخنا المتقدم ذكره ما صورته : وزن ما في الحجرة من قناديل الذهب تسع قناطير ، وورد بعد ذلك من أم السلطان قنديل زنته ألف مثقال ، وورد من أخت السلطان قنديل زنته ألف وخسمائة ، وأربع قناديل كبار في الواحد منهم أربعة صغار ، وفي الثانى اثنان صغار ، وفي الثالث عدة قناديل معقوسة ، وفي الرابع قنديل ، زنة الجميع ثلاثة آلاف وسبعمائة وعشرون مثقالا ، وعلى يد الطواشى صندل قنديلين صغار ، ومعلق بعد ذلك عدة قناديل لم تكتب ، انتهى .

والظاهر أنه سقط بعد قوله « من قناديل الذهب » لفظُ « والفضة » وفي هذه القائمة أيضاً أن بالقبة - يعنى بعد قصة جواز المتقدمة - من قناديل الفضة مائة رطل وسبعة عشر رطلا وضعها ييسق بيده ، انتهى .

ثم إن الأمير غرير بن هيازع بن هبة الحسينى الجمازى أخذ جانباً من الحاصل المذكور في سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، زاعماً أنه على سبيل القرض ، وامتنحن بعض قضاة المدينة لسبب ذلك ، ثم حمل غرير المذكور إلى القاهرة محتفظاً به ، ومات بها مسجوناً .

ولم تزل هذه القناديل في زيادة حتى عدا عليها في ليلة السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ستين وثمانمائة برغوث بن بثير بن جريس الحسينى ؛ فدخل الدار المعروفة بدار الشباك بجانب باب الرحمة ليلاً ، ولم يكن بها ساكن ، وتَسَوَّرَ جدار المسجد ، ودخل بين سقفي المسجد الشريف من شبك هناك ، ومشى حتى بلغ ما يحاذى سقف الحجرة الشريفة ، فأخذ من تلك القناديل شيئاً كثيراً ، وكأنه ترددَ لذلك المرة بعد الأخرى ، ولم يشعر أهل المسجد ونظاره بشيء من ذلك ،

غير أن أمة لبعض جيران الدار المذكورة رأت من سطح دارهم شخصين في أعلى دار الشباك يتعاطيان شيئاً له حجم كبير وصوت صليل ، فلما أصبحت أخبرت ، بواب المسجد فلم يعبأ بذلك فخلو تلك الدار ، وبعُد ذلك الأمر عن الأفكار ، ولكن الله أراد هتك المذكور وحلول النعمة به ، فأنهى بعض الناس إلى أمير المدينة أن المذكور معه شيء كثير من المال غير معهود ، فأمسكه الأمير وضيق عليه بالسجن ، فانجلس ليلاً ، ثم شاع بالمدينة بيع شبائيك من الفضة والذهب ، فكثر القال والقييل ، ثم في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وستين استفاض أن برغوثاً بالينبع ومعه قطع من ذهب القناديل ، فافتقد النظار الحجر الشريفة ، فرأوا أكثر القناديل مأخوذاً ، فعلموا الحال ، لكن لم يعلموا كيفية ، واتهمت ابنة السراج النفطى بمالأة برغوث على ذلك وأنه إنما تسور من بيت أبيها لكونه متصلاً بالمسجد في قبلته ، وأظهر الله براءتها بعد ذلك ، وكان بالمدينة إذ ذاك زين الدين استدار الصحبة ، فعقد مجلساً لذلك ، واجتمع أعيان أهل المدينة ، وكتبوا إلى أمير الينبع بالقبض على برغوث وإرساله ، فقبض عليه ، فاعترف أنه فعل ذلك هو ودبوس بن سعد الحسيني الطفيلي ، وجعل أن دخوله من بيت المرأة المتقدم ذكرها ، وأن بعض الخدام واطأه على ذلك ، ثم أظهر الله الحق ، وأن دخوله إنما كان من دار الشباك ، وأن شريكه المعين له على ذلك دبوس المذكور ، ولم يرَ أميرُ يَنبَع إرساله إلى المدينة ، بل تركه عنده منتظراً الأوامر السلطانية ، ثم إن أمير المدينة أمسك دبوساً وبعض أقاربه ، فأنكر هو ، وأقر عليه بعض جماعته وأحضروا جانباً من الذهب والفضة ، ثم هرب برغوث من الحبس بالينبع ، ثم ساقه الله إلى المدينة ، فلما وصل دُلَّ عليه أميرها ، فأمسكه وحبسه مع دبوس وذويه ، فهربوا ، ثم أظفر الله بهم ، ولم يرغب منهم إلا دبوس ، وبرزت المراسيم بقتل مَنْ تجرأ على هذه العظيمة ، فقتل أمير المدينة برغوثاً وآخر معه من أقاربه يسمى ركباً ، وصلبهما ، ثم ظفر بدبوس وقتله أيضاً .

وأخبرت عن برغوث أنه قال : كنت كلما توجهت في حال هَرَبِي لغير جهة المدينة كأني أجد من يصدني عن ذلك ، وإذا قصدت جهة المدينة تيسرت لي وكأن شخصاً يقودني إليها حتى دخلتها .

وأما عدة القناديل الموجودة في زماننا هذا بالحجرة الشريفة فقد ضبطت في أول سنة إحدى وثمانين وثمانمائة بأمر السلطان الأشرف لشيخ الحرم الأمير انيال والقضاي الزكوى ؛ فكان عدة معاليق الذهب ثمانية عشر قنديلا وبعض قنديل ، وأربع مشنات ، ومغرافان ، وسواران ، وزنة ذلك سبعة آلاف قفلة وستمائة وخمسة وثلاثون ، من ذلك قنديل كبير في جهة الوجه الشريف زينته أربعة آلاف وستمائة قفلة ، أهدها سلطان السكرجيه شهاب الدين أحمد ، وعدة معاليق الفضة ثلاثمائة قنديل وأربعة وأربعون قنديلا ، وثرية كبيرة ، زنة ذلك ستة وأربعون ألف قفلة وأربعمائة وخمسة وثلاثون قفلة ، وكانت ضبطت قبل ذلك في سنة اثنتين وستين وثمانمائة على يد الأمير برد بك التاجي فتحرر من النظر بين المقدارين أن الزائد على ما ضبط في التاريخ المتقدم من الذهب ألف قفلة ومائة وخمسة وخسون ، ومن الفضة ثلاثة عشر ألف قفلة وسبعمائة وخمسة وثمانون قفلة ، فذلك القدر هو الوارد من عام ثلاث وستين إلى آخر عام تسع وسبعين ، وهناك من المعاليق أيضاً غير ما تقدم قنديل من بلور بتابوت من فضة ، وقناديل نحاس أربعة ، وفولاذ واحد مكفّت بالذهب مشبك مكتوب عليه أن الناصر محمد ابن قلاوون علقه من يده إلى عام حجه ، ثم ورد في سنة ثمانين في مشيخة الشيخ انيال ولم يدخل في الجملة المتقدمة قنديلان من الذهب زنتهما مائة وخمسة وعشرون قفلة ، ومن الفضة اثنان وثلاثون قنديلا زنتها ألف ومائتان وخمسة وسبعون قفلة ، وفي سنة إحدى وثمانين قنديل ذهب زنته مائة واثنان وأربعون قفلة ، وأربعة وعشرون قنديلا من الفضة زنتها تسعمائة وخسون قفلة ، وفي سنة اثنين وثمانين من الفضة أحد وثلاثون قنديلا زنتها ألف وخمسمائة وخسون قفلة ، ولم يرد شيء

من الذهب ، وفي سنة ثلاث وثمانين من الذهب قنديل واحد زنته عشرون قفلة ،
ومن الفضة خمسة وعشرون قنديلا زنتها ألف ومائة وخمسة وثلاثون قفلة ، وفي
سنة أربع وثمانين من الفضة تسعة عشر قنديلا زنتها سبعمائة وخمسة وأربعون قفلة ،
ولم يرد شيء من الذهب ؛ فجملة ما ورد في ولاية الأمير انبال في المدة المذكورة من
الذهب أربعة قناديل جملة زنتها مائتان وسبعة وثمانون قفلة ، ومن الفضة مائة
قنديل وتسعة وعشرون قنديلا جملة زنتها خمسة آلاف وستائة وخمسة وخمسون
قفلة ، ولما شرعوا في عمارة الحجرة الشريفة الآتية ذكرها في سنة إحدى وثمانين
وثمانمائة رفعوا جمع المعاليق التي كانت حولها ، ووضعت بالقبة التي بصحن المسجد
بأمر متولى العمارة الجنب الشمسى ، ولم يزل بها إلى تاريخه ، ولم يكن اليوم حول
الحجرة الشريفة من المعاليق إلا ما تجدد في آخر سنة إحدى وثمانين إلى آخر
سنة أربع وثمانين ، ثم حسن متولى العمارة للسلطان صرف ذلك في مصالح المسجد
والمدينة الشريفة ، فحمل بعضه من الحاصل المذكور إلى مصر قبيل الحريق الثانى ،
ثم وجدوا ما سقط لسبب الحريق من القناديل التي كانت معلقة بحالها ، ثم صرف
متولى العمارة بعض ذلك في تذهيب السقف المعادة بعد الحريق ، ثم وضع بهذه
القبة ما تجدد من مصاريف حب السباط الجدد ، فاجتمع بها نحو ثلاثة عشر ألف
دينار ، فاتفق أن أمير المدينة حسن بن زبيرى المنصورى حضر بجماعة مع الاستعداد
بالأسلحة والسيوف المسلوطة ؛ فدخل المسجد الشريف على تلك الحالة وقت الظهر
من سادس ربيع الأول عام أحد وتسعمائة ، وأمر خازن دار الحرم الشريف بإحضار
مفاتيح الحاصل المذكور ، فامتنع من ذلك ، فضربه ضربا مبرحا ، ثم عمداً إلى
باب الحاصل المذكور وأحضر فأسأ وكسره وأخذ جميع ما فيه من النقد والقناديل
والسبايك ، فحمل منه ثلاثة أحمال على فرسين وبغل وغراير تسع على ظهور
الحمالين ، ثم ذهب إلى حصنه وأحضر الصياغ وسبك تلك القناديل ، وذكر أنه
صنع ذلك رغبة عن إمرة المدينة ؛ لأن ولايته كانت بطريق النيابة عن السيد

الشریف محمد بن بركات لتفویض السلطان الأشرف إلیه أمر الحجاز وأن المشار إلیه صار يأخذ حصته مما یحمل له من الإقطاع ومن الصدقات ، وعطل علیه أهل مصر بعض إقطاعه ، فحمله ذلك على ما سبق .

أما حکم هذه المعاليق ونحوها من تحلیة الصندوق المتقدم ذكره والقائم الذى حکم معاليق المسجد النبوی بأعلاه فحکم معاليق الكعبة الشریفة وتحلیتها ، وقد تكلم السبکی فی حکم قنادیل الكعبة وحلیتها والقنادیل التى حول الحجرة الشریفة ، وألف فی ذلك کتابا سماه « تنزل السکينة ، على قنادیل المدينة » فأورد حدیث البخاری وغيره فی کنز الكعبة وما تضمنه من إقرار النبی صلی الله علیه وسلم له بمحمله ، ثم أبى بکر بعده ، ورجوع عمر رضی الله عنه لذلك لما ذكره به ابن شیهة ، وقال : ها المرآن یقتدى بهما ، قال : فهذا الحدیث عمدة فی مال الكعبة ، وهو ما یهتدى إلیها أو ما یُنذَر لها وما یوجد فیها من الأموال .

قال ابن بطال : أراد عمر إنفاقه فی منافع المسامین ، ثم لما ذكر أن النبی صلی الله علیه وسلم لم یتعرض له أمسك ، وإنما ترك ذلك والله أعلم لأن ما جعل فی الكعبة وسُبلَ لها یجرى مجرى الأوقاف ؛ فلا یجوز تغییره عن وجهه ، وفی ذلك تعظیم للاسلام وترهیب للعدو .

قلت : قد تعقبَ ذلك الحافظُ ابنُ حجر باحتمال أن یكون النبی صلی الله علیه وسلم إنما تركه رعايةً لقلوب قریش ، كما ترك بناء الكعبة على قواعد إبراهیم ، ویؤیده ما وقع عند مسلم فی بعض طرق حدیث عائشة رضی الله عنها ولفظه « لولا أن قومك حدیثو عهدٍ بكفر لأنفقتُ كنز الكعبة فی سبیل الله ، ولجعلت بابها بالأرض » الحدیث ، فهذا التعلیل هو المعتمد

قلت : لكن قد یقال : حیث تركه النبی صلی الله علیه وسلم لهذه العلة ثم تركه أبو بکر ثم عمر بعد الهم به ورجوعه عن ذلك ثم من بعده فهو إجماع على تركه ؛ فلا نتعرض له ؛ لما یترتب علیه من الشناعة والله أعلم

قال السبكي : ولا يغلط في أن ذلك يصرف إلى فقراء الحرم ، فإنما يكون ذلك إذا كان الإهداء إلى الحرم أو إلى مكة ، أما إذا كان للكعبة نفسها فلا يصرف إلا إليها ، كأن تعرض لها عمارة فحينئذ ينظر : فإن كانت تلك الأموال قد أرصدت لذلك صرفت فيه ، وإلا فيختص بها الوجه الذي أرصد له ، فالمرصد للبخور مثلا لا يصرف للسترة

قال : وأما القناديل التي فيها والصفائح التي عليها فلا يصرف منها شيء ، بل تبقى على حالها ، وقول عمر « لقد هممت أن لا أدعَ فيها صُفْرا ولا بيضا » محتمل للنوعين ، ولم ينقل إلينا صفتها التي كانت ذلك الوقت ، ومن قال أول من ذهب البيت في الإسلام الوليدُ لا ينبغي أن يكون البيت ذهب في الجاهلية وبقى إلى عهد عمر

قلت : قد نقل التقي الفاسي عن خط الحافظ رشيد الدين بن المنذرى في اختصاره لتاريخ المسبحى ما لفظه : وفيها — أى سنة خمس وستين — استتم ابن الزبير بناء الكعبة ، ويقال : إنه بنّاها بالرصاص المذوب المخلوط بالورس ، وجعل على الكعبة وأساطينها صفائح الذهب ومفاتيحها ذهبا ، اهـ . فإن صح فهو أولى ما يحتاج به

ثم نقل السبكي عن الرافعى أنه قال : لا يجوز تحلية الكعبة بالذهب والفضة وتعليق قناديلها . ثم نقل أن في تحلية الكعبة والمساجد بالذهب والفضة وتعليق قناديلها وجهين مرويين في الحاوى وغيره : أحدهما : الجواز ، تعظيما كما في المصحف ، وكما يجوز ستر الكعبة بالديباج ، وأظهرها المنع ؛ إذ لم ينقل ذلك عن فعل السلف ، ثم استشكل كلام الرافعى فقال : وأما التسوية بين الكعبة والمساجد فلا ينبغي ؛ لأن للكعبة من التعظيم ما ليس للمساجد ، بدليل جواز سترها بالحرير إجماعا ، وفي ستر المساجد به خلاف ، فحكاية الخلاف فيها مشكل ، وترجيح المنع أشكل ، وكيف وقد فعل ذلك في صدر هذه الأمة ، وقد تولى عمر بن عبد العزيز

عمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوليد وذَهَبَ سَقْفَهُ بأمره من غير مراجعة ، بل لما ولي الخلافة بعد ذلك أراد أن يزيل ما في جامع بنى أمية من الذهب فقليل له : إنه لا يتحصل منه شيء يقوم بأجرة حَكِّه ، فتركه . والصفائح التي على الكعبة يتحصل منها شيء كثير ، فلو كان فعلها حراما لأزالها في خلافته ، فلما تركها ومعه جميع من يحج كل عام وجب القطع بجوازها ، وهذا في تحلية الكعبة بالصفائح ، ولا منع من جريان الخلاف في التمويه لإزالة المالية ، ولا من إجراء الخلاف في سائر المساجد تمويها وتحلية ، على أن القاضي حسين جَزَمَ بحل تحلية المسجد بالقناديل من الذهب ونحوها ، وأن حكمها حكم الحلي المباح ، وهذا أرجح مما قال الرافعي ؛ لأنه ليس على تحريمها دليل ، والحرام من الذهب إنما هو استعمال المذكور له ، والأكل والشرب ونحوها ، وليس في تحلية المسجد بالقناديل ونحوها شيء من ذلك ، لكن لا أقول إنه ينتهي إلى حدِّ القرُبة في سائر المساجد ، وتعليل الرافعي لما قاله بأن ذلك لم ينقل عن فعل السلف عجيب ؛ إذ لا يقتضي ذلك التحريم ، ومن حرم اتخاذ الآنية وهو الأصح فإنما حرمه لأن النفس تدعو إلى الاستعمال المحرم ، وذلك إذا كانت له ، وأما إذا جعلها للمسجد فلا تدعو النفس لذلك ، فكيف يحرم وهي لا تسمى أواني ؟

قال : ورأيت الحنابلة قالوا بتحريمها للمسجد ، وجعلوها من الأواني أو مَقِيسَةٍ عليها ، وليس بصحيح ، ومن يقول بجواز التحلية والقناديل في سائر المساجد فلا شك أنه يقول بها في المساجد الثلاثة بطريق الأولى ، ومن منع فلم يصرح في المساجد الثلاثة بشيء ، لكن عموم كلامهم يشملها ، وينبغي ترتيب الخلاف : ففي المساجد غير الثلاثة وجهان أصحهما الجواز ، ومسجد بيت المقدس أولى بالجواز ، والمسجد أن مسجد مكة ومسجد المدينة أولى منه ، ثم المسجدان على الخلاف في تفضيلهما ، وقد يقال إن مسجد المدينة أولى لمجاورة النبي صلى الله عليه وسلم وقصد تعظيمه بما في مسجده من ذلك ، هذا كله بحث ، والمذكور ما تقدم .

وهذا في الاتخاذ من غير وقف ، فإن وقف المتخذ من ذلك فقد قطع القاضى حسين والرافعى بأنه لا زكاة فيه ، وقد رجح الرافعى فيها التحريم ، فكيف يرجح ذلك ؟ إذ مقتضاه صحة وقفها ، فلعل مراد الرافعى إذا وقفت على قصد صحيح وإذا فرغنا على صحة وقفها . قال : وهذا حكم المساجد فى ذلك ، وأما الحجرة الشريفة فتعليق القناديل فيها أمر معتاد من زمان ، ولا شك أنها أولى بذلك من غيرها ، والذين ذكروا الخلاف فى المساجد لم يذكروها ، وكمن عالم وصالح قد أتى للزيارة ولم يحصل من أحد إنكار لذلك .

فهذا وحده كافٍ فى جواز ذلك مع ما تقدم ، واستقراء الأدلة فلم يوجد فيها ما يدل على المنع . قال : فنحن نقطع بالجواز ، والحجرة الشريفة هى بيت عائشة وما حوله ، وأشار إلى بيان أن ما حوله إما منه أو من بقية الحجر المدخلة فى المسجد .

قال : والمدفن الشريف بالحجرة له شرف على جميع المساجد وعلى السكعبة ؛ فلا يلزم من المنع فى المساجد والسكعبة المنع هنا .

قال : ولم نر أحدا قال بالمنع هنا ، فما وقف من ذلك إكراما لذلك المكان صح وقفه ، وإن اقتصر على إهدائه صح أيضاً كالمهدى للسكعبة ، وكذلك المذكور له ، وقد يزداد هنا فيقال : إنه مستحق للنبي صلى الله عليه وسلم والنبي صلى الله عليه وسلم حى ، وإنما يحكم بانقطاع ملكه بموته عما كان فى ملكه وجعله صدقة بعده .

وأما هذا النوع فلا يمتنع ملكه له ، وهو الذى فى أذهان كثير من الناس حيث يقولون : هذا للنبي صلى الله عليه وسلم .

ثم أورد ما رواه يحيى بن الحسين بسنده من الخبر الآتى فى إجمار المسجد عن عبد الله بن محمد بن عمار عن أبيه عن جده قال : أتى عمر بن الخطاب بمجمرة من فضة فيها تماثيل ، فدفعها إلى سعيد أحد المؤذنين ، وقال : أجز بها فى الجمعة وفى

شهر رمضان ، فكان سعد يجمر بها بين يدي عمر بن الخطاب ، الخبر الآتي .
ثم قال : عبد الله بن محمد بن عمار بن سعد القرظ ضعفه ابن معين ، وكذا الراوى عنه ، ومحمد بن عمار حسن له الترمذى ، فلو سلم ممن دونه كان جيداً ، ومقتضى اشتراط الفقهاء الاحتواء فى الحجرة عدم تحريم هذا الصنيع ، لكن العرف دالّ على عد ذلك استعمالاً ، فإما أن يكون الحديث ضعيفاً ، وإما أن يكون احتمال ذلك لأجل المسجد تعظيماً له ، فتسكون القناديل بطريق الأولى ؛ إذ لا استعمال فيها .

قال : ولا يجوز صرف شيء من قناديل الحجرة فى عمارتها ، ولا فى عمارة المسجد ؛ لأنها إنما أعدت للبقاء ، وليس قصد بها جهات إلا ذلك ، سواء وقفها أو اقتصر على إهدائها .

قال : وقد سئلت عن جواز بيعها لعمارة المسجد النبوى ، فأنكرته واستقبحته ، وكيف يبلغ ملوك الأرض أنابعتنا قناديل نبينا لعمارة حرمه ونحن نفديه بأنفسنا فضلاً عن أموالنا ؟ وما برحت الملوك يفتخرون بعمارتها .

قلت : وقد تعقبه جماعة ، والحل قابل للمناقشة ، وليس ذلك من غرضنا ، غير أنا نقول : ستر السكبة بالديباج قام عليه الإجماع ، وأما التحلية بما ذكر فلم يثبت عن من يحتج بفعله ، وترك عمر بن عبد العزيز يحتمل أعدارا ليس هذا محل بيانها .

وقد نقل الشيخ الموفق الإجماع على تحريم استعمال أواني الذهب ، والقناديل من الأواني بلا شك ، واستعمال كل شيء بحسبه ؛ فاستعمال ما ذكر بتعليقه للزينة ، وقد لم تحريم اتخاذ الأبنية منها أيضاً .

وقد ذكر الجلال السكازرونى المندى أشياء أيد بها كلام السبكي : منها أن الله تعالى قال « فى بيوت أذن الله أن ترفع » قال : وهى بيوت النبي صلى الله

عليه وسلم ، قاله مجاهد ، ومعنى ترفع تعظم ويرفع شأنها وتزين ، وتزيينها تعليق قناديل الذهب فيها ، وتطهر من الأنجاس والأقذار وتطيب .
قلت : قوله «ومن تعظيمها تعليق ذلك فيها» هو محل النزاع ؛ لأن من حرم ذلك لا يسلمه ، والله أعلم .

ومنها : أنه روى عن عثمان تعليق قناديل الذهب بالمسجد النبوى .
قلت : ولعله من اختلاف أعدائه عليه ، ولم أره مسطوراً في تأليف ، ولو كان له أصل لذكره مؤرخو المدينة

ومنها : أن عمر بن عبد العزيز فعله في بنيانه للوليد ولم ينسكرك عليه .
قلت : ولم أره في تأليف أيضاً .

ومنها : أنه روى أن سليمان بن داود عليه السلام بنى مسجد بيت المقدس ، وبالغ في زينته وتعليق القناديل فيه ، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ .
قلت : لم ينقل تعليق داود عليه السلام لقناديل الذهب به ، ولو صح ذلك فالتاسخ في شرعنا تحريم الآنية ، وهذا آنية ، وما تقدم عن السبكي في كونه ليس بآنية ممنوع .

ومنها : ما رواه الثعلبي في حديث إتيان المساجد يوم القيامة ، وفيه « وأتمتها يسوقونها ، وعمارها ومزينوها ومحلوها متعلقون بها » الحديث .

قلت : أخذ ذلك من رواية القرطبي عن الثعلبي ، كما رأيت في بعض النسخ ، وقد راجعت القرطبي أيضاً في ذلك فرأيت أنه روى الحديث المذكور من طريق الثعلبي ، وليس فيه « ومزينوها ومحلوها » بل لفظه « وعمارها متعلقون بها » .

ومنها : ما رواه سعيد بن رَبان — بالوحدة المشددة — قال : حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أبي هند قال : سَمَلَ تميم يعني الداري من الشام إلى المدينة قناديل وزيتاً ومقطاً وقنديلاً أو قنديلين من الذهب ، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة ، فأمر غلاماً يقال له أبو البراد ، فقام فبسط المقط وعلق القناديل ،

وصب فيها الماء والزيت ، وجعل فيها القُتْلَ ، فلما غربت الشمس أمر البراد فأسرجها ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، فإذا هو بها تزهرُ ، فقال : من فعلَ هذا ؟ قالوا : تميم الدارى يا رسول الله ، فقال : نورت الإسلام ، وحليت مسجده ، نور الله عليك فى الدنيا والآخرة ! - الحديث .

قلت : قد أخذ ذلك من تفسير القرطبي ، كما رأيته فى بعض النسخ ، وفى بعضها إسقاط عمروة للقرطبي ، وقد راجعت تفسير القرطبي فرأيت أنه أورد الحديث المذكور بحروفيه ، وليس فيه قوله « وقنديلا أو قنديلين من الذهب » ولا قوله « وحليت مسجده » .

ومنها : ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما دخل الشام تلقاه معاوية بعساكر وجنود كثيرة وخيول مسومة وأسلحة مخصوصة بالذهب والفضة وابوس الحرير والديباج وزينة حسنة كزينة فارس والروم ، فقال عمر : ما هذا يا معاوية ؟ وما هذه الزينة والفخار ؟ لقد أتيت أمراً إمراً وارتقيت مرُتقى صعباً ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا غيظ كفارنا ، ومقهرة لأعدائنا ، وإن فرأى منهم لترتعد ، وإن قوائمهم لتخور من ذلك ، وإنا لنجد بذلك المظهر عليهم والذلة والصغار فيهم ، وأشر بوا فى قلوبهم الرُعب حين يرون مساجدنا مُحَلَّاة بالذهب وسقوفها مُنَمَّطة بقناديل الذهب - الخبر ، وفيه أن عمر سكنت عنه .

قلت : الخبر ذكره المؤرخون ، ومثله لا تقوم الحجة به ، ولم أرفيه الزيادة المتعلقة بتعليمة المساجد ، وقد رأيت فى بعض النسخ نسبة ذلك للذهبي فى تاريخ الإسلام ، وأسقط العزّو فى نسخة أخرى ، فليراجع ذلك من تاريخ الإسلام ، فإن لم يكن فيه هذه الزيادة فالذى يظهر لى أن بعض المتعصبين ألحق هذه الأشياء فى الروايات المتقدمة ليتم بها الاستدلال ، فإن المسألة وقع فيها تعصبات ، وكان الجمال السكازرونى إنما أراد إفادة أصل وضع القناديل ، وذكر ما يشعر بهذا الأمر ، فلما رأى ذلك المتعصب أن الاستدلال لا يتم إلا بذلك ألحقه ، ولم يشعر أنه

لو كان ذلك موجودا لم يكن فيه حجة لعدم اتصال السند الصحيح في ذلك.
ومن تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله لم يخف عليه أن كل ذلك
لم يكن يعجبه في حياته ، هذا الذي أعتقده ، والله أعلم .

الفصل السادس والعشرون

في الحريق الأول القديم المستولى على تلك الزخارف الحديثة بالحجارة الشريفة
والمسجد وسقفهما ، وما أعيد من ذلك ، وما تجدد من توسعة المسقف القبلى بزيادة
الرواقين فيه ، وغير ذلك .

سبب الحريق وتاريخه
قال المؤرخون : احترق المسجد النبوى آيلة الجمعة أول شهر رمضان من
سنة أربع وخمسين وستائة في أول الليل ، ونقل أبو شامة أن ابتداء حرقه كان
من زاويته الغربية من الشمال ، وسبب ذلك - كما ذكره أكثرهم - أن أبا بكر
ابن أوحى الفرائش أحد القوام بالمسجد الشريف دخل إلى حاصل المسجد هناك
ومعه نار ، فغفل عنها إلى أن عُلِقَتْ في بعض الآلات التي كانت في الحاصل ،
وأعجزه طفيها ، ثم احترق الفرائش المذكور والحاصل وجميع ما فيه .

وقد صنّف القطبُ القسطلانى في ذلك وفي النار المتقدم ذكرها في الفصل
الثالث من الباب الثانى وهى نار الحجاز التى ظهرت بالمدينة الشريفة في ذلك العام
كتابا سماه «عروة التوثيق ، في النار والحريق» ذكر فيه بدائع من حكم الله تعالى
في حدوث ذلك ، وقد كان القطب بمكة حين وقع ذلك ، وقد نبه فيه على
ما يوافق ما قدمناه عن المؤرخين .

فقال : كتب إلى الصادق في الخبر ، وشافنى من شاهد الأثر ، أن السبب
في حريق المسجد الشريف دخول أحد قوامة المسجد في الخزن الذى في الجانب
الغربى من آخر باب المسجد لاستخراج قناديل المنائر المسجد ، فاستخرج منها
ما احتاج إليه ، ثم ترك الضوء الذى كان في يده على قفص من أقفاص القناديل

وفيه مشاق ، فاشتعل فيه ، وبادر لأن يطفئه فغلبه وعَلِقَ بِحُصْرٍ وَبَسُطَ وَأَقْفَاصَ
وقصب كان في الحزن ، ثم تزايد الالتهاب وتضاعف إلى أن علا إلى سقف
المسجد ، انتهى .

وفي العبر للذهبي أن حرقه كان من مسرحية القوّام .
قال المؤرخون : ثم دبت النار في السقف بسرعة آخذة قبله ، وأعجلت
الناس عن إطفائها بعد أن نزل أمير المدينة فاجتمع معه غالب أهل المدينة فلم يقدرُوا
على قطعها ، وما كان إلا أقل من القليل حتى استولى الحريقُ على جميع سقف
المسجد الشريف واحترق جميعه حتى لم تَبْقَ خشبة واحدة .
قلت : لعل مرادهم لم تبق خشبة كاملة ؛ لما قدمناه من مشاهدة بقايا خشب
كثير عند إخراج الهدم الذي كان بالحجرة .

قال القطب القسطلاني : وتَلَفَ جميعُ ما احتوى عليه المسجد الشريف من
المنبر النبوي والأبواب والخزائن والشبابيك والمقاصير والصناديق وما اشتملت
عليه من كتب وكسوة الحجرة وكان عليها إحدى عشرة ستارة .

حكمة الله في
الحريق

ثم ذكر القطب حِكْمًا لذلك وأسراراً ، لـكون تلك الزخارف لم تُرضِهِ
صلى الله عليه وسلم ، وكـكون القلوب لما لاحظت المساجد الثلاثة بعين التعظيم
ولا يجوز في ذلك أن تنزل فوق قدرها ، بل لابد أن يعتقد أن صفة قهره تعالى
وعظمته مستولية على الجميع ؛ فهو الواحد القهار ، فوق الحريق في الكعبة وبيت
المقدس قديماً ، ثم وقع بهذا المسجد في هذا الزمان عقب ظهور المعجزة العظيمة
في ظهور نار الحجاز التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم وحماية جيرانه منها لما
التجؤوا إليه وانطفأها عند الوصول إلى حرمة كما سبق ، وربما خطر ببال العوام
أن حبس النار عنهم ببركة الجوار مُوجب لحبسها عنهم في الآخرة ، فافتضى
الحال التبيين بذلك .

ونظم الأفشهرى أبياتاً مضمونها أن تسليط النار كان على تلك الزخارف

المنهى عنها ، وأن ما كان حقاً فيبقى ، وما كان زوراً فبالنار يحرق ، قال : وأنشدنى الحافظ الصالح الشيخ إبراهيم بن محمد الكنانى رئيس المؤذنين هو وأبوه قال :
وجد بعد الحريق فى بعض جدران المسجد بيتان وهما :

لم يحترقَ حَرَمُ النَّبِيِّ لَرِيبَةٍ يُخْشَى عَلَيْهِ وَمَا بِهِ مِنْ عَارٍ
لَكِنَّهُ أَيْدَى الرَّوَافِضِ لَأَمَسَتْ تِلْكَ الرَّسُومُ فَطَهَّرَتْ بِالنَّارِ
قلت : وأوردهما المجد بلفظ :

لم يحترق حرم النبى لحادثٍ يُخْشَى عَلَيْهِ وَلَا دَهَاهُ الْعَارُ
لَكِنَّمَا أَيْدَى الرَّوَافِضِ لَأَمَسَتْ ذَاكَ الْجَنَابَ فَطَهَّرَتْهُ النَّارُ
وأورد بعدها بيتين آخرين هما :

قل للروافض بالمدينة ما بكم لقيادكم للذم كل سفيه
ما أصبح الحرم الشريف محرقاً إلا لسبكم الصحابة فيه
قلت : وهذا لأن الاستيلاء على المسجد والمدينة كان فى ذلك الزمان للشيعة
وكان القاضى والخطيب منهم ، حتى ذكر ابن فرحون أن أهل السنة لم يكن أحد
منهم يتظاهر بقراءة كتب أهل السنة

قال المؤرخون : ولم يسلم سوى القبة التى أحدثها الناصر لدين الله لحفظ ذخائر
الحرم مثل المصحف الكريم العثمانى وعدة صناديق كبار متقدمة التاريخ صنعت
— يعنى تلك الصناديق — بعد الثلاثمائة ، وهى باقية إلى اليوم ، يعنى فى زمانهم ،
وذلك لكون القبة المذكورة بوسط صحن المسجد وبركة المصحف الشريف العثمانى
وكانت عمارة القبة المذكورة — على ما ذكره ابن فرحون — سنة ست
وسبعين وخمسمائة

قالوا : وبقيت سَوَارِى المسجد قائمة كأنها جُدُوع النخل إذا هبت الرياح
تتايل ، وذاب الرصاص من بعض الأساطين فسقطت ، ووقع السقف الذى كان
على أعلى الحجرة على سقف بيت النبى صلى الله عليه وسلم فوقهما جميعاً فى الحجرة

الشريفة وعلى القبور المقدسة . وعبارةُ الذهبي وتبعه التقى السبكي : فوقع بعضُ سقفِ الحجرة ، وكل ذلك قبل أن ينام الناس ، وأصبحوا يوم الجمعة فعزلوا موضعاً للصلاة ، وكتب بذلك للخليفة المستعصم بالله أبي أحمد عبد الله بن المستنصر بالله في شهر رمضان ، فوصلت الآلات صحبة الصنائع مع ركب العراق في الموسم ، وابتدئ بالعمارة أول سنة خمس وخمسين وثمانئة .

الشروع في
العمارة بعد
الحريق

قال المطري : ولما شرعوا في العمارة قصدوا إزالة ما وقع من السقوف على القبور الشريفة فلم يحسروا على ذلك ، واتفق رأى صاحب المدينة يومئذ - وهو الأمير منيف بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهني الحسيني - ورأى أكابر أهل الحرم الشريف من المجاورين والخُدَّام أن يطالع الإمام المستعصم بذلك ليفعل ما يصل به أمره ، فأرسلوا بذلك ، وانتظروا الجواب ، فلم يصل إليهم جواب لاشتغال الخليفة وأهل دولته بإزعاج التتار لهم ، واستيلائهم على أعمال بغداد في تلك السنة ، فتركوا الرَّدْمَ على ما كان عليه ، ولم ينزل أحد هناك ، ولم يتعرضوا له ولا حركوه .

وعبارة المجد الشيرازي : فتركوا الردم على ما كان عليه ، ولم يحسروا أحد على التعرض لهذه العظيمة التي دون مرامها تزلُّ الأقدام ، ولا يتأتى من كل أحد بادئ بدئه الدخول فيه والإقدام .

قلت : وقد كنت في تعجب عظيم من أهل ذلك الزمان في تركهم لذلك ، وألفت كتاباً سميت به « الوفا ، بما يجب لحضرة المصطفى » بينت فيه أن الواجب في سلوك الأدب مع هذا النبي العظيم والقيام بما وجب على الأمة من تعظيمه وتعظيم قبره الشريف هو إزالة ذلك عنه وقممه من حجراته الشريفة ، حتى اتفقت العمارة الآتية بيانها ، ولم يكن تأليفي السابق سبباً في شيء من ذلك كما سيأتى بيانه ، حتى إنى لم أطلع عليه متبولى العمارة إلا بعد هدمه لشيء من جدار الحجرة ، فلما نقبوا الجدار الفاخر شاهدتُ بين الجدارين في الفضاء الذي خلف الحجرة

أمراً مهولاً من الهدم الذى خصّ ذلك الموضع ، فإنه كما سيأتى كان فيه نحو القامة ، فعلمت أن أهل ذلك الزمان لم يتركوه إلا لعلمهم بأن إزالته لا تنأتى إلا بانتهاك الحرمه ، فتوقفوا فى ذلك ، فجزاهم الله تعالى خيراً ، وما كنت أعتقد إلا أنه أمر خفيف يتأتى قمه مع رعاية الأدب ، فوجدته أمراً مهولاً معظّمه ردّم سقف المسجد الأعلى وما بين السقفين من البناء الذى على رؤوس السوارى وغير ذلك ، ولذلك استخرتُ الله تعالى فى عدم حضور ذلك عند إخراجيه ، ووقفتُ بين يدى النّبى صلى الله عليه وسلم وسألت منه المددَ فى أن يوقنى الله تعالى لما يرضيه فى ذلك ، لحفظنى الله من حضور ذلك .

وقال المطرى عقب قوله ولم يتعرضوا له ولا حركوه : إنهم أعادوا سقفا فوقه على رؤوس السوارى التى حول الحجرة الشريفة ؛ فإن الحائط الذى بناه عمر ابن عبد العزيز حول بيت النّبى صلى الله عليه وسلم بين هذه السوارى التى حول بيت النّبى صلى الله عليه وسلم لم يبلغ به السقف .

قلت : تبع المطرى على ذلك مَنْ جاء بعده ، فتوافقوا على أنهم لم يجعلوا للحجرة بعد الحريق سقفا ؛ لأن السقف الذى على رؤوس السوارى هو سقف المسجد ، فاقتضى ذلك أنهم جعلوا سقف المسجد سقف الحجرة ، وذكروا أنهم أداروا الشباك على رأس جدار عمر بن عبد العزيز حتى بلغوا به سقف المسجد ؛ وأول شيء ابتدأوا به من سقف المسجد ما حاذى الحجرة الشريفة منه ، وفيه مخالفة لما شاهدناه فى العمارة الآتى بيانها ، فإنهم وجدوا عليها سقفا مربعا على جدارها الداخل ، ويتصل بالخارج من المشرق والمغرب ، وهو دوين رأس الجدار الخارج بنحو شهر ، ثم تبين عند كشفه آثار السقف المنهدم وأن أخشابه كانت فى الجدار الداخل ، ولم يعيدوا هذا السقف المجدد موضع الأول ؛ لأنه لا يتأتى إلا بهدم سترته وإصلاح أما كن لرؤوس الخشب ، فتركوا ذلك تأديبا واحتراما ، ووضعوا ذلك السقف على أعلى سترة الجدار ، وبنوا فوقه سترة لطيفة ، وجعلوا

على ذلك السقف سستارة من الحابس اليمنية المبطنة بقماش أزرق مربوطة بمقط في الشباك الذى بأعلى الحائز الظاهر ، وليس ذلك السقف مطينا ، وهو سقف محكم من ألواح ثخينة جداً من الساج الهندى ، وسمروا بعضها إلى بعض على قوائم من خشب ، وجعلوه أربع قطع كل قطعة كالباب العظيم ، وجعلوا عند ملتقى كل قطعتين من تلك القطع مقصاة من حديد ، وكتبوا بعضها إلى بعض تكليبا محكما ، وجعلوا تحته ثلاث جزم من الساج الهندى تحمله ، وأوصلوا أطراف تلك الألواح بالجدار الظاهر كما تقدم ، ولم يجعلوا في تلك الألواح دهانا ولا نقوشا ولا كتابة ، غير أن النجار الذى صنع السقف المذكور كتب اسمه على طرفه تقرا ، وكذلك سقف المسجد الحامى للحجرة الشريفة مما يلي هذا السقف جميعه من الساج النقى ليس عليه دهان ولا نقوش وفى وسطه طابق عليه قفل فوته أنطاع ومشمع ، ولم يزل موجودا إلى أن عملت القبة الثانية بعد الحريق الثانى ، وجعلوا على جدار الحجرة الداخل من جهة الشام ألواحا من رأس الجدار إلى سقف المسجد .
والعجب أنهم عند رفع هذا السقف وجدوا جزميتين من الأخشاب التى تحته قد تأكلتا ولم يبق إلا جزمة واحدة ، ومع ذلك كانت كافية فى حمله ، فجزى الله تعالى أهل ذلك الزمان خيرا ، والظاهر أن ذلك فعل عند إعادة سقف المسجد الذى ذكره المطرى .

ولنرجع إلى ما ذكره عقب ما تقدم عنه ، قال : وسقفوا فى هذه السنة - وهى سنة خمس وخمسين - الحجرة الشريفة وما حولها إلى الحائط القبلى وإلى الحائط الشرقى إلى باب جبريل عليه السلام المعروف قديما بباب عثمان ، ومن جهة المغرب الروضة الشريفة جميعها إلى المنبر الشريف .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وسماة فكان فى الحرم منها واقعة بغداد واستيلاء التتار عليها وقتلهم الخليفة المذكور مع أهلها .

قلت : وهى من أعظم الوقائع ، وقد ذكرتها فى كتابى « الوفا » وأشرت

إليها في الفصل الثالث من الباب الثاني عند ذكر نار الحجاز ، وذكرت ما أفاده الذهبي من استيلاء الحريق على بغداد أيضاً حتى تروا الخلفاء ، وكانوا في العام قبله قد أشرفوا على الفرق ، فسبحان الملك العظيم .

قال المطري عقب ما تقدم : فوصلت الآلات من مصر ، وكان المتولى عليها حينئذ الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعز عز الدين أيبك الصالحى ، ووصل أيضاً آلات وأخشاب من صاحب اليمن يومئذ وهو الملك المظفر شمس الدين يوسف بن منصور عمر بن علي بن رسول ، فعملوا إلى باب السلام المعروف قديماً بباب مروان ، ثم عزل صاحب مصر المذكور - يعنى فى آخر سنة سبع وخمسين فى ذى القعدة منها - وتولى مكانه مملوك أبيه الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى ، واسمه الحقيقى محمود بن ممدود ، وأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، وأبوه ابن عمه أسير عند غلبة التتار ، فبيع بدمشق ، ثم انتقل بالبيع إلى مصر ، وتملك فى سنة ثمان وخمسين .

قلت : إنما ولى فى يوم السبت ثامن عشر ذى القعدة من سنة سبع ، وفى شهر رمضان من سنة ثمان كانت وقعت عين جالوت التى أعز الله فيها الإسلام وأهله على يديه ، ولم يستكمل فى ملكه السنة بكاملها ، بل قتل بعد الواقعة بشهر وهو داخل إلى مصر ، فكان العمل بالمسجد الشريف تلك السنة من باب السلام إلى باب الرحمة المعروف قديماً بباب عاتكة ، ومن باب جبريل إلى باب النساء المعروف قديماً بباب رَيْطَة بنت أبي العباس السفاح ، وتولى مصر آخر تلك السنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ، ويعرف بالبندقدارى ، فعمل فى أيامه باقى سقف المسجد الشريف من باب الرحمة إلى شمالى المسجد ، ثم إلى باب النساء ، وكل سقف المسجد كما كان قبل الحريق سقفاً فوق سقف .

قلت : وذكر المؤرخون أن الظاهر ركن الدين المذكور لما ولى حصل منه الاهتمام بذلك ؛ فجهز الأخشاب والحديد والرصاص ، ومن الصنائع ثلاثة وخمسين

صانعا وما يمونهم ، وأنفق عليهم قبل سفرهم ، وأرسل معهم الأمير جمال الدين محسن الصالحى وغيره ، ثم صار يمدهم بما يحتاجون إليه من الآلات والنفقات ، ثم لم يزل المسجد على ذلك حتى جددوا السقف الشرقى والسقف الغربى - أى الذى عن يمين صحن المسجد وشماله - فى سنتى خمس وست وسبعمئة فى أوائل دولة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى ، فجعلوا سقفا واحداً نسبة السقف الشمالى أى سقف الدكاك فإنه جعل فى عمارة الملك الظاهر كذلك .

ثم فى سنة تسع وعشرين وسبعمئة أمر السلطان الملك الناصر محمد المذكور بزيادة رواقين فى المسقف القبلى متصلين بمؤخره ، فاتسع مسقفهما وعم نفعهما . قلت : ثم حصل فيهما خلل فجدهما الملك الأشرف برسبائى فى ذى القعدة سنة إحدى وثلاثين وثمانمئة على يد مقبل القديدى من مال جوالى قبرص ، على ما أخبرنى به بعض مشايخ الحرم ، ورأيته مكتوباً كذلك باللوح التى كانت بظاهر العقود من المسقف القبلى مما بلى رحبة المسجد ، وهو سقف واحد فى موازاة سقف المسجد الأسفل ، ولذلك صار سقف مقدم المسجد القديم مرتفعاً من أعلام على هذين الرواقين وغيرهما من بقية المسجد ، وله باب يدخل إليه من بين السقفين شارع فى مبدأ الرواقين المذكورين مما بلى المشرق ، وجدد الأشرف المذكور أيضاً شيئاً من السقف الشامى مما بلى المنارة السفنجارية ، ثم حصل خلل فى سقف الروضة الشريفة وغيرها من سقف المسجد فى دولة الظاهر جتمق فجدد ذلك فى سنة ثلاث وخمسين وثمانمئة وما قبلها على يد الأمير بردبك الناصر المعمار وغيره . ثم فى دولة مولانا السلطان الملك الأشرف قايتبائى أدام الله تعالى تأييده ونصره أنهى إليه احتياجُ سقوف المسجد الشريف للمهارة فبرز أمره الشريف بذلك كما ستأتى الإشارة إليه للجناب الخواجه كى الشمسى شمس الدين بن الزمن أعزه الله بعز طاعته ، فحضر لذلك فى أثناء سنة تسع وسبعين صُحبة أمير جدة ورتب أمر المهارة وسافر صحبته أيضاً ، فهدموا عقود المسجد التى تلى رحبته من

جهة المشرق وسقف الرواق الذي كان عليها ؛ لاقتضاء نظرهم ذلك ، ونقضوا بعض أساطينه فوجد بعضها لأرصاص فيه ، وبعضها فيه رصاص ، ثم أعادوا ذلك في سنتهم ، وهدموا أيضاً جانباً من سور المسجد الشريف مما يلي المشرق من جهة المنارة الشرقية المعروفة بالسنبجارية من باب سُمِّها ، وهو الباب الثاني جوف بابها الظاهر ، إلى ما يوازي حرف الدكاك من القبلة ، وذلك آخر المسقف الشامي ، ومقدار ذلك سبعة وعشرون ذراعاً بذراع اليد المتقدم وصفه ، هدموا ذلك من أعلاه إلى أسفله ، وبلغوا به دك الأس القديم ، وظهر في أصل جدار المنارة المذكورة انشقاق وكانت تضطرب عند الهدم بحيث خشي سقوطها ، فسكبوا في ذلك الشق كثيراً من الجص المذاب حتى امتلأ ، وكان ما هدموه من سور المسجد وعقوده مبنياً بالجص السكب ، فذكر مهندس العمارة أن الجدار إنما اختل لأن السباخ له تأثير في إذابة الجص ، واقتضى رأيه أن يؤسسه بالطين والدورة الخلوطة بناعم الحصباء ، ففعلوا ذلك في الجدار المذكور كله وفي العقود المذكورة أيضاً ، وكخلوا أطراف وجوه الأحجار بالجص من داخل المسجد وخارجه ، ورفعوا السقف الكائن أمام المنارة المذكورة إلى جنب ما هدموه من الجدار المذكور ، وأعادوا ذلك من سنتهم أيضاً . ثم اتفقت أمور اقتضت تأخير العمارة ، فتعطلت في سنة ثمانين . ثم ورد الخوaja الشمسي ابن الزمن إلى المدينة الشريفة صحبة أمير جدة في جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وأقام لمباشرة العمارة بنفسه ، ورفعوا سقف الروضة الأعلى وما اتصل به مما حول القبة الزرقاء الآتي ذكر عملها بأعلى الحجرة الشريفة في سقف المسجد الأعلى ، ورفعوا أيضاً شيئاً مما يلي ذلك من جهة ما يوازي غربى المنبر الشريف لتكسر كثير من أخشابه ، وكان ذلك السقف مع بقية سقف مقدم المسجد على عبارات من خشب موضوعة على أبنية فوق رؤوس السواري بعرض تلك السواري ، كما أن السقف الأسفل المشاهد مما يلي المسجد موضوع على عبارات كذلك فوق رؤوس السواري ، فاقتضى رأى متولى العمارة

إبدال تلك الأخشاب بعقود من آجر كهيئة القناطر التي حول رحبة المسجد ، ورأى أن ذلك أبقى وأحكم من الأخشاب ، مع أن عبارات السقف الأسفل كما قدمناه على رؤوس السوارى بأصل تلك العقود ، ولكنه رأى الإحكام في ذلك ، ففعله في القطعة التي رفعها من السقف المذكور فقط ، ووضع أخشاب ذلك السقف على تلك القناطر ، فارتفع بسببه ذلك المكان من السقف الأعلى على بقية ما حوله منه ، وصار الماشى بين السقفين في تلك الجهة يمشى منتصباً أو منحنيًا قليلاً ، وكان لا يتأتى قبل ذلك المشى هناك إلا مع انحناء كثير ، وتلك القناطر موضوعة على ما يحاذى صف الأساطين التي هي قبلة الروضة والمصلى الشريف من أولها من جهة المشرق إلى الأسطوانة التي تلى المنبر من جهة المغرب وعلى ما يحاذى الصف الثانى وهو صف أسطوان عائشه رضى الله عنها في موازاة الصف المتقدم ذكره من المشرق إلى المغرب ، وعلى ما يوازى الصف الثالث وهو صف أسطوان المحرس من المشرق إلى المغرب أيضاً ، وأما ما يوازى صف أسطوان الوفود فقد كان عليه بناء حائط حاجز لما بين السقف الأسفل والأعلى فيه باب يدخل منه إلى ما بين السقفين ، فهدموا ذلك الحائط ، وأحكموا بناءه ، وجعلوا أطراف الخشب عليه أيضاً ، فهذه الثلاثة الأروقة هي التي ارتفع سقفها الأعلى على ما حوله من الأساطين اللاصقة بالمقصورة إلى الأساطين التي تلى المنبر وصار سقف الرواقين اللذين بين الروضة والجدار القبلى مع سقف ما يحاذى الحجرة الشريفة إلى الجدار الشرقى وسقف ما كان غربى المنبر من مقدم المسجد كله منخفض عن ذلك .

ووجدوا أخشاباً كثيرة متفرقة نحو الأربعين من السقف الأعلى أيضاً قد تكسرت ، فزرقوا بدلها ، ووضعوا إلى جانب بعضها أخشاباً مزرقه ، وسمروها من غير كشف للسقف ، وقلموا السقف الأسفل الذى بالرواق الشرقى مما يلي الأرجل الشريفة ، وجانباً من سقف رواق باب جبريل إلى باب النساء ، وسقف

الرواق الأوسط الذى يلى الرواق الذى سبقت عمارتهم إياه فى العام الماضى ، وأعادوا ذلك ، وقلعوا السقف الأسفل المحاذى لموقف الزائرین تجاه الوجه الشريف وكان من أقدم السقف ، ومع ذلك تعبوا فى قلعه أكثر من غيره لإتقانه وإحكامه فإنه من عمل الأقدمين ، وأظنهم وجدوا اسم الظاهر بيبرس عليه ، ثم أعادوه وأصلحوه شيئاً فى المسقف الشامى وغيره ، وجددوا أيضاً دهان بعض السقف التى حول الحجرة داخل المقصورة التى تعرف اليوم بالحجرة من غير قلع لتلك السقف . ثم احترق ذلك كله فى جملة حريق المسجد الثانى الآتى ذكره فى الفصل التاسع والعشرين ، وجعلوا سقف المسجد عند إعادته سقفاً واحداً جميعه كما سيأتى .

الفصل السابع والعشرون

فى اتخاذ القبة الزرقاء التى جعلت على ما يحاذى سقف الحجرة الشريفة بأعلى سقف المسجد ، تمييزاً لها ، وإدخالها بالقبة الخضراء والمقصورة الدائرة بالحجر الشريفة .

القبة الزرقاء أما القبة المذكورة فاعلم أنه لم يكن قبل حريق المسجد الشريف الأول وما بعده على الحجرة الشريفة قبة ، بل كان حول ما يوازى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فى سطح المسجد حظير مقدار نصف قامة مبنيا بالأجر تمييزاً للحجرة الشريفة عن بقية سطح المسجد ، كما ذكره ابن النجار وغيره ، واستمر ذلك إلى سنة ثمان وسبعين وستائة فى أيام الملك المنصور قلاوون الصالحى ، فعملت تلك القبة ، وهى مربعة من أسفلها مثمثة من أعلاها بأخشاب أقيمت على رؤوس السوارى ، وسمر عليها ألواح من خشب ، ومن فوقها ألواح الرصاص ، وفيها طاقة إذا أبصر الشخص منها رأى سقف المسجد الأسفل الذى فيه الطابق ، وعليه المشمع المتقدم ذكره ، وحول هذه القبة على سقف المسجد ألواح رصاص مفروشة فيما قرُب منها ، ويحيط به وبالقبة درابزين من الخشب جعل مكان الحظير

الآجر ، وتحتّه أيضاً بين السقفين شبّاك خشب يحكيه محيط بالسقف الذي فيه الطابق ، وعليه المشمع المتقدم ذكره ، ولم أر في كلام مؤرخي المدينة تعرض لمن تولى عمل هذه القبة .

ورأيت في « الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » في ترجمة الكمال أحمد بن البرهان عبد القوي الربعي ناظر قوص أنه بنى على الضريح النبوي هذه القبة المذكورة ، قال : وقصد خيراً وتحصيل ثواب ، وقال بعضهم : أساء الأدب بعلو النجارين ودق الخطب ، قال : وفي تلك السنة وقع بينه وبين بعض الولاة كلام ، فوصل مرسوم بضرب الكمال ، فضرب ، فكان من يقول إنه أساء الأدب [يقول :] إن هذا مجازاة له ، وصادره الأمير علم الدين الشجاعى ، وخرب داره ، وأخذ رخامها وخزائنها ، ويقال : إنهم بالمدرسة المنصورية اه .

ويؤيد ما نقله عن بعضهم ما رواه أبو داود في سننه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « خَرَجَ فرأى قبة مُشْرِفة ، فقال : ما هذه ؟ قال له أصحابه : هذه لفلان ، رجلٍ من الأنصار ، قال : فسكت وحملها في نفسه ، حتى إذا جاء صاحبها رسول الله صلى الله عليه وسلم سلم عليه في الناس فأعرض عنه ، صنع ذلك مرارا ، حتى عرف الرجل الغضب فيه والإعراض عنه ، فشكا ذلك إلى أصحابه ، فقال : والله إنى لأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : خرج فرأى قبتك ، قال : فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سَوَّاهَا بالأرض ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، فلم يرَها ، قال : ما فعلت القبة ؟ قالوا : شكا إلينا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها ، فقال : أما إنَّ كلَّ بناء وَبَّالٌ على صاحبه إلا مالا إلا مالا » أى إلا مالا بد منه

وقد جُدِّدَت هذه القبة في أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، فاختلَّت الألواح الرصاص عن وضعها ، فخشَّوا من كثرة الأمطار ، فجسدت

وأحكمت في أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد في سنة خمس وستين وسبعائة ، قاله الزين المراغى

وقد ظهر في بعض أخشابها خلل في سنة إحدى وثمانين وثمانمائة فعصدها متولى العمارة الشمس بن الزمن بأخشاب سمرت معها ، وقلع ما حولها من ألواح الرصاص التي على أعلى السطح بينها وبين الدرابزين المتقدم ذكره ، فوجدوا تحت ذلك أخشابا قد تأكلت من طول الزمان وندّاة مياه الأمطار فأصلحوها ذلك وأعادوه بعد أن أضافوا إليه كثيرا من الرصاص من حاصل المسجد ومما أحضر من مصر ، وجددوا الدرابزين المحيط بها أيضا ، وقد كانت مياه الأمطار تتسرب من بين تلك الألواح وتصل إلى سقف الحجرة الشريفة ، فإن آثار المياه قد وجدت هناك ، وأثرت في الشباك الذى بأعلى حائز عمر بن عبد العزيز بحيث تأكل بعضه ، فأصلحه متولى العمارة أيضا ، وأثرت الأمطار أيضا في الستارة التي على سقف الحجرة الشريفة بحيث تأكل بعضها ، ثم احترق ذلك كله في حريق المسجد الثانى ، فاقتضى رأيهم تأسيس القبة البيضاء الموجودة اليوم على دعائم بأرض المسجد وعقود من الآجر ، وجعلوا تلك الدعائم في موازاة الأساطين التي كان بينها درابزين المقصورة الآتى وصفها ، وزادوا من جهة الشام دعائم بعضها عند المثلث الذى بالحجرة الشريفة من بناء عمر بن عبد العزيز ، وزادوا هناك أسطوانا ، وعند التأسيس لذلك وجدوا عند صفحة المثلث الشرقية قبرا بدّا لحدّه وبعض عظامه ، وإن صح القول بدفن فاطمة رضى الله عنها في بيتها كما ستأتى الإشارة إليه فهو قبرها ، وأبدلوا بعض الأساطين بدعائم ، وأضافوا إلى بعضها أسطوانة أخرى ، وقرنوا بينهما ليتأتى لهم العقد عليها ، وحصل فيما بين جدار المسجد الشرقى وبين تلك الدعائم ضيق لاتحاد بعض تلك الدعائم هناك ، فخرجوا بجدار المسجد الشرقى في البلاط الذى بلى الجدار المذكور نحو ذراع ونصف ، فإنهم هدموا ذلك الجدار ، وأعادوه إلى باب جبريل عليه السلام ، ولم ينقلوا باب جبريل عن محله

ثم إن القبة المذكورة تشققت من أعاليها ولم ينفع الترميم فيها ، ففوّض السلطان للشجاعى شاهين الجمالى النّظر فى أمرها وأمرِ المنارة الرئيسية أيضا عند توليته شيخ الحرم الشريف ، فاقتضى رأيه بعد مراجعة أهل الخبرة هدمَ أهالى المنارة المذكورة واختصار قليل منها ، فاتخذ أخشابا فى طاقاتها وجعل عليها سقفا يمنع ما يسقط عند الهدم للحجرة الشريفة ، ثم هدم أعاليها وأعاد بناءها أحكم من البناء الأول ، بحيث حمل لها الجبس الأبيض من مصر وجعله فى بنائها ، فجاءت محسنة محكمة ، وأزيل ذلك السقف عند تمامها ، وذلك فى عام اثنتين وتسعين وثمانمائة

المقصورة
الدائرة على
الحجرة

وأما المقصورة الدائرة على الحجرة الشريفة بين الأساطين حول جدار الحجرة الظاهر وحول بيت فاطمة رضى الله عنها فقد أحدثها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وذلك أنه لما حج سنة سبع وستين وستمائة أراد أن يجعل على الحجرة الشريفة درابزينا من خشب - وهو المقصورة المذكورة - ففاس ما حول الحجرة الشريفة بيده وقدره بحبال وحملها معه ، وعمل الدرازين ، وأرسله فى سنة ثمان وستين ، وأداره عليها ، وعمل له ثلاثة أبواب قبلها وشرقا وغربا ، ونصبه بين الأساطين التى تلى الحجرة إلا من ناحية الشام فإنه زاد فيه إلى مُتَمَجِّدِ النّبى صلى الله عليه وسلم

ثم زيد لهذه المقصورة باب رابع أحدث عند زيادة الرواقين المتقدم ذكرهما فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وهو من جهة الشمال فى رحبة المسجد ، وكان عليه قبل الحريق الأول سقف مرتفع يحيط به رفر ، ثم أحدث هذا الباب ، وأمامه من جهة رحبة المسجد سقف لطيف أيضا نحو ستة أذرع دُونِ السقف المتقدم وجعل له رفر أيضا يمنع الشمس ، وبسط تحته الرخام الملون شبه الرخام الذى تقدم ذكره حول حائز عمر بن عبد العزيز بالأرض داخل هذه المقصورة ، وذلك فى دولة الظاهر جَمَمَق سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة

قال الزين المراغى : وأعلم أن الذى عمله الملك الظاهر — أى ركن الدين — من الدرايزين نحو القامتين ، فلما كان فى سنة أربع وتسعين وستائة زاد عليه الملك العادل زين الدين كتبغا شباكاً دائراً عليه ، ورفعته حتى وصله سقف المسجد ، انتهى .

وقد جدد متولى العمارة المتقدم ذكره بعض هذه المقصورة أيضاً مما يلى الروضة الشريفة فى العمارة الأولى ، ثم احترقت فى الحريق الثانى ، فجعلوا بدلها شبايبك من النحاس فى جهة القبلة ، وعلى أعلاها شبكة من شريط النحاس كالزرد ، بين أخشاب متصلة بالعقود المحيطة بالحجرة الشريفة ، وجعلوا لبقيتها من جهة الشام وما اتصل بها من المشرق والمغرب مشبكاً من الحديد المشاجر ، وبأعلاه شريط النحاس أيضاً ، وأحدثوا مشبكاً من الحديد المشاجر أيضاً لم يكن قبل ذلك ، جعلوه فاصلاً بين الرحبة التى خلف مثلث الحجرة الشريفة وبينها ، وبها بعض المثلث المذكور ، وبه بابان أحدهما عن يمين المثلث ، والآخر عن يساره ، وصار هذا المشبك متوسطاً بين مشبك الحجرة الشامى وما يقابله . وقد صارت هذه المقصورة تعرف بالحجرة الشريفة ، وأبوابها بأبواب الحجرة ، وما يعلق بسقفها بقناديل الحجرة كما تقدم فى عبارة السبكى .

وفى كلام البدر ابن فرحون ما يقتضى أنه كان ثَمَّ مقصورة متصلة بهذه المقصورة من جهة المغرب ، ثم أزيلت ، ولفظه : وقد تساهل مَنْ كان قبلنا فزادوا على الحجرة الشريفة مقصورة كبيرة عملت وقاية من الشمس إذا غربت ، وكانت بدعة وضلالة تصلى فيها الشيعة ؛ لأنها قطعت الصفوف ، واتَّسَمَتْ بِمَنْ ذَكَرَ مِنَ الصنوف ، وندم على ذلك واضعها ، ولقد كنت أسمع بعضهم يقف على بابها ويؤذن بأعلى صوته « حى على خير العمل » وكانت مواطن تدريسهم ، وخلوة علمائهم حتى قَبِضَ الله لها مَنْ سعى فيها فأصبحت ليلة منخلعة أبوابها ، مقوسة أخشابها ، متصلة صفوفها ، وأدخل بعضها فى الحجرة الشريفة — يعنى ما اشتمل عليه الدرايزين

المذكور - وجعل فيها الباب الشامى ، وكان ذلك مع زيادة الرواقين اللذين زادهما الملك الناصر ، انتهى .

وذكر لى بعضُ مشايخ المدينة نقلاً عن أدركه من المشايخ أن هذه المقصورة كانت فى شامى أسطوان الوفود إلى جهة باب الحجرة الشامى ، والشعبة اليوم يصلون فى ذلك الموضع ، ومقتضى ما قدمناه عن ابن النجار فى بيت فاطمة رضى الله عنها - حيث قال : وبيتها اليوم حوله مقصورة ، وفيه محراب ، وهو خلف حجرة النبى صلى الله عليه وسلم - وجود مقصورة هناك قبل حريق المسجد ، فلعل ذلك مستند الظاهر ركن الدين فى إحداث ذلك .

وقد ذكر المطرى ما صنعه الظاهر من هذه المقصورة ، ثم قال : وظن الملك الظاهر أن ما فعله تعظيماً للحجرة الشريفة ، فحجر طائفة من الروضة المقدسة مما يلي بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنع الصلاة فيها ، مع ما ثبت من فضلها وفضل الصلاة فيها ، فلو عكس ما حججه وجعله خلف بيت النبى صلى الله عليه وسلم من الناحية الشرقية وألصق الدرايزين بالحجرة مما يلي الروضة لكان أخف ؛ إذ الناحية الشرقية ليست من الروضة ولا من المسجد المشار إليه ، بل مما زيد فى المسجد أيام الوليد ، قال : ولم يبلغنى أن أحداً من أهل العلم والصلاح ممن حضر ولا ممن رآه بعد تحجيره أنكر ذلك ، أو تفتن له وألقى له بالاً ، وهذا من أهم ما ينظر فيه .

قال الزين المراكى عقبه : ينبغى أن يعلم أن للظاهر سلفاً فى ذلك ، وهو ما حججه عمر بن عبد العزيز على الحجرة الشريفة من جهة الروضة أيضاً ، لكنه قليل ، انتهى .

قلت : وهذا بناء على ما تقرر عنده من أن جدار الحجرة الذى داخل الحائز هو نهاية المسجد فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، وقد قدمنا فى حدود المسجد ما يرد

ذلك ، ولو سلم أن ذلك نهاية المسجد وأن عمر بن عبد العزيز اتخذ الجدار المذكور فيه فذلك لمصلحة حفظ القبر الشريف ، ولجعل بنائه على هيئة لا يتأتى معها استقبال القبر الشريف كما قدمناه ، وهذه المقصورة بضد ذلك ، والله أعلم .

وقال البدر بن فرحون في ترجمة ولي الله سيدى الشيخ على اله . على ما لفظه :
حكى لى جمال الدين - يعنى المطرى - أن الشيخ بعث إلى الملك الناصر يقول له :
أنا أضمن لك على الله تعالى قضاء ثلاث حوائج إن قضيت لى حاجة واحدة ،
وهى إزالة هذا الشباك الذى على الحجرة الشريفة ، يعنى هذه المقصورة ، فبلغه
ذلك ، فتوقف ولم يفعل .

قال البدر بن فرحون : وليته فعل ؛ فإن الشباك الذى يدور على الحجرة قطع
جانبا من المسجد ، وحجر كثيراً من الروضة ، وفى كل زمان يجدد ويعمر بما
يتقوى به ويتأيد ، وأدخل فيه قطعة كبيرة لما أزيلت المقصورة ، يعنى المتقدم
ذكر إزالتها .

وقال المجد الشيرازى ، عقب ذكره لما تقدم عن المطرى : والذى ذكره
مؤجبه ، غير أن أحد الأبواب مفتوح دائماً لمن قصد الدخول والزيارة ، فيمكن
من أراد الصلاة الدخول والوقوف مع الصف الأول فى الروضة ، ولا يخفى أن فى
تقريب الدرابزين من الحجرة إخراجاً للبناء عن وضعه اللائق ، وأيضاً فيه تضيق
عظيم على الزائرين ، لاسيما عند زحام المواسم ؛ فإنه مع هذا الاتساع ينحلق
المكان بالخلق ، فكيف لو ضيق بحيث يتصل الدرابزين بجدار الحجرة؟ لا يقال :
إنه كان يتسع من جهة المشرق للزائرين ؛ لأن الناس إنما يقصدون هذه الجهة
لكون الرأس الشريف هناك ، وليكون الابتداء بالتسليم على النبي صلى الله
عليه وسلم دون أن يتخطوا الشيخين رضى الله عنهما ، فتأمل ذلك فإنه صحيح .
قال : وهذه الكيفية لا مزيد عليها فى الحسن ، ولم يتعطل شيء من الروضة بسبب

ذلك ، بل بسبب كسل المصلين ، وقد رأيت جماعة من الخدام يصلون داخل الدرابزين أيام الجمعة ، انتهى .

قلت : وما ذكره صحيح بالنسبة إلى زمنه ؛ فإن الباب المذكور كان مفتوحاً في سائر الأوقات . وقد نبه على ذلك ابن جماعة في منسكه ، محاولاً غلقه في المواسم فقط ، فقال : إن هذا الدرابزين حجب طائفة من الروضة الشريفة مما يلي بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وصار ما بين الحجرة والدرازين مأوى للنساء بأولادهن الصغار في أيام المواسم ، وربما قذر الصغار فيه ، وقد تحدثت مع الملك الناصر رحمه الله لما حج وزار سنه اثنتين وثلاثين وسبعمائه في غلق الدرابزين أيام الموسم ، فسكت لما ذكرته ، ولم يجبنى بشيء ، وهذا من أهم ما ينظر فيه ، انتهى . فحدث بعد ذلك غلق الأبواب كلها دائماً ، ولا يفتح منها شيء إلا في وقت إسراج القناديل ونحوه ، ولا يدخل لذلك إلا بعض الخدام والفراشين أو بعض من له وجاهة بإذن شيخ الخدام ، فيدخل للزيارة ليلاً ، وتحقيق بسبب ذلك تعطيل تلك البقعة ، وحرمان الناس التبرك بأسطوان السرير ؛ فإن محله في شرقي أسطوانه كما تقدم ، وكذلك الوقوف للزيارة في موقف السلف بينها وبين الحجرة الشريفة أو على نحو أربع أذرع من جدار القبر على ما يأتي بيانه ، وكذلك التبرك بمربعة القبر ومقام جبريل كما قدمناه ، وبيت فاطمة رضي الله عنها ، فإن ذلك كله في جوف المقصورة ، بل كانت هذه المقصورة سبباً لما هو أعظم من ذلك وأطم ، وهو ابتناء دعائم القبة المتقدم ذكرها بأرضها ، فإنها صارت عند العوام بل وعند من لا إحاطة له بأحوال المسجد أنها ليست من المسجد ، بل من الحجرة ، فعاملوها معاملة غير المسجد ، ولما وقعت المفاوضة في عملها صرحتُ بتحريم ذلك ، فأشار بعضهم بعمل القبة المذكورة على رؤوس الأساطين من غير بناء ، ثم رجعوا عن ذلك وأنا غائب بمصر .

وسبب غلق الأبواب المذكورة أن النجم بن حجي قاضي الشام لما حج في

الموسم الشامي رأى ازدحام الناس بذلك الحبل وما أشار إليه ابن جماعة فيما تقدم عنه ، فأفتى بعلتها ، وخالفه الولى العراقى عند قدومه مع الحاج المصرى فأفتى بفتحها . وأخبرنى بعض مشايخ الحرم أن ذلك كان فى سنة اثنين وعشرين وثمانمائة وأن الحال استمر على ما أفتى به الولى العراقى ، فلما ولى النجم بن حجبى ديوان الإنشاء تسبب فى روز المراسيم السلطانية بالأمر بالعلق سنة ثمان وعشرين ، واستمر ذلك إلى اليوم ، كذا أخبرنى به بعض مشايخ الحرم . ورأيت حاشية على كلام المجد بخط الحافظ جمال الدين بن الخياط النينى ، ولفظها : ومما أحدث فى دولة الملك الأشرف برسبى صاحب مصر والشام بعد الثلاثين وثمانمائة سُمِّرت أبواب الدرايزين المذكور ، وصار الناس يزورون من وراء الدرايزين من غير دخول أحدهم إلى الحجرة الشريفة ، قصدوا بذلك زيادة الحرمة ، وتنزيه المشهد الشريف عن كثرة اللامسين بالأيدي وغيره ؛ فإن كثيراً من جهال العرب وغيرهم يلصقون ظهورهم بصندوق القبر الشريف وجداره ، قاصدين بذلك التبرك ، والخير كله فى استعمال الأدب ، انتهى .

قلت : والصواب المتعين وجوب فتح بعض تلك الأبواب ، خصوصاً فى غير أيام الموسم ، وليس الطريق فى إزالة المفسدة المذكورة غلق تلك الأبواب وتعطيل تلك البقعة ، بل وقوف الخدام عند ذلك الحبل ، ومنع من يتعاطى فيه مالا يليق بالأدب ، على أن ذلك لم يخسّم المادة ؛ لأن تلك الأمور - أعنى لمس الجهال ووضعهم الظهور - يفعل اليوم بهذا الدرايزين ، ولا شك أن الجدار الذى كان يفعل به ذلك ليس هو نفس القبر ، بل ولا جدار الحجرة كما قدمناه ، بل جدار آخر دائره به ، كما أن هذه المقصورة دائرة به ؛ فإن كان ذلك يقتضى تعطيل ذلك الحبل ، فليعطل من أجله المسجد بأجمعه ، وتعطيل المسجد أو شئ منه حرام فلا يرتكب لدفع مكروه مع إمكان دفعه بغيره ، وما يقال من أنه ربما وجد فى بعض المواسم هناك قذر ؛ فقد كان شيخنا شيخ الإسلام فقيه العصر شرف الدين المناوى يقول

فى جوابه : لاشك أن ذلك المحل من المسجد ، فإن كان وجود القدر فيه مقتضيا لتعطيله وصيانته بالغلق فليغلق المسجد بأجمعه ، فإن حكم السكل واحد من حيث وجوب صوّنه واختصاص ما تقرب من المحل الشريف بمزيد التعظيم حاصل بالجدار الكائن عليه ، وطريقُ التعظيم المنعُ من ذلك كما قدمناه ، على أن لمسَ جدار القبر وتقبيله ليس ما أجمع على كراهته كما سنوضحه إن شاء الله تعالى فى باب الزيارة .

ولما قدم مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى أعز الله أنصاره المدينة الشريفة لزيارة سنة أربع وثمانين وثمانمائة واجتمعتُ به بالروضة الشريفة أردت أن أتكلم معه فى فتح بعض تلك الأبواب فى غير أيام الموسم ، فرأيت أنه قد تعاظم دخول هذه المقصورة لما عرض عليه ذلك . وقال : لو أمكننى الوقوف للزيارة فى أبعد من هذا الموضع فعلت ، ورأى أن ذلك هو التعظيم ، فعلمت أنه لا يوافق على ما أريده ، والله أعلم .

الفصل الثامن والعشرون

فما تجدد من عمارة الحجرة الشريفة فى زماننا على وجه لم يخطر قط بأذهاننا ، وما حصل بسببه من إزالة هدم الحريق الأول من ذلك المحل الشريف ، ومشاهدة وضعه المنيف ، وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة فى هذه العمارة .

اعلم أن بعض سُقف المسجد التى تقدم تجديدها كان قد ظهر تكسّر بعض أخشابه فى هذه الدولة الأشرفية - أعز الله أنصارها ، وأعلى فى سلوك العدل منارها - فورد المدينة المقر الأشرف السيفى شاهين الجلالى مُنصرّفه من جدة المعمورة ، فأروه ذلك ، وأروه الحائز الخمس الدائر على الحجرة الشريفة لانشقاق فيه قديم يظهر إذا رفعت الكسوة عند منتهى الصفحة الشرقية وانعطافها إلى الزاوية الشمالية ، فرفعوا عنه الكسوة ، وأحضروا بعض أرباب الخبرة بسبب ذلك ، فاختلف

النقل عن حضر ذلك في كونه ضروريا أو غير ضروري ، فاجتمعت بالمشار إليه بسبب ذلك ، فذكر لي أن الذي تحرر أنه ليس بضروري ؛ لأنه شق في طول الحائط لافي عرضه ، وهو قديم مملوء بالجلس ، والحائط ليس عليه سقف يثقله فنخشى عليه ، فأعجبني كلامه .

ثم أنهى في سنة ثمان وسبعين لمولانا السلطان الأشرف احتياج المسجد الشريف للعمارة ، وسقوط منارة مسجد قباء ، وكان الجنب الخواجكي الشمسي ابن الزمن مغرما بمثل ذلك ، وسبق له بالمدينة الشريفة عمارة لمدرسته المعروفة بالزمنية على يد بعض جماعته ، ففوض إليه السلطان أمرَ عمارة المسجد النبوي ، فكان ماتقدم من بجيئه إلى المدينة الشريفة في أثناء سنة تسع وسبعين ، وتقريره أمر العمارة ، ثم توجه إلى مصر المحروسة ، فكان من أمر العمارة ما قدمناه .

ثم رغب في أمر العمارة المقر الشريف في شرف الدين الأنصاري تغمده الله برحمته ففوض له ذلك ، وحضر صحبة الحاج إلى مكة المشرفة ، وأقام بها مدة حتى يتكامل حصول آلات العمارة ، فتوفي بها ليلة سابع عشر صفر عام أحد وثمانين وثمانمائة بعد شكوى خفيفة .

ثم وردت المراسيم الشريفة بتفويض أمر العمارة للجنب الشمسي بن الزمن وكان بجدة المعمورة فورد المدينة الشريفة صحبة شاد جدة في جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين ، وأحضر معه جماعة من أرباب الصنائع ، وأقام لينظر في أمر العمارة بنفسه ، فكان ماتقدم من إصلاح السقف الأعلى وعمارة غيره من الشقف المتقدم ذكرها ، وإحكام القبة الزرقاء المحاذية للحجرة الشريفة بسقف المسجد ، وإصلاح حلية الصندوق الكائن بأصل الأسطوان التي في جهة الرأس الشريف والقائم المجدد فوقه .

ولما نزعوا القائم العتيق وما تحته من الصندوق وجدوا ماتحت ذلك من أحجار الأسطوان المذكورة متشظها ، وأحجارها قطع بجوفة كالخرز ، وكذا كل أساطين المسجد

العتيقة ، وفي جوفها الرصاص وعمد الحديد ، وأهل المدينة يسمون كل قطعة منها خرزة ، ويسمونها أيضا فلسكة ، فاقتضى رأيهم تعميق ما على رأس الأسطوان المذكور من أخشاب السقف ، فجعلوا مرمة من الأخشاب حول الأسطوان المذكور ليكسروا الخرز المشقق من ذلك الأسطوان ، وهن ست ، ثم يعلقون ما صح من الأسطوان إلى أن يدخلوا مكان ذلك بدله ، ثم شرعوا في كسر تلك الخرز ونزعها ، فتمسر ذلك عليهم ، وحصل بسببه دق عنيف ، حتى كانت جدران الحجرة تهتز له لاتصالها بالأسطوان المذكور ، فحصل بسبب ذلك كلام من الناس ، ولكن بعد كسر بعض الخرز وإخراجه ، وكانوا يعالجون في إخراج الرصاص أيضا علاجا أعظم من العلاج في الحجر ، فعقدوا مجلسا ، وطلبني متولى العمارة للحضور فيه ، فترددت لأنه بلغني أن بعض الناس أوغرت صدره منى وقرر عنده أنى حريص على أن لا تسكون هذه العمارة على يده ، وكنت أرى منه محبة وميلا ثم تنكر بعض التنكر ، وعامت أن الرجوع عن إصلاح الأسطوان المذكورة غير ممكن لكسر بعضها وإخراجه ، فعامت فوات وقت النظر ، فأجبت الرسول بذلك ، ولم أحضر معهم مع علمي بأن بعض أهل المجلس كان مغرى بمخالفة ما أشير به ، وإن كان في غاية الوضوح ، سامحه الله ، ثم افترقوا على إتمام ذلك ، فمكثوا أياما يعالجونه حتى تم ، وأعادوا مكان تلك الخرزات الست مثلها من خرز أسطوان نقضوه من أساطين مسجد قباء ، فكان ذلك بقدر تلك الخرز سواء ، وأحكموا إعادتها بالرصاص وعمد الحديد أحسن إحكام .

وقد كنت أستبعد قدرتهم على ذلك ، وأتعجب من قيام بقية الأسطوان من أعلاه ، مع رفع أسفله ، وكونه كالجبل من الحجر والرصاص ، ولكن ساعدهم المدد الحمدي في ذلك مع حسن معرفة المعلم المباشر لسبك الرصاص .

ثم كان ما تقدم من إعادة الصندوق المذكور والقائم فوقه إلى محلها ، ونقض الرخام المؤزر به جدار الحجرة الظاهر وتجديده كما تقدم ، وعند قلع رخام الصفحة

الآخرة من الزاوية الشمالية إلى الصفحة الشرقية مع ما يليها من صفحة المشرق عند منعطفها ظهر الشق المتقدم ذكره وهو انشقاق قديم سدّ الأقدمون خنّله بيكسر الآجر وأفرغوا فيه الجص ويبيضوه بالقصّة فانشقّ البياض من رأس وزرة الرخام إلى رأس الجدار المذكور ، فأرادوا اختبار ماتحت البياض ليعلموا قدره ، فقهشروا البياض عنه ، وأخرجوا ما في خنّله من الجص والآجر ، فظهر من خنّله بناء الحجرة المربع الذى هو جوف البناء الخمس المذكور فظهر منه ملتقى حائطه الشامى وحائطه الشرقى ، وظهر هناك شق أيضا فى جدار الحجرة الداخلى عند ملتقى الجدارين المذكورين تدخل اليد فيه ، وهو قديم أيضا ، وقد سدّه المتقدمون ، ثم اتّسع قليلا على دوام الأيام .

فلما كان عشية السبت ثالث عشر شعبان عقّدوا مجلسا فى جوف المقصورة عند الجدار المذكور ، حضره القضاة والمشايخ والخدام وشيوخهم الأمير إينال ، وطلبوني لذلك المجلس ، فترددت فى الحضور لما قدمته ، ثم توضأت وصليت صلاة الاستخارة وسألت الله أن يلهمنى السداد والصواب ، وحضرت فوجدت الأمر قد اتفق عليه ، وشاهدت ما قدمته من وصف ذلك ، ورأيت على ذلك البناء الداخلى من الهيبة والأنس ما لا يوصف ولا يدرك إلا بالذوق ، وتحرّرت لى أن سبب انشقاق الجدار الظاهر انشقاق الجدار الداخلى وميلانه نحو الجدار الظاهر وكأن الأقدمين لما رأوا انشقاق الجدار الداخلى - ولعل رؤيتهم لذلك والله أعلم عقب الحريق عندما أحدثوا السقف المتقدم وصفه على الحجرة الشريفة - أدمعوا الجدار الداخلى بأخشاب جعلوها بين الجدار الداخلى والخارج عند رأسهما فى شرقى الحجرة ، فمال الجدار الظاهر من أعلاه بحيث صار أعلاه لا يوازى أسفله ، وخرج بسبب ذلك عن الاستقامة ، فحدث فيه الشق المذكور ، ورأيت الحاضرين بين ساكت ومشير ، فترجّح عندى سلوك رأى ابن عباس رضى الله عنهما فى أمر الكعبة ، حيث أشار بترميمها فقط ، ورأيت أن ما يطلب هنا من الأدب أوّجب مما يطلب هناك ، فحاولت إعدام البناء الظاهر ببناء ، فلم أوافق عليه ، فسألت

مهندس العمارة - وكان أعرف الحاضرين بهذا الأمر - هل تحققت الآن إشراف هذا الجدار على السقوط وأنه لا يتأتى تأخير ، أم يحتمل التأخير مدة إذا رمّ بالحص والآجر كما كان أولاً فيؤخر إلى أن يصير غير محتمل للتأخير ؛ فإنه لا يفعل هنا إلا ما تدعو إليه الضرورة في الحال؟ فقال : الترميم شيء وقطع الفرط شيء آخر ، ثم سأل متولى العمارة عن كيفية ما يكتب ليطلع به المسامع الشريفة ، فقال له القاضي الزكوى قاضى الشافعية وأحد الناظرين سامحه الله تعالى : سرّج العمال غداً للهدم وكتابة المحضر علينا ، وخافت متولى العمارة بالإنكار عليه في إحضارى ، وحثّه على الإعراض عن كلامى .

ثم إن متولى العمارة ذكر لى أنه رأى رؤيا فهم منها الهدم ، فصمّم عليه ، ورأيت عنده من شجاعة الجنان وثبات الجأش في هذا الأمر ما لا يوصف ، وبلغنى أن بعض الناس ذكر له أن ما سبق من كلامى دليل على ما كان قد ألقاه إليه من حرصى على أن لا تكون هذه العمارة على يده ، وأن لا يفوز بهذه المنقبة العظيمة التى لم يسبق إليها ، ومن يسمع يخل ، ولكنى أشهد الله ورسوله على أنى لم أرد سوى محض الوفاء بما أوجبه الله علينا من الأدب مع حبيبه صلى الله عليه وسلم ومن بدل النصيحة .

ثم فى صبيحة الرابع عشر من شعبان المذكور شرعوا فى هدم الحبل الشريف المتقدم ذكره من الجدار الظاهر ، فهدموا جانباً من الصفحة الشرقية وجانبها مما يليها من الصفحة المنحرفة منها إلى جهة الزاوية الشمالية ، وسعة ذلك خمسة أذرع بذراع اليد ، وذلك من بعد نحو أربعة أذرع من الأرض إلى رأس الجدار المذكور ، فظهر حينئذ هدم الحريق الذى فى الفضاء الكائن بين جدارى الحجرة الشريفة ، ورأينا فيه كثيراً من الأخشاب المحترقة قد سلم من بعضها قدر الذراع ونحوه .

ثم فى خامس عشر الشهر المذكور حضروا لتنظيف ذلك ، وتوجه متولى

العمارة لشيخنا العارف بالله تعالى سيدى شهاب الدين الأبهى قديس الله روحه ،
وسأله فى الحضور للتبرك به ، فحضر من خارج الجدار ، وامتنع من الدخول وقرأ
الفاتحة ، وقال : نظفوا على بركة الله ، ثم انصرف وقال لى بعد ذلك : ذكروا لنا
أن هذم ذلك ضرورى ، فقلنا لهم : الضرورى يعمل ، فلما دخلوا لإزالة ذلك
شاهدت أمرا مهولا من ردم الحريق بحيث لم يتأت إزالته إلا بالعتل والمساخى ،
وتحقت بسبب ذلك عذر من أدرك زمن الحريق فى عدم إزالة ما بالحجرة الشريفة
منه كما قدمناه ، وكان ارتفاعه فى ذلك المحل نحو القامة ، وهو ردم من السقف
الأعلى وجص وأجر من الجدار الذى كان بأعلى سقف المسجد لتمييز الحجرة الشريفة
عن غيرها ، كما تقدم بيانه ، وما كان على رؤوس الأساطين وما احترق من أخشاب
ذلك ، فاشتعلوا بتنظيفه وتزاحم الناس عليه فاستمروا فى ذلك حتى بلغوا فى تنظيفه
الأرض القديمة ، بحيث ظهر تحصيل ذلك المحل بحصاء تشبه ما فى المسجد ،
غير أنها قد اسودت من نداوة الأرض ، واعتبرت التفاوت بين الأرض
المرخمة خارج الجدار الظاهر والأرض المذكورة بداخله ، فكانت الأرض
المذكورة - أعنى الداخلة بين الجدارين - أخفض من الخارجة بذراع
وثلاث بذراع اليد ، وظهر من وصف البناء الداخلى ما قدمناه فى الفصل الثانى
والعشرين من كونه مربعا بأحجار منحوتة عليها أبهة عظيمة ، وأن الصفحة
الغربية منه ملاصقة للصفحة الغربية من البناء الظاهر ، وليس بينهما ولا مغرز
إبرة ، وأنه لا باب فيه ولا موضع باب ، وفى الصفحة الشمالية لاصق بها الأسطوان
التي قدمنا وصفه ، وأن بعضه داخل فى الصفحة المذكورة ، وقد أثر فيه الحريق
كما قدمناه حتى تشطب بعضه سيما فى أعاليه وهو فى صف أربعة القبر يليها من
جهة المشرق .

وتبين حينئذ ما فى الجدار الداخلى من الانشقاق المتقدم وصفه فى شماليه
ما يلى المشرق ، فأدخلوا فيه شمعة ، فشاهدوا فيما يقابله من الجدار القبلى ما يلى

المشرق أيضاً انشقاقاً مثله ، وتبين لى أن البناء المتقدم وصفه بين الجدارين القبليين في موازاة الأسطوانة الظاهرة في الجدار القبلى التى يقف عندها المسلم على عمر رضى الله عنه إنما جعل إدعاًماً للجدار المذكور لما حدث به ذلك الانشقاق، وظهر ما أدموا به من الأخشاب بين الجدار الداخل والخارج في جهة المشرق على ما قدمناه ، فتردد متولى العمارة في نقب الجدار الشامى لإحكام ذلك الشق وترميم الشق المقابل له .

ثم عَزَمَ على هدم الجدار المذكور - أعنى جدار الحجرة الداخل من جهة الشام - بأجمعه ، فبدأ برفع السقف الذى وجد على الحجرة نفسها كما قدمناه ، وحينئذ ظهر لهم ساحة الحجرة الشريفة ، وستر الله تعالى القبور الشريفة عن الأعين بالردم ، ثم علمت أن هذا الموطن يطلب فيه من التثبيت والأدب التام مالا يطلب في غيره ، فانصرفت عازماً على أن لا أحضر معهم ما داموا في تعاطى الهدم وأن أحضر معهم في البناء . ثم أفاضوا في عَقْد قبة سُفلية على جدار الحجرة الداخل رعاية الإتقان والإحكام فسكرهت ذلك لعملى أنه يجر إلى هدم معظم الحجرة مع ما فيه من تغيير الهيبة الأولى

ثم في حادى عشر شعبان المذكور أجمعوا أمرهم على ذلك ، فشرعوا في هدم الجدار الشامى والشرقى من البناء الداخل ، فوجدوا في الجانب الذى يلي المغرب من الجدار الشامى ، وكذا فيما يقابله من القبلى ، وكذا في الغربى عند ما هدموا أسفل السترة المبنية على السقف المحترق بين فصوص الأحجار وأعلاها مع رأس الجدر المذكورة لبناً غير مشوى طولُ اللبنة منه أرجح من ذراع وعرضه نصف ذراع ، وسمكه ربع ذراع ، وطولُ بعضه وعرضه وسمكه واحد وهو نصف ذراع ، ولم يجدوا مثل ذلك في الجدار الشرقى ، ولا فيما يليه من الشامى والقبلى ، وقد عاب بعضُ الناس على الأقدمين في وضعهم ذلك في الجدار ، ونسبهم به إلى التقصير ، وربما قال: إن

البنائين زمن الوليد لما أمر ببناء المسجد على يد عمر بن عبد العزيز كانوا كفارا ، وإن ذلك من غشهم ، وهذا جهل من قائله .

وقد قدمنا من شرح حال بناء الحجرة ما فيه كفاية ، وتقدم أن عمر بن الخطاب أو ابن الزبير هو الباني للحجرة على ما رواه ابن سعد ، ولو سلم أن تلك البناية في ولاية عمر بن عبد العزيز للعمارة المتقدمة فهو أتقى لله من أن يُهمل قبر نبيه بيد الكفار حتى يغشوا في بنائه بمثل ذلك . وقد ظهر لي في ذلك أن السلف لما بنوا الحجرة الشريفة بالأحجار لقصد الإحكام والبقاء ، وكان ما عدا الأساس منها مبنياً باللبن في عهده صلى الله عليه وسلم كما يؤخذ مما قدمناه ، فرأوا أن لا يخلو بناؤهم من بركة ذلك اللبن ، فوضعوا منه ما رأوا فيه الصلابة بين الأحجار المبنية بالقصة ، ولولا إتقان ذلك البناء لما مكث هذه المدة المديدة ، والعجب أن الخلل والانشقاق لم يحصل إلا في الناحية الخالية منه ، وقد قدمنا أن الذي يظهر أن تلك الناحية سقطت وأعيدت ، واختلاف البنائين شاهد بذلك ، حتى إن الجدار الشرقى لم يكن مبنياً بالحجارة الموجهة إلا من داخله دون خارجه ، وعرض منقبته أقل من عرض بقية الجدر . ولما بلغوا في هدم الجدار الشامى أرض الحجرة الشريفة شرعوا في تنظيف الرّذم السائر للقبور الشريفة ، وذلك في صبيحة الثالث والعشرين من شعبان المذكور ، ومكنوا في ذلك إلى غروب الشمس مع كثرتهم حتى بلغنى أن الحجرة الشريفة امتلأت بهم ، ولم يخصصوا مكاناً دون مكان ، فظنوا أن القبر الشريف النبوى قريباً من وسط الحجرة ، وليس كذلك كما سنبينه ، ووضعوا ما أخرجوه من الردم عند طرف المسقف الغربى في زاويته المتصلة بمسقف الدكاك ، وبقي عليه متولى العمارة تلك الدكة البارزة هناك . ثم وفى القضاء الزكوى بما وعد به متولى العمارة من كتابة المحضر ، وكتب فيه أهل المدينة ، ولم أكتب فيه ، واعتذرتُ بأنه لم يسبق لى عادة بمثل ذلك ، وبعثوا به إلى مصر الحروسة ، فلما كان في صبيحة الخامس والعشرين من الشهر المذكور بعث إلى

متولى العمارة لأتبرك بمشاهدة الحجرة الشريفة بعد تنظيفها ، وصار قائل يقول :
 ظهر القبر الشريف ، وقائل يقول : لم يجدوا لجميع القبور الشريفة أثرًا ، فحسنى
 داعى المشوق وغلبة الوجد ، واستحضرت ما وقع لبعض السلف من سؤاله لعائشة
 رضى الله عنها أن تُريه القبورَ الشريفة ، وغير ذلك مما سبق ومما سيأتى فى باب
 الزيارة ، ووصف السلف للقبور الشريفة ، وذكرهم ذرع الحجرة الشريفة وكيفيتها
 كما تقدم ، فعزمت على الإقدام ، وتمثلت بقول بعضهم :

ولو قيل للعجنون أرض أصابها غبارُ ثرى ليلي لجدّ وأسرع
 لعل يرى شيئاً له نسبة بها يُعَلِّلُ قلباً كاد أن يتصدعا

فتطهرت وتوجهت لذلك مستحضرا عظيم ما توجهت إليه ، وموقع المثل
 بيت أوسع الخلق كرما وعفوا ، وذلك هو المعول عليه ، واستحضرت قول بعضهم :
 عَصَيْتُ قُلُوبَ كَيْفَ أَلْقَى مُحَمَّدًا وَوَجَّهَى بِأَثْوَابِ الْمَعَاصِي مَبْرَقِ
 ثم أنشدت الذى يليه :

عَسَى اللَّهُ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ وَقُرْبِهِ يُدَارِكُنِي بِالْعَفْوِ فَالْعَفْوِ أَوْسَعُ

وسألت الله أن يمنحنى حسنَ الأدب فى ذلك المحل العظيم ، ويلهمنى
 ما يستحقه من الإجلال والتعظيم ، وأن يرزقنى منه القبول والرضى ، والتجاوز
 عما سلف ومضى ، فاستأذنت ودخلت من مؤخر الحجرة ، ولم أتجاوز ذلك المحل ،
 فشِئِمْتُ رائحة ما شِئِمْتُ فى عمرى رائحةً أطيب منها ، ثم سلمت بوجل وحياء ،
 على أشرف الأنبياء ، ثم على ضجيعيه خلاصة الأصفياء ، ودعوت بما تيسر من
 الدعوات ، وتشفعت بسيد أهل الأرض والسموات ، واستنزلت به فى بيته من
 الأزمات ، واغتست هذه الفرصة فى جميع الحالات ، والله در القائل :

تَمَتَّعْ إِنْ ظَفِرْتَ بِنِيلِ قَرَبٍ وَحَصَّلْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنْ ادِّخَارِ

فقد وسمت أبوابَ التدانى وقد قرَّبتُ للزوار دارى

وقد هَبَّتْ نُسَيَّمَاتُ لَنَجْدٍ فَطَبَّ وَاشْرَبَ بِكَاسَاتِ كِبَارِ
فَمَا وَقَّتْ يَمْرُؤُا بِمُسْتَعَادِ وَمَا دَارَ الْأَعْزَّةَ بِالْقَرَارِ
فَوَدَّعَ أَرْضَ نَجْدٍ قَبْلَ بَعْدِ فَمَا نَجَدْتُ لِمُرْتَحِلٍ بَدَارِ
أَقُولُ لِمَنْ يَمُرُّ بِأَرْضِ نَجْدِ وَيُظْفَرُ مِنْ رَبَاهَا بِالْدِيَارِ
تَزُودُ مِنْ شَمِيمِ عَرَارٍ نَجْدِ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ
وَقُلْ أَيْضًا لِمُخْتَمِ صَفَاءِ عَلَى مَعْنَى يُلُوحِ لَذَى اعْتِبَارِ
إِذَا الْعَشْرُونَ مِنْ شَعْبَانِ وَلَّتْ فَوَاصِلُ شُرْبٍ لَيْلِكَ بِالنَّهَارِ
وَلَا تَشْرَبُ بِأَقْدَاحِ صَغَارِ فَإِنَّ الْوَقْتَ ضَاقَ عَلَى الصَّغَارِ

فلما قضيتُ من ذلك الوطر ، متعت عيني من تلك الساحة بالنظر ، لآتحف بوصفها المشتاقين ، وأنشُرَ من طيب أخبارها في الحبين ، فتأملت الحجرة الشريفة فإذا هي أرض مستوية ، وتناولتُ من ترابها بيدي فإذا فيه نَدَاوَةٌ وحصباء كالخصباء المتقدم وصفها بين الجدارين يظهر عند فحصه بالأصابع ، ولم أجد للقبور الشريفة أثرًا ، غير أن بأوسط الحجرة موضعًا فيه ارتفاع يسير جدا ، توهموا أنه القبر الشريف النبوى ، فأخذوا من ترابه للتبرك فيما زعموا ، ومنشأ ذلك الوهم جَهْلُ مَنْ كَانَ هُنَاكَ بِأَخْبَارِ الْحَجَرَةِ الشَّرِيفَةِ ، وذلك الحبل ليس هو القبر النبوى قطعًا ، ولعله قبر عمر رضى الله عنه ؛ لأن الشافعى رضى الله عنه قد نص على أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما لحده في جدار القبلة .

قال الشافعى ، فيما نقله عنه الأقرشهرى ردًّا على من قال إن النبى صلى الله عليه وسلم أدخل لقبره معترضا : هذا من فحش الكلام في الأخبار ؛ لأن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قريبًا من الجدار ، وكان اللحد تحت الجدار ، فكيف توضع الجنازة على عرض القبر حتى سُلَّ معترضا ؟ فدلَّ على أن هذا النقل غير صحيح ، انتهى .

وروى ابن عساكر عن جابر رضى الله عنه قال : رُشَّ قبر النبى صلى الله عليه وسلم

وكان الذى رش الماء على قبره بلال بن رباح بقربة بدأ من قبل رأسه حتى انتهى إلى رجليه ثم صرجه بالماء إلى الجدار ، لم يقدر على أن يدور من الجدار لأنهم جعلوا بين قبره وبين حائط القبلة نحواً من سوط .

وقال ابن سعد فى طبقاته : أخبرنا شريح بن النعمان عن هشيم قال : أخبرنى رجل من قریش من أهل المدينة يقال له محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال : سقط حائط قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى زمن عمر بن عبد العزيز - وهو يومئذ على المدينة فى ولاية الوليد - فكننت فى أول من نهض ، فنظرت إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا ليس بينه وبين حائط عائشة رضى الله عنها إلا نحو من شبر ، فعرفت أنهم لم يَدْخُلُوهُ من قبل القبلة ، وعلى تقدير أن يكون ثم موضع بين القبر الشريف وبين جدار القبلة بحيث يتأتى إدخاله صلى الله عليه وسلم من ناحية القبلة فلا يكون ذلك الموضع محل القبر الشريف ؛ لبعده من جدار القبلة جداً . وفيما رواه ابن زبالة ويحيى من خبر عبد الله بن محمد بن عقيل فى قصة سقوط جدار الحجرة الشريفة المتقدم ذكره أن عمر بن عبد العزيز قال لمزاحم لما دخل : يا مزاحم كيف ترى قبر النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : متطاطيا ، قال : فكيف ترى قبر الرجلين ؟ قال : مرتفعين ، قال : أشهد أنه رسول الله . وقد قدمنا من وصف داخل الحجرة وذكر ذرعها ما فيه كفاية .

وقد تأملت التفاوت بين أرض الحجرة الشريفة وبين أرض الفضاء الخارج بين الجدار الشامى الداخل وزاوية الجدار الخارج فوجدت أرض الحجرة أنزل منه بنحو ذراع ونصف ، وتقدم أن أرض الفضاء المذكور أخفض مما حول الحجرة من المسجد بذراع وثلاث ، فيكون التفاوت بين داخل أرض الحجرة وأرض المسجد نحو ثلاثة أذرع .

وتأملت آثار ردم الحريق فى الجدران فرأيت فى بعضها نحو ثلاثة أذرع ، وفى بعضها نحو ذراعين ، وأخبرنى المباشرون لإخراجه بذلك أيضاً .

ثم هدموا من الجدار القبلى مما يلي المشرق جانبا نحو أربعة أذرع وشئ ،
حتى بلغوا به أرض الحجرة .

وهدموا أيضاً جانبا من الجدار الغربى مما يلي السام حتى بلغوا به الأرض
أيضاً ، وذلك نحو خمسة أذرع منه ، فَعَلُوا ذلك ليتأتى لهم إحكام القبة التى
أجمعوا أمرهم عليها ، ولم يبق من أركان الحجرة الشريفة سوى مجمع جدار القبلة
وجدار المغرب .

ثم إنهم هدموا من علو ما بقى من الجدارين المذكورين نحو خمسة أذرع ،
ولم يبق من بناء الحجرة الأسلى إلا ما فضل منهما .

ووجدوا عند هدم مبدأ الجدار القبلى من أعلاه ميزابا قد احترق بعضه من
جهة ما كان فى بناء الجدار ، وبقى منه نحو الذراع ، وهو من عَرَّعْ له رائحة
ذكية ، وسعة مجرى الماء فيه نحو أربعة أصابع أو خمسة ، كأنه كان ميزابا للحجرة
الشريفة قديماً فحرص الأقدمون على ما بقى منه بعد الحريق ووضعوه بين السترة
التي أحدثوها لأجل السقف و بين رأس الجدار ، فجزام الله خيرا .

ولما أعيد بنا الحجرة حَرَصْتُ على أن يُعَادَ فيها ، فوعدنى متولى العمارة
بذلك ، فلما كان عند ختم البناء سألته عنه ، فذكر لى أنه جعله فى البناء الآتى
ذكره فى أعلى الجدار الشامى بين ما بقى من أبْنِ الحجرة وليس عليه بطين
ذلك اللبن .

ثم عند الشروع فى إعادة بناء الحجرة اقتضى رأيهم إدخال الأسطوان المتقدم
وصفه خلف جدار الحجرة الشامى لتشققه فزادوا فى عرض ذلك الجدار من الرحبة
المثلثة الشكل المتقدم وصفها بين الجدارين ، وكان الشروع فى إعادة بناء الحجرة
فى سابع عشر شعبان المذكور ، فابتدؤا بالجدار المذكور ، وأوصلوه بالجدار الغربى ،
وأعادوا ذلك بأحجار الحجرة التى نقضوها منها ، ثم رأوا أن إحكام القبة التى
عزموا عليها يقتضى تربيعة محلها ، بحيث لا يزيد طوله على عرضه . وقد قدمنا فى

ذرع الحجر ما يقتضى عدم ذلك ، فقدوا قبوراً على نحو ثلث الحجر الذى يلى المشرق والأرجل الشريفة ، وجعلوا الجدار الخارج من جهة المشرق متصلاً بجدار الحجر الداخل ، فأدخلوا ما كان بينهما فى جدار القبو المذكور إلى نهاية ارتفاعه ، وكذا فعلوا فيما كان بين الجدار القبلى الداخل والخارج ، سدّوه أيضاً بالبناء حتى لم يبق حول البناء الداخل فضاء إلا ما بقى من الرحبة المثلثة الشكل فى جهة الشام وصار علو القبة المذكور فضاء أيضاً بين القبة وبين الجدار الظاهر فى جهة المشرق وعقدوا القبة المذكورة على ما بقى من الحجر ، وهو ما يلى المغرب منها فى جهة الرأس الشريفة ، وحاول بعض الناس أن يكون عقد القبة بالآجر ، ففكرت ذلك لما لا يخفى ، فاجتنبه متولى العمارة جزاء الله تعالى خيراً ، وعقدّها بالأحجار المنحوتة من الحجر الأسود ، وكلها بالأبيض ، وأخبرونى أن ارتفاع القبة المذكورة من داخل أرض الحجر الشريفة إلى محدّب القبة المذكورة - وهو أعلاها المنروز فيه هلالها - اثنا عشر ذراعاً بذراع العمل ؛ فيكون بالذراع المتقدم وصفه ثمانية عشر ذراعاً وربع ذراع .

ومن أرض الحجر أيضاً إلى نهاية القبو الذى بنى عليه أحد حوائط القبة المذكورة ثمانية أذرع وشئء بذراع العمل ، وذلك نحو أحد عشر ذراعاً بالذراع المتقدم وصفه ، وارتفاع حائط القبة الشرقى - وهو الذى يلى القبو المتقدم وصفه - عن طرف القبو الذى بنى عليه الحائط المذكور ذراعاً وثلثان بذراع العمل ، وذلك ذراعان ونصف راجع بالذراع المتقدم وصفه ، وصار ما بين حائط القبة المذكور وبين حائط الحجر الظاهر فى جهة المشرق - أعنى سطح القبو المذكور وما اتصل به - كما كان بين الجدارين ، وأدخل فى عرض الجدار رحبة واحدة تحيط بها من المغرب حائط القبة المتقدم وصفه ، ومن المشرق حائط الحجر الظاهر ، ومن القبلة حائط الحجر الظاهر أيضاً ، ومن الشام سترة بنيت له فيما بين جدار القبة الذى يليه وجدار الحجر الظاهر فى المشرق .

وَذَرَعَ هذه الرحبة المذكورة بسطح القبو المذكور طولاً من القبلة إلى الشام سبعة أذرع ونصف سدس ذراع بذراع العمل ، وذلك أحد عشر ذراعاً بالذراع المتقدم وصفه .

وَذَرَعُهَا عرضاً مختلف : فما يلي القبلة ذراعان ونصف بذراع العمل وما يلي الشام نحو الثلاثة .

وأما جدار القبة الشامي فقد تقدم أنهم زادوا في عرضه من الرحبة خلفه وجعلوه أيضاً متفاوت العرض ؛ فجعلوا ما يلي المشرق منه - وهو الموضع المحاذي للأسطوانة التي وقعت الزيادة في العرض لأجل إدخالها وإدعامها بذلك - أزيد من الجهة التي تلي المغرب منه بنحو نصف ذراع ؛ فإنهم جعلوا عرض الجدار في هذه الجهة من أسفل عقد القبة نحو ثلاثة أذرع بذراع اليد ، وعرضه في الجهة الأخرى دون ذلك بنحو نصف ذراع ، بحيث صارت جهة الأسطوان المذكور بارزة عن بقية ذلك الجدار في الرحبة المذكورة كما سيأتي تصويره .

وقد جعلوا على رأس هذا الجدار بناء يسيرا مما بقي من اللبن الذي أخرج من بعض جدار الحجرة كما تقدم وصفه ، بعد أن تفرق اللبن المذكور ، وأخذ الكثير منه .

وتركوا في نحو وسط هذا الجدار خَوْخَةً ، فلما لم يبق إلا هي أدخلوا منها شيئاً كثيراً من الحصباء جاءوا بها من عَرَصَةِ العقيق من جنس حصباء المسجد بعد غَسْلِهَا بالماء لِيَضَعُوهَا على القبور الشريفة ، وكنت قد ذكرت لبعضهم أن موضع القبر الشريف النبوي مما يلي الجدار القبلي ، وأنه يستنبط مما قدمناه في مسمار الفضة المحاذي للوجه الشريف أن أول القبر الشريف من جهة المغرب على نحو ذراعين بذراع اليد من الحائط الغربي ؛ لأننا إذا أسقطنا عرض الجدارين الغربيين - وهما الجدار الداخل والخارج ، وهو نحو ثلاثة أذرع ما بين المسمار وأول الجدار الظاهر الغربي وهو نحو خمسة أذرع كما تقدم - كان الباقي نحو

الذراعين إلى الرأس الشريف ، فاستحسن ذلك ، فحضر معهم لما دخلوا من الخَوْخَة المذكورة لوضع الحَصَباء على القبور الشريفة ، فوضعوا ذلك على الحُل الشريف المذكور كما وصفت ، وأخذوا بالهيئة المشهورة في كيفية القبور الشريفة مِنْ أن رأس أبي بكر رضى الله عنه خلفَ مَنْكِبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ورأس عمر رضى الله عنه خلفَ مَنْكِبِ أَبِي بَكْرٍ ، فوضعوا الحَصَباءَ عليهما كذلك وكان بعض المباشرين لذلك حَنَفِيًّا - وهو صهر متولى العمارة - فجعلها مُسَنَّةً ، وذلك بعد أن أكَثَرُوا فِي الْمَوْضِعِ الْمَذْكُورِ مِنَ الْبَخُورِ بِالْعُودِ وَالْعَنْدَرِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الرِّوَائِحِ ، وَعَرَفُ الْحُلِ الشَّرِيفِ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ رَاجِحٌ فَأُخِذَ ، وَلِلَّهِ فِي الْقَائِلِ : بطيب رسول الله طابَ نَسِيمُهَا فَالْمِسْكُ مَا لِكَافُورٍ مَا لِلْمَنْدَلُ الرَّطْبُ وَالْقِيَامَةُ مِنَ النَّاسِ مِنْ تِلْكَ الْخَوْخَةِ أَوْرَاقًا كَتَبُوا فِيهَا التَّشْفِعَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا رَبِّ يَسْأَلُونَهَا بِالْحَجَرَةِ الشَّرِيفَةِ ، ثُمَّ سَدُّوا الْخَوْخَةَ الْمَذْكُورَةَ ، وَأَحْكَمُوا بِنَاءَهَا كِبْقِيَةِ الْجِدَارِ ، وَبَيَّضُوا الْقُبَّةَ الْمَذْكُورَةَ وَجَمِيعَ جِدْرَانِهَا مِنْ خَارِجِهَا بِالْجِصِّ ، وَجَاءَتْ حَسَنَةُ فَاضَ عَلَيْهَا أَنْسُ الْحُلِ الشَّرِيفِ ، وَنَصَبُوا بِأَعْلَاهَا هَلَالًا مِنْ نَحَاسٍ يَظُنُّهُ الرَّائِي ذَهَبًا ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ سَقْفِ الْمَسْجِدِ الْأَوَّلِ ؛ فَإِنَّ الْقُبَّةَ الْمَذْكُورَةَ تَحْتَهُ ، ثُمَّ سَدُّوا مَا بَقِيَ مِنْ نَقَبِ الْجِدَارِ الظَّاهِرِ ، وَحَضَرَتْ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ ، وَحَضَرَتْ أَيْضًا بَعْضُ بِنَاءِ الْحَجَرَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَتَبَرَّكَتْ بِالْعَمَلِ فِيهِ ، وَلَمْ أَحْضَرْ غَيْرَ ذَلِكَ طَلِبًا لِلْمَسْلَمَةِ ، وَأَنْشَدْتُ فِي ذَلِكَ الْحُلِ الشَّرِيفِ قَصِيدَتِي الَّتِي تَطْفَلَتْ بِهَا عَلَى وَاسِعِ كَرَمِ الْجَنَابِ الرَّفِيعِ الْحَبِيبِ الشَّفِيعِ الْحَالِ بِذَلِكَ الْحُلِيِّ الْمُنِيعِ ، الَّتِي أَوَّلَهَا :

قَفْ بِاللِّدْيَارِ لَحَى فِي ذَرَى الْحَرَمِ وَحَىٰ هَذَا الْمُحَيَّا مِنْ ذَوَى إِضْمَرِ
وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ ذَلِكَ وَخَتَمُ بِنَاءِ الْجِدَارِ الظَّاهِرِ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ الْمُبَارَكِ سَابِعِ شَوَالٍ
مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ ، وَأَصْرَفُوا فِي ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنْ عِمَارَاتِ الْمَسْجِدِ وَإِعَادَةِ
مَنَارَةِ مَسْجِدِ قِبَاءٍ وَتَجْدِيدِ بَعْضِ سَقْفِهِ وَإِحْكَامِ مَصْرَفِ الْمِيَاهِ الَّتِي كَانَتْ تَجْتَمِعُ

عليه السلام متصل بجدار الحجرة الظاهر من أعلاه وأسطوان وعقد في مقابلة ذلك في المشرق متصل بالجدار الظاهر أيضاً في جهة المغرب .

الفصل التاسع والعشرون

في الحريق الحادث في زماننا بعد العمارة السابقة وما ترتب عليه .

ألفقته هنا مع إلحاق ما تقدمت الإشارة إليه في الفصول السابقة ؛ لحدوثه بعد الفراغ من مسودة كتابنا هذا لأنى توجهت إلى مكة المشرفة للاعتبار أول شهر رمضان عام ست وثمانين وثمانمائة ، فورّد على بها عدة كتب من الصادقين في الخبر ، وشافهني من شاهد الأمر والأثر ، بما حصل من الخطب العظيم ، والرزء الجسيم ، باحتراق المسجد النبوى أول الثلث الأخير من ليلة الثالث عشر من شهر رمضان ، وذلك أن رئيس المؤذنين وصدّار المدرسين الشمسى شمس الدين محمد ابن الخطيب قام يهتّل حينئذٍ بالمنارة الشرقية اليمانية المعروفة بالرئيسية ، وصعد المؤذنون بقية المنائر ، وقد تراكم الغيم فحصل رعد قاصف أيقظ النائمين ، فسقطت صاعقة أصاب بعضها هلال المنارة المذكورة ، فسقطت في المسجد وله لب كالنار ، وانشق رأس المنارة ، وتوفى الرئيس المذكور حينئذٍ صعيقاً فققد من كان على بقية المنائر صوته ، فنادوه فلم يجب ، فصعد إليه بعضهم فوجده ميتاً ، وأصاب منازل من الصاعقة سقف المسجد الأعلى بين المنارة الرئيسية وقبة الحجرة النبوية فنقبه نقبا كالترس ، وعلقت النار فيه وفي السقف الأسفل ، ففتح الخدام أبواب المسجد قبل الوقت المعتاد وقبل إسراجه ، ونودى بالحريق في المسجد ، فاجتمع أمير المدينة وأهلها بالمسجد الشريف ، وصعد أهل النجدة منهم بالمياه لإطفاء النار ، وقد التهب سريعا في السقفين ، وأخذت لجة الشمال والمغرب ، فعجزوا عن إطفائها ، وكلما حاولوه لم تزد إلا التهابا واشتعالا ، فحاولوا قطعها بهدم بعض ما أمامها من السقف ، فسبقتهم لسرعتها ، وتطبق المسجد بدخان عظيم ، فخرج غالب من كان به ، ولم يستطيعوا المسك ؛ فكان ذلك سبب سلامتهم ، وهرب من كان

بسطح المسجد إلى شماليه ، ونزلوا بما كان معهم من حبال الدلاء التي استَقَوْا بها الماء بخارج المسجد على الميضاة والبيوت التي هناك وما حول ذلك ، وسقط بعضهم فهلك ، ونزل طائفة منهم إلى المسجد من الدَّرَج فاحترق بعضهم ولجأ بقيتهم إلى صحن المسجد مع مَنْ حالت النار بينه وبين أبواب المسجد ممن كان أسفل ، ومنهم صاحبنا الشيخ العالم صدر المدرسين الشمسى الدين محمد بن المسكين المعروف بالعوفى ، فمات بعد أيام لضيق نفسه بسبب الدخان مع توعُّك سابق ، رحمه الله تعالى ! واحترق من الخدام الزينى شند نائب خازن دار الحرم ، تغمده الله برحمته ! ومات جماعة تحت هَدم الحريق من الفقراء وسُودَان المدينة ، وجملة من مات بسبب ذلك بضع عشرة نفسا ، وكانت سلامة من بقى بالمسجد على خلاف القياس ؛ لأن النار عظمت جدا حتى صارت كبحر لجى من نار ، ولها زفير وشهيق وألْسُنٌ تصعد فى الجوّ ، وصار لفحها يؤثر من البعد حتى أثرت فى النخلات التى بصحن المسجد ، وعلق منها شيء بالمنارة الرئيسية فاحترقت ، ووصلت النار لثياب الرّيس شمس الدين محمد رحمه الله تعالى فاحترقت بعد موته ، وصارت النار ترمى بشرر كالقصر فتسقط بالبيوت المجاورة للمسجد ، ومع ذلك فلا تؤثر فيها ، حتى سقط بعض الشرر على سَعَف فلم يحترق ، وحمل بعض خزائن الكتب من تحت سقف المسجد إلى صحنه فأصابها الشرر فأحرقها .

ونقل عن جَمْع كثير أنهم شاهدوا حينئذٍ أشكال طيور بيض كالإوزَ يحومون حول النار كالذى يكفها عن بيوت الجيران .

وأخبر أمير المدينة الشريفة السيد الشريف زين الدين فيصل الجازى أن شخصا من العرب صادق الكلام رأى فى المنام ليلة ثانى عشر من شهر رمضان أن السماء فيها جَرَادٌ منتشر ، ثم عقبته نار عظيمة ، فأخذ النبى صلى الله عليه وسلم النار وقال : أَمْسِكُهَا عَنْ أُمّتى ، فجزاه الله عن أُمته - خصوصا عن جيرانه - أَفْضَلَ ما جزى نبيا عن أُمته

وحكى أيضا عن بواب رباط السبيل أنه ذكر مثل تلك الرؤيا عن غيره ،
كتب لى بذلك صاحبنا العلامة شيخ المحدثين بالحرم النبوى الشيخ شمسُ
الدين بنُ شيخنا العلامة ناصر الدين العثماني أمتع الله به

هذا مع ما حصل لأهل المدينة الشريفة من الدهشة العظيمة والحيرة
لما شاهدوا من هول هذه النار ومنظرها الفظيع ، حتى أيقن بعضهم بالهلاك ،
وانتقل بعض أهل الدور منها لما وصل إليهم الشرر ، وخرج بعضهم من باب
المدينة الذى يلى البقيع ، وبعضهم من بابها الذى يلى المصلى ، وظنوا أن النار
محيطه بهم . قال الشمس العثماني : وصار لجميع المدينة من جميع جهاتها بالمسكاه
ضجيج ، والدعاء تجيج ، قال : وأمر هذه النار عجيب ، وليس الخبر كالمعاينة ،
وصار المسجد كالتنور ، ولم يمض إلا أقل من عشر درج وقد استولى الحريق على
جميع سقف المسجد وحواصله وأبوابه وما فيه من خزائن الكتب والربعات
والمصاحف ، غير ما وقعت المبادرة لإخراجه أولا وهو يسير ، وغير القبة التى بصحن
المسجد ، وسبق ذكر سلامتها فى الحريق الأول ، وكنت تركت كتبى بالخلوة
التي كنت أقيم بها فى مؤخر المسجد ، فكتب إلى باحتراقها ، ومنها أصلُ هذا
التأليف وغيره من التأليف والكتب النفيسة نحو ثلاث مائة مجلد ، فن الله تعالى
على ببرد الرضى والتسليم ، وفراغ القلب عن ذلك ، حتى ترجحت هذه النعمة
عندى على نعمة تلك الكتب لما كنت أجده قبل من التعلق بها؛ فله الحمد والشكر
على ذلك . هذا ، مع ما من الله به على من غيبتى عن هذا الأمر المهول ؛ فإن
وقوعه كان فى ليلة الوصول إلى الحرم المسكى ، ولم يتفق لى منذ سكنت المدينة
الخروجُ منها فى رمضان ، بل كنت أأزم المسجد النبوى فيه من أوله إلى آخره
ليلا ونهارا ، فكان ذلك سبب النجاة من هذا الأمر

ولما اشتعلت النار فى السقف المهادى للحجرة الشريفة ذاب الرصاص من
القبة التى بسقف المسجد الأعلى ، واحترقت أخشابها وما يحاذيها من السقف الأسفل

والشباك الدائر على حائز عمر بن عبد العزيز الذى تعلق الكسوة بأعلاه ، وسقط ما سقط من ذلك على القبة السفلى التى تقدم تجددلها ، فلما أصبحوا بدأوا بطنى ما سقط على القبة المذكورة ، واستمروا فى ذلك إلى آخر النهار ، فسلمت القبة المذكورة مع أن بعضها من الحجر الأبيض الذى يُسرّع تأثره بالنار ، وذلك من المعجزات النبوية ؛ لأن كثيرا من أساطين المسجد الشريف سقطت لما ذاب بعض رصاصها وتهشمت وهى من الحجر الأسود ، ومع ذلك تفتت كأنه أحجار النورة ، وعدة ما سقط منها مائة وبضع وعشرون أسطوانا ، وما بقى منها فقد أثرت فيه النار أثرا بينا ، وسلمت الأساطين اللاصقة بجدار الحجرة أيضا ؛ فالحمد لله على حماية الحجرة المنيفة ، الحاوية للقبور الشريفة ، واحتترقت المقصورة التى كانت حول الحجرة الشريفة والمنبر الشريف وما كان أمام المصلى المنيف بالروضة الشريفة من الصندوق وما عليه من المحراب المتقدم وصفه ، وسقطت أكثر عقود المسجد ، وما بقى منها فهو آيل إلى السقوط ، وسقط علو المنارة الرئيسية ، ثم خسوا من سقوط بعض ما بقى منها فهدموا نحو ثلثها ، وكتبوا إلى سلطان مصر مولانا الأشرف سلطان الحرمين الشريفين قايتباى أيد الله أنصاره بذلك سادس عشر رمضان ، واقتضى رأى نائب الناظر سد أبواب حواصل المسجد حتى القبة التى بوسطه المرصد فيها زيت مصابيحها ، وترك الردم على حاله حتى ترد الأوامر الشريفة فتضرر الناس بذلك ، فاتفقت الآراء على تنظيف مقدم المسجد ماعدا ما جاور الحجرة الشريفة خوفا على ما سقط من حلية قناديلها ، مع أنها يسيرة كما يؤخذ مما سبق ، فجعلوا على ذلك حاجزا من الآجر ، ونقلوا هدم مقدم المسجد إلى ما يلى باب الرحمة من مؤخره ، وعمل فى ذلك أميرُ البلد والقضاة والأشراف وعامة الناس حتى الكثير من النساء والأطفال تقرأ إلى الله تعالى بغير أجره ، ولم يتأخر عن ذلك إلا المخدرات من النساء .

وبَنَوْا فى محل المنبر منبراً من آجر ، وصَلُّوا بالمصلى النبوى من حينئذ ، وعملوا

لأبواب المسجد غير باب جبرائيل خوفاً يدخل منها ، وسدوا ما زاد على ذلك ، ونصب الخدام خياماً بالمسجد إذ لم يبق به ظل ، وصار بعض أهل الخير يُسْرِج قناديلَ متعددة من عتده في المسجد مع توفر الزيت بحاصله ، لكن تعذر ذلك بسبب سدّه ، واستمرت النار فيما لم ينقل هدمه من المسجد حتى فيما حول الحجرة الشريفة وموقف الزائرين تجلّاه الوجه الشريف ، وأخبر بعضهم بمشاهدة المدخان يتصاعد من ذلك المحل الشريف بعد مدة ، وفي أثناء شوال أخبر قاضي المالكية شمسُ الدين السخاوي بحفظه الله تعالى أنه رأى في النوم من يقول له : أطفئوا النار من الحجرة الشريفة ، يعني الموضع الذي تركوا تنظيفه حولها ، فتنفقدوا ذلك فوجدوا النار في ثمانية مواضع ، فأطفئوا ذلك ، ثم رأوا أن مادة هذه النار لا تنقطع إلا بتنظيف الرّدم ، فاجتمعت الآراء على ذلك بعد توقّف تام من نائب الناظر ، وعيّنوا لتعاطيه من يتقون به من الخدام والفقهاء والفقراء ، وكان الصواب المبادرة لذلك أولاً ، ولكن على كل خير مانع ، ولا يدري أحد أسرار ما الله في عباده صانع ، ولما نظفوا ذلك وجدوا حلية الصندوق المَجْمُول في جهة الرأس الشريف وجانباً من الكسوة وبعض البُسْط سائماً لسقوط الردم عليه ، ووجدوا القناديل التي كان التخوّف في تنظيف ذلك المحل لأجلها ، وأداروا على الحجرة الشريفة جداراً من الآجر في موضع المقصورة المحترقة ، وجعلوا فيها شبابيك وطاقت وأبواباً ، وقام بمصروف ذلك بعضُ النساء المباركات وغيرها ، وسامح اليناؤون بنصف أجرهم مع توقّف المصروف بحاصل المسجد الشريف ، وأحضرت تلك المرأة أيضاً وغيرها كسوة للحجرة الشريفة من القماش الأبيض فجعلت عليها .

وفي ذلك كله عبرة تامة وموعظة عامة لأولي الأبصار ، وهو منذر بأمر عظيم ، ولهذا اختص به هذا المحل المذسّوب إلى النذير صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت أن أعمال الأمة تُمرّضُ عليه صلى الله عليه وسلم ، فلما ساءت منها الأعمال

المعروضة ناسبَ ذلك الإنذار بإظهار عنوان النار المجازي بها في موضع عرضها ، ولم أزل في وجل مما يعقب ذلك حيث لم يحصل الاتعاظ والانزعاج ، وقد قال تعالى : « وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا » ، وقال تعالى « ذلك الذي يُخَوِّفُ الله به عباده يا عبادي فاتقون » وكأن لسان القدرة ينادي : ألا تتعظون بما ترونَ وتسمعون ؟ ألا تنتهون وتنزعجون ؟ ألا ترون إلى هذا المحل الشريف مع عظيم نسبته وعلورتبته ومكانته لما تلوَّثَ بآثاركم معشرَ المذنبين ، وتدنَّسَ بأقذاركم كافة الغافلين ، أرسلت عليه بحراً من الغار السماوية تطهرُهُ من تلك الآثار ، وتزجركم عن التماذى على الإصرار ، وموالاته أتباع الأوزار ، وتشهد بصائركم عموم القدرة ، فترسلون من الأبصار سوا بق العبرة ، تأسفا على ما اجترحتموه قبل هذه العبرة ، فن لم يَنْتَه بهذا الزاجر الفعلى عن إصراره ، ولم يَنْتَبس من هذه النار العظيمة قبساً يهتدى بأنواره ، فليَنْظُر فيما حَدَث عقيب حريق المسجد القديم ، ويتفكر في ضعفه عن احتمال العذاب الأليم ، تَحَمَّنا الله من ذلك ، وسلك بنا أجمعين أحسن المسالك .

ومن العجائب أنه لم يتأتَّ إخراج رَدَم هذا الحريق بعد نقله لمؤخر المسجد حتى حضر الحجاج من سائر الآفاق للزيارة ، وشاهدوا هذه العبرة العظيمة : ورأوا ما اجتمع من الردم كالأكام والتلول الجسيمة ، ثم قُبِّلَ دخول الحاج مكة بالقعدة الحرام من العام الثانى أرسل الله سَيْلاً عظيماً بمكة المشرفة ملاً ما بين الجبلين وعلاً جدار أبواب المعلى ، ودخل جوف السكبة الشريفة ، وارتفع فيها أزيد من قامة وهدَم دوراً كثيرة يقال إنها تزيد على ألفى دار ، وذهب بسبب ذلك من الأموال والأنفس ما لا يُحصى إلا الله تعالى ، حتى أنهم ضَبَطُوا من وجد تحت الردم بالمسجد الحرام فقط عند تنظيفه فكانت عدتهم نحو الثمانين ، وقيل أزيد من مائة ، ولم أقف فيما نقل من سيول الجاهلية والإسلام على مثل ذلك ، ولما نظفوا ذلك الردم - وهو أتربة ونقض هدم حملها السيل - لم يتأتَّ إخراج قبل وصول

الحجاج وصار ذلك كالآرام والتلول العظيمة في المسجد الحرام ، فحضر الحجاج كلهم وشاهدوا ذلك ، فسبحان مَنْ بيده الخلق والأمر لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ولما وصل خبر الحريق لرودس من بلاد النصارى أظهروا بذلك فرحاً واستبشاراً ، وتظاهروا بالزينة وضرب النواقيس ، فلم يمض ذلك اليوم إلا وقد أرسل الله عليهم زلزالاً عظيمة هدمت عليهم جانباً من سور البلد والكنيسة وكثيراً من دورهم ، وهلك منهم بذلك خلائق لا يُحْصَوْنَ ، ودامت الزلازل عليهم ، أياماً ، شاهدتُ ذلك في كتب وردت من ثغر إسكندرية بخط مَنْ يعتمد عليه ، وذكروا أن الخبر لهم بذلك أهل المراكب الواردة من رودس المذكورة ، وأنهم سافروا والزلازل مستمرة بها ، وهم يخرجون الموتى من تحت الهدم بعد انتقال مَنْ بقى إلى خارج البلد ، فتأمل هذه المعجزات النبوية ، والآيات الربانية .

ولما وصل القاصد إلى مصر المحروسة ، واتصل علم الحريق المذكور بسلطانها ، عظم ذلك عليه ، وبرزت أوامره الشريفة بالمبادرة إلى تنظيف المسجد الشريف ، ورأى أن في تأهيل الله تعالى له لعمارة ذلك مزيد التشريف ، وكال التعريف ، وأنه كرامة من الله تعالى أكرمه بها ، وذخيرة يرجو الفوز بسببها ، فاستقبل أمر العمارة بهمة تعلو الهمم العلية ، ورسم بإبطال عمارته المسكية ، وبتوجه شادها السيفى الأمير سنقر الجالى صُحْبَة الحاج الأول بزيادة على مائة صانع من البنائين والنجارين والنشارين والدهانين والحجارين والنجارين والحدادين والمرحّمين وغيرهم ، وكثير من الحجير والجمال ، وصحبته وصحبة أخيه المقر الأشرفى الشجاعى شاهين والأمير قاسم الفقيه شيخ الحرم الشريف مبلغ عشرين ألف دينار ، وشرع السلطان في تجهيز الآلات والمُؤَن حتى كثرت فى الطُور واليَنْبُع والمدينة الشريفة .

ثم جهّز متولى العمارة الأولى بالمدينة الشريفة - وهو الجناب العالى الخواجهكى الشمسى شمس الدين بن الزمن - فى أثناء ربيع الأول وصحبته أكثر من مائتى

جمل ومن مائة حمار وأزيد من ثلثمائة من الصناع أهل الصنائع الأولى وغيرهم من الحمالين والمبيضين والسباكين والجباسين، وأصرفوا لهم شيئاً من الأجرة قبل سفرهم، وقد صارت أحوال المؤمن متواصلة قل أن تنقطع براً وبحراً، واستقبلوا أمر العبارة بجهد واجتهاد، فهدموا المنارة الرئيسية التي أصابها الحريق إلى أساسها، وهدموا من سور المسجد من ركن المنارة التي بباب السلام إلى آخر جدار القبلة وما يليه من المشرق إلى باب جبريل، وما يلي المنارة من المغرب أيضاً إلى باب الرحمة، وأعادوا المنارة الرئيسية وسور المسجد المذكور، وزادوا في عرضه يسيراً، ووسعوا المحراب العثماني، وسقفوا مقدم المسجد سقفاً واحداً، بعد أن قصروا أساطينه وجعلوا عليها عقوداً من الآجر فوقها أخشاب السقف، وكانت الأساطين المذكورة قبل ذلك واصله إلى سقف المسجد كهيئة ما بقي من أساطينه في بقية المشرق والمغرب والشام، وجعلوا على المحراب العثماني قبة على رؤوس الأساطين، بعد أن قرنوا إلى كل أسطوانة ثانية، وجمعوا في بعضها بين خمس أساطين؛ ليتأتى لهم عقد القبة المذكورة، وأزالوا الأسطوانة التي كانت في مُحَاذَاة الأسطوانة التي إليها المصلى النبوي بينها وبين المحراب العثماني، وجعلوا على ما يُحَاذِي الحجرة الشريفة وما حوله قبة عظيمة على دعائم بأرض المسجد وعقوداً من الآجر بدلا عن القبة الزرقاء التي كانت قبل الحريق، وكانت تلك على رؤوس السواري كما سبق في الفصل السابع والعشرين، وقد منّا هناك ما حصل من ضيق المسجد من جهة المشرق بسبب ابتناء بعض تلك الدعائم هناك، فخرجوا بجدار المسجد الشرقى - أعنى ما حاذى ذلك منه - بنحو عرض الجدار في البلاط الشرقى، وأبقوا الباب المعروف بباب جبريل في محله.

ثم أحدثوا أسطواناً في جانب مثلث الحجرة ليشتدّ به العقد الذي عليه القبة في تلك الناحية، وحفروا لذلك أساساً عظيماً ظهر بسببه القبر المنسوب في أحد الأقوال لفاطمة الزهراء رضي الله عنها، وزادوا دعامتين وعقداً إلى جانب الأسطوانتين

اللتين في جهة الوجه الشريف ، ولم يبالوا بما حدث بسبب ذلك من الضيق في الموضع المواجه للوجه الشريف داخل المقصورة وغيره لخشيتهم من سقوط القبة المذكورة ، وكانوا قد وجدوا في جدار المنارة الرئيسية عند هدمها خزانة وضع الأقدمون بها أوراق المصاحف المحترقة في الحريق الأول وسدّوا عليها ، فأخرجوا تلك الأوراق ووضعوها في أعلى القبة المذكورة عند ختمها ، فبدأ في القبة تشقق ، فقليل لهم : إن ذلك بسبب وضع الأوراق المذكورة بها ؛ لأن الله تعالى يقول « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله » فأخرجوا تلك الأوراق منها ، فقضيت العجب من ذلك .

ومن الغريب أني كنت قد عزمت على التوجه إلى أرض مصر لزيارة والدتي وأهلي قبل الشروع في العمارة المذكورة ، فلم أحضر شيئاً من ذلك ، ومن الله تعالى بالوصول إلى الوالدة والأهل ، فتوفيت الوالدة بعد قدومي بعشر ليالٍ ، وكانت مدة غيبتى عن أهلي ستة عشر سنة ، ثم من الله تعالى بالعود إلى المدينة الشريفة بعد تعويض ما تدعو الحاجة إليه من الكتب المحترقة ، فوجدتهم قد عمروا القبة المذكورة ومقدم المسجد وعمّدوا العقود المتصلة بهذه القبة من المشرق والشام ، وجعلوها قبوراً بدل السقف ، واتخذوا فيما بين الحجرة الشريفة والجدار القبلي قبة لطيفة ، وحولها ثلاثة أحر تسمى بحاريد ، وجعلوا بين عقود هذه القباب وبين المنارة الرئيسية التي أعادوها بادهنجا للضوء والهواء ، وكان باب المنارة المذكورة من جهة المغرب ، فنقلوه إلى جهة الشام ، وأحدثوا أمامه أربع درّجات بأرض المسجد ، وإلى جانبها خزانة ، وجعلوا موضع بابها الأول خلوة للخطيب يجلس بها إلى أن يخرج للخطبة يوم الجمعة ، وكان جلوسه في الأعصار الخالية هناك مع وجود باب المنارة به ، واتخذوا أيضاً قبتين أمام باب السلام من داخله ، وبنوا الباب المذكور بالرخام الأبيض والأسود وزخرفوه زخرفة عظيمة ، وكذلك القباب المذكورة ، وخفضوا أرض مقدم المسجد حتى ساوت أرض المصلى (١٧ — وفاة الوفا ٢)

الشریف ، واتخذوا له محراباً في محل الصندوق الذي كان هناك وزخرفوه بالرخام وكذا المحراب العثماني زخرفة عظيمة ، وأعادوا ترخيم الحجرة الشريفة وما حولها وترخيم الجدار القبلي ، وأزالوا البناء الذي عمله أهل المدينة في موضع المقصورة المستديرة بالحجرة الشريفة ، وأبدلوا ما يلي القبلة من ذلك بشبابيك من النحاس ، وبأعلاها شبكة من شريط النحاس كهيئة الزرد ، وجعلوا لبقيتها مما يلي الشام مشبكاً مشاجراً من الحديد وفاصلاً عن يمين مثلث الحجرة ويساره فيه بابان كما سبق بسط كل ذلك في محله ، وعملوا المنبر ودكة المؤذنين من رخام ، وجعلوا فيما يلي باب الرحمة وباب النساء إلى مؤخر المسجد دكتين إحداها بالمسقف الغربي والأخرى بالمسقف الشرقي ، وجعلوها أخفض من الدكاك الشامية يسيراً ، وردموها من أتربة المسجد ، واتخذوا فيما أعادوه من الجدار الشرقي خزاناً للكتب وطاقات كباراً كالأبواب المنظرة في أعلى الجدار وطاقات متسعة مستديرة أيضاً تكثيراً للضوء ، ولم يكن بأعلى الجدار المذكور أولاً غير شباك واحد ، وجعلوا نظير تلك الطاقات في الجدار القبلي أيضاً ، وبنو الجدار من ابتداء تلك الطاقات بالآجر ، وسبب الاحتياج إلى ذلك أن أساطين مقدم المسجد الشريف كانت واصله إلى سقفه كما سبق ، ولم يكن بذلك قناطر من العقود سوى ما يلي الرحبة من الرواقين اللذين جددهما الناصر كما سبق ، وكان الساقط من الأساطين بمقدم المسجد هو الأكثر لسقوط العقود التي كانت بين السقفين عليها وقت الحريق واشتعال النار المذيبة للرصاص الذي بين خرز الأساطين ، فاقضى رأيهم إعادة تلك الأساطين قصيرة وتكملها إلى السقف بعقود القناطر ، فأخذت القناطر حصة من الضوء ، فعوضوا ذلك بتلك الطاقات ، وأكد عندهم فتحها أخذ متولى العمارة للدور التي في قبلة المسجد المعروفة بدور العشرة ليجعلها مدرسة للسلطان ، وعرض الجدار القبلي يسيراً منها ، وجعل فيها فتحات لشبابيك متعددة أيضاً ، ثم صرف الله تعالى عزمه عن ذلك وسد فتحات الشبابيك

المذكورة كلها بفصوص الأحجار كنسبة بناء الجدار ، وسدًا أيضًا الطاقات التي بالجدار القبلى إلا ما يحاذى القبة التي على المحراب العثمانى ، فجعل لها ولما بقى من الطاقات قريات من الزجاج وشبكات من شريط النحاس .

ثم استبدل متولى العمارة الرباط المعروف بالحصن العتيق وما فى شاميه من المدرسة الجوبانية والدار التي كانت تعرف بدار الشباك - وذلك كله فيما بين باب الرحمة وباب السلام - عند هدم هذا الجانب من الجدار الغربى ليتخذ فى ذلك مدرسة ورباطا لسلطان زماننا الأشرف أدام الله تعالى تأييده وتسديده ، واتخذ فى الجدار المذكور فتحاتٍ لشبابيك كثيرة فى ثلاث طبقات عدتها ثلاثون فتحة ، لأن الفتحة الثالثة من على يسار الداخل من باب السلام فى موضع باب خوخة أبى بكر الصديق الآتى ذكرها فى أبواب المسجد ، جعلوه بابا ينفذ إلى المسجد ، وكذا الفتحتان اللتان بينها وبين باب السلام جعلوا لهما بابين إلى المسجد فقط ، وصارت هذه الأبواب الثلاثة فى المسجد دون المدرسة من أصل حاصل المسجد الذى كان هناك ، والفتحة الخامسة - وهى الثالثة من خوخة أبى بكر - جعلوها بابا ينفذ من المسجد إلى أسفل المدرسة ، وجعلوا على الفتحات التى فى الطبقة العليا شبكة من شريط النحاس شبه الزرد ؛ لأنها جعلت لمجرد الضوء ، وقد تكلم الناس مع متولى العمارة فى أمر الشبابيك واتخاذها بجدار المسجد الشريف القبلى قبل انتقاله إلى هذه الجهة ، وكثر الكلام فى ذلك ، فسكتب السلطان فاستفتى علماء مصر فى ذلك فأفتاه جماعة منهم بذلك ، فقلدهم فيه ، وعوض ما فات من المصاحف والربعات ، وبعث بعض ذلك على يدى بحيث اجتمع من ذلك أكثر مما فات ، وكذلك السكتب بعث بجانب منها ووعده بإرسال ما يحتاج إليه ، وكان من التوفيق بعثه للأمير الكبير الفخرى قاسم الفقيه ناظرا على المسجد الشريف وشيخا لخدمه ، وهو محب للعلم وأهله ، مُنَزَّم بتلاوة القرآن الشريف ، لم يُرَ على طريقته مثله فى هذا الباب ؛ فصار يباشر أمر الربعات والمصاحف بنفسه

وماليكه ، واتخذ لها كراسيَّ صغاراً يوضع عليها بالروضة الشريفة في أوقات الصلوات النهارية ، فيقرأ هو والناس فيها ؛ فعم نفعها .

ولما قارب المسجد التمام أخذوا في عمارة الرباط والمدرسة المذكورين ، وأنسوا لهما منارة في ناحيتهما التي تلي باب الرحمة ، وشرعوا أيضاً في عمارة رباط آخر بدل رباط الحصن العتيق ، وفي حمام قبالة الرباط المذكور استأجروا أرض الحمام من الناظر على الميضة التي بباب السلام فإنها منها ، وشرعوا أيضاً في عمارة سبيل وفرن وطاحون ومطبخ للدشيشة ووكالة ذات حواصل في الدور التي اشتروها قبل ذلك للسلطان من دور العباسا وما يلي ذلك في جهة القبلة ، وذلك أن السلطان أعز الله تعالى أنصاره بعد رجوعه من الحج شرع في شراء أمانا كن وجعلها وقفاً ليعمل رعيها إلى المدينة الشريفة ليفرق منه على أهلها ويعمل منه سماء كسماط الخليل عليه السلام ، وأبرز لذلك ستين ألف دينار كما ذكرناه في الفصل الثالث والثلاثين ، فاتخذوا هذه الأمانا كن لذلك ، وهو أمر لم يسبق إليه ، فسمح الله تعالى في أجله ، وبلغه من الخير غاية سؤاله وأمله ، ولم يكن بالمدينة الشريفة حمام قبل ذلك من مدة مديدة ، وكذا الطاحون ، وإنما يستعملون الأرحاء التي تدار بالأيدي .

ثم كتب إلى بعض الثقات بتكامل تحصيل تلك الأمانا كن ، وأن متحصلها سبعة آلاف إردب وخمسمائة إردب من الحب في كل سنة ، وأن السلطان أدام الله نصره أجز وقفها وشرع في عمارة أمانا كن بمصر تقوية للوقف ، ورسم بإبطال المكوس بالمدينة وتعويض أميرها .

وقد كملت سقف المسجد النبوي كلها في أواخر شهر رمضان عام ثمان وثمانين وثمانمائة ، وتمت عمارة المسجد الشريف عقب ذلك ، ولم يبق سوى اليسير من العماير السابق ذكرها وإكمال ترخيم المدرسة الأشرفية .

وفي عام تسع وثمانين حضر جماعة من الدهانيين بعث بهم السلطان الأشرف

أعز الله أنصاره من مصر لمحو ما بلغه أنه جُعل في بعض سقف المسجد الشريف من الدهان بالنيلة وإبداله باللأزورد ، وجَهَّز معهم أساقيل لذلك ، فعملوه على أحسن وجه ، ثم جهز يالمر الأشرف عين الأعيان ونخبة الزمان البهائي بهاء الدين أبا البقاء ابن الجيعان عظم الله شأنه وأسبغ عليه نعمة وإحسانه في ركب مع جماعة من خَوَاصه ، فوصل إلى المدينة الشريفة سابع ذى القعدة الحرام من العام المذكور ، ومعه أحمال من كتب العلوم الشرعية موقوفة بالمدرسة الأشرفية ، وأحمال كثيرة من الحبِّ والدقيق والقذور النحاس التي جعلت برسم السَّمَط المتقدم ذكره ، وبقايا آلات العمارة مما جهز في المراكب الشريفة إلى ينبع ، فقرر أمر السَّمَط ، فصرف لكل شخص من المقيمين من الحب ما يكفيه على حسب عدة عياله ، لكل نفرٍ سُبْعُ إردب مصرى بتقديم السين على الموحدة ، وسَوَّى في ذلك بين الصغير والكبير والحر والعبد ، وجعل للأفاقيين ما يكفيهم من الخبز وطعام الجنيشة في كل يوم ، وقرر أمر المدرسة ، وصرف المرخين وغيرهم من أرباب الصنائع مصروف بقية عملهم ، وأحسن النظر في ذلك حتى زاد جماعة منهم من ماله وتلطف بهم وأحسنَ ، فاطلقت الألسُن بالدعاء له ، أحسن الله له الجزاء ، وجعل نصيبه من خيري الدارين من أوفر الأجزاء .

وقد قارن هذه العمارة من السعد وتسهيل الأمور ما لا يوصف ، ويسر الله تعالى لهم من آلات العمارة ما لم تكن نظن حصوله بنواحي المدينة الشريفة ، خصوصا أخشاب الدَّوم ، فقطعوا من الموضع المعروف بالشقرة ومن الصويدة ومن الفرع وغير ذلك ما لا يحصيه إلا الله تعالى ، وكذلك أخشاب السَّمر .

وقد أخبرني بعض المباشرين لهذه العمارة الميمونة أن المصروف فيها وفيما شرعوا فيه من عمارة المدرسة وتوابعها نقدا وأثمان آلات وبهائم وغير ذلك مائة وعشرون ألف دينار ، ومع ذلك فلم يتم بعد .

ثم بعد أن من الله تعالى بإتمامها بلغ السلطان الأشرف أن متولى العمارة تسمح

في استعمال مؤن غير صالحة ، وأن القبة التي سبق اتخاذها على أعلى ما يحاذي
الحجرة الشريفة قد تشققت ثم رمت ثم تشققت ، ولم يفد الترميم فيها ، وأن
المنارة الرئيسية قد مالت ، مع أمور أخرى ، فتغير خاطره على متولى العمارة ،
ثم انتخب لذلك المقر الشجاعى شاهين الجالى لما اشتمل عليه من الفضل والنبيل
وإصابة الرأى، وفوض إليه أيضاً مشيخة الحرم ونظره ونظر السباط ، فورد المدينة
الشريفة في موسم عام أحد وتسعين وثمانمائة ، وجمع الناس للنظر في ذلك ،
وراجع فيه أهل الخبرة ، فاقتضى الحال هدم المنارة الرئيسية وهدم أعالى القبة
المذكورة ، ولما هدم المنارة المذكورة ظهر أن الخلل من عدم المبالغة في حفر
أساسها ، فحفر أساسها حتى بلغ به الماء ، واتخذ لها أحجاراً من الحجر الأسود
مُتَقَنَةً ، وأحكم بناءها مع الحسن الفائق ، بحيث لم يُرَ قبلها بالمدينة الشريفة مثلاً ،
وجعل بابها من المغرب في محله الأول ، وأبطل تلك الدرج المحدثه بأرض المسجد
على ماسبق ، وأما القبة فاتخذ في الطاقات المحيطة بجوانبها سقفا يمنع من سقوط
ما يهدم منها إلى أرض الحجرة الشريفة ، ثم شرع في هدمها وإعادةها ، بحيث
لم يرفع كسوة الحجرة الشريفة ولم يتخذ المسجد طريقاً للعمال في ذلك ، بل اتخذ
أساقيل يمشى عليها إلى سطح المسجد في ناحيته الشرقية ، واتخذ حاجزاً لحل المنارة
يحول بينها وبين المسجد بحيث يظن الظان أن المسجد لا عمارة به ، وصانه أيضاً
من الامتهان بعمل أرباب الصنائع ، فجزاه الله تعالى خير الجزاء ، وجعل ثوابه
على ذلك من أوفر الأجزاء .

وقد جاءت القبة حسنة مع الإتقان ، حتى إنه استصحب في هذه العمارة
الجبس من مصر المحروسة ، واستعمله في البناء ، وحَرَص على إتقان الآجر ،
وزاد العمال فيه على عادتهم ، ولم يوفق متولى العمارة قبله لشيء من ذلك ،
سأحه الله ، وكل مُيَسِّر لما خلق له .

وقد ذكر ابن النجار ما كان عليه الخلفاء من الاهتمام بعمارة المسجد النبوى

فقال : ولم يزل الخلفاء من بنى العباس ينفذون الأمراء على المدينة الشريفة ، ويمدّونهم بالأموال لتجديد ما ينهدم من المسجد النبوى ، فلم يزل ذلك متصلاً إلى أيام الناصر لدين الله ، أى الخليفة فى زمنه ، قال : فإنه ينفذ فى كل سنة من الذهب العين الإمامى ألفَ دينار لعمارة المسجد ، وينفذ عدة من النجارين والبنائين والنقاشين وأرباب الحرف ، وتكون مادتهم مما يأخذونه من الديوان ببغداد من غير هذه الألف ، وينفذ من الحديد والصناعات والرصاص والحبال والآلات شيئاً كثيراً ، ولا تزال العمارة مُتصلة فى المسجد حتى إنه ليس به موضع أصبع إلا وهو عامر ، انتهى .

قلت : وعقب وفاة ابن النجار بيسير انتقل أمرُ المدينة الشريفة إلى ملوك مصر ، ولم يزل ملوكها يهتمون بعمارة هذا المسجد الشريف ، ومن أعظمهم همّة فى ذلك ، وأحبّهم فى سلوك هذه المسالك ، سلطانُ زماننا الملك المالك لصفوة الممالك الأشرف أبو النصر قايتباى ، أعزّ الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ؛ فلذلك أجرى الله على يديه هذه العمارة ، وآثره بهذه الأثارة ، ومن تأمل ما قدمناه فى الفصل السادس والعشرين فى الحريق الأول عن المؤرخين من عمل سقف المسجد على يد مَنْ سبق وطول مدته وصفته ، وأحاط علماً بما أسلفناه عن سلطان زماننا فى عمارته ، حكم يميناً بملوهمته ، وفخار منقّبه ومرتبته ، واختصاصه بما لم يُفَرِّق به مَنْ سبقه ؛ فكان هو سابقاً ، وإن عد فى الزمان لاحقاً ، وقد ذكرنا ماله بالحجاز الشريف من الآثار الجميلة ، وبعض مناقبه الجليلة ، فى الفصل الثالث والثلاثين فى خَوْخَةِ آل عمر رضى الله عنه لما خصه الله به من حَسَمِ مادة المفاصد المترتبة عليها فى زماننا ، وأمره بسدّ طابقتها ، شكر الله صنيعه ، وخصّنه من المدّة بحُصُونِه المنيعة

خاتمة

فيما نقل من عمل نور الدين الشهيد لخندق حَوْلَ الحجرة الشريفة مملوء
بالرصاص ، وذكر السبب في ذلك ، وما ناسبه

أعلم أني قد وقفتُ على رسالة قد صَنَّفها العلامة جمال الدين الأسنوي في
المنع من استعمال الوُلاة للنصارى ، وسماها بعضهم « بالانتصارات الإسلامية »
ورأيت عليها بخط تلميذه شيخ مشايخنا زين الدين المراغى ما صورته « نصيحة
أولى الألباب ، في منع استخدام النصارى كتاب » لشيخنا العلامة جمال الدين
الأسنوي ، ولم يسمه ، فسميته بحضرته ، فأقرني عليه ، انتهى . فرأيتُه ذَكَرَ فيها
ما لفظه : وقد دعتهم أنفُسهم - يعنى النصارى - في سَلْطَنَةِ الملك العادل نور الدين
الشهيد إلى أمر عظيم ظنوا أنه يتم لهم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره
الكافرون ، وذلك أن السلطان المذكور كان له تهجد يأتي به بالليل ، وأوراد
يأتي بها ، فنام عقب تهجده ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه وهو يشير
إلى رجلين أشقرين ويقول : أنجِدْنِي أنجِدْنِي من هذين ، فاستيقظ فزعاً ، ثم
توضأ وصلى ونام فرأى المنام بعينه ، فاستيقظ وصلى ونام فرآه أيضاً مرة ثالثة ،
فاستيقظ وقال : لم يبق نَوْمٌ ، وكان له وزير من الصالحين يقال له جمال الدين
الموصلى ، فأرسل خلفه ليلاً ، وحكى له جميع ما اتفق له ، فقال له : وما قُعودك ؟
أخرج الآن إلى المدينة النبوية ، واكتم ما رأيت ، فتجهَّز في بقية ليلته ، وخرج
على رَوَاحِلَ خفيفة في عشرين نَفَرًا ، وصحبته الوزيرُ المذكور ، ومال كثير ،
فقدم المدينة في ستة عشر يوماً ، فاغتسل خارجها ودخل فصَلَّى بالروضة ، وزار ،
ثم جلس لا يدرى ماذا يصنع ، فقال الوزير وقد اجتمع أهل المدينة في المسجد :
إن السلطان قصد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحضر معه أموالاً للصدقة ،
فاكتبوا مَنْ عندكم ، فكتبوا أهل المدينة كلهم ، وأمر السلطان بحضورهم ،

وكل مَنْ حضر ليأخذ يتأمله ليجد فيه الصفة التي أراها النبي صلى الله عليه وسلم له فلا يجد تلك الصفة ، فيعطيه ويأمره بالانصراف ، إلى أن انقضت الناس ، فقال السلطان : هل بقي أحد لم يأخذ شيئاً من الصدقة ؟ قالوا : لا ، فقال : تفكروا وتأملوا ، فقالوا : لم يبق أحد إلا رجلين مغربيين لا يتناولان من أحد شيئاً ، وهما صالحان غنيان يكثران الصدقة على المحاويج ، فانشرح صدره وقال : عليّ بهما ، فأتى بهما فرآهما الرجلين اللذين أشار النبي صلى الله عليه وسلم إليهما بقوله : أنجدني ، أنجدني من هذين ، فقال لهما : مِنْ أين أنتم ؟ فقالا : من بلاد المغرب ، جئنا حاجتين فاخترنا المجاورة في هذا العام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أضدقاني ، فصمما على ذلك ، فقال : أين منزلهما ؟ فأخبر بهما في رباط بسرب الحجرة الشريفة ، فأمسكهما وحضر إلى منزلهما ، فرأى فيه مالا كثيرا وختمتين وكتباً في الرقائق ، ولم ير فيه شيئاً غير ذلك ، فأتى عليهما أهل المدينة بخير كثير وقالوا : إنهما صائمان الدهر ملازمان الصلوات في الروضة الشريفة وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة البقيع كل يوم بكرة وزيارة قباء كل سبت ، ولا يرُدَّان سائلاً قط بحيث سدّا خلّة أهل المدينة في هذا العام المجدب ، فقال السلطان : سبحان الله ! ولم يظهر شيئاً مما رآه ، وبقي السلطان يطوف في البيت بنفسه ، فرفع حصيراً في البيت ، فرأى سرداباً محفوراً ينتهي إلى صوّب الحجرة الشريفة ، فارتاعت الناس لذلك ، وقال السلطان عند ذلك : أضدقاني حالكما وضربهما ضرباً شديداً ، فاعترفا بأنهما نصرانيان بعهما النصارى في زى حجاج المغاربة ، وأمالوهما بأموال عظيمة ، وأمروهما بالتحيل في شيء عظيم خيّلته لهم أنفسهم ، وتوهموا أن يمكنهم الله منه ، وهو الوصول إلى الجنب الشريف ويفعلوا به ما زيّنه لهم إبليس في النقل وما يترتب عليه ، فنزلا في أقرب رباط إلى الحجرة الشريفة ، وفعلّا ما تقدم ، وصارا يحفران ليلاً ، ولكل منهما محفظه جلد على زى المغاربة ، والذي يجتمع من التراب يجعله كل منهما في محفظته ، ويخرجان لإظهار زيارة البقيع ،

فِيْلَفِيَانِه بَيْن الْقُبُور ، وَأَقَامَا عَلَى ذَلِكَ مَدَّة ، فَلَمَّا قَرَّبَا مِنَ الْحِجْرَةِ الشَّرِيفَةِ أَرْعَدَتِ السَّمَاءُ وَأَبْرَقَتْ ، وَحَصَلَ رَجِيفٌ عَظِيمٌ بِحَيْثُ خِيلَ انْقِلَاعُ تِلْكَ الْجِبَالِ ، فَقَدِمَ السُّلْطَانُ صَبِيحَةً تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَاتَّفَقَ إِمْسَاكُهُمَا وَاعْتِرَافُهُمَا ، فَلَمَّا اعْتَرَفَا وَظَهَرَ حَالُهُمَا عَلَى يَدَيْهِ ، وَرَأَى تَأْهِيلَ اللَّهِ لَهُ لِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ بِكَيْ بَكَاءٍ شَدِيدًا ، وَأَسْرَ بِضَرْبِ رِقَابِهِمَا ، فَقَتَلَا تَحْتَ الشَّبَاكِ الَّذِي يَلِي الْحِجْرَةَ الشَّرِيفَةَ ، وَهُوَ مِمَّا يَلِي الْبَقِيعَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِإِحْضَارِ رَصَاصٍ عَظِيمٍ ، وَخَفَّرَ خَنْدَقًا عَظِيمًا إِلَى الْمَاءِ حَوْلَ الْحِجْرَةِ الشَّرِيفَةِ كُلِّهَا ، وَأَذِيبَ ذَلِكَ الرِّصَاصَ ، وَمَلَأَ بِهِ الْخَنْدَقَ ، فَصَارَ حَوْلَ الْحِجْرَةِ الشَّرِيفَةِ سُورًا رِصَاصًا إِلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مُلْسَكِهِ ، وَأَمَرَ بِإِضْعَافِ النِّصَارِيِّ ، وَأَمَرَ أَنْ لَا يَسْتَعْمَلَ كَافِرٌ فِي عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَأَمَرَ مَعَ ذَلِكَ بِقَطْعِ الْمَكُوسِ جَمِيعِهَا ، انْتَهَى وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الْجَمَالُ الْمَطْرِيُّ بِاخْتِصَارٍ ، وَلَمْ يَذْكُرْ عَمَلَ الْخَنْدَقِ حَوْلَ الْحِجْرَةِ وَسَبَبَ الرِّصَاصِ بِهِ ، لَكِنْ بَيَّنَّ السَّنَةَ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا ذَلِكَ مَعَ مَخَالَفَةِ لِبَعْضِ مَا تَقَدَّمَ ، فَقَالَ فِي الْكَلَامِ عَلَى سُورِ الْمَدِينَةِ الْحَاطِطِ بِهَا الْيَوْمَ : وَصَلَ السُّلْطَانُ نُورُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ زَنْجِي بْنِ أَقْسَنْقَدَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ إِلَى الْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ بِسَبَبِ رُؤْيَا رَأَاهَا ذَكَرَهَا بَعْضُ النَّاسِ وَسَمِعْتُهَا مِنْ الْفَقِيهِ عِلْمُ الدِّينِ يَعْقُوبَ ابْنَ أَبِي بَكْرٍ الْخُتْرَقِ أَبُوهُ لَيْلَةَ حَرِيقِ الْمَسْجِدِ عَمَّنْ حَدَّثَهُ مِنْ أَكْبَارٍ مَنْ أَدْرَكَ أَنَّ السُّلْطَانَ مُحَمَّدًا الْمَذْكُورَ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُوَ يَقُولُ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ : يَا مُحَمَّدُ أَنْقِذْنِي مِنْ هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ الْأَشْقَرَيْنِ نَجَاهَهُ ، فَاسْتَحْضَرَ وَزِيرَهُ قَبْلَ الصَّبْحِ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ : هَذَا أَمْرٌ حَدَّثَ فِي مَدِينَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ لَهُ غَيْرُكَ ، فَتَجَهَّزْ وَخَرُجْ عَلَى عَجَلٍ بِمَقْدَارِ أَلْفِ رَاحِلَةٍ وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ خَيْلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا وَالْوَزِيرُ مَعَهُ ، وَزَارَ وَجَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ لَا يَدْرِي مَا يَصْنَعُ ، فَقَالَ لَهُ الْوَزِيرُ : أَتَعْرِفُ الشَّخْصَيْنِ إِذَا رَأَيْتَهُمَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَطَلَبَ النَّاسَ عَامَةً لِلصَّدَقَةِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِمْ ذَهَبًا كَثِيرًا وَفِضَّةً ، وَقَالَ : لَا يَبْقَيْنِ أَحَدٌ بِالْمَدِينَةِ إِلَّا جَاءَ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا رَجُلَانِ بِجَاوِرَانِ مِنَ

أهل الأندلس نازلان في الناحية التي قبلة حُجرة النبي صلى الله عليه وسلم من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب التي تعرف اليوم بدار العشرة ، فطلبهما للصدقة فامتنعا وقالا : نحن على كفاية ما نقبل شيئاً ، فجدّ في طلبهما ، فجيء بهما ، فلما رآهما قال للوزير : هما هذان ، فسألهما عن حالهما وما جاء بهما ، فقالا : لمجاورة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اضدقاني ، وتكرر السؤال حتى أفضى إلى مُعاقبتهم فأقرّ أنهما من النصاري ، وأنهما وصّلا لـكـي ينقلا من في هذه الحجرة الشريفة باتفاق من ملوكهم ، ووجدتهما قد حَقَرَا نَقَبًا تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلي ، وهما قاصدان إلى جهة الحجرة الشريفة ، ويجعلان التراب في بئر عندهما في البيت الذي هما فيه ، هكذا حدثني عن حدثه ، فضرب أغناقهما عند الشباك الذي في شرق حجرة النبي صلى الله عليه وسلم خارج المسجد ، ثم أحرَقَا بالنار آخر النهار وركب متوجها إلى الشام ، انتهى .

وقد ساق المجدُّ هذه الواقعة على الوجه الذي ذكره المطري فقال : ومن الحوادث في المسجد الشريف ما نقله جماعة من مشايخ المدينة وعلمائها ، وذكر ما تقدم ، وكذلك الزين المراغي ذكر ما تقدم عن المطري نقلاً عنه ، وزاد أن وزير السلطان نور الدين الذي استحضره وذكر له القصة هو الموفق خالد بن محمد ابن نصر القيسراني الشاعر ، قال : وكان موفقاً ، انتهى .

وماأخذه في ذلك - كما رأيته في حاشية بخطه على كتابه - أن الذهبي قال في ترجمة الموفق هذا : موفق الدين ، أبو البقاء ، صاحب الخط المنسوب ، وكان صَدْرًا ، نبيلًا ، وافر الحشمة ، وزَرَ للسلطان نور الدين ، توفي بحلب سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، انتهى .

وقد خالف الزين في ذلك ما قدمناه عن شيخه الأسنوي من تسمية الوزير المذكور بجمال الدين الموصلی ، ولا يلزم من كون الموفق وزَرَ للسلطان نور الدين أن يكون هو الوزير عند وقوع الرؤيا المذكورة ؛ لاحتمال أنه وزَرَ له بعد ذلك

أوقبله ، وجمال الدين الموصلى هذا هو الجواد الأصفهاني ، وقد تقدم ذكره في ترخيم
الحجرة ، ووصفه بأنه وزير بنى زَنْكِي ؛ لأنه كان وزيرَ والد نور الدين الشهيد
الذي هو زَنْكِي ثم وزر لولده غازي ، وأدرك دولة نور الدين الشهيد وزمان هذه
الواقعة ؛ فالظاهر أنه وزَّرَ له ، وأنه المراد في هذه الواقعة .

والعجب أنى لم أقف على هذه القصة في كلام مَنْ ترجم نور الدين الشهيد
مع عظمها ، وهى شهادة لما ذكره الإمام الياقنى في ترجمته من أن بعض العارفين
من الشيوخ ذكر أنه كان في الأولياء معدوداً من الأربعين وصالح الدين نائبه
من الثلاثمائة ، انتهى .

وقال ابن الأثير : طالعتُ تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا ،
فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل
نور الدين ، انتهى .

وقد اتفق بعد الأربعمائة من الهجرة ما يقرب من قصة رؤيا نور الدين الشهيد
المتقدمة على ما نقله الزين المراغى عن تاريخ بغداد لابن النجار ، قال : أخبرنا
أبو محمد عبد الله بن المبارك المقرئ ، عن أبي المعالى صالح بن شافع الجلى ، أنبأنا
أبو القاسم عبد الله بن محمد بن محمد المعلم ، ثنا أبو القاسم عبد الحليم بن محمد المغربي
أن بعض الزنادقة أشار على الحاكم العبيدى صاحب مصر بنقل النبی صلى الله
عليه وسلم وصاحبيه من المدينة إلى مصر ، وزينَ له ذلك ، وقال : متى تم لك
ذلك شدَّ الناس رحالهم من أقطار الأرض إلى مصر ، وكانت مَنْقَبَةً لسكانها ،
فاجتهد الحاكم في مدة وبني بمصر حائزاً ، وأنفق عليه مالا جزيلاً . قال : وبعث
أبا الفتوح لَنَبَشِ الموضع الشريف ، فلما وصل إلى المدينة الشريفة وجلس
بها حضر جماعة المدنين وقد علّموا ما جاء فيه ، وحضر معهم قارئ يعرف بالزلباني ،
فقرأ في المجلس « وإن نَسَكْتُمُ أَيْمَانَهُمْ من بعد عَهْدِهِمْ » إلى قوله « إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ » فهاج الناس ، وكادوا يقتلون أبا الفتوح ومَنْ معه من الجند ، وما منعهم
من السرعة إلى ذلك إلا أن البلاد كانت لهم .

ولما رأى أبو الفتوح ذلك قال لهم : الله أحقُّ أن يُخشى ، والله لو كان على من الحاكم قَوَات الروح ما تعرضتُ للموضع ، وحصل له من ضيق الصدر ما أزعجه كيف نهض في مثل هذه الخزية ، فما انصرف النهارُ ذلك اليوم حتى أرسل الله ريحا كادت الأرضُ تزلزلُ من قوتها حتى دحرجت الإبل بأقتابها والخيل بسروجها كما تدحرج الكرة على وجه الأرض ، وهلك أكرها وخلق من الناس ، فانشرح صدر أبي الفتوح وذهب رَوْعُهُ من الحاكم لقيام عُذْرِهِ من امتناع ما جاء فيه . قلت : ونقل ابن عذرة في كتاب «تأسي أهل الإيمان ، فيما جرى على مدينة القيروان» لابن سعدون القيرواني ما لفظه : ثم أرسل الحاكم بأمر الله إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم من ينبش قبر النبي ، فدخل الذي أراد نبشهِ داراً بقرب المسجد وحفر تحت الأرض ليصل إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فرأوا أنواراً ، وسمع صائح : إن نبيكم ينبش ، ففتش الناس فوجدوه وقتلوه ، انتهى .

ومما يناسب ذلك ما ذكره الحب الطبرى في الرياض النضرة في فضائل العشرة ، قال : أخبرني هرون بن الشيخ عمر بن الزعب - وهو ثقة صدوق مشهور بالخير والصلاح والعبادة - عن أبيه ، وكان من الرجال الكبار - قال : كنت مجاوراً بالمدينة وشيخُ خدام النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذاك شمسُ الدين صواب اللمطى ، وكان رجلاً صالحاً كثير البر بالفقراء والشفقة عليهم ، وكان بيني وبينه أنس ، فقال لى يوماً : أخبرك بعجيبه ، كان لى صاحبٌ يجلس عند الأمير ويأتيني من خبره بما تمسُّ حاجتى إليه ، فبينما أنا ذات يوم إذ جاءنى فقال : أمر عظيم حدث اليوم ، قلت : وما هو ؟ قال : جاء قوم من أهل حلب وبذلوا للأمير بذيلاً كثيراً ، وسألوه أن يمكنهم من فتح الحجرة وإخراج أبي بكر وعمر رضى الله عنهما منها ، فأجابهم إلى ذلك ، قال صواب : فاهتمت لذلك هما عظيما ، فلم أنشب أن جاء رسولُ الأمير يدعونى إليه ، فأجبته ، فقال لى : يا صواب يدقُّ عليك الليلة أقوام المسجد ، فافتح لهم ، وممكنهم مما أرادوا ولا تعارضهم ، ولا تعترض

عليهم ، قال : فقلت له : سَمْعًا وطاعةً ، قال : وخرجت ولم أزل يومى أَتَجَمَّعَ خَلْفَ الحِجْرَةِ أبكى لا ترقألى دَمْعَةً ولا يشعر أحد ما بى ، حتى إذا كان الليل وصلينا العشاء الآخرةَ وخرج الناس من المسجد وغلقنا الأبواب فلم نَنسَبْ أن دُقَّ الباب الذى حذاء باب الأمير ، أى باب السلام ، فإن الأمير كان سكنه حينئذ بالحِصْنِ العتيق .

قال : ففتحت الباب ، فدخل أربعون رجلاً أعدُّهم واحداً بعد واحد ، ومعهم المساحى والمكاتل والشموع وآلات الهدم والحفر . قال : وقصدوا الحِجْرَةَ الشريفة ، فوالله ما وصلوا المنبر حتى ابتلعتهم الأرض جميعهم بجميع ما كان معهم من الآلات ، ولم يبق لهم أثر . قال : فاستبطأ الأمير خبرهم ، فدعانى ، وقال : يا صواب ألم يأتِكَ القوم ؟ قلت : بلى ، ولكن اتفق لهم ما هو كيت وكيت ، قال : انظر ماتقول ، قلت : هو ذلك ، وقم فانظر هل ترى منهم باقية أو لهم أثر ، فقال : هذا موضع هذا الحديث ، وإن ظهر منك كان يقطع رأسك ، ثم خرجت عنه ، قال الحبُّ الطبرى : فلما وعيت هذه الحكاية عن هرون حكيتهما للجماعة من الأصحاب فيهم مَنْ أُمْتُقَ بحديثه فقال : وأنا كنت حاضراً فى بعض الأيام عند الشيخ أبى عبد الله القرطبى بالمدينة والشيخ شمس الدين صواب يحكى له هذه الحكاية سمعتها بأذن من فيه ، انتهى ما ذكره الطبرى .

قلت : وقد ذكر أبو محمد عبد الله بن أبى عبد الله بن أبى محمد المرجانى هذه الواقعة باختصار فى تاريخ المدينة له ، وقال : سمعتها من والدى ، يعنى الإمام الجليل أبا عبد الله المرجانى ، قال : وقال لى : سمعتها من والدى أبى محمد المرجانى سمعها من خادم الحِجْرَةِ ، قال أبو عبد الله المرجانى : ثم سمعتها أنا من خادم الحِجْرَةِ الشريفة ، وذكر نحو ما تقدم ، إلا أنه قال : فدخل خمسة عشر - أو قال عشرون - رجلاً بالمساحى واليفاف ، فما مشوا غير خطوة أو خطوتين وابتلعتهم الأرض ولم يُسَمَّ الحادم ، والله أعلم .

الفصل الثلاثون

في تحصيب المسجد الشريف

وذكر البُزَاق فيه ، وتخليقه ، وإجماره ، وذكر شيء من أحكامه

أول
تحصيب
المسجد النبوي

روى أبو داود في سُنَنِهِ عن أبي الوليد قال : سألت ابن عمر عن الحَصْبَاءِ الذي في المسجد ، فقال : مُطَرِّفًا ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ مُبْتَلَةً ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَأْتِي بِالْحَصْبَاءِ فِي ثَوْبِهِ وَيَبْسُطُهُ تَحْتَهُ ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ قَالَ : مَا أَحْسَنَ هَذَا ؟ وَهُوَ صَرِيحٌ فِي جَعْلِ الْحَصْبَاءِ فِي الْمَسْجِدِ فِي زَمَنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ويؤيده ما رواه أصحابُ السنن من حديث أبي ذر : إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنْ الرَّحْمَةُ تَوَاجَهَهُ ، فَلَا يَمْسَحُ الْحَصْبَاءَ ، وَكَذَا مَا رَوَاهُ أَحَدٌ مِنْ حَدِيثِ حَازِمَةَ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ مَسْحِ الْحَصَى ، فَقَالَ : وَاحِدَةٌ أَوْ دَعِ ، وَكَذَا مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ أَبُو بَدْرٍ : أَرَاهُ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : إِنْ الْحَصَاةُ تُنَاشِدُ الَّذِي يُخْرِجُهَا مِنَ الْمَسْجِدِ ، لَسَكُنَ قَدْ سَأَلَ الدَّارِقُطَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ فَذَكَرَ أَنَّهُ رَوَى مُوقُوفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَقَالَ : رَفَعَهُ وَهُمْ مِنْ أَبِي بَدْرٍ .

وروى يحيى عن بعض السلف أنه كان إذا خرج بالحَصَاةَ مِنَ الْمَسْجِدِ فِي ثَوْبِهِ أَوْ نَعْلِهِ أَمَرَ بِرَدِّهَا إِلَى الْمَسْجِدِ .

وروى ابن شبة عن سليمان بن يسار قال : الْحَصَاةُ إِذَا أُخْرِجَتْ مِنَ الْمَسْجِدِ تَصْبِيحُ حَتَّى تَرُدَّ إِلَى مَوْضِعِهَا .

وذكر البرهان ابن فرحون أن مالكًا سئل عن الرجل يخرج من المسجد فيجد شيئًا من حصي المسجد قد تعلّق بوجهه ، أيلزمه رُدُّهُ إِلَى الْمَسْجِدِ ؟ فقال : لَا يَلْزِمُهُ ذَلِكَ ، وَأَرْخَصَ لَهُ فِي طَرَحِهِ ، فَقَالَ السَّائِلُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ

إِذَا أُخْرِجَتِ الْحِصَاةُ مِنَ الْمَسْجِدِ تُصَيِّحُ حَتَّى تَرُدَّ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ :
دَعَهَا تُصَيِّحُ حَتَّى يَذْشُقَ حَلَقَهَا ، فَقَالَ : أَوَلَهَا حَلَقٌ ؟ قَالَ : فَنَ أَيْنَ تُصَيِّحُ ؟
وَرَوَى ابْنُ شُبَّةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ لِنَفِيعٍ فِي الْحِصَاةِ : رُدُّهَا وَإِلَّا خَاصَمْتُكَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَحَكَى الْأَقْشَهْرِيُّ عَنْ شَيْخِ الْخُدَّامِ ظَهِيرِ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَشْرَفِيِّ قَالَ :
أَتَانِي عَامَ خَمْسَةِ عَشْرٍ وَسَبْعِمِائَةٍ رَجُلٌ مِّنَ الشَّامِ فِي مَوْسَمِ الْحَاجِّ وَقَالَ : كُنْتُ
حَاجًّا جِئْتُ عَامَ أَوَّلَ وَحَمَلْتُ شَيْئًا مِّنْ تَرَابِ الْمَسْجِدِ وَحَصْبَائِهِ ، فَلَمْ أَزَلْ أَرَاهُ فِي
الْنَّامِ يَقُولُ لِي : رُدِّني إِلَى مَوْضِعِي ، عَذِّبْتَنِي عَذْبُكَ اللَّهُ ، فَهِيَ أَنَا أُتِيتُ بِهِ ،
قَالَ : فَأَخْرَجَ صُرَّةً فِيهَا مَا ذَكَرَهُ ، فَصَبَبْنَاهَا فِي الْمَسْجِدِ ، انْتَهَى .

وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ كَلَامُ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ تَحْصِيبَ الْمَسْجِدِ إِنَّمَا حَدَّثَ فِي زَمَانِ عُمَرَ
ابْنِ الْخَطَّابِ ؛ فَقَدْ رَوَى يَحْيَى عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَزْهَرِيِّ قَالَ : قَالَ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا نَدْرِي
مَا نَفْرُشُ فِي مَسْجِدِنَا ، فَقِيلَ لَهُ : افْرُشِ الْخَصْفَ وَالْحَصِرَ ، قَالَ : هَذَا الْوَادِي
الْمُبَارَكُ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ «الْعَقِيقُ وَادٍ مُّبَارَكٌ» قَالَ :
فَحَصَبَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَرَوَى ابْنُ زُبَّالَةَ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : قَدِمَ سَفِيَّانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيُّ
عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَسْجِدُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مُحْصُوبٍ ،
فَقَالَ : أَمَا لَكُمْ وَادٍ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : بَلَى ، قَالَ : فَاحْصِبُوهُ مِنْهُ ، فَقَالَ عُمَرُ : احْصِبُوهُ
مِنْ هَذَا الْوَادِي الْمُبَارَكِ ، يَعْنِي الْعَقِيقَ .

قَالَ الْمَطْرِيُّ : رَمَلَ الْمَسْجِدِ الشَّرِيفِ - أَيْ الَّذِي يُحْصَبُ بِهِ - يَحْمِلُ مِنْ
وَادِي الْعَقِيقِ ، مِنَ الْعَرِصَةِ الَّتِي تَسِيلُ مِنَ الْجَمَاءِ الشَّمَالِيَّةِ إِلَى الْوَادِي ، وَلَيْسَ بِالْوَادِي
رَمْلٌ أَحْمَرُ غَيْرُ مَا يَسِيلُ مِنَ الْجَمَاءِ ، وَهُوَ رَمْلٌ أَحْمَرُ يُغَرِّبُ ثُمَّ يَفْرُشُ فِي
الْمَسْجِدِ ، انْتَهَى .

وروى ابن زبالة من طريق الضحاك عن بشر بن سعيد أو سليمان بن يسار — شك الضحاك — أنه حَدَّثَ أن المسجد كان يرش في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وزمان أبي بكر وعامة زمان عمر ، وكان الناس يتنخمون فيه ويَبْصُقُونَ حتى عاد زَلَمًا ، حتى قدم ابن مسعود الثقفي ، فقال لعمر : ألس قرَبكم وادٍ ؟ قال : بلى ، قال : فر بحصباء تطرح فيه فهو كَفٌّ للمخاط والنخامة ، فأمر عمر بها ، وهذه الرواية مع ضعفها قد اشتملت على أنهم كانوا يبصقون في المسجد .

وفي الصحيحين عن أنس مرفوعا « البَزَاقُ في المسجد خطيئة ، وكفارتها دفنها » . وقد رواه ابن زبالة ، وروى أيضا عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى نُخَامَةً في المسجد فقال : « مَنْ فعل هذا جاء يوم القيامة وهي في وجهه » . وعن عبد الله بن قسيط مرفوعا « لا يبصق في مسجدي هذا » .

وحديث ابن عمر رواه البزار وابن خزيمة في صحيحه ، وروى أحمد عن أبي أمامة أنه صلى الله عليه وسلم قال « البُصَاقُ في المسجد سيئة ، ودفنه حسنة » . ورواه ابن شبة بمعناه .

وروى أيضا عن أبي هريرة قال « إن المسجد لينزوى من النخامة كما ينزوى الجلد من النار » ولهذا جزم النووي في التحقيق وشرح المذهب بتحريمه . ووقع في عبارة بعض أصحابنا التعبير بالسكرامة ، وحملها بعضهم على كراهة التحريم ، وقال بعض العلماء : إنما يكون البَزَاقُ في المسجد خطيئة لمن لم يدفنه لأنه يقدر المسجد ويتأذى به .

قال القرطبي : ويدل على صحة هذا التأويل حديث أبي ذر الذي رواه مسلم وغيره « ووجدت في مساوي أعمالها — أي الأمة — النخامة تكون في المسجد لا تدفن » فلم يثبت لها حكم السيئة بمجرد إيقاعها في المسجد ، بل بذلك وبقائها غير مدفونة .

قلت : الرواية الأولى بينت أن الفعل خطيئة ، وأن الدفن يكفرها كما يكفر

حكم البزاق
في المسجد

الجلد معصية الزنى ، فلتحمل الرواية الأخرى عليها ؛ لأن الإخبار فيها عما استقر عليه الأمر ، لكن روى ابن شبة من طريق الفرّج بن فضالة عن أبي سعيد قال : رأيت وائلة بن الأسقع دخل مسجد دمشق فصلى فيه ، فبزق تحت رجله اليسرى ثم عرّكها ، فلما انصرفت قلت له : أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تَبْزُقُ في المسجد؟ فقال: هكذا رأيت النبي صلى الله عليه وسلم صَنَعَ . ورواه أبو داود من الطريق المذكورة بنحوه ، وفرّج بن فضالة ضعفه الدارقطني وغيره ، وقواه أحمد ، واقتصر الحافظ ابن حجر في التّريب على تضعيفه . وروى ابن شبة أيضاً بإسناد فيه ضعف عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ دَخَلَ مَسْجِدِي هَذَا فَبَزَقَ أَوْ تَنَخَّمَ فَلْيَحْفَرْ فَلْيُبْعِدْ وَلْيَدْفِنْهُ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيَبْزُقْ فِي ثَوْبِهِ حَتَّى يَخْرُجَ بِهِ » وهذا لو صح كان حجة لهذا المذهب .

فإن قيل : يعضده حديث البخاري عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم « رَأَى نُحَامَةً فِي الْقُبْلَةِ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رَوَى فِي وَجْهِهِ ، فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ ، فَقَالَ : إِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ ، أَوْ إِنْ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُبْلَةِ ، فَلَا يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قَبْلَ قِبْلَتِهِ ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ ، ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ فَبَصَّقَ فِيهِ ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ ، فَقَالَ : أَوْ يَفْعَلْ هَكَذَا » وكذا ما رواه ابن شبة بإسناد جيد عن أبي نضرة أن النبي صلى الله عليه وسلم « رَأَى نُحَامَةً فِي قُبْلَةِ الْمَسْجِدِ ، فَغَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى كَادَ يَدْعُو عَلَى صَاحِبِهَا ، ثُمَّ قَالَ : لَا يَبْزُقُ أَحَدُكُمْ فِي قِبْلَتِهِ ؛ فَإِنْ رَبَّهُ مُسْتَقْبِلُهُ ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ فَإِنْ عَنْ يَمِينِهِ مَلَسَا ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ الْيَسْرَى ، فَإِنْ كَانَ عَلَى يَسَارِهِ أَحَدٌ فَلْيَبْزُقْ فِي ثَوْبِهِ » وفي رواية « فَإِنْ كَانَ عَنْ يَسَارِهِ أَحَدٌ يَكْرَهُ أَنْ يَبْزُقَ نَحْوَهُ فَلْيَبْزُقْ فِي ثَوْبِهِ ، وَبَزَقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثَوْبِهِ وَحَكَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ » فاقْتَضَى ذَلِكَ جَوَازَ الْبَصَاقِ فِي الْمَسْجِدِ فِيمَا عَدَا الْقُبْلَةَ وَالْيَمِينَ حَالَةَ الصَّلَاةِ ، وَهُوَ مُقِيمٌ بِالْدَفْنِ لَمَّا سَبَقَ .

قلنا : مَسَّاقُ الحديث لبيان أدب المصلي في كيفية البصق ، من غير تعرض لكونه في مسجد ، والبصاق في المسجد قد بينه منطوق الحديث السابق ؛ فلا يُتْرَكُ بهذا ، وأفاد القفال في فتاويه - وقد ذكر حديث النخامة في المسجد - فائدة حسنة فقال : هذا الخبر محمول على ما إذا نزلت النخامة من الرأس ، أما إذا كانت من الصدر فهي نجسة ؛ فلا يجوز دفنها في المسجد .

وروى أبو داود من حديث ابن عمر قال : بينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوماً إذ رأى نخامة في قبلة المسجد ، فتغيظ على الناس ، ثم حَكَّهَا ، وأحسبه قال : فدعا بزعفران فلفطخه به ، وقال : إن الله قَبَّلَ وجه أحدكم فلا يبرزقن بين يديه .

وروى ابن شبة عن شيخه خلاد بن يزيد بن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم صَلَّى صلاة ذات يوم ، فرأى في قبلة المسجد نخامة ، فلما قضى صلاته أخذ عوداً فحَكَّهَا ، ثم دعا بخُلُقٍ فخلَّقَ مكانها ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أيها الناس إذا صلى أحدكم فلا يَتَنَقَّلْ أمامه ولا عن يمينه ؛ فإنه يستقبل الرب عز وجل بوجهه .

وروى ابن شبة أيضاً بسند جيد إلى أبي الوليد قال : قلت لابن عمر : ما بَدَّه الزعفران - يعني في المسجد - فقال : رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نخامة في المسجد ، فقال : ما أقبح هذا ! مَنْ فعل هذا ؟ فجاء صاحبها فحَكَّهَا وطلَّأَهَا بزعفران ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أحسن من ذلك .

مبدأ تخليق
المسجد

ورواه يحيى بلفظ : قلت لابن عمر : يا أبا عبد الرحمن ألا تخبرني ما كان بَدَّه هذه الصفرة التي في قبلة المسجد ؟ قال : نعم ، صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا انصرف رأى نخامة في القبلة ، وذكره ، وقال : فسارَعَ الناسُ إليه ، فكان هذا بدأه .

وروى النسائي وابن ماجه عن أنس قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم

نخامة في قبلة المسجد ، فغضب حتى احمرَّ وجهه ، فقامت امرأة من الأنصار فحكَّتْها ، فجعلت مكانها خلوقا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحسنَ هذا ! .

وروى ابن شبة أيضا بسندٍ جيد عن أبي نضرة أن ذلك الذي بَرَّقَ في قبلته جاء بشيء من زعفران فطلى ذلك المكان ، فأعجب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أيضا بسند لا بأس به قال : أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط المسجد بُزَاقا ، فحكَّه على خرقة ، وأخرجه من المسجد ، فجعل مكانه شيئا من طيب أوزعفران أو وُزْءٍ .

وعن إبراهيم بن قدامة عن أبيه أن عثمان بن مظعون تفل في القبلة ، فأصبح مكتئبا ، فقالت له امرأته : مالى أراك مكتئبا ؟ قال : لا شيء إلا أنى تفلت في القبلة وأنا أصلى ، فعمدت إلى القبلة ففصلتها ثم عملت خلوقا فخلقتها ، فكانت أول من خلَّق القبلة .

وروى أيضا رجال ثقات عن جابر عن عبد قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجدنا هذا وفي يده عُرْجُون ابن طاب ، فرأى في قبلة مسجدنا نخامة فحكَّها بالعُرْجُون ، ثم أقبل علينا فقال : أيكم يحب أن يُعرِّض الله عنه ؟ قلنا : لا أينما رسول الله ، قال : فإن أحركم إذا قام يصلى فإن الله قبل وجهه فلا يبصق قبل وجهه ولا عن يمينه ، وليبصق قبل يساره تحت رجله اليسرى ، فإن عجلت به بادرة فليقل هكذا بثوبه ، ثم طوى بعضه على بعض ، أرونى عبيرا ، فقام فتى من الحى يشتد إلى أهله فجاء بخلوق في راحته ، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم على رأس العرجون ثم لطح به على أثر النخامة ، قال جابر رضى الله عنه : فن هنالك جعلتم الخلق في مساجدكم .

وقد رواه أبو داود بنحوه . وجابر هو من بنى حَرَام بطن من بنى سَلَمَةَ ،

ومسجدهم كان بمنزلهم التي في غربي بُطحان ومساجد الفتح ، وليس هو مسجد القبلتين كما وقع المطري وجماعة حتى جعلوا أمر الخلق له لما سنيينه .

وسأني ما رواه ابن زبالة من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد بني حَرَام بالقاع ، وأنه رأى في قبلته نخامة ، وكان لا يفارقه عرجون ابن طاب يتخصّر به ، وذكر الحديث الآتي ، وفيه « فكان أول مسجد خُلِق » . وروى أبو داود وابن حَبَّان في صحيحه عن أبي سهلة السائب بن خلاد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً أمَّ قوماً فَبَصَقَ في القبلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ : لا يُصَلِّي لكم ، فأراد بعد ذلك أن يصلي لهم فمَنَعُوهُ وأخبروه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : نعم ، وحسبت أنه قال : إنك آذَيْتَ الله ورسوله .

وفي رواية أوردها المجد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى النخامة في الحراب قال : مَنْ إمام هذا المسجد ؟ قالوا : فلان ، قال : قد عَزَلْتَهُ ، فقالت امرأته : لِمَ عَزَلْتَ النبي صلى الله عليه وسلم من الإمامة ؟ فقال : رأى نخامة في الحراب ، فعمدَتْ إلى خَلْق طيب فخلقت به الحراب ، فاجتاز رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مَنْ فَعَلَ هذا ؟ فقالوا : امرأة الإمام ، قال : وهَبْتُ ذَنْبَهُ لامرأته ورددته إلى إمامته .

قلت : واختلاف هذه الروايات صريح في أنها وقائع متعددة ؛ فلا تعارض فيها ، نعم هي متضمنة للرد على ما رواه ابن شبة عن جابر بن عبد الله قال : كان أول مَنْ خَلَق المسجد ورَزَقَ المؤذنين عثمان رضي الله عنه ، وتقدم في الفصل الرابع من رواية يحيى عن جابر بنحوه ، إلا أن يحمل على أن المراد أنه اتخذ له الخلق من بيت المال .

ونقل ابن زبالة عن ابن عَجَلان أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله

على المدينة أن لا يخلق إلا القبلة ، وأن يغسل الأساطين ، قال : فلم تكن الأساطين تخلق في سلطانه .

وقدمت الخيزران أم موسى في سنة سبعين ومائة ، فأمرت بالمسجد فخلق
وولي ذلك من تخليقه مؤسسة جاريته ، فقام إليها إبراهيم بن الفضل بن عبد الله
مولي هشام بن إسماعيل فقال : هل لكم أن تسبقوا من بعدكم وأن تفعلوا ما لم يفعل
من كان قبلكم ؟ قالت له مؤسسة : وما ذلك ؟ قال : تخلفون القبر كله ، ففعلوا ،
وإنما كان يخلق منه ثلثاه أو أقل ، وأشار عليهم فزادوا في خلوق أسطوان التوبة
والأسطوان التي هي علم عند مصلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فخلقوها حتى بلغوا
بهما أسفلهما ، وزادوا في الخلوق في أعلاهما .

وروى بعضهم عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل
أن طهرا بيتي) الآية ، قال : طهرا بيتي نظفاه وبجراه وخلقاها .

وروى يحيى بن طريق ابن زباله وغيره عن علي بن حسن بن حسن بن حسن
تجمل المساجد — وكان من خيار الناس — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بإجمار المسجد ،
قال : ولا أعلمه إلا قال : يوم الجمعة .

وروى ابن ماجه عن وائلة بن الأسقع رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه
وسلم قال : جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم
ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيفوفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ،
وجروها في الجمع .

وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه عن عائشة رضى
الله عنها قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور ، وأن
تنظف وتطيب .

وروى يحيى بن طريق محمد بن يحيى عن محمد بن إسماعيل عن أبيه أنه قدم

على عمر بن الخطاب بسَقَط من عُودٍ ، فلم يسمع الناس ، فقال عمر : أجزوا به المسجد لينتفع به المسلمون ، فبقيت سُنة في الخلفاء إلى اليوم ، يؤتى كل عام بسَقَط من عود يحمر به المسجد ليلة الجمعة ويوم الجمعة عند المنبر من خلفه إذا كان الإمام يخطب .

وعن سعد القرظ قال : قدم على عمر بعود ، فقسمه بين المهاجرين ، ثم قسم المسجد حظا ، فكان يحمره في الجمع ، فجزى ذلك إلى اليوم ، وولاه سعد القرظ ؛ فكان الذي يحمر .

وقد تقدم من رواية يحيى أيضا في الكلام على حكم قناديل الحجرة أن عمر أتى بمِجْمَرَةٍ من فضة ، وأنه دفعها إلى سعد جد المؤذنين وقال : أجزر بها في الجمعة وشهر رمضان ، وكان سعد يحمر بها في الجمعة ، وكانت توضع بين يدي عمر ابن الخطاب .

وروى ابن زبالة عن نعيم الجمر عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له : تُحْسِن تطوف على الناس بالجمرة تجمرهم ؟ فقال : نعم ، فكان عمر يحمرهم يوم الجمعة .

وفي مسند أبي يعقوب الموصلي عن ابن عمر أن عمر كان يحمرُ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جمعة .

قال أصحابنا : ويستحب فرش المسجد ، وقد ترجم البخارى للصلاة على فرش المسجد الخمر ، وروى عن ميمونة أنها كانت تصلى عليها ، وقال ابن زيد : الخمر هي السجادة ، وقال الطبرى : هي مُصَلَّى صغير ينسج من سعف النخل ويرسل بالحيوط ، وقال البخارى في صحيحه : وصلى أنس على فراشه ، وقال : كنا نصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم فيسجد أحدا على ثوبه ، وقال يحيى : حدثنا أبو مُصْعَب قال : حدثنا مالك عن عمه أبي إسماعيل بن مالك عن أبيه أن طِنْفِسَةَ لعقيل بن أبي طالب كانت تُطَرِّح يوم الجمعة إلى جدار المسجد الغربى ، فإذا غشى الطنفسة

كلها ظل الجدار خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : ثم يرجع بعد صلاة الجمعة فَمَقِيلَ قائمة الضحى ، ورواه ابن زبالة أيضاً ، وروى يحيى عن عطاء بن أبى رباح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تَفَقَّدُوا نعالكم عند أبواب مساجدكم . وعن موسى بن يعقوب أن النبي صلى الله عليه وسلم اتبع غبار المسجد بجريدة . ورواه ابن أبى شعبة عن يعقوب بن زيد ، ولفظه : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتبع غبار المسجد بجريدة .

وقد ذكرنا فى آخر الكلام على فضل المسجد شيئاً مما جاء فى النهى عن قِرْبَانِ المسجد لمن أكل الثوم أو البصل ، وذكرنا فى زيادة عمر رضى الله عنه فى الكلام على البُطِّيحاء ما جاء فى النهى عن رفع الصوت فيه ، وما يتعلق بإشاد الشعر فيه ، وذكرنا فى زيادة الوليد ما يتعلق بالصلاة على الجنائز فيه ، وروى ابن شعبة عن شعبة بن قصاح مرسل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأى أحدكم القملة فى ثوبه وهو فى المسجد فليحفر لها فليدفنها ، وليبصق عليها ، فإن ذلك كفراتها . ورواه ابن زبالة ثم روى عن محمد بن المنكدر قال : أخبرنى مَنْ رأى أبا هريرة يَدْفِنُ قملة فى المسجد ، وروى يحيى عن يوسف بن ماهك قال : رأيت عبيد بن عمير أخذ من ثوب ابن عمر قملة فدفنها فى المسجد ، وعن أبى بكر بن المنكدر قال : رأيت عمى محمد بن المنكدر يأخذ القملة وهو فى المسجد فيقتلها فى المسجد فيبزيق عليها ، وعن جعفر بن محمد قال : لا بأس بأن يدفن القملة فى المسجد .

قلت : وهذه الأشياء لا تقوم الحجة بها . وقد روى أحمد فى مسنده عن أيوب قال : وجد رجل فى ثوبه قملة فأخذها ليطرحها فى المسجد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا تَفْعَلْ رُدَّهَا فى ثوبك حتى تخرج من المسجد » وروى ابن شعبة بسند جيد عن يحيى بن أبى كثير اليماني عن الحضرمي أن النبي صلى الله

عليه وسلم قال : إذا أبصر أحدكم القملة وهو يصلي في المسجد فليصبرها في ثوبه ولا يقتلها في المسجد . وروى يحيى عن ابن عمر قال : إذا وجد أحدكم القملة في ثوبه وهو في المسجد فليجعلها في ثوبه حتى يخرج بها . قال النووي : فإن قتلها لم يجز إلقاؤها في المسجد ؛ لأنها ميتة ، وكره مالك قتلها في المسجد ، ونقل ابن العماد عن كتب المالكية أنه يحرم طرح القمل حيا ، بخلاف البرغوث ؛ لأن البرغوث يعيش بأكل التراب ، بخلاف القمل ففي طرحه تعذيبه بالجوع ، انتهى .

وقد جاءت أحاديث في النهي عن البيع والشراء وإنشاء الضالة في المسجد ، وروى ابن أبي عدي الحافظ من حديث علي بن أبي طالب قال : صليت العصر مع عثمان أمير المؤمنين ، فرأى خياطاً في ناحية المسجد ، فأمر بإخراجه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين إنه يكنس المسجد ، ويغلق الأبواب ، ويرش أحياناً ، فقال عثمان : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : جنبوا صنائعكم من مساجدكم .

قلت : ومن المنكرات في زماننا ما يتساهل فيه المتكلمون في أمر العمارة من استعمال النشارين والنجارين والحجارين بالمسجد النبوي للعمل في آلاته واكتساب أولئك العمال بذلك ، مع ما يتولد من ذلك من الدق العنيف وتشعيب المسجد بما ينشر من النشارة والنجارة وغير ذلك ، مع إمكان عمل ذلك خارج المسجد الشريف والإتيان به مهتماً . وقد قدمنا أن عائشة رضي الله عنها كانت تسمع الوتد أو المسمار يُضرب في بعض الدور المطيقة بالمسجد فترسل إليهم : لا تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن علياً ما صنع مصراعى داره إلا بالمناصع توقياً لذلك ، وفي خبر رواه المقدسي في « مثير الغرام » عن كعب الأحبار أن سليمان عليه السلام قال للعفريت الذي أحضره لقطع الرخام لعمارة بيت المقدس : هل عندك من حيلة أقطع بها الصخر ؟ فإني أكره صوت الحديد في مسجدنا هذا ، والذي أمرنا الله به من ذلك هو الوقار والسكينة ، فقال : ابتغ لي وكر عقاب فإني

لا أعلم في السماء طيراً أشد منه ولا أكثر حياة ، فوجدوا وكر عقاب ، فغطى عليه ترساً غليظاً من حديد ، فجاءه العقاب فلم يقدر عليه ، فخلق في السماء متطاعاً فلبث يومه وليلته ثم أقبل ومعه قطعة من السامور ، ففرقت له الشياطين حتى أخذوه منه ، فأتوا به سليمان عليه السلام ، فكان يقطع به الصخر ، انتهى .

وكذلك إداخلهم البغال والحير الحاملة لتلك الآلات مع إمكان حمل الرجال لها من باب المسجد ، والله الموفق

وإذا سمع شخص مَنْ ينشد ضالة في المسجد فليقل له : أيها الناشد غيرك الواحد ، وما أشبهه مما ورد ، إلا أن يسأل الإنسان جلساءه فليس بذلك بأس ، ولا يبلغ بذلك الصوت كما نقله ابن زبالة عن مالك ، ومن باع فيه قيل له : لا أربح الله تجارتك ، كما ورد مرفوعاً . قال الزين المراغى : والقياس أن يقال للسائل فيه : لا فتتح الله عليه ، كما قاله بعض شيوخنا . وفي العُتبية أن مالكا كره المَراوح في المسجد ، ويجوز النوم فيه من غير كراهة عندنا ، وكرهه بعضهم لغير الغريب الذي لا مَوْضِع له غيره ، وروى في ذلك أحاديث .

وأُسند أحمد بن يحيى البلاذرى عن أبي سعيد مولى أبي أسيد قال : كان عمر بن الخطاب يُعَسُّ في المسجد بعد العشاء ، فلا يرى أحداً إلا أخرجه لإرجاء قائماً يصلى ، فر بنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم أبي بن كعب فقال : مَنْ هؤلاء ؟ فقال أبي : نفر من أهلك يا أمير المؤمنين ، قال : ما خلفكم بعد الصلاة ؟ قالوا : جَلَسْنَا نذكر الله ، فجلس معهم ، ثم قال لأدناهم : خذ في الدعاء فدعا ، فاستقرأهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إلى وأنا بجانبه ، فقال : هاتِ ، فحَصِرْتُ وأخذني الخجل ، فقال : قل ولو أن تقول : اللهم اغفر لنا ، اللهم ارحمنا ، ثم أخذ عمر في الدعاء ، فما كان أحد أكثر دمة ولا أشد بكاء منه ، ثم قال : تفرقوا الآن ، انتهى .

الحدث في
المسجد

ولا يحرم إخراج الريح من الدبر في المسجد ، لسكن الأولى اجتنابه ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم « فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » قال الزركشى : وقال بعض المتكلمين على الحديث من القدماء : الحدث في المسجد خطيئة يُحَرَّمُ بها الحدث استغفار الملائكة ودعاءهم المرجو بركته .

وروى ابن عدى في الكامل من طريق حمزة بن أبي حمزة الضبي عن أبي الزبير عن جابر قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يمر باللحم في المسجد ، قال ابن عدى : وهذا منكر بهذا الإسناد ، لا يرويه عن أبي الزبير غير حمزة ، وحمزة يضع الحديث .

قلت : وقد روى ابن شبة نحوه ، غير أنه منقطع الإسناد ، ويعنى عنه ما ورد من النهى عن اتخاذ المسجد طريقاً ، والله أعلم .

القراءة في
المصحف
بالمسجد

وقال مالك : لم تكن القراءة في المصحف بالمسجد من أمر الناس القديم ، وأول من أحدثه الحجاج بن يوسف . وقال أيضاً : أكره أن يقرأ في المصحف في المسجد ، وأرى أن يقاموا من المساجد إذا اجتمعوا للقراءة .

قلت : الذي عليه السلف والخلف استحباب ذلك ، وفي الصحيح « إنما بنيت - يعنى المساجد - لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن » وهو عام في المصاحف وغيرها ، وقد روى ابن شبة عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : إن أول من جمع القرآن في مصحف وكتبه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم وضعه في المسجد ، فأمر به يقرأ كل غداة . وعن محرز بن ثابت مولى سلمة بن عبد الملك عن أبيه قال : كنت في حرس الحجاج بن يوسف ، فكتب الحجاج المصاحف ، ثم بعث بها إلى الأمصار ، وبعث بمصحف إلى المدينة ، فسكره ذلك آل عثمان ، فقليل لهم : أخرجوا مصحف عثمان يقرأ ، فقالوا : أصيب المصحف يوم مقتل عثمان . قال محرز : وبلغنى أن مصحف عثمان صار إلى خالد بن عمرو بن عثمان ، قال : فلما استخلف المهدي بعث بمصحف إلى المدينة ؛ فهو الذى يقرأ فيه اليوم ،

وعزل مصحف الحجاج فهو في الصندوق الذي دون المنبر ، انتهى .

بعث المصاحف إلى المساجد
وقال ابن زبالة : حدثني مالك بن أنس قال : أرسل الحجاج بن يوسف إلى أمهات القرى بمصاحف ، فأرسل إلى المدينة بمصحف منها كبير ، وهو أول من أرسل بالمصاحف إلى القرى ، وكان هذا المصحف في صندوق عن يمين الأسطوانة التي عملت علماً لمقام النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يفتح في يوم الجمعة والخميس ، ويقرأ فيه إذا صليت الصبح ، فبعث المهدي بمصاحف لها أثمان فجعلت في صندوق ونحى عنها مصحف الحجاج ، فوضعت عن يسار السارية ، ووضعت منابر لها كانت تقرأ عليها ، وحل مصحف الحجاج في صندوقه فجعل عند الأسطوانة التي عن يمين المنبر ، انتهى .

قلت ولا ذكر لهذا المصحف الموجود اليوم بالقبة التي بوسط المسجد المنسوب لعثمان رضي الله تعالى عنه في كلام أحد من متقدمي المؤرخين ، بل فيما قدمناه ما يقتضى أنه لم يكن بالمسجد حينئذ ، بل ولا ذكر له في كلام ابن النجار ، وهو أول من أرتخ من المتأخرين ، وقد ترجم لذكر المصاحف التي كانت في المسجد ، ثم ذكر ما قدمناه عن ابن زبالة ثم قال : وأكثر ذلك دثر على طول الزمان ، وتفرقت أوراقه ، قال : وهو مجموع في يومنا هذا في جلال في المقصورة أى المحترقة إلى جانب باب مروان . ثم ذكر أن بالمسجد عدة مصاحف بخطوط ملاحج موقوفة مخزونة في خزائن ساج بين يدي المقصورة خلف مقام النبي صلى الله عليه وسلم . قال : وهناك كرسي كبير فيه مصحف مقل عليه نفذ به من مصر ، وهو عند الأسطوانة التي في صف مقام النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى جانبه مصحفان على كرسيين يقرأ الناس فيهما ، وليس في المسجد ظاهر سواهما ، انتهى . ولم أر نسبة المصحف الموجود اليوم لعثمان رضي الله عنه إلا في كلام المطري ومن بعده عند ذكر سلامة القبة التي بوسط المسجد من الحريق كما قدمناه . نعم ذكر ابن جبير في رحلته ما حاصله أن أمام مقام النبي صلى الله عليه وسلم - وقد عبر عنه بالروضة

الصغيرة - صندوقاً ، وأن بين المقام وبين الحجرة - أى بجانب المقام من جهة المشرق - محل كبير عليه مصحف كبير في غشاء مقفل عليه هو أحد المصاحف الأربعة التي وَجَّه بها عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى البلاد ، انتهى .

وهذا المصحف الذى أشار إليه ينطبق فى الوصف على المصحف الذى ذكر ابن النجار أنه نفذ به من مصر ، ولم يصفه بما ذكره ابن جبير من نسبته لعثمان ، مع أن ابن جُبَيْر مُصَرِّح بأنه من المصاحف التى بعث بها عثمان إلى الآفاق ، لأنه الذى قتل وهو فى حجرة ، وقد قال ابن قتيبة : كان مصحف عثمان الذى قتل وهو فى حجرة عند ابنه خالد ، ثم صار مع أولاده وقد دَرَجُوا . قال : وقال لى بعض مشايخ أهل الشام : إنه بأرض طُوسَ ، انتهى .

وقال الشاطبي ما حاصله : إن مالكاً رحمه الله قال : إنما يكتب المصحف على الكتابة الأولى ، لا على ما استحدثته الناس . قال : وقال : إن مصحف عثمان رضى الله عنه تغيب فلم يجد له خبراً بين الأشياء . وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام فى كتابه فى القراءات : رأيتُ المصحف الذى يقال له الإمام مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، استُخْرِج لى من بعض خزائن الأمراء ، وهو المصحف الذى كان فى حجرة حين أصيب ، ورأيت آثار دمه فى مواضع منه . وردّه أبو جعفر النحاس بما تقدم من كلام مالك . قال الشاطبي : وأباه المنصفون لأنه ليس فى قول مالك « تَغَيَّب » ما يدل على عدم المصحف بالسكلية بحيث لا يوجد ؛ لأن ما تغيب يرجى ظهوره .

قلت : فيحتمل أنه بعد ظهوره نقل إلى المدينة ، وجعل بالمسجد النبوى . لكن يُؤمِّن هذا الاحتمال أن بالقاهرة مصحفاً عليه أثر الدم عند قوله تعالى : (فسيفكهم الله - الآية) كما هو بالمصحف الشريف الموجود اليوم بالمدينة ، ويذكرون أنه المصحفُ العثماني ، وكذلك بمكة ، والمصحف الإمام الذى قتل عثمان رضى الله عنه وهو بين يديه لم يكن إلا واحد ، والذي يظهر أن بعضهم

وضع خَلُوقًا على تلك الآية تشبيهاً بالمصحف الإمام ، ولعل هذه المصاحف التي قدمنا ذكرها مما بعث به عثمان رضى الله عنه إلى الآفاق ، كما هو مقتضى كلام ابن جبير فى المصحف الموجود بالمدينة ، وفى الصحيح من حديث أنس فى قصة كتابة عثمان رضى الله عنه للقرآن من المصحف التى كانت عند حفصة « وأنه أمر بذلك زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وأنه أرسل إلى كل أقر بمصحف كما نسخوا » .

مصحف عثمان
الذى أرسلها
إلى الآفاق

واختلف فى عدة المصاحف التى أرسل بها عثمان إلى الآفاق ؛ فالمشهور كما قال الحافظ ابن حجر أنها خمسة . وأخرج ابن أبى داود فى كتاب المصاحف من طريق حمزة الزيات قال : أرسل عثمان أربعة مصاحف ، وبعث منها إلى الكوفة بمصحف ، فوقع عند رجل من مراد فبقي حتى كتبت مصحفى عليه . قال ابن أبى داود : وسمعت أبا حاتم السجستاني يقول : كتبت سبعة مصاحف ، [وأرسلها] إلى مكة ، وإلى الشام ، وإلى اليمن ، وإلى البحرين ، وإلى البصرة ، وإلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً ، انتهى .

وليس معنا فى أمر المصحف الموجود اليوم سوى مجرد احتمال ، والله أعلم . ويستحب تعليق المصاييح فى المسجد وقد قدمنا ما يقتضى أن تيمم الدارى أول من فعل ذلك فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : أول من فعله عمر بن الخطاب ، لما جمع الناس فى التراويح على إمام واحد . وروى ابن زبالة عن يوسف ابن مسلم قال : كان زيت قناديل المسجد يحمل من الشام ، حتى انقطع ذلك فى ولاية جعفر بن سليمان الأخيرة على المدينة ، فجعله على سوق المدينة . قال : ثم لما طرح ما يؤخذ من العنب عن الناس فى ولاية داود بن عيسى على المدينة سنة ثمان وتسعين ومائة أخرج من بيت المال .

تعليق المصاييح
فى المسجد

قال : ولم يزل رزقُ صاحب زيت المسجد ثلاثة دنانير تجرى عليه فى كل شهر من بيت المال ، وعليه فيها ما تكسر من القناديل ، انتهى .

وقال ابن النجار . وفي يومنا هذا يصل الزيت من مصر من وقوف هناك ، ومقداره سبعة وعشرون قنطاراً بالمصرى ، ويصل معه مائة وستون شمة بين كبار وصغار ، وعلبة فيها مائة مثقال ندّ لتجمير المسجد ، انتهى .

قلت : وفي زماننا يُحمّل له من الزيت من مصر والشام زيادة على مائة قنطار بعضها من أوقاف تحت نظر قاضى الشافعية بمصر وبعضها تحت نظر الإمام بمصر ، والله أعلم .

الفصل الحادى والثلاثون

فيما احتوى عليه المسجد من الأروقة والأساطين

والبالوعات والسقايات والدروع ، وغير ذلك مما يتعلق به من الرسوم وصف عام

قال ابن جبير : إن المسجد النبوى مستطيلٌ يحفه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به ، ووسطه كله صحن ، فجهة القبلة منها — يعنى المسقف القبلى — خمس بلاطات ، يعنى أروقة ، وقد قدمنا أنه زيد فيه رواقان آخران فصار سبعة أروقة آخذة من المشرق إلى المغرب ، قال : والجهة الشامية خمسة أروقة أيضاً .

قلت : وهذا موافق لما قدمناه فى زيادة المهدي عن ابن زبالة من أنه جعل خمس أساطين فى السقائف الشامية ، وقدمنا أن الموجود به اليوم أربع فقط ، وذلك أربعة أروقة ، فكأنه لما زيد بعد الحريق الأول الرواقان فى مسقف القبلة اختصروا رواقاً من المسقف الشامى فأدخلوه فى صحن المسجد ، ولم أر من نبه على ذلك من المؤرخين ، وهذا المسقف هو المسمى اليوم بالدكاك ؛ لارتفاعه على بقية أرض المسجد ، ولم أعلم وقت حدوث ذلك ، ولم يتعرض ابن جبير لذكر ارتفاعه مع ذكره لما دون ذلك ، وقد كانت رحلته قبل حريق المسجد الأول فلمل ذلك مما حدث بعده ، كما حدثت الدكتان اللتان بجنبتى المسجد فى الحريق الثانى كما سبق .

وحدث في زماننا قبيل ذلك عند طرف الدكاك القبلي مما يلي المغرب دكة بارزة هناك ، وهى الدكة التى وضع بها ما أخرج من جوف الحجرة الشريفة من الهدم فى العمارة التى أدركناها .

وفى كلام ابن زبالة ما يؤخذ منه تسمية المسقف الشامى بسقائف النساء .

قال ابن جبير : والجهة الشرقية ثلاثة أروقة آخذة من القبلة إلى الشام ، والجهة الغربية أربعة كذلك ، هذا ما ذكره ابن جبير إلا أنه عبر فى الجميع بالبلاطات بدل الأروقة ، وكذا صنع ابن عبد ربه فى العقد ، وهو مطابق لما عليه المسجد اليوم ، إلا ما أشرنا إليه فى المسقف القبلي والشامى .

قال ابن جبير : ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع إزارا على إزار ، أى وزرة فوق أخرى ، مختلف الصنعة واللون ، مجزع أبدع تجزيع ، والنصف الأعلى من الجدار منزل كله بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء قد أنتج الصناعات فيه نتائج من الصنعة غريبة تضمنت تصاوير أشجار مختلفات الصفات ماثلة الأغصان بشعرها ، والمسجد كله على تلك الصنعة ، لكن الصنعة فى جدار القبلة أخف ، والجدار الناظر إلى الصحن من جهة القبلة كذلك ، ومن جهة الشام أيضاً ، والغربي والشرقي الناظران إلى الصحن مجددان أيضاً ومقرنّان قد زينا برسم يتضمن أنواعاً من الأصبغة ، إلى ما يطول وصفه ، انتهى .

جدران المسجد

ووصف ابن عبد ربه فى « العقد » ما فى جدار القبلة من وزرات الرخام وطرر الذهب والفسيفساء ، ثم قال : وحيطان المسجد كلها من داخله مزخرفة بالرخام والذهب والفسيفساء أولها وآخرها .

وذكر أيضاً أن رؤوس الأساطين مذهب عليها أكف منقشة مذهب ، وكذلك أعتاب الأبواب مذهب أيضاً .

قلت : وقد زال ذلك كله بسبب الحريق الأول ، وبقي من آثاره شيء يسير فى مؤخر المسقف الغربى بجدار المسجد مما يلي الدكاك ، وشيء يسير بالمأذنة الغربية

الشمالية مما يلي بابها فيه شيء من الفسيفساء . وأما جدار القبلة فليس به اليوم إلا لوح يتضمن صور أشجار عن يمين مستقبل الحراب الشريف ، وهو من الآثار القديمة ، وكان يقابله في جهة يسار المستقبل لوح مثله سقط قريباً ، ثم زال ذلك كله في الحريق الثاني . وبالجدار المذكور اليوم وَزَرَةٌ رخام أولُ مَنْ أحدثها بعد الحريق الأول الظاهر جَعَمَق كما قدمناه مع بيان أن الحراب العثماني وما حوله كان مرخماً قبل ذلك ، وبقية المسجد مبيض أحسن بياض .

وفي جدار القبلة عصابتان من طراز تقدم ذكرهما أيضاً ، وكان قد انقشر من العليا منهما شيء يسير ، فقلع متولى العمارة التي أدركناها ذلك وما حوله ، وجعله طرازاً باسم سلطاننا الأشرف قايتباي أعز الله أنصاره ، ووصله ببقية العصابة المذكورة . وتقدم أيضاً ذكر الطراز الآخر من جهة السقف إلى قرب العصابة المذكورة ، وبيان أن الذي ترجَّحَ عندي أنه جعل لتمييز المسجد النبوي عما زيد فيه ، وقد زال ذلك كله بعد الحريق الثاني ، وأعادوا منه ترخيم جدار القبلة كما سبق .

عدد أساطين
المسجد

وأما عدد الأساطين فذكر ابن زبالة أنها مائتان وستة وتسعون أسطواناً ، منها في جدار القبر الشريف ستة . وذكر ابن النجار أيضاً ما يؤخذ منه ذلك . وقال ابن جبير : عدتها مائتان وتسعون أسطواناً ، ولا مخالفة بينهما ؛ لأن ابن جبير لم يعتبر الأساطين الست التي في جدار القبر الشريف ، وليس فيه خلل إلا بأسطوان واحد ؛ لأن الذي اقتضاه تحريرنا أن جملة الأساطين التي كانت في ذلك الزمان بما في جدار القبر مائتان وخمسة وتسعون أسطواناً ؛ لأن المسقف الغربي أربعة صفوف ، فإذا اعتبرت من الجدار القبلي إلى الجدار الشامي كان كل صف ثمانية وعشرين أسطواناً ، لجملة هذا المسقف مائة أسطوان واثنا عشر أسطواناً ، والمسقف الشرقي ثلاثة صفوف كل صف منها ثمانية وعشرون أيضاً إلا الصف الأوسط فإنه ينقص أسطواناً كما ظهر لنا عند انكشاف الحجرة ؛ لأن

الأسطوانة الملتصقة إلى جدار الحجرة الشامي الذي في جوف الجدار الظاهر التي تقدم أن متولى العمارة أدخلها في عرض ذلك الجدار في الصف المذكور إنما يقابلها فيه الأسطوان الداخل بعضها في الجدار الظاهر من جهة القبلة ، وكان مقتضى وضع الأساطين في مقابلة بعضها بعضاً من كل جانب أن تكون بينها أسطوانة أخرى في موازاة الأسطوانة التي بين أربعة القبر وأسطوان الصندوق الداخلة في الجدار الظاهر ، لكن لم يتأت ذلك ؛ لكونها تكون حينئذ في جوف الحجرة الشريفة ، فسقط بسبب ذلك في هذا الصف أسطوان ، وخفي ذلك على من لم يشاهد الحجرة الشريفة . وحينئذ فجملة أساطين المسقف الشرقي من جدار القبلة إلى الجدار الشامي ثلاثة وثمانون أسطواناً ، والباقي بعد ذلك في المسقف القبلي ما يوازي صحن المسجد فقط ، وهو خمسة صفوف كل صف عشرة أساطين لجملة ذلك خمسون أسطواناً ، والباقي أيضاً في المسقف الشامي خمسة صفوف تقابل ذلك وجماليها خمسون أسطواناً ، لجملة أساطين المسجد بما دخل في جدار القبر مائتان وخمسة وتسعون أسطواناً - بتقديم التاء - وفي مؤخر المسقف الغربي أسطوانتان ملتصقتان إلى الجدار الغربي لم تدخلا في هذه العدة .

وأما عدد أساطين المسجد اليوم فقد تقدم أنه زيد في المسقف القبلي من ناحية صحن المسجد رواقان ونقص من المسقف الشامي من ناحية الصحن رواق ، فيزيد على ما تقدم عشرة أساطين ، وذلك خارج عن الأساطين التي أخذت لأجل السقف البارز في رحبة المسجد أمام الباب الشامي من المقصورة المستديرة على الحجرة الشريفة .

وحدث في العمارة المتجددة بعد الحريق إسقاط أسطوان كانت بين الأسطوان التي إليها المصلى النبوي وبين الحراب العثماني ، وضم بعض أساطين أخرى إلى الأساطين التي هناك ، وفيما حول الحجرة الشريفة ، وإبدال بعضها بدعائم على ما سبقت الإشارة إليه في الفصل التاسع والعشرين مع ما حدث من التغيير في أساطين

المسقف القبلي، وكانت أساطين المسجد كلها - كما قال ابن جبير في وصفها - أعمدة متصلة بالسماك دون قسي ينعطف عليها، فكأنها دعائم قوائم، وهي من حجر منحوت قطعاً مامامة مثقبة، يوضع أثني في ذكر، أي بأعمدة الحديد، ويفرغ بينها الرصاص إلى أن يتصل عموداً قائماً، ويكسى بغلالة جيار، ويبالغ في صقلها ودلكها، فتظهر كأنها رخام أبيض.

قلت: وأراد بالقسي ما نسميه اليوم بالقناطر المعقودة حول صحن المسجد، وأما الأساطين الداخلة في الأروقة فإنها متصلة بالسقف، سوى الرواقين اللذين يليان رحبة المسجد من المسقف القبلي، ثم جعل المسقف القبلي كنسبتهم بعد العبارة المتجددة بعد الحريق الثاني كما سبق.

وقد عبر ابن النجار - تبعاً لمن قبله - عن تلك العقود بالطاقات، فقال: وأما طاقاته أي المحيطة بالصحن ففي القبلة إحدى عشرة طاقة، وفي الشامي مثلها، وفي المشرق والمغرب - أي كل جانب منهما - تسع عشر طاقة، وبين كل طاق وطاق أسطوان، ورأس الطاقات مسدود بشبابيك من خشب.

قلت: وهو موافق لكلام ابن زبالة فيما يلي المشرق والمغرب، يخالف له فيما يلي القبلة والشام؛ فإنه قال: وعدد طاقاته مما يلي القبلة اثنتا عشرة طاقة، ومما يلي الشام اثنتا عشرة، ومما يلي المشرق تسع عشرة، ومما يلي المغرب تسع عشرة، فذلك اثنتان وستون طاقة، انتهى.

وهذا لا يتم إلا على تقدير أن يكون المسقف الغربي ثلاثة أروقة فقط كالمسقف الشرقي، فتكون العقود التي تلي القبلة والشام اثني عشر، وما تقدم في عدد الأساطين ينافية؛ فالصواب ما ذكره ابن النجار.

وعدد قناطره المحيطة برحبته اليوم من جهة القبلة والشام موافق لما ذكره ابن النجار؛ فإنها من كل جانب إحدى عشرة، غير أن باب المقصورة الشامي وما أحدث له من السقف أمامه سد واحدة من تلك القناطر القبليّة.

وأما عدد قناطره من المشرق والمغرب فقد نقصت واحدة من كل جهة ؛ لما تقدم من زيادة الرواقين بالمسقف القبلي ، ونقص رواق من المسقف الشامي ، فصار عدد القناطر في كل جانب منهما ثمانى عشرة قنطرة .

والمسدود اليوم بالشبابيك من رؤوس القناطر إنما هو رؤوس القناطر القبلية وبعض ما يليها من القناطر الشرقية ، ثم زال ذلك في الحريق الثانى ، وقد ذكر ابن زبالة عن محمد بن إسماعيل قال : أدركت المسجد كان يضيق عن الناس يوم الجمعة حتى يصلى بعضهم فى دار القضاء ، وهى يومئذ مبنية ، وفى دار ابن مكل ، وفى دار النحامين ، وفى دار عاتكة ، قال : فلما قدم أبو جعفر المنصور المدينة سنة أربعين ومائة أمر بستور فستر بها صحن المسجد على عمد لها رؤوس كقريات الفساطيط ، وجعلت فى الطيقان - أى القناطر المتقدم ذكرها - فكانت الريح تدخل فيها ، فلا يزال العمود يسقط على الإنسان ، فغيرها وأمر بستور هى أكشف من تلك الستور وبحبال ، فأتى بها من جدة من حبال السفن القنبار ، وجعلت على سبيلك حبالها اليوم ، فكانت تجعل على الناس كل جمعة ، فلم يزل كذلك حتى خرج محمد بن عبد الله بن حسن يوم الأرباء ليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين ومائة ، فأمر بها فقطعت درارع لمن كان يقاتل معه ، فتركت حتى كان زمان هرون أمير المؤمنين فأحدث هذه الأستار ، ولم يكن يعنى صحن المسجد يستتر زمان بنى أمية .

قلت : وهذا شئ قد انقطع قديما لعدم الاحتياج إليه لما قلّ الناس بالمدينة ، حتى إن كثيراً من الأروقة لا يمتلئ بالناس .

وبالمسجد اليوم ستارة بالقرب من باب الحجرة الشامي تُرْخى على ما يليه من القناطر الشرقية لتَقَى من يجلس هناك من خدام المسجد حر الشمس .

وقال ابن زبالة ويحيى : وكان ماء المطر إذا كثر فى صحن المسجد يغشى السقائف التى فى القبلة ، وكانت حصباء تلك الناحية تسيل إلى صحن المسجد ،

فجعل بين القبلة والصحن لاصقاً بالسوارى حجاب من حجارة من المربعة التي في غربى المسجد إلى المربعة التي في شرقيه على القبر ، فمنع الماء من الصحن أن يغشى القبلة ومن احتباء القبلة أن يصير إلى الصحن . وعبارة يحيى : فأمر أبو البختري بحجارة فجعلت رداً لذلك الماء الذى كان يدخل والحصباء التي كانت تسيل فيما بين المربعة التي كانت عند القبر والمربعة التي في غربى المسجد ، وجعل ذلك لاصقاً بالسوارى .

قلت : والمراد أنه جعل أحجار الحجاب المذكور فيما بين السوارى التي تلى رحبة المسجد من المشرق إلى المغرب ، وقد كانت مربعة القبر أول السوارى المذكورة من جهة المشرق ؛ لأنها في صف أسطوان الوفود كما قدمناه ، وذلك الصف كان آخر المسقف القبلى ، وكانت المربعة الغربية في آخر السوارى المذكورة مما يلى المغرب ، وهى الأسطوان الثمينة اليوم التي بينها وبين ركن صحن المسجد الغربى اليوم أسطوانتان بسبب زيادة الرواقين المتقدم ذكرهما في مؤخر المسقف المذكورة ، وهذا الحجاب المذكور قد اندفن اليوم فلا يظهر منه شيء ، والظاهر أنه كان بين السوارى المطييفة بصحن المسجد من المشرق والمغرب حجاب مثل ذلك ، وكانت بقاياها ظاهرة فيما يلى الدكاك من المسقفين المذكورين قبل حدوث ما سبق من الدكاك بهما ، والمسقف القبلى اليوم أرضه عالية على ما يليه من الصحن يسيراً ؛ فلا يغشاها مياه الأمطار ، لكن وطأه متولى العمارة بعد الحريق الثانى حتى ساوى به أرض المصلى الشريف كما سبق ، فاحتاج إلى عمل حجاب من الأحجار بين السوارى التي تلى رَحْبَةَ المسجد من جهة القبلة وما حولها .

وأما عدد البالوعات بصحن المسجد فقد ذكر ابن زبالة ويحيى أن به أربعاً وستين بالوعة لماء المطر عليها أرحاء لها صمائم من حجارة يدخل الماء من خلالها . قلت : ولا يظهر به اليوم غير بالوعة واحدة لها فؤهتان ، وهى عند الحجرة

عدد بالوعات
المسجد

المتقدم ذكرهما في تجديد المسجد ، وإخدي الفوهتين إلى جانب الحجرين من القبلة ، والثانية إلى جانبهما من جهة الشام ، ويجتمعان في بئر واحدة هناك ، وعليهما حبران كالأرحاء ، وفي أسفل ما على فوهتهما من ذلك مشبك يدخل الماء من خلاله ليمنع نزول الحصباء هناك ، ومع ذلك فقد بجروها في العمارة المتقدم ذكرها أولاً ، فخرج منها شيء كثير من الحصباء .

سقايات المسجد وأما السقايات التي كانت به فذكر ابن زباله أنه كان في صحن المسجد في زمنه تسع عشرة سقاية ، وذلك في صفر سنة تسع وتسعين ومائة ، منها ثلاث عشرة أحدثتها خالصة ، وهي أول من أحدث ذلك ، ومنها ثلاث سقايات لزيد البربري مولى أمير المؤمنين ، ومنها سقاية لأبي البحتري وهب بن وهب ، ومنها سقاية لشجن أم ولد هارون أمير المؤمنين ، ومنها سقاية لسلسبيل أم ولد جعفر بن أبي جعفر . وقد أورد ذلك ابن النجار مترجماً عليه بذكر السقايات التي كانت في المسجد ، ثم قال : وأما الآن فليس في المسجد سقاية إلا في وسطه . قال : وفيه بركة كبيرة مبنية بالآجر والجص والخشب ينزل إليها بدرج أربع في جوانبها ، والماء ينبع من فوارة في وسطها تأتي من العين ، ولا يكون الماء فيها إلا في أيام المواسم إذا جاء الحاج ، وبقية السنة تكون فارغة . عملها بعض الأمراء بالشام ، واسمها شامة . قال : وعملت الجهة أم الخليفة الناصر لدين الله في مؤخر المسجد سقاية كبيرة فيها عدة من البيوت ، وحفرت لها بئراً ، وفتحت لها باباً إلى المسجد في الحائط الذي يلي الشام ، انتهى .

قلت : الذي يظهر من كلام ابن زباله أنه أراد بالسقايات ما يجعل لأجل الشرب ، وظاهر ما ذكره ابن النجار أن المراد بذلك ما يجعل للوضوء . وذكره لما عملته أم الخليفة الناصر لدين الله صريح في ذلك ، فإنه يعني بذلك الميضأة التي بابها في حائط المسجد الشامي ، وكان لها باب آخر من خارج سدّ قديماً ، وهو ظاهر فيما يلي المسجد من المغرب .

وقوله « فيها عدة بيوت » أى عدد الأخلية التى بها .
وقوله أولا « فأما الآن فليس فى المسجد سقاية إلا فى وسطه » . الظاهر أنه يريد السقاية التى كانت للشرب بوسط المسجد .

وقد ذكرها البدر ابن فرحون فقال : ولقد كان فى وسط المسجد سقاية يحمل إليها الماء من العين بناها شيخ الخدام فى ذلك الوقت ، ووقف عليها أوقافاً من ماله وكانت متقدمة على النخل تقديرها خمسة عشر ذراعاً فى مثلها ، وجعل فى وسطها مصرفاً للماء مرخماً ، ونصب فيها مواجير الماء وأزياراً ودوارق وأكوازاً ، وحجّرها بالخشب والجريد ، وجعل لها غلّقا من حديد ، واستمرت السنين العديدة ، فكثرت الشرف فيها ، والتزاحم عندها ، وصار يدخلها من يتوضأ فيها فر بما يزيل فيها الأذى ، من استقرب المدى ، ثم تعدى الحال وزاد شرها . وذكر فتنة اتفقت للخدام مع بعض الأشراف بسببها ، قال : فأما غلّمت مفسدتها على مصلحتها أزيلت عن اجتماع من القاضى شرف الدين الأميوطى والشيخ ظهير الدين ، انتهى .

وأما البركة التى ذكرها ابن النجار فإنها مذكورة فى كلام المطرى ، واقتضى كلامه نسبتها لابن أبى الهيجاء ، فإنه ذكر ما سيأتى عنه فى الكلام على العين الزرقاء من أن ابن أبى الهيجاء فى حدود الستين وخمسة أمدّ منها شعبة وأوصلها إلى الرحبة التى عند المسجد من جهة باب السلام ، يعنى سوق المدينة اليوم . ثم قال : وكان قد جعل منها شعبة صغيرة تدخل إلى صحن المسجد ، وجعل لها منهلأ بدرج عليه عقْد يخرج الماء إليه من فوّارة يتوضأ منها مَنْ يحتاج إليه ، فحصل بذلك انتهاك حرمة المسجد الشريف من كشف العورات والاستنجاء فى المسجد ، فسُدّت لذلك ، انتهى .

قلت : وقد رأيت آثار درجها فى غربى النخيل التى بصحن المسجد قريبا منها ، وليس بالمسجد اليوم شيء من السقايات إلا ما يحمل إليه من الدوارق المسبّلة فيشربها الناس فى أوقات مخصوصة ، إلا أن خزانة الخدام الآتى ذكرها

لا يزال بها ماء لأجل شربهم . ثم لما عمر سلطان زماننا الأشرف مدرسته التي بين باب الرحمة وباب السلام جعل فيها سبيلا مما يلي باب الرحمة له شباك إلى المسجد .

حواصل
المسجد

وأما الحواصل والخزائن التي بالمسجد الشريف ففيه القبة التي بصحنه ، وقد مر ذكرها ، وغالب ما يوضع فيها اليوم زيت وقود المسجد ، وتقدم أن المصحف المنسوب إلى عثمان رضى الله تعالى عنه موضوع بها .

وبالمسجد أيضا أمام كل من المنارات الأربع خزانة ، إلا أن ما أمام المنارتين القبليتين من ذلك أصلى ، بخلاف المنارتين الشاميتين فإنه محدث ، ولذلك قال البدر ابن فرحون : وما أحق بالإزالة ما أحدث بالمنارتين الشاميتين ؛ إذ قدم بابهما على بابيهما الأصليين ، وجعل ما بين البابين في كل منارة خلوة اقتطع بها جانب من المسجد كبير لا شك في تحريمه ، انتهى .

وفي جهة المغرب أيضا إلى جانب باب المنارة الشمالية الغربية المعروفة بالخشبية - سميت بذلك لأن حد الخشبين كان يؤذن بها - خزانة صغيرة يضع بعض الخدام فرشهم فيها ، وربما أقام بها من يريد الاعتكاف بالمسجد ويلبها في جهة المغرب أيضا حاصلان كبيران يوضع فيهما القناديل الزجاج و بعض آلات المسجد ، وفي الأول منهما مما يلي الخزانة المذكورة وضعت كتيبي ، وكنت أجلس به للمطالعة والاعتكاف فإنه من المسجد ، وانفق لى فى سبب الإقامة به أمر ليس هذا محل ذكره .

ويقابل ذلك فى جهة المشرق مما يلي المنارة المعروفة بالسنجارية خلوة كبيرة فيها فرش الخدام أيضا ، وإلى جانبها خزانتان إحداها بيد من تكون له التوبة من الفراشين يضع فيها فوانيس المسجد ونحوها ، والثانية بيد الخدام أيضا ، وفى جهة المشرق قريبا من باب جبريل بينه وبين باب النساء خزانة يضع فيها الخدام الماء لشربهم وبعض فرشهم وأمتعتهم ، وهى المذكورة فى كلام ابن جبير حيث

قال : وفي الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود هو موضع مييت بعض السدنة الحارسين للمسجد المبارك ، قال : وسدنته فتيان أحايش وصقالبة ظرافُ الهيئة نظاف الملابس والشارات ، انتهى ، وإلى جانب الخزانة المذكورة صندوق يوضع فيه ما يستخرج من القبة من الزيت للوقود في كل ليلة .

وفي غربى المسجد بين باب الرحمة وباب السلام حاصل يوضع فيه النورة ، يعرف بابه بخوخة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ، فإنها كانت في مُحاذاته كما تقدم ، فلما زيد في المسجد جعلوا هناك خوخة في المسجد تحاذى الخوخة الأولى وقد جعل لذلك ثلاثة أبواب عند عمارة المدرسة الأشرفية ، ومحل الخوخة من ذلك الباب الثالث من على يسارك إذا دخلت من باب السلام

وأما عدد قناديله فذكر ابن زباله أنها مائتان وتسعون قنديلا في زمانه ، قناديل المسجد وجعلتها في زماننا مائتا قنديل وستة وخمسون قنديلا ، هذه الدائمة ، ونحو المائة قنديل يسرجونها في بعض الأوقات ، ويجعلون في كل قنطرة من القناطر التي تلى صحن المسجد من مقدمه وجنبتيه ثلاثة قناديل ، ويقتصرون في بعض الأوقات على واحد في كل قنطرة كما في القناطر التي في مؤخر المسجد ، سيما إذا قلَّ عندهم الزيت ، وحدث بعد الحريق الثانى زيادة سلاسل كثيرة معدة لتعليق القناديل بها ، وبصحن المسجد أربعة مشاعيل اثنان في جهة القبلة واثنان في جهة الشام ، وكل واحد كالأسطوانة ، وبأعلاه مسرجة عظيمة تشمل في ليالى الزيارات المشهورة ، ولا أدري ابتداء حدوث ذلك ، ويزيدون تنانير وبزاقات في مقدم الروضة وما حولها ، ويحتفلون بذلك سيما في ليلة سبع وعشرين من رمضان ، ويسرجون في كل ليلة منه نحو أربعين شمعة ، ويضعونها على شمعدانات كبار في قبلة الروضة والحجرة ، وفي غربى المنبر ، وبعضها في محراب الخنفة الآتى ذكره .

وللمسجد فوانيس عدتها ستة ، يطوف بها الخدام بعد صلاة العشاء الآخرة

لإخراج الناس من المسجد عند غلق أبوابه ، ولا يَدْعُونَ به إلا الخدام وَمَنْ له نوبة من أرباب وظائفه .

وذكر البدر ابن فرحون في ترجمته شبل الدولة كافوراً المظفرى شيخ الخدام المعروف بالحريرى أن من آثاره الحسنة تبطيل الطوف بالشعل من جريد النخل وتبديلها بالفوانيس التى يطوفون بها اليوم كل ليلة ، وذلك أنهم كانوا قبل الحريرى وصدرًا من ولايته يأخذ عميد الخدام وبعض الفرائشين شعلًا من سعف النخل فيطوفون بها عوض الفوانيس اليوم يَحْزُونَ بها كأشد ما يكون من الجرى ، فإذا وصلوا باب النساء خرجوا بها وخطبوا ما بقى معهم منها ، وكانت تسود المسجد وتسود بابه أيضاً ، وفيها من البشاعة ما لا يخفى ، فأمر بالفوانيس عوضها رحمه الله تعالى .

وبصحن المسجد نخيل مغروسة ، ولم أدر ابتداء حدوث ذلك ، إلا أن ابن جبير قال في رحلته عند ذكر القبة التى بصحن المسجد مالفظة : ويازأها فى الصحن خمس عشرة نخلة ، انتهى .

فى صحن
المسجد نخيل
مغروسة

وقال البدر ابن فرحون : إن أول مَنْ أدرك من مشايخ الخدام الشيخ عزيز الدولة ، قال : وفى أيامه غرس كثير من هذا النخل الذى بالمسجد اليوم ، وكان منه شيء قبل العزيزى ، ومات أكثره ، انتهى .

وذكر المجدُّ عزيز الدولة وقال : إن غرس أكثر هذا النخل كان فى زمانه ، ثم قال : وكأنه لم يتعرض أحد لإنكار هذه البدعة إجلالاً لشأنه ، أو خوفاً من لسانه ، أو تمكيناً له من الاقتداء بمن غرسه قبله وخنق فى عنقه من هذا المنكر حبله ، وقد انجمعت تلك النخيل لهبوب عاصفة هبت فى أواخر مشيخة ياقوت الرسولى ، ثم أعيد الغراس ، ووقع الإنكار من بعض الناس ، لكن لم يصادف كلامه محلاً من الإشارة والإفادة ، ولعله سوغ محلاً على احتمال أنه لم يغرس

أولا إلا بنوع من الاستحقاق ، لسكن لا يخفى ما فى اعتماد الاحتمال البعيد من قلة التقى .

قلت : وقد أراد طوغان شيخ أن يزيد فيه سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ، فأنكرت ذلك ، وقام بعض أهل الخير فى المنع منه ، فبطل ذلك والله الحمد .
ولم يزل المسجد النبوى بإمام واحد يصلى بالناس فى تمام النبى صلى الله عليه أئمة المسجد وسلم ، ويتقدم أيام الموسم إلى الحراب العثمانى ، حتى سعى طوغان شيخ المذكور فى إحداث محراب للحنفية فى دولة الأشرف إينال ، فقام أهل المدينة فى منعه ، وساعدهم على ذلك من أرباب الدولة المصرية صاحب الشيم المرضية جمال الدين يوسف ناظر الخواص الشريفة ، تغمده الله برحمته ، فلم يتم لطوغان المذكور ذلك ، فلما توفى المشار إليه أعاد طوغان السعى فى الدولة المذكورة ، فبرزت المراسيم به بعد الستين وثمانمائة^(١) ، واستمر إلى زماننا فيصلى إمامه الصلوات الخمس عقب انصراف إمام الحراب النبوى ، وهو إمام الشافعية ، إلا فى التراويح فيصليان معاً ، وهذا الأمر دبّ إلى المدينة الشريفة من مكة المشرفة .

وقد قال الزركشى : إن السبب فى حدوث ذلك بها أن الإمام كان فى ذلك الوقت مبتدعاً ، فعندما امتنع الناس من إقامة الجماعة مع إمامهم الذى أقاموه سمحوا للناس فى اتخاذ أئمة لأنفسهم ، واستمر الأمر عليه ، وكذا جرى مثله فى بيت المقدس وجامع مصر قديماً ، انتهى .

وقد بينا حكم ذلك فى كتابنا الموسوم « بدفع التعرض والإنكار ، لبسط روضة المختار » .

وقال ابن زباله ويحيى : وعرض منقبة جدار المسجد مما يلى المغرب ذراعان عرض جدر المسجد ينقصان شيئاً ، وعرض منقبته مما يلى المشرق ذراعان وأربعة أصابع ، وإنما زيد فيه لأنها من ناحية السيل .

قلت : وهذا لأن السيل كان يغشى المسجد من تلك الجهة ، ولهذا سقط

(١) هذا التاريخ لا يناسب ما قبله ، فلهذا « بعد التسعين وثمانمائة »

جدار الحجرة الشرق كما قدمناه ، وسقط أيضاً جدار المسجد من الناحية المذكورة كما قدمناه من قول ابن زبالة « أخاف المسجد من شرقيه في سلطان محمد ابن عبد الله الربيعي من ولد ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب من ناحية موضع الجنائز فأمر به فبنى » انتهى .

وقد قدمنا في زيادة الوليد ما رواه يحيى من طريق ابن زبالة في ذرع عرض المسجد ، وبيننا فساد ، والصواب ما ذكره ابن زبالة في أواخر الكلام على المسجد؛ فإنه ذكر ذرع مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الأول عرضاً وطولاً ، ثم قال : وذرع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم ذرع عرضه من مقدمه في القبلة بين المشرق والمغرب مائة وخمسة وستون ذراعاً ، وذرع مؤخره إلى الشام بين المشرق والمغرب مائة وثلاثون ذراعاً ، ينقص مؤخره عن مقدمه خمسة وثلاثين ذراعاً ، وطوله من اليمن إلى الشام مائتان وأربعون ذراعاً .

قلت : وقد حررت ذرعه فكان عرضه من مقدمه في القبلة مائة ذراع وسبعة وستين ذراعاً ونصفاً ، فيزيد على ما ذكره ابن زبالة ذراعين ونصفاً ، وذلك لاختلاف الأذرع أو لرخاوة الحبل الذي وقع القياس به ، ونحو ذلك . وكان عرضه من مؤخره في الشام مائة وخمسة وثلاثين ذراعاً فيزيد على ما ذكره خمسة أذرع .

وكان طوله من القبلة إلى الشام مائتي ذراع وثلاثة وخمسون ذراعاً ، فيزيد على ما ذكره ابن زبالة ثلاثة عشر ذراعاً .

وقد ذكر ابن النجار ما يوافق ذرعنا هذا مع مخالفة يسيرة فقال : طول المسجد اليوم من قبلته إلى الشام مائتا ذراع وأربعة وخمسون ذراعاً وأربعة أصابع ، ومن شرقيه إلى غربيه - يعني في مقدمه - مائة ذراع وسبعون ذراعاً صافية ، انتهى .

قال ابن زبالة : وطول رحبة المسجد - يعني صحنه - من اليمن إلى الشام مائة

وخمسة وستون ذراعاً ، وعرضها بين المشرق والمغرب ثمان وتسعون ذراعاً ، انتهى .
وذكر ابن النجار أن طولها مائة وتسعة وخمسون ذراعاً وثلاثة أصابع ،
وعرضها سبع وتسعون ذراعاً راجعة .

قلت : وطول رحبة المسجد اليوم من القبلة إلى الشام مائة ذراع واثنا
 وخمسون ذراعاً ونصف ذراع ، فإذا أضفتَ لذلك عرض الرواق الذي زيد في
 الرحبة على ما قدمناه من أنه زيد فيها رواقان من ناحية ونقص رواق من ناحية
 والرواق نحو تسعة أذرع فيكون جملة ذلك مائة وأحدًا وستين ذراعاً ونصفاً ،
 وذلك نحو ما ذكره ابن النجار .

وأما عرض الرحبة اليوم من مقدم المسجد فخمسة وتسعون ذراعاً بتقديم التاء
 على السين ، والله تعالى أعلم .

وذكر ابن النجار أن طول المسجد في السماء خمسة وعشرون ذراعاً ، ومراده
 ارتفاعه من أرضه إلى أعلى شرفاته ؛ لأنه ذكر في موضع آخر ما يقتضي أن
 ارتفاعه من أرض المسجد إلى سقفه أحد وعشرون ذراعاً ، فيكون سمك السقف
 والحائط الذي عليه الشَّرَارِيف حول صحن المسجد أربعة أذرع ، والذي بين
 أرض مقدم المسجد وسقفه بعد خفض أرضه عقب الحريق الثاني اثنان وعشرون
 ذراعاً ، وتقدم في زيادة عمر رضى الله عنه ما يقتضي أنه كان بينهما في زمانه أحد
 عشر ذراعاً ، ولم أقف على ذكر ما جعله عثمان رضى الله تعالى عنه بينهما ، وذرع
 ما بين الأرض المحيطة بالمسجد من خارجه وأعلى سترة جداره من جهة المغرب
 ثمانية وعشرون ذراعاً ؛ فهذا سمك المسجد من خارجه ، والله أعلم .

وقد تقدم ذكر منابر المسجد وذرعها في زيادة الوليد

الفصل الثانى والثلاثون

فى أبواب المسجد وماسد منها ، وما بقى ، وما يحاذيها من الدور قديما وحديثا
أبواب المسجد تقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل للمسجد الشريف ثلاثة أبواب :
بابا فى مؤخره ، والباب الذى يُدعى باب عاتكة ويقال له باب الرحمة ، والباب
الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم وهو باب آل عثمان
وقد اقتضى كلام المؤرخين أن هذين البابين لم يحولا عن مكانهما ، بل
لما زيد فى المسجد من جهتهما جعل فى محاذة محلهما الأول

وقد قدمنا فى زيادة عمر رضى الله عنه أنه جعل الأبواب ستة : بابين عن
يمين القبلة ، وبابين عن يسارها ، وبابين خلف القبلة ، وأنه لم يغير باب عاتكة
ولا باب عثمان ، بل زاد فى جهة باب عاتكة الباب الذى عند دار مروان وهو
باب السلام ، وزاد بعد باب عثمان الباب المعروف بباب النساء ، فهذان البابان
هما المزيّدان فى المغرب والمشرق .

وسبق أيضا أن عثمان رضى الله تعالى عنه أقر هذه الأبواب على حالها ،
ولم يزد فيها شيئا .

ولم يذكر ابن زباله ولا يحيى ولا رزين ما زاده الوليد من الأبواب ،
ولا ما زاده المهدي حين زاد فى المسجد ، إلا أن ابن النجار قال : وأما أبواب
المسجد فكانت بعد زيادة المهدي فيه ، وذكر تسعة عشر بابا غير باب خوخة
أبى بكر رضى الله عنه ، كما سيأتى ، وبين أما كتبها كما سنشير إليه .

وقال المطرى وتبعه المراغى والجود : لما بنى الوليد بن عبد الملك المسجد ووسّعه
جعل له عشرين بابا ، وذكر الأبواب المذكورة بعينها مع الخوخة المذكورة ،
وهذا وهم ؛ لأن المنقول فى هذه الأبواب أنها إنما كانت فى زيادة المهدي ، وهى
التي استقر عليها الحال فى أمر المسجد ، وأيضا فما سيأتى فى وصف الأبواب التي

في جهة الشام وما يليها من جهة المشرق والمغرب لا يتصور أن يكون في زمن الوليد ؛ لما تقدم من أن المهدي هو الذي زاد ذلك ، والمطري موافق عليه ، فكيف يذكر وصف تلك الأبواب فيما نسبته للوليد ، وسيأتى أيضاً أن أحد هذه الأبواب - وهو باب زياد - إنما فتحه زياد في ولاية أبي العباس المنصور .

والحاصل من كلام من كان قبل المطري من المؤرخين أن الذي استقر عليه أمر المسجد بعد انتهاء زياداته في أمر الأبواب عشرون باباً ، مع عدد الخوخة المذكورة ؛ فإنها كما سيأتى كانت شائعة في رحبة دار القضاء ولا ينافي ذلك قول ابن زبالة . وفي المسجد - يعني في زمنه - أربعة وعشرون باباً لأنه قال في تفصيلها : منها ثمانية من ناحية المشرق ، ومما يلي القبلة : باب يدخل منه الأمراء من ناحية باب مروان إلى المقصورة ، وعن يسار القبلة الباب الذي تدخل منه المقصورة من موضع الجنائز ، وعن يمين القبلة باب بحذائه سواء في الطرف الآخر أى في مقابلته يدعى باب بيت زيت القناديل ، ذكروا أن مروان عمله ، وخوخة آل عمر تحت المقصورة ، ومما يلي المغرب ثمانية أبواب منها الخوخة التي تقابل يمين خوخة أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، ومما يلي الشام أربعة ، انتهى كلام ابن زبالة ؛ فغيره لم يعد الباب الذي كان في القبلة شارعاً في دار مروان ؛ لأنه باب دار ، وكذا خوخة آل عمر ؛ لأنها للدار للمسجد ، وكذا باب زيت القناديل ؛ لأنه باب خزانة للمسجد لا يدخل منه عامة الناس ، وكان موضعه عند زاوية الجدار الغربية مما يلي القبلة وجدوه عند عمارة المنارة التي بباب السلام وسد بجدارها

وأما الباب الذي ذكره عن يسار القبلة فيؤخذ من كلامه أنه كان في المشرق مقابلاً لباب زيت القناديل وأنه خاص بالمقصورة ، ولو كان باباً عاماً لعدّه في الأبواب التي في جهة المشرق ، وقد ظهر هذا الباب عند هدم المنارة الشرقية بعد الحريق الذي أدركناه ، وهو باب صغير وجد مسدوداً عند زاوية

جدار المسجد الشرقية ، وكأن الدخول كان منه إلى الخزانة التي تحت المنارة الشرقية اليمانية ثم منها إلى المقصورة ، ولهذا لما بسط ابن زبالة الكلام على أبواب المسجد في موضع آخر لم يذكر هذه الأبواب الأربعة ، بل اقتصر على العشرين فلنذكر ما ذكره وغيره فيها وما زاده المطرى في بيانها مما يعرف بمحلها ثم نفرد خوخة آل عمر بالكلام عليها ، فنقول :

الأول : وهو مبتدأ أبواب جهة المشرق مما يلي القبلة ، بابُ النبي صلى الله عليه وسلم ، سمي بذلك لكونه في مقابلة حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها التي بها قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، لا لكونه دَخَلَ منه ؛ إذ لا وجود له في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وقد سد عند تجديد الحائط المشرق ، وجعل مكانه شبك يقف الإنسان عنده من خارج ، فيرى الحجرة الشريفة ، كذا قاله المطرى ومَن بعده ، وسيأتى ما يخالفه

باب النبي
صلى الله عليه
وسلم

الثانى : باب على رضى الله عنه ، كان يقابل بيته الذى خلف بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد سد أيضاً عند تجديد الحائط ، وما ذكرنا من أن باب النبي صلى الله عليه وسلم مقدم على هذا الباب للقبلة صرح به المطرى ومَن تبعه ، وهو الذى تقتضيه المناسبة التى ذكروها للتسمية بذلك ، لكن صرح ابن النجار بخلافه ، فقال فى عَدَّ أبواب جهة المشرق : باب على ، ثم باب النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم باب عثمان ، ثم باب مستقبل دار رَيْطَةَ ، إلى آخر الترتيب الآتى ، ومأخذه فى ذلك أن ابن زبالة ويحيى ذكرا ما كان مكتوباً على جدارات المسجد فقالا : وفى الزيادة الشرقية فى جَوَف المسجد بين باب على و باب النبي صلى الله عليه وسلم مكتوب ، وذكرا ما كان مكتوباً

باب على

ثم قالوا : وبين باب النبي صلى الله عليه وسلم و باب عثمان مكتوب ، وذكرا ما كان مكتوباً

ثم ذكرا أيضاً فى الكتابة من خارج الجدار على الأبواب نحو هذا ، وقالوا

أيضاً : إن في القبلة من خارج المسجد في موضع الجنائز حيث يصلى على الموتى عند باب علي بن أبي طالب مكتوب بعد البسملة (إن في خلق السموات والأرض - الآية) فافتضى ذلك أن باب علي هو أول أبواب هذه الجهة ، وأن باب النبي صلى الله عليه وسلم هو الثاني منها ، والذي حمل المطري ومن تبعه على مخالفة ذلك ما قدمناه عنه من رعاية تلك المناسبة ، ويحتمل أن بيت علي رضي الله عنه كان ممتداً في شرقي حجرة عائشة رضي الله عنها إلى موضع الباب الأول فسمى باب علي بذلك ، ويدل له ما تقدم عن ابن شبة في الكلام على بيت فاطمة رضي الله عنها من أنه كان فيما بين دار عثمان التي في شرقي المسجد وبين الباب المواجه لدار أسماء ، ويكون تسمية الباب الثاني بباب النبي صلى الله عليه وسلم تقر به من بابه ، والله أعلم .

باب عثمان
باب جبريل

الثالث : باب عثمان ، وهو الباب الذي وضع قبالة الباب الذي كان يدخل منه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قدمنا عن ابن زبالة ويحيى أن الباب الذي كان يدخل منه النبي صلى الله عليه وسلم هو باب آل عثمان وإذا أطلق عليه في رواية ليحيى في زيادة عثمان أنه باب النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ظهر درج عند باب مقصورة الحجرة الشامي في مقابلة الباب المذكور بسبب الحفر للدعامة التي هناك ، والظاهر أنه درج الباب المذكور قبل تحويله ؛ لكونه في موازاة جدار المسجد الأول كما يؤخذ مما سبق من حدوده ، وسمى بذلك لمقابلته لدار عثمان بن عفان ، وسيأتي أسماها كانت من الطريق التي تسلك إلى البقيع التي عن يسار الخارج من هذا الباب إلى الطريق التي في شامي المدرسة الشهابية ، والذي يقابل هذا الباب اليوم من دار عثمان رباط أنشاء جمال الدين محمد بن أبي المنصور الأصفهاني المعروف بالجواد وزير بني زنكي . قال المطري : وقفه على فقراء العجم ، وجعل له فيه تربة لها شباك

في جهة الشباك المتقدم ذكره في مقابلة الهبر الشريف . ولما مرض وهو في السجن قال للشيوخ أبي القاسم الصوفي : كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر ، يعني أنه فرح بأن يأتيه الموت وهو على تلك الحالة ، وقال له : إن بيني وبين أشد

الدين شركوه - يعنى عم صلاح الدين بن أيوب - عهداً أن مَن مات قبل صاحبه حمله صاحبه الحى إلى المدينة الشريفة فدفنه فيها فى التربة التى عملها ، فإن أنا مت فأمض إليه فذكره ، فلما توفى سار الشيخ إلى أسد الدين فى هذا المعنى ، فأعطاه مالا صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة الشريفتين ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ، ومن بقرأ بين يدى تابوته عند النزول والرحيل وقدم مدينة تكون فى الطريق ، وينادى بالصلاة عليه فى البلاد ، فلما كان فى الحلة اجتمع الناس للصلاة عليه ، فإذا شاب قد ارتفع على موضع عالٍ ونادى بأعلى صوته :

سرى نَعَشُهُ فوق الرقاب ، وطالما سرى جودُهُ فوق الركاب ونائلةُ
يَمُرُّ على الوادى فَتُثْنِي رماله عليه ، وبالنادى فتثنى أراملةُ
فلم يُرَ بالكِ أكثر من ذلك اليوم ، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول
الكعبة ، وصلوا عليه بالحرم ، وحملوه إلى المدينة فصلوا عليه ودفنوه بترته المذكورة .
وكانت وفاته فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وكان له آثار حسنة سيما
بالحرمين الشريفين ، وعمل للمدينة الشريفة السور الآتى ذكره ، وسندكر هناك
شيئاً من ترجمته .

وفى قبلة رباطه من دار عثمان أيضاً ثُرْبَةٌ اشترى أرضها أسدُ الدين شيركوه
ابن شاذى عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى ، وحمل إليها
هو وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين بعد موتهما ودفنا فيها سنة ست
وسبعين وخمسمائة ، وتوهم الذهبى أنهما دفنا بالبقيع فحزم به فى العبر .
وبقية دار عثمان من القبلة دار إلى جانب هذه التربة موقوفة على خدام
الحرم الشريف يسكنها مشايخهم ، وهذه دار عثمان الكبرى المقابلة لهذا الباب ،
وسمى ذكر داره الصغرى التى فى موضعها رباط المغاربة . ويعرف هذا الباب
أيضاً بباب جبريل عليه السلام .

قلت : ولم يبينوا سببَ تسميته بذلك ، ولعل سببها ما سبق فى الفصل الرابع
والعشرين من قول أبى غسان : إن علامة مقام جبريل التى يعرف بها اليوم أنك

تخرج من الباب الذي يقال له باب آل عثمان فتري على يمينك إذا خرجت من ذلك الباب على ثلاثة أذرع وشبر وهو من الأرض على نحو من ذراع وشبر حجراً أكبر من الحجاراة التي بها جدار المسجد ، مع ما قدمناه أيضاً من أن الأصل في ذلك أن جبريل عليه السلام في غزوة بني قريظة أتى على فرس عليه اللأمة حتى وقف بباب المسجد عند موضع الجنائز ، ولم يكن ثم حينئذ غير الباب المذكور وروى ابن زبالة عن المطلب بن عبد الله أن حارثة بن النعمان مرّ والنبي صلى الله عليه وسلم مع جبريل في موضع الجنائز ، فر ولم يسلم ، فقال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : أهو من شهد بدرًا ؟ قال : نعم ، قال : فكيف هو في أمتك ؟ أيرى لهم به ؟ قال : نعم ، قال : ما زالت الملائكة الذين شهدوا بدرًا معك يري لهم ، قال : فجاء حارثة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل رأيت الرجل الذي كان معي ؟ قال : نعم وشبهته بدحية الكلبي ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : فإنه جبريل ، وقد قال لو سلم لرددنا عليه ، فقال : ما منعتني من السلام إلا أني رأيتك تتحدث معه فسكرت أن أقطعه عنك ، وروى البيهقي في الدلائل عن حارثة بن النعمان قال : مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل جالس في المقاعد ، فسلمت عليه ومررت ، فلما رجعنا وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم قال لي : هل رأيت الذي كان معي ؟ قلت : نعم ، قال : فإنه جبريل عليه السلام ، وقد ردّ عليك السلام .

وكان مكتوباً على هذا الباب من خارجه بعد البسملة (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ - الْآيتين) .

باب ريطة
(باب النساء)

الرابع : باب ريطة بفتح الراء ابنة أبي العباس السفاح ، كان يقابل دارها ، ويعرف بباب النساء ، وسبب تسميته بذلك ما رواه أبو داود من طريق عبد الوارث عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو تركنا هذا الباب للنساء ، قال : نعم ، فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات . ثم قال أبو داود عقبه : وقال غير عبد الوارث : قال قال عمر ، وهو أصح ، ثم رواه من طريق إسماعيل

عن أيوب عن نافع عن ابن عمر « قال قال عمر » بمعناه ، قال : وهو أصح . ثم رواه أيضاً من طريق بكير عن نافع قال : إن عمر بن الخطاب كان ينهى أن يدخل من باب النساء ، وهذا هو المعتمد ؛ لما تقدم من أنه لم يكن في زمنه صلى الله عليه وسلم في شرقي المسجد غير باب آل عثمان . وقد روى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن ابن عمر قال : سمعت عمر حين بنى المسجد يقول : هذا باب النساء ، فلم يدخل منه ابن عمر حتى لقي الله ، وكان لا يمر بين أيدي النساء وهن يصلين . ودار ربطة التي كانت مقابلة لهذا الباب قال المطري : كانت دار أبي بكر الصديق ، ونقل أنه توفي فيها ، وهي الآن مدرسة للحنفية بناها يازكوح أحد أمراء الشام ، وعمل له فيها مشهداً نقل إليه من الشام ، والطريق إلى البقيع بينها وبين دار عثمان ، نقل ذلك ابن زبالة .

قلت : وما ذكره من نسبة الدار المذكورة لأبي بكر الصديق سيأتي مستنده . مع بيان ما فيه .

وفي أعلى هذا الباب من خارجه لوح من الفسيفساء مكتوب فيه آية الكرسي من بناء المسجد القديم ، وقد زال عند الحريق الثاني .

خامس

الخامس : باب كان يقابل دار أسماء بنت الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم ، كانت من جملة دار جبلة بن عمرو الساعدي ، ثم صارت لسعد بن خالد بن عمر بن عثمان ، ثم صارت لأسماء المذكورة ، وهي اليوم رباط للنساء ، وقد سُدَّ هذا الباب أيضاً عند تجديد الحائط الشرقي من المنارة الشرقية الشمالية إلى هذا الباب المذكور في أيام الناصر لدين الله سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، كذا قاله المطري ومن تبعه ، وظاهر كلام ابن جبير أن سُدَّ هذا الباب وغيره من الأبواب كان قبل الثمانين وخمسمائة ؛ لأن رحلة ابن جبير كانت قبل الثمانين كما قدمناه ، وقد قال فيها : والمسجد المبارك تسعة عشر باباً أي غير خوخة أبي بكر لم يبق منها مفتوحاً غير أربعة ، في المغرب منها اثنان ، وفي المشرق

اثنان، انتهى. لكنه قال بعد ذلك: وفي القبلة باب واحد صغير مغلق، يعنى باب دار الإمارة. ثم قال: وفي المغرب خمسة مغلقة أيضاً، وفي المشرق خمسة أيضاً مغلقة، وفي الشام أربعة مغلقة أيضاً، انتهى. فتبين أنها كانت في زمنه غير مسدودة لكنها مغلقة، فيكون سدّها حدث في التاريخ الذي ذكره المطري، والله أعلم.

السادس، باب كان يقابل دار خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه وقد دخل باب سادس في بناء الحائط المذكور، والدار المذكورة اليوم رباط الرجال، ومعها في جهة الشمال دار عمرو بن العاص كما سيأتى بيانه، ويعرف الرباط المذكور اليوم برباط السبيل، وكذا رباط النساء المتقدم ذكره يعرف بذلك أيضاً، والرباطان المذكوران بناهما القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى رحمه الله تعالى. وذكر ابن زبالة ويحيى أنه كتب على نجاف هذا الباب من داخل « مما أمر به المهدي محمد أمير المؤمنين مما عمل البصريون سنة اثنتين وستين ومائة ومبتدأ زيادة المهدي في المسجد .

قلت: وكتابة ذلك عليه تقتضى أنه الذي أحدثه وما بعده، وأنه أول زيادته كما تقدم .

السابع: باب كان يقابل زقاق المناصع دخل أيضاً في الحائط بعد تجديده، باب سابع وزقاق المناصع كان بين دار عمرو بن العاص وأبيات الصوافي، وعبر عنها المطري بدار موسى بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة الخزومي لأمر توههم من كلام ابن زبالة كما ستوضحه إن شاء الله تعالى، والزقاق اليوم ينفذ إلى دار الحسن بن علي العسكري، وتعرف اليوم بحوش الحسن، وكان الزقاق المذكور ينفذ إلى المناصع خارج المدينة، وهو كان متبرزاً للنساء بالليل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وأبيات الصوافي هذه التي عبر عنها المطري بدار موسى ابن إبراهيم سيأتى أن بعضها اليوم رباط للرجال أنشأه القاضي الفاضل يحيى الدين

أبو على عبد الرحيم بن على بن الحسن اللخمي البَيْسَكاني ، ودخل هذا الباب أيضاً في الحائط عند تجديده .

باب ثامن

الثامن: باب كان يقابل أبيات الصوافي دخل في الحائط أيضاً عند تجديده ، وأبيات الصوافي تقدم أن بعضها الذي يلي دار عمرو بن العاص هو رباط الفاضل ، وبعضها الآخر وهو الذي كان يقابل هذا الباب هو المعروف اليوم بدار الرسام التي وقفها الشيخ صفي الدين السـلامى على أقاربه ثم على الفقراء ، وفي شاميتها الباب الذي يدخل منه إلى رباطي النخلة ، وهما رباطا السـلامى ، وقد عبر المطري عن ذلك بقوله « وهى - يعنى أبيات الصوافي - في دور كانت بين موسى بن إبراهيم الخزومي وبين عبيد الله بن الحسين الأصغر بن على زين العابدين بن الحسين ابن على بن أبي طالب رضى الله عنهم » قال : وموضع هذه الدور اليوم دار اشتراها الشيخ صفي الدين أبو بكر بن أحمد السـلامى رحمه الله ووقفها على قرابته السـلاميين ، انتهى .

وسياتى أن أبيات الصوافي هى الدور التي كان فيها قهطم ، وأنها كانت بين دار عمرو بن العاص ودار موسى بن إبراهيم الخزومي المشتركة بينه وبين عبيد الله بن الحسين ، وأن هذه الدار المشتركة كانت أول الدور في جهة المشرق مما يلي الشام ، فأبيات الصوافي هى دار قهطم ، وفي موضعها ما قدمناه من رباط الفاضل ودار السـلامى . وأما الدار المشتركة ففي موضعها اليوم الميضاة المعطلة وبيت الرئيس إبراهيم الذي بين الميضاة والزقاق الذي يلي دار المضيف كما سياتى بيانه ، ودار المضيف هى آخر الدور التي في جهة الشام ، والدار المشتركة كانت ملاصقة لها ، وسياتى بيان منشأ ما وقع للمطري ، وهذا الباب آخر الأبواب التي كانت في جهة المشرق .

أبواب المسجد الشامية

وقد طوى المطري الكلام على الأبواب الشامية ، فقال : وفي شمالى المسجد

أربعة أبواب سدت أيضاً عند تجديد الحائط الشمالى ، وليس فى شمالى المسجد اليوم باب إلا باب سقاية عمرتها أم الإمام الناصر .
وسبب عدم كلام المطرى على الأبواب الشامية أن ابن زباله لم يذكر ما يقابلها من الدور ، لكن ظهر لى أنه يؤخذ من كلامه وكلام ابن شبة فى الدور المطيعة بالمسجد ، فلنذكر ما استفدنا منهما فى ذلك ، فنقول :

التاسع : باب كان فى دبر المسجد ، وهو أول أبواب الشام مما يلى المشرق ، وكان يقابل دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، وهى دار جده عبد الرحمن التى كان يُنزلُ بها ضيفان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتى ، وبقية دار ابن مسعود ، وفى موضعهما الدار المعروفة بدار المضيف وما فى غربها من رباط الظاهرية

العاشر : باب كان يقابل دار أبى الغيث بن المغيرة ، وفى موضعها اليوم باب عاشر الرباط المعروف برباط الظاهرية والشرشورة

الحادى عشر : باب كان يقابل ما يلى دار أبى الغيث من أبيات خالصة مولاة أمير المؤمنين ، وموضع ذلك المارستان الذى أنشأه أبو جعفر المنتصر بالله سنة سبع وعشرين وستمائة

الثانى عشر : باب كان فى مقابلة بقية أبيات خالصة وفى موضع ذلك اليوم بيت وزقاق يتوصل منه إلى الرباط الذى أنشأه الشيخ شمس الدين الشسترى وهذا الباب آخر الأبواب التى كانت فى جهة الشام ، وكلها اليوم مسدودة كما تقدم ، وما يوجد اليوم من الدور والأبنية الملاصقة لجدار المسجد المذكور كلها حادثة كما يؤخذ من كلام متقدمى المؤرخين ، ولم أقف على ابتداء حدوث ذلك الثالث عشر : وهو أول أبواب المغرب مما يلى الشام باب كان يقابل دار منيرة وكانت من دور عبد الرحمن بن عوف ، ثم صارت لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ثم صارت لمنيرة مولاة أم موسى ، وفى موضعها اليوم الدار التى

الباب الحادى عشر

الباب الثانى عشر

الباب الثالث عشر

صارت لشيخنا العارف بالله سيدى عبد المعطى المغربى نزيل مكة المشرفة ، ثم انتقلت للسيد الشريف العلامة محيى الدين قاضى الحنابلة بالحرمين الشريفين ، وما فى قبلتها إلى الباب الذى يدخل منه إلى دور القياشين التى للخواجا قاوان ، وهذا الباب مسدود كما هو مشاهد من خارج المسجد .

الباب الرابع عشر

الرابع عشر : باب كان يقابل دار منيرة أيضاً كما صرح به ابن زباله ويحيى ، ووجه الجد فجعله الذى بعده ، وموضع ما يقابله اليوم من دار منيرة الدار الموقوفة على الخدام التى فى قبلة الزقاق الذى يدخل منه إلى دور القياشين ، وهذا الباب مسدود اليوم كما يظهر من خارج المسجد أيضاً ، وبذلك يعلم أن محلها من ذلك الجدار لم يحدد .

الباب الخامس عشر

الخامس عشر : باب كان يقابل دار نصير صاحب المصلى وهو مولى المهدي وكانت هذه الدار منزلاً لسكينة بنت الحسين بن على رضى الله عنهم ، وفى موضعها اليوم الدار التى عن يسار الداخل من زقاق دور القياشين والدار التى تعرف اليوم بدار تميم الدارى ، وقد آلت إلى ثم وقفتها ، وهى الآن منزلى ، ولم أقف على أصل فى تسميتها بذلك ، وهذا الباب فى مقابلة الدار المعروفة بدار تميم من دار نصير ، وهو مسدود اليوم ، وبقيت منه قطعة تظهر من خارج المسجد ، ودخل باقيه عند تجديد الحائط من باب عاتكة إليه .

الباب السادس عشر

والسادس عشر : باب كان يقابل دار جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ، وقد دخل فى داره هذه فارغاً أطم حسان بن ثابت كما قاله ابن زباله ، وفى موضعها اليوم المدرسة الكبرجية التى أنشأها السلطان شهاب الدين أحمد سلطان كبرجة من بلاد الهند فى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ، وهذا الباب دخل فى الحائط عند تجديده ، وأسقطه المطرى مع أنه مذكور فى كلام ابن زباله ويحيى ، ولما أسقطه زاد بدله باباً لا وجود له فى كلام من قبله ، على ما سيأتى التنبيه عليه .

السابع عشر : باب عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية ، كان يقابل
 باب عاتكة (باب السوق)
 (وباب الرحمة) دار عاتكة المذكورة ، ثم صارت هذه الدار ليحيى بن خالد البرمكي والد جعفر ،
 ودخلت في دار جعفر المتقدم ذكرها ، وتوهم الزين المرائي من نسبتها لجعفر بن
 يحيى ومن كون أطم حسان دخل في دار جعفر بن يحيى أنها محل أطمه ، وليس
 كذلك لما قدمناه ، وفي موضعها اليوم دار من أوقاف الخدام في قبلة المدرسة
 الكبرجية تواجه بين الخارج من باب المسجد المذكور ، وقد استبدلها الشيخ
 الزيني بن مزهر بإزالة ديوان الانشآت وما غريبها من الدور، واتخذ ذلك مدرسة
 ورباطا وأروقة على يد صاحبنا العلامة الشيخ نور الدين الحلبي نفع الله به ، ويعرف
 هذا الباب قديماً أيضاً بباب السوق ، كما يؤخذ مما سيأتى في باب زياد ، لأن سوق
 المدينة كانت في المغرب في جهته . ويعرف قديماً أيضاً بباب الرحمة ؛ فإن يحيى
 ذكر في بناء النبي صلى الله عليه وسلم لمسجده أنه صلى الله عليه وسلم جعل له ثلاثة
 أبواب : باب في مؤخره ، وباب عاتكة الذي يدعى باب عاتكة ويقال باب
 الرحمة ، هذا لفظه . وأطبق على وصفه بذلك من بعده من المؤرخين ، حتى صار
 في زماننا هو الأغلب عليه ، ومع ذلك فلم أر في كلام أحد بيان السبب في تسميته
 بذلك ، وسألت عنه من لقيته من المشايخ فلم أجده عند أحد منهم علماً من ذلك ،
 ثم ظهر لي معناه بحمد الله تعالى ، وذلك أن البخاري روى في صحيحه عن أنس
 ابن مالك أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة من باب كان نحو دار القضاء ورسولُ
 الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً ،
 ثم قال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغثنا ، فرفع
 رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ،
 قال أنس : ولا والله ما نرى في السماء من سحب ولا قزعة ، وما بيننا وبين
 سماع من بيت ولا دار ، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الثرس ، ولما توسطت
 السماء انتشرت ثم أمطرت ، فلا والله ما رأينا الشمس سبعة ، ثم دخل رجل من

ذلك الباب في الجمعة - يعنى الثانية - ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب - الحديث - بطوله ، وسنبين في باب زياد - وهو الذى يلى هذا - أن دار القضاء كان محلها بين باب الرحمة وباب السلام ، وقد تقرر أنه لم يكن للمسجد في زمنه صلى الله عليه وسلم في هذه الجهة إلا الباب المعروف بباب الرحمة ؛ فظهر أن هذا الرجل الطالب لإرسال المطر وهو رَحْمَةٌ إذا دخل منه ، وقد أنتج سؤاله حصول الرحمة ، وأنشأ الله السحاب الذى كان سببا فيها من قبله أيضا ؛ لأن سَلَمًا في غربى المسجد ، فسمى والله أعلم بباب الرحمة لذلك ، لكن في رواية البخارى عن أنس أيضا أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وُجَّاه المنبر ، ومقتضاها أنه دخل من الباب الذى كان في شامى المسجد ؛ لقرب إطلاق مواجته المنبر عليه ، لكن ذلك الباب ليس نحو دار القضاء ، فليجمع بين الروايتين بأن الواقعة متعددة كما اقتضاه كلام بعضهم ، أو بأنه وقع التجوز في إطلاق كون ذلك الباب وُجَّاه المنبر ، أو بأن باب الرحمة كان كما قدمناه في آخر جهة المغرب مما يلى الشام ، فجاء ذلك الداخل من جهته ودخل منه ، ثم رأى أن قيامه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر لا يتم له إلا بتخطى الصفوف ، فخرج إلى الباب الآخر المواجه للمنبر ، فغلب إطلاق باب الرحمة على الباب الذى في جهة مجيئه ؛ لاعتضاده بما تقدم من مجيئ السحاب من قبله ، والله أعلم

والثامن عشر: باب كان يعرف بباب زياد وهو قد سد أيضا عند تجديد الخائط الذى هو فيه وكان بين خَوْخَةَ أَبِي بكر الآتي ذكرها وبين الباب الذى قبله وسمى بذلك لما رواه ابن شبة عن محمد بن إسماعيل بن أبي فديك عن عمه قال : كانت رَحْبَةُ القضاء لعمر رضى الله عنه - يعنى دارا له - وأمر حفصة وعبد الله ابنيه رضى الله عنهما أن يبيعاها عند وفاته في دَيْن كان عليه ، فإن بلغ ثمنها دينه وإلا فاسألوا فيه بنى عدى بن كعب حتى تَقْضَوْهُ ، فباعوها من معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما ، وكانت تسمى دار القضاء ، قال ابن أبي فديك : فسمعت

باب زياد
(باب القضاء)

عمى يقول : إن كانت لتسمى دار قضاء الدين . قال : وكان معاوية اشتراها عند ولايته ، فلم تزل حتى قدم زياد بن عبد الله المدينة سنة ثمان وثلاثين ومائة ، فهدمها وجعلها رحبة للمسجد ، وفتح فيها الباب الذي إلى جنب الخوخة الصغيرة ، وجعل هدمها على أهل السوق ، قال محمد بن إسماعيل بن أبي فديك : فأخذ منى في هدمها أربعة دوانق ، قال ابن أبي فديك : وأخبرني أيضا كما أخبرني عمى عبيد الله بن عمر بن عبد الله بن عبد الله بن عمر قال : وأشار لي عبيد الله إلى صندوق في بيته وقال : في هذا الصندوق إبراهيم من ذلك الدين . وروى أيضا عن عبد العزيز بن مروان أن دار القضاء كانت لعبد الرحمن بن عوف ، قال : وهي اليوم رحبة لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غربيه مما يلي دار مروان . وروى عن سَهْمَةَ بنت عاصم أنها إنما سميت دار القضاء لأن عبد الرحمن اعتزل فيها ليالي الشورى حتى قضى الأمر فباعها بنو عبد الرحمن من معاوية ، فصارت بعد في الصوافي ، وكانت الدواوين فيها وبيت المال ، فهدمها أبو العباس أمير المؤمنين وصيّرها رحبة للمسجد ، فهي اليوم كذلك

وروى ابن زبالة خبر ابن أبي فديك الأول مقتصرًا عليه من طريق محمد ابن إسماعيل - يعني ابن أبي فديك - عن ابن عمر أن عمر توفي وترك عليه ثمانية وعشرين ألفًا ، فدعا عبد الله وحَفْصَةُ فقال : إني قد أصبْتُ من مال الله شيئًا ، وأنا أحبُّ أن ألقى الله وليس في عنقي منه شيء ، فبيعا فيه حتى تَقْضِيَاهُ ، فإن سَجَزَ عنه مالى فسَلَا فيه بنى عَدِي ، فإن باع وإلا فلا تَعُدُّوا قرىشا ، فخرج عبد الله بن عمر إلى معاوية فباع منه دار عمر التي يقال لها دار القضاء ، وباع ماله بالغابة ، فقضى دينه ؛ فكان يقال « دار قضاء دين عمر » وهي رحبة القضاء .

قال محمد بن إسماعيل : فهدم زياد بن عبيد الله إذ كان واليا لأبي العباس على المدينة في سنة ثمان وثلاثين ومائة دار القضاء ، وكانت تُسَكَّرَى من تجار أهل

المدينة ، فهدمها زياد وجعلها رحبة للمسجد ، وفتح الباب الذى إلى جنب الخوخة -
الخبر المتقدم .

قلت : وما تضمنه هذا الخبر من تاريخ هدم الدار وعمل الباب المذكور فيها
ربما يخالف ما ذكره ابن زبالة ويحيى فيما كتبنا على أبواب المسجد ، فإنهما قالوا :
وعلى باب زياد فى لوح من ساج مضروب بمسامير مكتوب من خارج ، ثم ذكرنا
من جملة المكتوب : أمر عبد الله عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله بعمل مسجد
رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمارة هذه الرحبة توسعة لمسجد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ولمن حضره من المسلمين فى سنة إحدى وخمسين ومائة ابتغاء وجه الله
والدار الآخرة ، إلى آخر ما ذكرناه .

قلت : وزیاد هذا هو زياد بن عبيد الله بن عبد المدان الحارثى خال السفاح ،
وكانت ولايته على المدينة ومكة من قبل أبى العباس المنصور فى سنة ثمان وثلاثين
ومائة ؛ فقول ابن أبى فديك فى رواية ابن شبة « فلم يزل حتى قدم زياد بن عبيد الله
سنة ثمان وثلاثين » مُبَيَّنٌّ لتاريخ قدومه فقط ، وقوله « فهدمها » يعنى فى مدة
ولايته ؛ فليس فيه تعرض لأن الهدم كان فى ذلك التاريخ ؛ فلا يخالف ما كتب
على الباب المذكور ، وليحمل أيضاً قوله فى رواية ابن زبالة « فهدم زياد بن
عبيد الله إذ كان والياً فى سنة ثمان وثلاثين ومائة » على أن المراد بيان ابتداء
ولايته ، لا تاريخ الهدم ، جَمْعاً بين الكلامين ، والرواية الأولى أقرب إلى
التأويل من هذه .

وقد ذكر ابن زبالة فى روايته المتقدمة عن محمد بن إسماعيل أنه قال : إن
زياد بن عبيد الله جعل الشُّورَ على الأبواب الأربعة : باب دار مروان أى
المعروف بباب السلام ، والخوخة أى الجمعولة فى محاذة خوخة أبى بكر الصديق
رضى الله عنه ، وباب زياد أى المذكور ، وباب السوق أى وهو باب الرحمة
كما يؤخذ من كلام يحيى .

وقال المجد في ترجمة دار القضاء : هي دار مروان بن الحكم ، وكانت لعمر ابن الخطاب فبيعت في قضاء دينه ، وقد زعم بعضهم أنها دار الإمارة ، وهو محتمل لأنها صارت لأمير المدينة .

قلت : دار مروان هي الآتية في قبلة المسجد ، وليست هذه بلا شك ، ولعل المراد أن مروان ملك دار القضاء فنسبت إليه ، وهو غير معروف ، إلا أن الحافظ ابن حجر نقل عن ابن شبة أنها صارت لمروان وهو أمير المدينة ، قال : فلعل ذلك شبهة من قال « إنها دار الإمارة » فلا يكون غلطاً ، وقال في المشارق : وقد غلط فيها بعضهم فقال يعنى دار الإمارة .

قلت : والذي رأيته في ابن شبة إنما هو صيرورتها لمعاوية كما قدمناه ، مع أن المشهور قديماً بدار الإمارة إنما هي دار مروان التي في قبلة المسجد ، وتقدم أن الأحرار كانوا يدخلون من باب منها إلى المقصورة ، وتزعم البرهان ابن فرحون أنها رحبة دار القضاء ، فقال : قال ابن حبيب : وما كان من مضي - يعني من القضاء - يجلسون في رحاب المسجد ، بل إما عند موضع الجنائز ، يريد خارج باب جبريل ، وإما رحبة دار مروان وهي التي تسمى رحبة القضاء ، وقد جعل ذلك في هذا الوقت ميضأة ، انتهى .. وهو وهم ؛ لأن الذي جعل ميضأة هو نفس دار مروان كما سيأتي ، وبالجملة فلا خلاف في كون دار القضاء هي الرحبة التي كانت في غربى المسجد إلى باب مروان .

ويؤخذ مما تقدم أن هذه الرحبة كانت في محاذة باب زياد وما بعد ، إلى باب السلام .

ويؤخذ مما سيأتي في الدور المطيفة بالمسجد أنها كانت ممقدة إلى باب الرحبة أيضاً ، وهو مقتضى ما أخبر به بعض مشايخ المدينة أنه لم يزل يسمع أنه لم يكن بين باب الرحمة و باب السلام دار تلاصق المسجد .

قلت : فوضع هذه الرحبة اليوم دار الشباك الملاصقة لباب الرحمة ، وما يليها من المدرسة الجوبانية والحصن العتيق .

ودار الشباك أنشأها شيخ الخدام كافور المظفرى ، المعروف بالحريرى ، بعد السبعائة ، وجعل لها شباكاً إلى المسجد ، وليس حول المسجد دار لها شباك في جدار المسجد إلا هى ، والذي يظهر أن باب زياد كان في موضع شباكها أو إلى جانبه القبلى

وأما المدرسة الجوبانية فابتنها جوبان أتاك العساكر المغلية في سنة أربع وعشرين وسبعائة ، وجعل له فيها تربة ملاصقة لجدار المسجد بين دار الشباك والحصن العتيق ، وهى — أعنى التربة — من جملة رحبة القضاء ، واتخذ فيها شباكاً في جدار المسجد ، وهو مسدود اليوم ، ولم يدفن فيها بعد أن حمل إليها في تابوت سنة ثمان وعشرين وسبعائة من بغداد بأمر السلطان أبى سعيد فدخلوا به مكة وطافوا به حول البيت كما فعل بالجواد الأصفهاني ، وذلك صحبة الحاج العراقى ، فلما وصلوا به المدينة منعه أميرها من ذلك حتى يشاور السلطان الناصر ، كذا قاله بعضهم ، وقال الصلاح الصفدى : لما بلغ الملك الناصر أمر تجهيزه ليدفن في المدينة جهز المهجن إلى المدينة ، وأمرهم أن لا يمكن من الدفن في تربته ، فدفن في البقيع .

وذكر لى بعضُ الناس أن علة المنع من دفنه بتربته أنه إذا وضع فيها للقبلة كانت رجلاه إلى الجهة الشريفة ؛ لأن تربته في غربى المسجد ، بخلاف الجواد وغيره ممن دفن في شرقى المسجد ، فإن رؤسهم إلى جهة الأرجل الشريفة ، والله أعلم .

وأما الحصن العتيق فإنه كان منزلاً لأمراء المدينة ، ثم انتقل إلى السلطان غياث الدين سلطان بنجالة أبى المظفر أعظم ابن السلطان اسكندر ، وابتناه مدرسة

في سنة أربعة عشرة وثمانمائة ، وتوفي في تلك السنة ، ويقال : إن غيره سبقه إلى جعله رباطاً قبل ذلك .

ثم اقتضى رأى متولى العمارة بعد الحريق الحادث في زماننا استبدال دار الشباك المذكورة وما يليها من الجوبانية وجميع الحصن العتيق عند هدم ما يلي ذلك من جدار المسجد الغربي ، وعمل ذلك مدرسة ورباطاً للسلطان الأشرف فيما بين باب السلام و باب الرحمة كما سبق في الفصل التاسع والعشرين .

واعلم أن المطري زاد هنا بابا بدل الباب الذي أسقطه قبل باب عاتكة فقال : إنه كان بين باب عاتكة وخوخة أبي بكر الآتية بابان سُدّا عند تجديد الحائط ، وتبعه على ذلك مَنْ بعده ، والذي اقتضاه كلام ابن زبالة ويحيى وابن النجار أنه ليس بين باب عاتكة وبين الخوخة سوى باب زياد ، ولهذا لما أسقط ابن النجار ذكر الخوخة من الأبواب وجعل أبواب هذه الجهة سبعة قال : الخامس باب عاتكة ، السادس باب زياد ، السابع باب مروان ، انتهى . وبه يعلم أن الصواب ما قدمناه ، والله أعلم .

خوخة
تجاه خوخة
أبي بكر

التاسع عشر : الخوخة المجمولة تُجَاه خوخة أبي بكر رضى الله عنه لما زيد في المسجد ، وهو معنى ما تقدم عن ابن زبالة حيث قال في عدد الأبواب : وما يلي المغرب ثمانية أبواب ، ومنها الخوخة التي تقابل معنى خوخة أبي بكر .

قلت : وكانت شارعة في رَحْبة دار القضاء كما قدمناه من كلام ابن زبالة وقدّمنا أيضاً في زيادة عمر رضى الله عنه عن أبي غسان قال : أخبرني محمد بن إسماعيل بن أبي فديك أن عمه أخبره أن الخوخة الشارعة في دار القضاء في غربي المسجد خوخة أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، أى المجمولة في محاذة خوخته . قال ابن زبالة في ذكر الكتابة على أبواب المسجد وليس على الخوخة لا من داخل المسجد ولا من خارجه كتابة ، وقد قدمنا أن لهذه الخوخة اليوم باباً مما يلي المسجد ، وأنه باب حاصل يعرف بحاصل النورة ، وهي معروفة بخوخة أبي بكر ،

ويؤخذ مما تقدم أن ذلك الحاصل من دار القضاء ، وبابه اليوم هي الفتحة الثالثة من الفتحات التي على يسار الداخل من باب السلام ، جعل بابا في موضع الخوخة يدخل منه للمسجد ، وبعده شبك ، ثم باب يدخل منه للمدرسة الأشرفية .

العشرون : باب مروان ، سمي بذلك لملاصقته لداره التي كانت في قبلة المسجد مما يلي الباب المذكور ، وبعضها ينمط على المسجد من جهة المغرب ، وفي موضعها اليوم الميضة التي أنشأها المنصور قلاوون الصالحى عام ست وثمانين وستائة ، ويعرف الباب المذكور أيضا بباب السلام ، وباب الخشوع ، قاله المطرى . وفي رحلة ابن جبير أنه يعرف بباب الخشية ، اه . والزوار غالبا إنما يدخلون منه ؛ لكونه أقصد إلى طريقهم من باب المدينة ، فلا يخفى مناسبة تسميته بذلك كله

قال المطرى : ولم يكن في القبلة حتى إلى اليوم باب إلا خوخة آل عمر ، أو خوخة مروان عند داره في ركن المسجد الغربى ، شاهدناها عند بناء المنارة الكبيرة المستجدة ، كان يدخل من داره إلى المسجد منها ، وقد انسدت بحائط المنارة الغربى

قال الزين المرازى : وينبغى الاعتراض على من أطلق أن مروان كان يدخل منها للمسجد ؛ لأن مروان قتلته زوجته أم خالد بن يزيد آمنة بنت علقمة ، ويقال : فاختة بنت هاشم ، وقيل : مات مطعوناً ، وقيل : مسموماً ، في نصف رمضان سنة خمس وستين

وكانت مدة خلافته تسعة أشهر ، وذلك قبل أن يزيد ولد ولده الوليد بن عبد الملك بن مروان . في المسجد بنحو من ثلاثين سنة ، ولا شكت أنها خوخة آل مروان ؛ فالصواب أنه كان يدخل من مثلها ، لا منها ، وكان هذا الباب هو المراد بقول ابن زبالة : وباب في قبلة المسجد يخرج منه السلطان إلى المقصورة .

قلت : أما ما ذكره المطري من أنه لم يكن في قبلة المسجد باب — يعنى فيما مضى إلى زمنه — إلا خوذة آل عمر؛ فردود بما قدمناه عن ابن زبالة ؛ فإنه فصل الأبواب الزائدة على العشرين فجعل منها الباب الذى كان فى القبلة يدخل منه الأمراء من ناحية دار مروان ، ثم ذكر البابين اللذين عن يمين القبلة وعن يسارها يدخل منهما إلى المقصورة ، والباب الذى عن يمين القبلة هو هذا الذى أدركه المطري ؛ فلا يصح ما ذكره الزين المراغى من جعل كلام ابن زبالة فى الباب الذى ذكره فى القبلة عليه ؛ لأنه قد غاير بينهما ، وأما استدراك المراغى على القول بأن مروان كان يدخل من الباب الذى ذكره المطري فصحيح ، وقد تقدم عن ابن زبالة أنه يسمى باب بيت زيت القناديل . والذى يظهر كما قال المراغى أنه جعل فى مقابلة باب اتخذ مروان هناك أيضا ؛ لأن ابن زبالة روى أن مروان لما بنى داره جعل لها خوذة فى القبلة ، ثم قال : أخشى أن أمنعها ، أى لكونها فى القبلة ، فجعل لها بابا على يمينك حين تدخل : أى وهو الباب المتقدم وصفه ، ثم قال : أخشى أن أمنع المسجد ، فجعل الباب الثالث الذى يلي باب المسجد ، يعنى الملاصق لباب السلام من خارجه ، وفى موضعه اليوم السقاية المقابلة لباب مدرسة الحصن العتيق ، وهذا سبب المناسبة فى تسمية رحبة القضاء برحبة دار مروان ؛ لمقابلتها لبابه هذا .

وروى ابن زبالة عن إسحاق بن مسلم أن عمر بن عبد العزيز لما بنى المسجد أراد أن يجعل فى الأبواب حلقة ، ويجعلها فى الدروب ؛ لئلا يدخلها الدواب ، فعمل الحلقة التى فى باب المسجد مما يلي دار مروان ، ثم بدله فتركها .

قلت : المراد بذلك السلسلة الحديد المجعلة بجنبتي عقد باب السلام تمنع الدواب من الدخول . وفى باب الرحمة اليوم آثار سلسلة كانت هناك ، وسلسلة باب السلام ترفع فى أيام الموسم ؛ لأنه اتفق فى سنة أربع وخمسين وثمانمائة ازدحام الناس عندها فهلك جماعة ، وكان أمام باب السلام من داخله درابزين شبيه

بالدرازين الذى كان من داخل باب جبريل ، وكان الناس لا ينزعون نعالهم إلا عنده ، وكذلك كان مثله أمام باب الرحمة من داخله أيضا ؛ فجعل الأمير بردبك المعمار أيام عمارته للظاهر جَعَمَق هذه الأحجار المصفوفة لإفريزا عند طرف عقد باب السلام مما يلي باب الحصن العتيق ، وجعل ما أمام الباب مما يحاذى العقد المذكور رحبة بالمسجد، وصار الناس ينزعون النعال عندها، وعمل عند عقد باب الرحمة مثل ذلك ، ورفع ذلك الدرازين ، وكان ما بين الدرازين و باب الرحمة منخفضا عن أرض المسجد فسواه بأرض المسجد كما هو اليوم ، فاحتاج إلى رفع عتبة ، فزاد العتبة المتخذة فوق العتبة الأصلية ، وقصر شيئا من أسفل الباب ، وذلك ظاهر فيه اليوم ، وحصل بذلك صيانة للمسجد ، واتخذ أيضا الرحبة التى أمام باب النساء ، ورفع الدرازين الذى كان من داخله ، واتخذ لباب جبريل الرحبة التى أمامه ، ولم يرفع الدرازين ؛ لأن الناس لم يكونوا يمشون بنعالهم إليه ، ثم أزيل درايزينه أيضا عند عمارته بعد الحريق الثانى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل الثالث والثلاثون

فى خَوْخَة آل عمر رضى الله تعالى عنه المتقدم ذكرها ، وما يتعين من سَدِّها فى زماننا .

أعلم أنها اليوم هى التى يُتَوَصَّل إليها من الطابق الذى بالرواق الثانى من أروقة القبلة ، وهو الرواق الذى يقف الناس اليوم فيه للزيارة أمام الوجه الشريف بالقرب من الطابق المذكور . والذى يتخلَّص مما قدمناه فى زيادة عثمان رضى الله عنه والوليد والمهدى أن الأصل فى ذلك أنه لما احتيج لدار حَفْصَة - يعنى حجرتها - قالت : كيف بطريقى إلى المسجد ، فقل لها : نعطيك أوسع من بيتك ، ونجعل لك طريقا مثل طريقك ، فأعطيت دار عبيد الله بن عمر ، أى التى صارت إليه بعد حَفْصَة ، وكانت مَرَبَدًا ، هذا ما رواه ابن زبالة .

تحديد موضع
خوخة آل عمر

وقد قدمنا في زيادة الوليد من رواية ابن زبالة أن عمر بن عبد العزيز بعث إلى رجال من آل عمر ، وأخبرهم أن أمير المؤمنين كتب إليه أن يبني بيت حَفْصَةَ ، وكان عن يمين الخَوْخَةِ أى من داخل المسجد ، فقالوا : ما نبيعه بشئ ، قال : إذا أدخله في المسجد ، قالوا : أنت وذاك ، فأما طريقنا فإننا لا نقطعها ، فهدم البيت ، وأعطاهم الطريق ووسّعها لهم

وقدمنا أيضا ما رواه يحيى عن مالك بن أنس من أن الحجاج الثقفي هو الذي ساوم عبيد الله بن عبد الله بن عمر في هذا البيت وهدمه . وفي رواية ليحيى أن عمر بن عبد العزيز لما وصل في العمارة إلى دار حفصة قال له عبيد الله : لست أبيع هذا هو حق حفصة ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسكنها ، فقال عمر : ما أنا بتارككم أو أدخلها المسجد ، فلما كثرت الكلام بينهما قال لهم عمر : أجعل لكم في المسجد بابا تدخلون منه ، وأعطيكم دار الرقيق ، وما بقى من الدار فهو لكم ، ففعلوا

وقال المطري : إن الوليد لما حج وطاف في المسجد رأى هذا الباب في القبلة فقال لعمر : ما هذا الباب ؟ فذكر له ما جرى بينه وبين آل عمر في بيت حفصة ، وكان جرى بينه وبينهم فيه كلام كثير ، وجرى الصلح على ذلك ، فقال له الوليد : أراك قد صانعت أخوالك .

وقد قدمنا من رواية ابن زبالة الإشارة إلى هذا ، وقدمنا من روايته أيضا عن عبد العزيز بن محمد أنه كان يسمع عبيد الله بن عمر يقول : لا أمانى الله حتى أراى سدها .

وتقدم أن تلك الخَوْخَةُ لم تزل طريق آل عمر إلى دارهم حتى عمل المهدي المقصورة على الرواق القبلى .

قال المطري : فمنعهم الدخول من بابهم ، فجرى في ذلك أيضا كلام كثير تقدمت الإشارة إليه ، اصطاحوا على سدّ الخَوْخَةِ من أعلاها في جدار المسجد ،

وأن يخفضوها في الأرض ويجعلوا على أعلاها في موضع الباب الأول شبك حديد في القبلة ، وحفروها كالسرب ، فتخرج خارج المقصورة في الرواق الثامن من أروقة القبلة ، ولها ثلاث دَرَجَات عند بابها في جَوْف السرب بالمسجد ، وهو الطابق الموجود اليوم ، وعليه قفل من حديد ، ولا يفتح إلا أيام قدوم الحاج لزيارة ، قال المطري : وهى طريق آل عمر إلى دارهم التى تسمى اليوم دار العشرة ، وإنما هى دار آل عبد الله بن عمر ، انتهى .

قلت : وعلى هذا السرب من خارج المسجد باب في جدار المسجد أيضا ، وأمامه دهليز يتوصل منه إلى شارع فيه دور كثيرة سنشير إلى بعضها في ذكر الدور المطيفة بالمسجد .

وقد اختلفوا لتلك الدور أسماء ، حتى قالوا في بعضها : هو بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعضها نسبوه إلى فاطمة ابنته رضى الله تعالى عنها . ويتخذ بعض أهل تلك الدور على ما بلغنى كَحَلًّا في نقرة من الجدار ويقولون للحجاج : هذه مكحلة فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها ، ويشيرون أيضا إلى رَحَا عندهم فيقولون : هذه رَحَا فاطمة الزهراء ، أخبرنى بذلك من لَبَّسُوا عليه الأمر وأخبروه بهذه الأكاذيب حتى أعطاهم شيئا . ويجلس عند ذلك الطابق بالمسجد شخص ليس هو اليوم من ذرية آل عمر ؛ لأن مَنْ كان بيدهم مفتاح هذا الطابق من آل عمر قد انقرضوا ، وبقيت منهم زوجة هذا الشخص الذى يجلس عند هذا الطابق ، ثم توفيت وتركّت أولادا منه ، فاستمر المفتاح بيده ، فيستنيب مَنْ يجلس عند هذا الطابق ويفتحه أيام الموسم ، ويقف عنده جماعة يُزَوِّرون الحجاج ويأخذون من الداخلين منه شيئا شبيها بالمسكس ؛ فإن الجالس عنده لا يمكن أحدا من الدخول منه إلا ببذل شيء يرضيه ، وما حال الحاج الغريب إذا رأى مثل هذا الباب بدرج تحت الأرض في المسجد وقيل له : إنه يصل إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم وبيت ابنته ؟ .

فاتخاذ بعض
الناس بابا
وسيلة للتدجيل

وقد اشتهر ذلك عند أهل المدينة حتى إن أحداً منهم لا ينكره ، فيود الغريب المسكين لو بذل روحه في الوصول لذلك ، وربما لم يكن معه شيء ، فيتجشم المشقة في الوصول لذلك ، فقد أخبرني صاحبنا الشيخ المبارك أبو الجود بركات الجيعاني أنه قدم المدينة قديماً قبل أن يجاور بها ، قال : فلم أملك نفسي أن دخلت في هذا الطابق فطبقته الجالس عنده على ظهري حتى كاد يقصمه لأنه لم يُعطه شيئاً . وأخبرني هو وغيره ممن أثق به أنه يقع في أسفله من الازدحام واختلاط النساء بالرجال مالا يوصف مع ضيقه ، حتى إن الماشي فيه يحتاج إلى الانحناء .

وأخبرني بعضهم أنه رأى فيه منكراً شنيعاً ، وهو أن بعض الأحداث يمشي خلف النساء مع الازدحام ، وكون المشي على تلك الهيئة ؛ فيقع ما لا يرضى الله ولا رسوله بين يديه صلى الله عليه وسلم . وكيف يتبادى الناس على إقرار ذلك الآن ؟ وهو ليس إلا لجرد ما ذكرناه ، فإنه كان باباً للدار ، ولأن مَنْ هو بيده لا يملك شيئاً من تلك الدور ، ولو كان مالكها فليس وضعه لسوى دخول أهل تلك الدور منه ، فإنه لم يجعل إلا ليدخل منه آل عمر إلى المسجد ، لا لأن يأخذوا فلوساً على من يخرج من المسجد ماراً منه ، فقد كانوا منزهين عن ذلك . ثم لو سلمنا أن تلك الدور مستحقة لازيارة فزيارتها متيسرة من خارج المسجد ، وكيف يتخذ المسجد طريقاً ، ويخص منه ما يكون بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم على تلك الحالة المنكرة لأجل شيء خسيس من الدنيا ؟ ونحن نفديه صلى الله عليه وسلم بأنفسنا فضلاً عن أموالنا ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب التي كانت شائعة في المسجد إلا خوخة أبي بكر وإلا باب عليّ كما قدمناه ، مع أن أهل تلك الأبواب إنما كان قصدهم بها التوصل إلى المسجد ، فكيف يبقى باب بين يديه صلى الله عليه وسلم لا نفع له إلا أخذ شيء من الخطام على المرور منه ؟ هذا مالا يرضاه مؤمن يرى تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

ثم إن هذا الطابق له قفل ، وما حوله من الخشب فيه نوع تنوء ، فقد رأيت مَنْ لا أحصيه من الخلق يتعثرون به ، وربما سقط بعضهم لوجهه ، ثم إنه إذا كثرت الدوس عليه في ليالي الزيارات كليلة النصف من شعبان ونحوها يرتجّ تحت الأرجل حتى تزلزل الأرض زلزالها ، وذلك يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قدمنا أن عائشة رضى الله عنها كانت تسمع الوتد يوتد والمسمار يضرب في بعض الدور المطيفة بالمسجد فترسل إليهم لا تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالوا : وما عمل على مضرّاعي داره إلا بالمناصع - وهو متبرّز النساء ليلا خارج سور المدينة - توقيا لذلك .

وروى يحيى في كتابه عن محمد بن يحيى بن زيد النوفلى عن أبيه عن الثقة عنده أن عائشة رضى الله عنها ذكرت أن بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم دعت نجارا فعلق ضيئة لها ، وأن النجار ضرب المسمار في الضيعة ضربا شديداً ، وأن عائشة رضى الله عنها صاحت بالنجار وكلته كلاما شديداً وقالت : ألم تعلم أن حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتة كحرمة حيا ؟ فقالت الأخرى : وماذا سمع من هذا ؟ قالت : إنه ليؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت هذا الضرب اليوم ما يؤذيه لو كان حيا .

ولم أزل منذ قدمت المدينة أنكر هذا الأمر بالقلب واللسان وكتابة البنان ، ولكن لم أجد على ذلك موعينا ؛ لرسوخ الطباع العامة في التمسك بالعوائد الماضية من غير روية ، وقد نهيت على إنكار ذلك في كتابي « الوفا » بما يجب لحضرة المصطفى « صلى الله عليه وسلم » ، ثم شافهت في أمره مولانا الهمام ، سلطان ممالك الإسلام ، ذا الشجاعة التي شاعت عجائبها ، والشهامة التي ذاعت غرائبها ، سلطان الإسلام والمسلمين ، ووجهة القاصدين والآملين ، السلطان الملك الأشرف قايتباي ، جعل الله الممالك منظومة في سلك مملكه ، وأقطار الأرض جارية في حوزة مملكه ؛ فإنه لما حج سنة أربع وثمانين وثمانمائة بدأ بالمدينة النبوية لزيارة

حج السلطان
قايتباي

التربة المصطفوية على الحال بها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات ، فقدمها طلوع
 الفجر من يوم الجمعة الميمون الثانى والعشرين من ذى القعدة الحرام ، فليدس
 لدخولها حلل التواضع والخشوع ، وتحلى بما يجب لتلك الحضرة النبوية من الهيبة
 والخضوع ، فترجلَ عن جواده عند باب سورها ، ومشى على أقدامه بين رباعها
 ودورها ، حتى وقف بين يدى الجنب الرفيع ، الحبيب الشفيق ، صلى الله عليه وسلم ،
 وناجاه بالتسليم ، وفاز من ذلك بالخط الجسيم ، ثم نثى بضجيعته رضى الله تعالى
 عنهما بعد أن صلى بالروضة الشريفة التحية ، وعفَّ وجهه فى ساحتها السنية ،
 وعرض عليه الدخول إلى المقصورة المستديرة حول جدار القبور الشريفة ، المعروفة
 اليوم بالحجرة المنيفة ، فتعاطم ذلك ، وقال : لو أمكننى أن أقف فى أبعد من هذا
 الموقف وقفت ، فالجنب عظيم ، ومن ذا الذى يقوم بما يجب له من التعظيم ؟ ثم
 صلى صبح الجمعة فى الصف الأول بين فقراء الروضة عند أسطوان المهاجرين بالقرب
 من مصلاى ، كان بينى وبينه إمامه شيخ الشيوخ الإمام العلامة نادرة الزمان
 وعين الأعيان برهان الدين السكركى ، فسبح الله فى أجله ، وأدام النفع به ، ولم
 يكن بينى وبينه سابق معرفة ، حتى إنى لم أبدأه بسلام ولا كلام ، وكذلك
 السلطان أعزه الله أنصاره وضاعف اقتداره ، لم أتعرف إليه ، ولم يكن ذلك فى
 خلدى ولا عزمت عليه ، ثم توجه السلطان بجماعته لزيارة عم رسول الله صلى الله
 عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب ومن يليه من شهداء أحد رضوان الله عليهم ،
 فشئى مترجلاً كهادته ، حتى خرج من باب المدينة ، ولم يزل ذلك دأبه ، فلم يركب
 بالمدينة جواداً حتى خرج منها ، فلما كان وقت صلاة الجمعة حضر فى ذلك
 المصلى فكان بينى وبينه إمامه المشار إليه أيضاً ، ثم قرأ شخص على شيخ الحديثين
 العلامة شمس الدين ابن شيخنا أبى الفرج العثمانى مجلس ختم البخارى ، وكان
 الإمام المشار إليه تفرَّس فى الاتصاف بطلب العلم ، ففاتحنى الكلام فى بعض
 المسائل العامة المتعلقة بذلك ، فجاريته فيها ، فرأيت كما له واضح البرهان ،

وفضله ظاهر العنوان ، مع كمال الإنصاف في البحث ، فانتسجت المودة حينئذ ،
ثم قام الإمام المشار إليه ، واستمر السلطان جالسا ، ثم بدأنا بالملاطفة ، وشرفنا بالحداثة ،
وخاض في شيء من العلم ، فرأيت من تواضعه وحلمه وثقوب فهمه مافاق الوصف ،
فأنشدته قول بعضهم :

كانت مُسألة الركبان تخبرني عن أحمد بن سعيد أطيب الخبر
ثم التقينا ، فلا والله ما سمعت أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى

وأنهيت إليه أمر الطابق المذكور ، وقلت في نفسي : لعل الله تعالى أرسل
هذا السلطان المسعود وجمعني به من غير قصد ليفوز بتنزيه الحضرة الشريفة من
ذلك ، ويكون ذلك في صحائفه ، وقد قدمنا ما حاوله الملوك المأضون من سدّه
مع أن المفسد التي قدمناها لم تكن موجودة في زمنهم ، وإنما تركوه كما
قدمناه لمانع ، ولا مانع من سدّه اليوم بحمد الله تعالى ، فوعد بذلك . ثم وقع
الاجتماع بالإمام المشار إليه فكلّمته في ذلك ، وقلت له : بلغني أن من بيده مفتاح
الطابق المذكور يجتمع له في كل سنة نحو عشرة دنائير من هذا الطابق ، ولى
معلوم في جهة هذا قدره في كل سنة ، فأنا أنزل عنه لمن بيده ذلك المفتاح تطييباً
لخاطره ، فذكر ذلك للسلطان ، فقال : نحن نرضيه من عندنا ، ثم إنه نصره الله
تعالى حضر لصلاة المغرب ، فتفضل بالبداة بالكلام ، ولم يكن إمامه حاضراً ،
ولكنه سبق منه التربية التامة عنده ، فسألني عن الآية المنقوشة في المصلى
الشريف ، وهي قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك في السماء - الآية) هل نزلت
قبل المعراج وفرض الصلاة أم بعد ذلك ؟ وكيف كان الاستقبال قبل نزولها ؟
فشرعت في الجواب ، فأقيمت الصلاة في أثناء ذلك ، فلما قضى صلاته تنفل بست
ركعات ، ثم أقبل على طالبا للجواب ، فذكرت له تاريخ نزولها بالمدينة ، وما فيه
من الخلاف ، وأن فرض الصلاة ليلة في المعراج كان بمكة ، وما ذكره في أمر

استقبال بيت المقدس ، وما حكي من الخلاف في تعدد نسخ القبلة ، وصلاته صلى الله عليه وسلم بمكة بين الركنتين اليمانيين جاعلاً السكبة بينه وبين بيت المقدس ، إلى غير ذلك من الفوائد التي قدمناها في محلها من كتابنا هذا ، واستمرت معه كذلك حتى صلينا العشاء الآخرة ، فحصل منه في ذلك المجلس من الإكرام ما أرجوه به كمال المجازاة من صاحب الحضرة الحبيب الشفيع صلوات الله وسلامه عليه .

وفرق بالمدينة الشريفة مالا جزيلاً ستة آلاف دينار أو أكثر ، ودفع إلى على يد إمامه المشار إليه من ذلك جزءاً وافراً ، وتكلمت معه في رفع مكوس المدينة وتعويض أميرها عن ذلك شيئاً ، فأفهم الوعد به ، وسألني عن أمر دار العباسا التي اشترت له ، وكانت سبباً في قتل القضائي الزكوي تنعمده الله تعالى برحمته لعدم السياسة في أخذها ، فأخبرته بحقيقة الحال ، فقال : لم لم تكتب إلي بهذا ؟ فاعتذرت له بعذر قبله ، وتبرأ من جميع ما فعلوا فيها ، ووعد بما يكون فيه صلاح أمرها ، ثم وفي بذلك بعد عوده ، فزادهم مبلغاً كثيراً رَضُوا به ، وتفضل بالتشريف بطلب الكتابة إليه بما يكون فيه صلاح أحوال المدينة والتنبيه على من يَرِدُها من المحتاجين .

ثم توجه في الرابع والعشرين من الشهر المذكور مصحوباً بالسلامة إلى مكة المشرفة ماشياً على أقدامه بين فقراء المدينة وفقهائها حتى خرج من باب المدينة ، فوقف هناك ، وقرأنا له الفاتحة ، ثم ركب جواده ، أدام الله تأييده وحرسه من الردى ، وأنار له طرق الحق والهدى .

ثم قدمت مكة صحبة الحاج الشامي فوجدته قد سلك بها مسلك التواضع أيضاً ، وتصدق فيها بمال جزيل أكثر مما تصدق بالمدينة الشريفة .

ولما اجتمعت بإمامه المشار إليه بمكة المشرفة تذاكرنا الصدقة الشريفة

بالمدينة الشريفة وعمومها ، وما حصل بها من النفع ، فذكرت له أن أربعة من فقراء المغاربة لم يأخذوا شيئاً لملازمتهم لرباطهم ، وعدم إتيانهم لمن كان يفرق ، وأن شخصاً آخر مستحقاً كنت أود لو حصل له أكثر مما دفع له ، فبلغ ذلك السلطان ، فلما كان في أوسط أيام منى توجهت لوداع الإمام المشار إليه ، فأشار بمُؤادعة السلطان ، فقلت له : أخشى أن يتوهم أن الجبىء لقصد آخر ، فقال : لا بد من موادعته ، فتوجهنا إليه فحصل منه من الإكرام ما أطلب له الجزاء عليه من أكرم الأكرمين ، ثم قال : أتم ذكرتم للامام كيت وكيت ، فلم ينس ما تقدم ذكره من أمر جماعة الفقراء ، فقلت له : نعم ، فأمر لهم بمائة دينار أقسمها عليهم لكل واحد عشرون ديناراً ، ثم قال : هل بقى أحد ؟ فقلت له : ما أستحضر أحداً ، ورأيت له اهتماماً تاماً بتعميم جيران الحضرة الشريفة ، ووادعنى قائماً وسأل عن أمر الطابق المذكور لما قدمنا مكة ، وأمر بأن لا يفتح ، وأن يسد بعد ذلك ، فلما بلغ ذلك شيخ الخدام بالمدينة الشريفة منع من فتحه عند قدوم الحاج المصرى فى هذا العام ، ولـسكن بقى سده ، فإن الطريق فى قطع الشر قلع أصوله ، وقد وعد بسده .

وقف السلطان قايىبى لأهل المدينة المنورة
ثم إن السلطان أيدته الله تعالى رجع إلى مصر مصحوباً بتأييد الله ونصره ، فبلغنا أنه أبرز بعد وصوله ستين ألف دينار ليشتري بها أماكن تكون أوقافاً يُحمَل ريعها إلى الحضرة الشريفة ، ويعمل بها سماط كسماط الخليل عليه السلام ، وهذا أمر لم يسبقه إليه أحد من ملوك الإسلام ، والمستول من الله تعالى أن ييسر له ذلك .

وقد ألقنا فى الفصل التاسع والعشرين ما برزت به المراسيم الشريفة من إبطال المكوس ، وتعويض أمير المدينة الشريفة عنها ، وأنه وقف أماكن كثيرة يتحصل منها نحو سبعة آلاف وخمسمائة إردب من الحب كل سنة لعمل السماط

المذكور ، وليصرف من ذلك كفاية أرباب البيوت بالمدينة الشريفة ، ثم وصول البهائي أبي البقاء بن الجيعان عظم الله شأنه بجملة من ذلك والصرف والتقير وعمل السباط على الوجه السابق ، والمرجو من الله تعالى دوام ذلك له ؛ فإن الله تعالى قد أجرى على يديه من الخيرات ما لم يجتمع لأحد من الملوك قبله : فمن ذلك ما تقدم من العمارة بالمسجد النبوي والحجرة الشريفة ، وإبطال هذا الطابق المتقدم وصفه ، ومن العجب أن مَنْ كان بيده هذا الطابق توجه إليه بمصر وسأل أن يمكن من فتحه ، فلم يجبه لذلك ، وقرر له في الذخيرة بضعة عشر ديناراً كل سنة عوضاً عما كان يحصل له منه ، ثم وردت المراسيم الشريفة بالإخبار بذلك ، والأمر بسده ، ولكن شقّ على بعض أهل الحظوظ النفسية تمام هذا الأمر والمتسبب فيه الفقير الحقير ، فتسبب في تأخيرها ، فمات شيخ الخدام إينال الإسحاق ولم يسده ، فلما قدمت مصر عام سبع وثمانين وثمانمائة أنهيت للسلطان أن الطابق لم يسد ، وخشيت أن يغضب بسبب ذلك على بعض الناس ، فاعتذرت بأن موجب التأخير وفاة شيخ الحرم ، فبرزت مراسيمه الشريفة لشيخ الحرم ومتولى العمارة الشمس بن الزمن بسده بالبناء ، بحيث لا يفتح أبداً ، وكان المعاكس في هذا الغرض قد أمال متولى العمارة إليه مع ما سبق في الفصل الثامن والعشرين من إيغار صدره مني ، وكان هذا الطابق قد احترق وارتدم بعد أمر السلطان بسده في حريق سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وأثرت النار في قبوه تأثيراً عظيماً ، فأعاد متولى العمارة وأحكمه ، وجعل له باباً ، فلما وردت عليه المراسيم الشريفة بما سبق على يدي أجاب بأنه يراجع السلطان في ذلك لأن تلك الدور صارت له .

ثم إن شيخ الحرم أنهى إلى السلطان ذلك ، فبرزت المراسيم الشريفة بسده والالوم على تأخيرها مع تكرار الأمر بذلك ، فأمره متولى العمارة بتأخير ذلك ليراجع السلطان فيه ، وقال : إنه يجعل تلك الدور مزارات لبيته له ما أراده من بقاء ذلك

الطابق ، وتعجب الناس من إقدامه عليه ، ثم بلغ السلطان ذلك مع أمور يطول شرحها ؛ فغضب غضباً شديداً وبرز مرسومه بسد رالوعيد التام على تأخيرته ، فسده شيخ الحرم بالبناء المحكم من خارج المسجد ، ونزع باب طابقه ، وردمه بالأتربة حتى ساوى أرض المسجد ، ولم يبق له أثر ، وذلك في رابع ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، وسرّ أهل الخير بذلك ، وتضاعفت أديعتهم لاسلطان نصره الله تعالى . وهذا من أعظم محاسنه .

ومن ذلك إجراء عين خليص بعد انقطاعها مرة بعد أخرى ، وهى من أحسن منّا أهل الحج وأعذبها ، وكذلك بركة الروحاء .

من آثار
قائىباى
بالحرمين
الشريفين

ومن ذلك عمارة مسجد الخيف بعد أن تهدّم بأجمعه ، وإنشاء المنارة والسبيل اللذين عند بابه ، وإجراء المعلوم لمن يؤذّن بتلك المنارة ولمن يؤم بالمسجد المذكور .

ومن ذلك إحداث الظل بمقدم مسجد نمرّة المنسوب لإبراهيم الخليل ، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، وقد كان الحجاج يقاسون به شدة من حر الشمس فى ذلك اليوم ، فالله تعالى يظله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .

ومن ذلك إجراء عين عرفة من بطن نهمان ، بعد أن دثرت وانمحت معالمها واندرست ، وعمارة بركها ومجاريها ، حتى فاضت الأنهار بأقاصيها وأدانيها ، وأوصلها إلى مسجد نمرّة ، وأنشأ به صهريجا يجتمع فيه الماء ، فأذهب بذلك عن الحج الأعظم الظمأ ، وقد كنت أرى الفقراء فى كل سنة فى ذلك اليوم لا يسألون غالبا إلا الماء ، وكان من أعز الأشياء هناك ، فلم يبق له طالب ، ولله الحمد ، سقاء الله بذلك من حوض السكوثر .

ومن ذلك المدرسة والرباط اللذان عمرها بمكة المشرفة ، ولا نظير لهما فيها .
ومن ذلك حجه فى هذا العام ، فإن ذلك لم يقع لأحد من ملوك مصر من

نحو مائة وخمسين سنة ، وكان آخر من حج منهم الملك الناصر محمد بن قلاوون ، حج ثلاث حججات : أولاها سنة عشر وسبعائة ، وثانيها سنة عشرين ، وثالثها سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة ، ولم يحج أحد بعد ذلك من سلاطين مصر ، وأرجو أن يفسح الله في أجل سلطاننا هذا حتى يدرك ذلك ، ويتم له ما نواه من الخير بالحضرة النبوية .

وقد أنشأ بئر إسكندرية برجا عظيما لم يسبق إليه ، وشحنه بالأسلحة والجنود . ولما توجهت إلى زيادة بيت المقدس رأيت له فيه وفيما بين مصر وبينه من الآثار العظيمة ما لم أره من غيره من الملوك من المدارس والمساجد والقناطر ، وهذا الحل لا يحتمل بسط ذلك ، وإنما ذكرنا من آثاره الجميلة ما يتعلق بالحجاز لأنه محل الغرض .

وهو ملك مطاع ، محظوظ ، صبور ، غير عجول ، كثير الحياء والوقار والمهابة ، إذا حاول أمرا لا يسرع فيه ، بل يتأنى كثيرا ، ويعظم أهل العلم ويحلمهم . وإنما أمتعنا بذكر ذلك هنا ليكون سببا في حث الواقف على ذلك على الدعاء لهذا الملك السعيد بإنجاح المطالب ، ونيل المآرب ، ولتنبعث همة من جاء بعده من الملوك على أن يقتدى به في الخير فيصنع مثل ما صنعه ، ونسأل الله تعالى أن يفسح في أجله ، فقل أن يأتي بعده مثله .

الفصل الرابع والثلاثون

فيما كان مُطِيفاً بالمسجد الشريف من الدور ، وما كان من خبرها ، وجُل ذلك من منازل المهاجرين رضى الله تعالى عنهم .

روى ابن سعد في طبقاته عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خَطَّ الدور بالمدينة ، فخط لبني زُهْرَةَ في ناحية مؤخر المسجد ، فكان لعبد الرحمن بن عوف الحش ، والحش : نخل صغار لا يسقى .

رسول الله
يخط دور
المدينة

وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط الدور ؛ فخط لبني زهرة في ناحية مؤخر المسجد ؛ فجعل لعبد الله وعتبة ابني مسعود هذه الخطة عند المسجد .

وقال ياقوت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة أقطع الناس الدور والرِّبَاع ؛ فخط لبني زهرة في ناحية من مؤخر المسجد ، وكان لعبد الرحمن بن عوف الحش المعروف به ، وجعل لعبد الله وعتبة ابني مسعود الهدْيَيْنِ الخطة المشهورة بهن عند المسجد ، وأقطع الزبير بن العوام بقيعاً واسعاً ، وجعل لطلحة بن عبيد الله موضع دوره ، ولأبي بكر الصديق موضع داره عند المسجد ، وأقطع كل واحد من عثمان بن عفان وخالد بن الوليد والمقداد وغيرهم مواضع درهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَطِّع أصحابه هذه القطائع ، فما كان في عفان الأرض فإنه أقطعهم إياه ، وما كان من الخطط المسكونة العامة فإن الأنصار وهبوه له فسكان يقطع من ذلك ما شاء ، وكان أول من وهب له خططه ومنازله حارث بن النعمان وهب له ذلك وأقطعه صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

فأول الدور الشوارع حول المسجد من القبلة دارُ عبد الله بن عمر بن الخطاب التي فيها الخَوْخَةُ المتقدم وصفها ، وليست الدار المذكورة اليوم بيد أحد من آل عمر كما قدمناه ، وقدمنا أن موضع هذه الدار كان مَرَبَدًا أعطيته حفصة رضي الله تعالى عنها بدل حجرتها لما احتيج إلى إدخالها في المسجد ، وفي رواية أن آل عمر أعطوا بدلها دار الرقيق وما بقي منها .

دار آل
عمر بن
الخطاب

وقال ابن غسان ، فيما نقله ابن شبة : وأخبرني مخبر أن تلك الدار - يعني دار آل عمر - كانت مَرَبَدًا يتوضأ فيه أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما توفي استخلصته حفصة رضي الله عنها بثلاثين ألف درهم ، فورثها عنها عبد الله بن عمر ؛ فهي التي قال فيها عبد الله في كتاب صدقته : وتصدق عبد الله بداره التي عند المسجد التي ورث من حفصة .

قال : وأخبرني مخبر قال : كان بيت أبي بكر الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « سدوا عنى هذه الأبواب - الحديث » بيد عبد الله بن عمر ، وهو بيت لأبي بكر الصديق صار لآل عمر البيت الذي على يمينك إذا دخلت دار عبد الله من الخوخة التي في المسجد ، فتلك الخوخة في جوف الخوخة التي هي الطريق مُبَوَّبة ، فتلك الخوخة خوخة أبي بكر .

قال : وكانت حفصة ابتاعت ذلك المسكن من أبي بكر مع الدار التي فوق هذه ، أي التي في قبلتها كما سنبينه ، قال : وتصدقت بتلك الدار على ولد عمر . قلت : هذه الرواية الأخيرة ضئيلة كما قدمناه ؛ ولذلك لم يبين قائلها ، ولأنه في دور بني تميم لما ذكر دار أبي بكر التي ورد فيها الحديث المذكور لم يذكر هذه الرواية ، بل اقتصر على الرواية المشهورة في أنها في غربى المسجد ؛ فإن الخوخة الواردة فيها الحديث هي الشارع في رحبة دار القضاء ، ولذلك لما زادوا في المسجد أرادوا محاسناتها ، فجعلوها خوخة شارع هناك ، ولم يجعلوها كبقية أبواب المسجد ، ولأنه جَزَمَ في دور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بأن عائشة رضي الله عنها اتخذت الدار التي يقال لها دار عائشة بين دار الرقيق وبين دار أسماء بنت أبي بكر فتصدقت بها .

قلت : فإن كانت دار الرقيق هي بيت حفصة فبيت عائشة إلى جنبه ، والمعروف عند الناس أن البيت الذي على يمين الخارج من خوخة آل عمر المذكورة هو بيت عائشة رضي الله عنها ، فلعل الاشتباه في نسبته إلى أبي بكر رضي الله عنه نشأ من ذلك ، مع أن الذي اقتضاه كلام المؤرخين أن البيت المذكور عن يمين الخوخة هو بيت آل عمر ، وأن دار عائشة ليست في هذا المحل ، وهذه الدار المذكورة - أعني التي على يمين الداخل من الخوخة - وقف ناظره شيخ الخدام ، وبلغني أن واقفها اشترط أن لا يسكنها متزوج ، وبابها اليوم

شارع في القبلة ، ولها شبك عن يمين الخوخة لعله كان في موضع بابها الأول لما كانت الخوخة شارعة في الدار المذكورة ، وأما البيت الذي عن يسار الخوخة فوقفه أيضاً ناظره شيخ الخدام ، وبابه ليس شارعا عند الخوخة ، بل بعيد منها في المغرب ، وهو آخر الدور الآتي ذكرها ، ومقتضى ما سيأتى عن ابن شبة وابن زبالة أن الدار المعروفة اليوم بدار عائشة والدارين اللتين إلى جانبها الغربي في قبلة المسجد من جملة دار آل عمر ؛ لأنهما قالوا : في الدور الشوارع من القبلة دار عبد الله بن عمر ، ثم دار مروان الآتي ذكرها ، وأما الدار الثانية التي تقدمت الإشارة إليها في كلام أبي غسان من دور حفصة فوق هذه فقد ذكرها بقوله : وكانت لحفصة الدار التي بين زُقاق عبد العزيز بن مروان الذي أدخل في دار مروان دار الإمارة وبين زقاق عاصم بن عمر بابها شارع قبالة دير أطم بنى النجار الذي يدعى فويرعا ، فتصدقت بها على ولد عمر ؛ فهي بأيديهم صدقة منها .

قلت : وهذا الوصف منطبق اليوم على دار قاضي الشافعية أبي الفتح بن صالح وما لا صقها من جهة الشام ؛ لأن زقاق عاصم هو الزقاق الشارع باب هذه الدار فيه الآخذ منها إلى جهة القبلة والميضأة ، ولأن فويرعا كان فيما بينها وبين المدرسة الشهابية كما سيأتى بيانه ، وعلى هذا فزقاق عاصم هو الذي في شاميهما ، دخَلَ بعضُهُ فيما حاذى دار مروان ، وبقي منه ما يفرق بين دار آل عمر هذه والدار التي لها الخوخة ، والله أعلم .

ثم يلي دار عبد الله بن عمر ذات الخوخة في قبلة المسجد من غربيهما دار مروان بن الحكم ، قال ابن زبالة : وكان بعضها للنحام — يعني نعيم بن عبد الله من بنى عدى — وبعضها من دار العباس بن عبد المطلب ، فابتاعها مروان فبناها وجعل فيها دارا لابنه عبد العزيز بن مروان ، ثم ذكر خبر أبوابها المتقدم ذكره في أبواب المسجد .

دار مروان
ابن الحكم

وروى ابن زباله في ذيل زيادة عثمان بن عفان رضى الله عنه في المسجد ،
عن غير واحد منهم محمد بن إسماعيل عن أبيه أنه كانت فيها نخلات ، فابتاع
سروان من آل النحام كل نخلة وموضعها بألف درهم ، وكن ثمانيا أو أثنى
عشرة ، فرأى الناس أن مروان قد أغلى ، فلما وجب له البيع عقرهن وبناها
دارا فغبطه الناس .

ونقل ابن شبة عن بعضهم أن دار مروان بن الحكم التي ينزلها الولاة إلى
جنب المسجد - يعنى الدار المذكورة - كانت مربدا لدار العباس التي دخلت في
المسجد ، فابتاعها مروان ، فسمعت من يقول : كانت القبة التي كانت في دار مروان
وحجرتها التي تلى المسجد عن يسار مَنْ دخل الدار للنحام أخى بنى عدى بن
كعب ، وكانت فيها نخلات ، فابتاعها مروان من النحام بثلاثمائة ألف درهم ،
وأدخلها في داره ، فذلك الموضع ليس من المربد الذي ابتاع من العباس

وذكر ابن شبة في موضع آخر أن دار مروان صارت في الصوفاى ، أى
لبيت المال .

قلت : وفي موضعها اليوم كما قدمناه الميضاة التي في قبلة المسجد عند باب
السلام ، وما في شرقها إلى دور آل عمر ، قال ابن زباله وابن شبة : وإلى جنبها
- يعنى دار مروان - في المغرب دار يزيد بن عبد الملك التي صارت لزبيدة ،
وكان في موضعها دار لآل أبى سفيان بن حرب ، كانت أشرف دار بالمدينة بناء
وأذهبها في السماء . ودار كانت لآل أبى أمية بن المغيرة ، فابتاعها يزيد ، وأدخلها
في داره ، وهدمها ، وكان بعض أهل المدينة وقدّ على يزيد بن عبد الملك وقد
فرغوا من بناء داره ، فسأله عنها ، فقال : ما أعرف لك أصلحك الله بالمدينة
دارا ، فلما رأى ما في وجهه قال : يا أمير المؤمنين ، إنها ليست بدار ، ولكنها
مدينة ، فأعجب ذلك يزيد .

قلت : وفي موضع هذه الدار اليوم ما يقابل الميضأة في المغرب من دار
الأشراف العباسا والدار الملاصقة لها في المغرب المشترأتين للسلطان ، وقد أضافوا
إليهما ما في قبيلتهما من الدور .

دار رباح
ودار المقداد

وقد ذكر ابن شبة أن رباحا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ دارا
على زاوية دار يزيد بن عبد الملك الغربية اليمانية ، وأن المقداد بن الأسود حليف
بني زهرة اتخذ دارا بين بيت رباح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين
زقاق عاصم ، فتكون هذه الدار على زاوية دار يزيد الشرقية اليمانية ، فهما من
جحلة ما اشترى للسلطان اليوم . وبين الميضأة وبين هذه الدور زقاق لعلة متصل
بزقاق عاصم بن عمر ، إلا أن ابن زباله وابن شبة لم يذكرهما ، قالا : ثم وجأه
دار يزيد دار أويس بن سعد بن أبي سرح العامري . قال ابن شبة في هذه الدار :
أخبرت أنها كانت لمطيع بن الأسود فناقَلَ بها العباس إلى الدار التي بالبلاط
يقال لها دار مطيع ، وزاده عشرة آلاف درهم ، ثم باعها العباس من عبد الله بن
سعد بن أبي سرح بثلاثين ألف درهم ، فسكنها بنو أخيه ؛ فهي الدار التي
يقال لها دار أويس عند دار يزيد بن عبد الملك بالبلاط ، وقد سمعنا من يذكر
أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطع مطيعا داره تلك ، فالله أعلم أي ذلك كان .

قلت : وموضع دار أويس اليوم المدرسة الباسطية التي أنشأها القاضي
عبد الباسط سنة بضع وأربعين وثمانمائة ، وما في شرقيها من مؤخر المدرسة المعروفة
اليوم بالحصن العتيق المتقدم ذكرها ، فذلك كله يواجه دار يزيد المذكورة ،
ويفصل بينهما بلاط باب السلام .

دار مطيع
ابن الأسود

قالا : ثم إلى جنب دار أويس - أي في المغرب - دار مطيع بن الأسود
العدوي ، أي المتقدم ذكر قصتها وأنها كانت للعباس رضي الله تعالى عنه ، قال
ابن شبة : ويقال لها دار أبي مطيع ، وعندها أصحاب الفاكة ، وزاد في قصتها
أنه بلغه أيضا أن حكيم بن حزام ابتاعها هي وداره التي من ورائها بمائة ألف

درهم ، فشركه ابن مطيع ، فقاومه حكيم ، فأخذ ابن مطيع داره بالثمن كله وبقيت دار حكيم في يده ربما ، فقليل لحكيم : خدعك ، فقال : دار بدار ومائة ألف درهم ، وكان يقال لدار أبي مطيع العنقاء ، قال لها الشاعر :

* إلى العنقاء دار أبي مطيع *

وبين يدي دار أبي مطيع أبيات ليزيد بن عبد الملك فيها الغسالون ، يقال : إن يزيد كان ساوَمَ آلَ مطيع بدارهم ، فأبوا أن يبيعوها ، فأخذت عليهم تلك البيوت ، فسدت وجه دارهم ، فهي تدعى أبيات الضرار ، وهي مما صار للخيزران .

قلت : وموضع دار أبي مطيع اليوم الدار التي في غربى المدرسة الباسطية التي اشتراها وكيل الخواجا ابن الزمن ، وفي غربيتها سوق المدينة اليوم ، وهو من البلاط ، وموضعه عندها هو المراد بقول ابن شبة : وعندها أصحاب الفاكية ، فكان الفاكية كانت تباع فيه حينئذ .

وأما دار حكيم التي ذكر أنها من وراثتها فحلها اليوم الدار التي في شامى هذه الدور التي عندها درج العين بالسوق المذكور ، قال ابن شبة في دور بني أسد : واتخذ حكيم بن حزام داره الشارع على البلاط إلى جنب دار مطيع ابن الأسود ، بينها وبين دار معاوية بن أبي سفيان ، يحجز بينها وبين دار معاوية الطريق ، ومراده بالبلاط الموضع الذي به سوق المدينة اليوم أمام المدرسة الزمنية الممتد منها إلى الشام .

وقوله « يحجز بينها - أى دار حكيم ودار مطيع - وبين دار معاوية الطريق » أى البلاط المذكور ؛ فالظاهر أن دار معاوية هذه هي المقابلة لها بين الدارين في المغرب ، وهناك في مقابلتها اليوم رباط جدد أنشأه الفخرناظر الجيوش بمصر سنة قسع عشرة وسبعمائة بأبى شارع في سوق المدينة اليوم ودار خربة .

وقال ابن شبة أيضا في دور بني عدى بن كعب : اتخذ النعمان بن عدى داره

التي صارت لمحمد بن خالد بن برمك وبنائها، وفي الشارع عند الخياطين بالبلاط عند أصحاب الفاكية ابتاعها من آل النحام وآل أبي جهم، وكانت صارت لهم مواريث، انتهى.

ومحل هذه الدار إما الدار الخربة التي إلى جانب الرباط الشارع في السوق، أو المدرسة الزمنية، والله أعلم. ولنرجع إلى ذكر الدور المطيفة بالمسجد.

قال ابن شبة: وفي غربى المسجد دار عبد الله بن مكل الشارع في رحبة القضاء، وهي مما يتشاءم به، وذلك مما نشأ عن بنائها.

دار عبد الله
ابن مكل

وقال في دور بني زهرة: كان عبد الرحمن بن عوف وهبها لابن مكل، فباعها آل من المهدي؛ فهي بأيدي ولده اليوم خراب إلى جنب المسجد، أي قبل أن تبنى رحبة القضاء.

قال: وهي التي يقولون: إن أهلها قالوا: يا رسول الله، اشتريناها ونحن جميع فنفرقنا، وأغنياء فافتقرنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أتركوها فهي ذميمة.

وقال ابن زبالة: هي التي يجلس إلى رُكَّعِها^(١) صاحبُ الشرط، وإليها أصحاب الفاكية، وهم يهابون بناءها ويتشاءمون بها؛ فهي على حال ما اشترت عليه.

وقد تَرُجَّم في الموطأ لما يتقى من الشؤم، وروى فيه عن يحيى بن سعيد أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، دار سكنناها والعدد كثير والمال وافر فقلّ العدد وذهب المال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «دَعُوها ذميمة» ورواه البزار بنحوه عن ابن عمر، إلا أنه قال فيه: إن قوما جاؤا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وزاد فيسه: فقالوا: يا رسول الله كيف ندعُها؟ قال «بيعوها أو هبوها».

(١) رُكَّعُها أي جانبها.

وقال البزار : أخطأ فيه صالح بن أبي الأخضر ، والصواب أنه من مُرسلات عبد الله بن شداد ، وروى الطبراني نحوه عن سهل بن حارثة الأنصاري ، وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره وضعفه جماعة .

قلت : وفي موضع دار ابن مكل اليوم المدرسة المعروفة بالجوبانية من بابها إلى آخر رباطها الذي في غربها ، بل يؤخذ مما سبق عن ابن زبالة من جلوس أصحاب الفاكهة إليها أنها كانت تمتد إلى سوق الصواغين اليوم ؛ لما تقدم من بيان أصحاب الفاكهة ، ولما سيأتي في الدار التي بعدها .

دار النحام

وفي المغرب أيضاً دار النحام العدوى . وعبارة ابن زبالة وابن شبة : وفي غرب المسجد دار ابن مكل ودار النحام ، الطريق بينهما قدر ستة أذرع .

وقال ابن شبة في دور بني عدى : واتخذ النحام نعيم بن عبد الله داره التي بابها وجاه زاوية رحبة دار القضاء ، وشرقيها الدار التي قبضت عن جعفر بن يحيى ابن خالد بن برمك التي كانت بيت عاتكة بنت يزيد بن معاوية فهي بيد ولده على حوز الصدقة .

قال : وأخبرني بخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم حازها له قطعة منه .

قلت : ودار جعفر المذكورة هي المواجهة لباب الرحمة ؛ فلم بذلك أن دار النحام هذه كانت في مقابلة باب المدرسة الجوبانية المتقدم ذكرها في بيان رحبة القضاء عند ذكر باب زياد ، وأن الطريق التي بين دار النحام ودار ابن مكل هي البلاط الآخذ من باب الرحمة إلى السوق ، وعلم بذلك أن رحبة القضاء كانت تمتد من جهة باب الرحمة إلى باب الجوبانية .

دار جعفر ابن يحيى

ثم إلى جنب دار النحام دار جعفر بن يحيى التي دخل فيها بيت عاتكة بنت يزيد بن معاوية . وأطم حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه المسمى بفارع .

قلت : وقد تقدم بيان محلها في باب الرحمة ، وأنه اليوم هو البيت المواجه

لباب الرحمة ، وهو كان موضع بيت عاتكة ، وما في شاميه من المدرسة الكلبرجية وهو موضع الأطم .

دار نصير

ثم إلى دار جعفر بن يحيى دار نصير صاحب المصلى ، كانت بيتا لسكينة بنت الحسين بن حلى رضى الله عنهم ، ثم إلى جنبها الطريق إلى دار طلحة بن عبيد الله ستة أذرع .

قلت : وقد تقدم في أبواب جهة المغرب أن في محل دار نصير اليوم الدار المعروفة بتميم الدارى ، والتي في شاميهما إلى الطريق التي تدخل منها إلى دور القياشين التي صارت للخواجيا قاوان ، وهذه الطريق هي المرادة هنا ، وتلك الدور هي دور طلحة بن عبيد الله ، وفي شرقيها دار منيرة الآتى ذكرها .

قال ابن شبة في دور بنى تيم : واتخذ طلحة بن عبيد الله داره بين دار عبد الله بن جعفر التي صارت لمنيرة وبين دار عمر بن الزبير بن العوام ، ففرقها ولده من بعده ثلاثة أدور ، فصارت الدار الشرقية اللاصقة بدار منيرة ليحيى ابن طلحة ، وصارت التي تليها لعيسى بن طلحة ، وصارت الأخرى لإبراهيم ابن محمد بن طلحة .

قلت : ودار عمر بن الزبير التي في غربى دار طلحة ملاصقة لدار عروة ابن الزبير ، قال ابن شبة : اتخذها الزبير وتصدق بهما عليهما وعلى أعقابهما ، وهما متلازقتان عند خوخة القوارير ، انتهى .

وفي نهاية الطريق إلى دور القياشين خوخة كانت شارة في المغرب عند سوق العطارين ، الظاهر أنها المراد بخوخة القوارير .

ثم إلى جنب الطريق إلى دور طلحة دار منيرة مولاة أم موسى ، كانت لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

دار منيرة
مولاة أم موسى

قلت : وقد بينا محلها في أول أبواب المسجد من جهة المغرب ، ويستفاد منه أنها كانت من طريق دور القياشين إلى ما يحاذى نهاية المسجد .

ثم إلى جنبها خوخة آل يحيى بن طلحة .

قلت : وهناك اليوم زقاق لطيف خلف الفرن المحاذى لقرب مؤخر المسجد من المغرب ، يعرف بزقاق عاتقيني ، هو المراد بذلك ؛ لأن بعض الدور التي فيه يسلك منها إلى دور القياشين التي هي دور طلحة .

ثم إلى جنب خوخة آل يحيى بن طلحة حش طلحة بن أبي طلحة الأنصاري حش طلحة وهو اليوم خراب صوافي عن آل ابن برمك .

قلت : والظاهر أن في محله اليوم القرن المتقدم ذكره وما حوله . وقد قدمنا في زيادة المهدي ما ذكره ابن شبة في إدخاله صدر دار آل شرحبيل ابن حسنة التي كانت لأم حبيبة رضي الله تعالى عنها في مؤخر المسجد .

قال ابن شبة عقب ذلك : ثم باعوا بقيتها من يحيى بن خالد بن برمك فهدمها حين هدم حش طلحة ، ثم صارت برّاحا في الصوافي ، ثم بنى في موضعها الناس بأكثر من أصحاب الصوافي ؛ فعلم بذلك أن حش طلحة كان ينمط على المسجد من جهة الشام ، وسيأتي في ذكر البلاط ما يصرح بذلك ، والظاهر أن بقية دار شرحبيل من الحش المذكور هو ما حاذى الميضأة التي في شامي المسجد من المغرب ، بدليل ما سيأتي ، والله أعلم .

ثم إلى جنب حش طلحة الطريق خمسة أذرع .

قلت : وهذه الطريق هي التي في شامي الميضأة المتقدم ذكرها ، يتوصل منها إلى رباط الشيخ شمس الدين الششتري .

ثم إلى جنب الطريق أبيات خالصة مولاة أمير المؤمنين ، وهي دار حباب أبيات خالصة مولى عتبة بن غزوان .

قلت : وفي موضعها اليوم دار أحد رئيسي مؤذني المسجد ، وما يليها من المارستان الذي أنشأه المنتصر بالله ، وما يليه من رباط الظاهرية ، كما تقدم في ذكر أبواب المسجد .

دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، وهي صدقة .
ثم إلى جنب أبيات خالصة دار أبي الغيث بن المغيرة بن حميد بن عبد الرحمن

وذكر ابن شبة في دور بني زهرة أن من دور عبد الرحمن بن عوف التي
أخذها الدر التي يقال لها الدار الكبرى دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف
بمحش طلحة .

قال : وإنما سميت الدار الكبرى لأنها أول دار بناها أحد من المهاجرين
بالمدينة ، وكان عبد الرحمن يُنزل فيها ضيفان رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فكانت أيضاً تسمى دار الضيفان ، فسرق فيها بعض الضيفان ، فشكا ذلك
عبد الرحمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بنى فيها النبي صلى الله عليه وسلم
بمنه فيما زعم الأعرج ، وهي بيد بعض ولد عبد الرحمن بن عوف .

قلت : وهي غير دار عبد الرحمن بن عوف المعروفة بدار مليكة التي تقدم
أنها دخلت في المسجد .

وفي شامى المسجد اليوم مما يلي الشرق دار تعرف بدار المضيف ، فلعل تسميتها
بذلك لكونها في موضع دار الضيفان المذكورة ، لكن ذكر الدار الآتية بعدها
قبل جهة المشرق يبعد ذلك ، فكأن الجانب الغربي من دار المضيف وما حوله
في المغرب من الساباط وبعض رباط الظاهرية في موضع الدار المذكورة .

ثم إلى جنب دار أبي الغيث ببقية دار عبد الله بن مسعود ، كانت لجعفر
ابن يحيى ، وقد قبضت صافية عنه .

قلت : قد قدمنا أنها كانت تدعى دار القراء ، وأن بعضها دخل في زيادة
الوليد ، وبقيتها في زيادة المهدي ، فكأن المراد بعض بقيتها ، بدليل ما هنا ،
ومع ذلك فأنا أستبعد أن يبقى منها بقية في جهة الشام ، سيما إذا كان المهدي قد
زاد مائة ذراع .

ثم يضاف لذلك ما زاده الوليد منها ، وعرض الرحبة التي في شامى المسجد ،

وأى دار يكون طولها هذا المقدار فضلا عن أن يبقى بعد ذلك منها بقية ؟ وموضع ما وصفوه اليوم هو ما يلي المشرق من الدار المعروفة بدار المضيف المتقدم ذكرها ، والله أعلم .

دار موسى
الخزومي

قال ابن زبالة وابن شبة : ثم من المشرق دار موسى بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة الخزومي ، كان ابتاعها هو وعبيدُ الله ابن حسين بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، فتقاوماها ، فظن عبيدُ الله أن موسى لا يريد إلا الربح ، فأسلمها عبيد الله فصارت لموسى .

قلت : وظاهر ذلك أن الدار المذكورة أول جهة المشرق مما يلي الشام ، وفي موضعها اليوم - كما قدمناه في ذكر أبواب المسجد - بيتُ بعض رئيسي المؤذنين الذي يلي دار المضيف ، وما يليه من الميضاة المعطلة اليوم ، وبين ذلك وبين دار المضيف زقاق يعرف بخرق الجمل يتصل إلى الدور الملاصقة لسور المدينة ، ولعله المعروف قديما بزقاق جمل ؛ فإن ابن شبة ذكر أن فاطمة بنت قيس اتخذت دارا بين دار أنس بن مالك وبين زقاق جمل ، ودارُ أنس بن مالك ذكر أنها في بني جديلة ، وهي في شامي سور المدينة .

ثم إلى جنب دار موسى أبياتُ قهطم دار موسى ودار عمرو بن العاص ، وهي - يعني دار عمرو - صدقة من عمرو ، وهي اليوم صوافي : أي أبيات قهطم ، هذه عبارة ابن شبة .

وعبارة ابن زبالة « وإلى جنبها أبيات فيها قهطم ، وهو صوافي » .

والطريق بين دار موسى بن إبراهيم وبين دار عمرو بن العاص السهمي ، وهي اليوم لهم صدقة .

قلت : وأبيات قهطم هي التي سماها ابن زبالة في ذكر الكتابة على أبواب أبيات الصوافي المسجد أبيات الصوافي ، وسمى الطريق التي ذكرها هنا بزقاق المناصع ، لكن

كلام ابن شبة يقتضى كون أبيات قهطم المذكورة بين دار موسى وبين دار عمرو بن العاص ؛ فتكون الطريق المذكورة بين أبيات قهطم وبين دار عمرو ابن العاص ، فلنحمل كلام ابن زبالة على ذلك ، ويكون قوله « والطريق بين دار موسى » يعنى وما يليها من أبيات قهطم وبين دار عمرو بن العاص .

وقد قدمنا أن فى محل أبيات الصوافى رباط الفاضل والدار المسروفة بدار الرسام وقف السلامى والباب الذى يدخل منه إلى رباط السلامى ، وسوضع دار عمرو بن العاص اليوم مؤخر رباط السبيل الذى يسكنه الرجال ، وهو مما يلى الشام منه ، والطريق التى بينه وبين رباط الفاضل هى زقاق المناصع ، وليست اليوم نافذة كما تقدم ؛ ويؤخذ مما قدمناه فى زيادة المهدى أنه كان عندها رحبة تسمى برحبة المشارب ، والله أعلم .

ثم إلى جنب دار عمرو دار خالد بن الوليد . قال ابن شبة وابن زبالة : وهى بيد بنى أتوب بن سلامة - يعنى ابن عبد الله بن الوليد بن المغيرة - زاد ابن زبالة : أن أيوب بن سلامة اختصم فيها هو وإسماعيل بن الوليد بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة ، يقول أيوب : هى ميراث وأنا أرضها دونكم بالقعد ، أى لأنه أقرب عصوبة ، ويقول إسماعيل : هى صدقة ، أى فيدخل فيها القريب وإن بُعد ، فأعطىها أيوب ميراثاً بالقعد ، انتهى .

دار خالد
ابن الوليد

وهذا لأن أيوب المذكور كما ذكر ابن حزم وارث آخر من بقى من ولد خالد بن الوليد ، قال : لا تقراض ولد عمه خالد بن الوليد كلهم . قال : وكان قد كثر ولد خالد بن الوليد حتى بلغوا نحو أربعين رجلاً ، وكانوا كلهم بالشام ، ثم انقراضوا كلهم فى طاعون وقع فلم يبق لأحد منهم عقب ، انتهى . وروى ابن زبالة عن يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال : شكنا خالد بن الوليد ضيق منزله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له « ارفع البناء فى السماء وسئل الله السعة » ورواه ابن شبة ، إلا أنه قال : فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « اتسع

في السماء » وذكر من رواية الواقدي أن خالد بن الوليد حبس داره بالمدينة لا تباع ولا توهب .

قلت : وفي موضعها اليوم مقدم رباط السبيل المتقدم ذكره ، وذلك يدل على صغرها ، بخلاف غيرها من الدور ، ولذلك شيكا ضيقها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .
ثم إلى جنبها دار أسماء بنت الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وكانت من دار جبلة بن عمر الساعدي .

دار أسماء
وبنت حسين

قلت : وقد قدمنا ذكر حالها ، وبيان محالها ، في خامس أبواب المسجد .
ثم إلى جنبها دار ربيعة بنت أبي العباس ، وكانت من دار جبلة ودار أبي بكر الصديق ، قاله ابن زبالة .

دار ربيعة

قلت : مراده أنه أدخل في دار ربيعة من شرقها ما يليها من دار أبي بكر الصديق إلا أن دار أبي بكر كانت على سمتها في محاذة المسجد ، كما توهمه المطري فجعل دار ربيعة هي دار أبي بكر ، وأنها المدرسة المقابلة لباب النساء كما قدمناه عنه ، والصواب أن دار أبي بكر كانت خلف المدرسة المذكورة في جهة المشرق ؛ لأن ابن شبة قال في دور بني تميم : اتخذ أبو بكر رضي الله تعالى عنه دارا في زقاق البقيع قبالة دار عثمان رضي الله عنه الصغرى ، وذكر أن دار عثمان الصغرى هي التي بنحو زقاق البقيع إلى جنب دار آل حزم الأصارين . وذكر في خبر مقتل عثمان رضي الله عنه ما يقتضي أن هذه الدار الصغرى كانت متصلة بداره الكبرى الآتي ذكرها ، وأن قتلته تسوّروا ودخلوا عليه منها . وفي موضعها اليوم الرباط المعروف برباط المغاربة ، ويعرف برباط سيدنا عثمان ؛ فلم بذلك أن دار أبي بكر كانت في مقابلة ذلك من جهة الشام ؛ فتكون في محل الدور التي في شرقي المدرسة المذكورة إلى ما يحاذي الرباط المذكور ، ولا يبعد أن يكون بعضها دخل في المدرسة المذكورة ، ودار أبي بكر هذه هي المرادة بما رواه ابن سعد في طبقاته عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه مريض مرضه الذي

الذى مات فيه وهو نازل يومئذٍ في داره التى قطعَ له النبيُّ صلى الله عليه وسلم وجاه دار عثمان بن عفان ، أى الصغرى . والله أعلم .

ثم الطريق بين دار رَيْطَةَ وبين دار عثمان - يعنى العظمى - خمسة أذرع ، قاله ابن زبالة وابن شبة . ونقل الماطرى عن ابن زبالة أن الطريق بينهما سبعة أذرع ، والذى ذكره ابن زبالة ما قدمناه ، وهى اليوم نحو ذلك ، ويعرف بطريق البقيع .

ثم دار عثمان رضى الله عنه . وروى ابن سعد فى طبقاته عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : لما أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الدورَ بالمدينة خَطَّ لعثمان بن عفان داره اليوم ، ويقال : إن الخُوخَةَ التى فى دار عثمان اليوم وجاه باب النبي صلى الله عليه وسلم التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج منها إذا دخل بيت عثمان ، هذا لفظ ابن سعد .

دار عثمان
ابن عفان

قلت : وهذه الدار هى التى عبر عنها ابن شبة بقوله « واتخذ عثمان رضى الله عنه داره العظمى التى عند موضع الجنائز فتصدق بها على ولده فهى بأيديهم صدقة » وقد قدمنا أن فى محلها اليوم رباط الأصفهاني وتربة أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين بن أيوب ومعه فيها والد صلاح الدين أيضاً ، والدار التى يسكنها مشايخ الخدام .

ثم بعد دار عثمان فى القبلة الطريق خمسة أذرع ، أو نحو ذلك ، ثم منزل أبى أيوب الأنصارى الذى نزله النبي صلى الله عليه وسلم ، وابتاعه المغيرة بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ، وجعل فيه ماء الذى يسقى فى المسجد .

دار أبى أيوب
الأنصارى

قلت : قد قدمنا فى الفصل الرابع عشر من الباب الثالث شرح حال هذه الدار ، وأن الملك المظفر شهاب الدين غازى اشترى عَرَصَتَهَا وبنّاها مدرسة ووقفها على المذاهب الأربعة .

ثم إلى جنب منزل أبي أيوب دار جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي
دار جعفر
الصادق زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم التي يُسَقَى
فيها الماء ، التي تصدق بها جعفر ، وكانت لحارثة بن النعمان الأنصاري .

قلت : في موضعها اليوم العرصة الكبيرة التي في قبلة المدرسة الشهابية ،
وفيها محراب قبلة مسجد جعفر الصادق وأثر محاريب ، وهي الآن ملك
الأشراف المنايفة ، ثم انتقلت منهم للشجاعى شاهين الجمالى شيخ الحرم . ابتناها
مسكننا له .

وقبالتها - أى في المغرب - دارُ حسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي
دار حسن
ابن زيد طالب رضي الله تعالى عنهم ، وهو أطم كان حسن ابتاعه فخاصمه فيه أبو عوف
التَّجَّارِى ، فهدمه حسن ، فجعله دارا .

قلت : وهو الأطم الذى يدعى بفويرع ، وفي موضع هذه الدار اليوم
بيت الأشراف المنايفة الذى عليه سَابَاطٌ متصل بالمدرسة الشهابية ، والبيت الذى
في قبلته وما في غربها إلى دار القضاة بنى صالح .

والطريق خمسة أذرع بينها - أى بين دار حسن المذكورة - وبين دار فرج
دار فرج الخصى
الخصى أبى مسلم مولى أمير المؤمنين ، وكانت دار فرج من دور إبراهيم بن هشام ،
وهي قبلة الجنائر ، كان فيها سرب تحت الأرض يسلكه إبراهيم إلى داره دار
التمائيل التي كان ينزل بها يحيى بن حسين بن زيد بن علي .

قلت : أما الطريق المذكورة فهي الآخذة من باب المدرسة الشهابية إلى
بيت بنى صالح ، ودار فرج المذكورة هي الرباط المعروف برباط مَرَاغَة ، والطريق
المذكورة بينه وبين دار المنايفة ، وأما دار التمايل التي كان يتوصل إليها ابن هشام
بالسرب المذكور فلم يبينها ابن زبالة ولا ابن شبة ، غير أنه كان شخص شرع
في عمارة الميضاة التي بباب السلام المتقدم ذكرها في دار مروان فوجدَ سربا
تحت الأرض مَقْبُورًا عند ركنها القبلى مما يلي المغرب ، وعنده باب الخربة المعروفة

بدار الخرازين ، وشرعوا في عمارتها - أى دار الخرازين - بدلا من رباط الحصن العتيق . وقد دخلتها قبل هدمها ، فرأيت فيها صناعات غريبة في البناء من صناعات الأقدمين ، فترجّح عندى بقرينة وجود السرب عندها ووجود ذلك بها أنها المرادة بدار التماثيل ، والله أعلم .

دار عامر ابن
ابن الزبير
ابن العوام
ثم إلى جنب دار فرج الخصى دار عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام ، وكان ابن هشام - حين بنى داره - أخذ بعض حق عامر ، فقال له عامر : فأين طريقى ؟ قال : فى النار ، قال عامر : تلك طريق الظالمين .

قلت : وموضعها اليوم البيت الموقوف الذى بيد الخدام ، وهو عن يسار الخارج من خَوْخَة آل عمر ، ويسمونه اليوم بيت النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم ترجع إلى دار عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنه من حيث ابتدأت . قلت : وذكر ابن شبة فى دور بنى هاشم أن حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه اتخذ الدار التى صارت لآل فُرَافِصَة الحنفيين ولآل وردان دبر زقاق عاصم بن عمر ، اه .

وقد تقدم فى ذكر سدّ الأبواب إلا ما استثنى ما يقتضى أن حمزة رضى الله تعالى عنه كان له طريق إلى المسجد ، وتقدم بيان زقاق عاصم ؛ فتحصل من ذلك أن دار حمزة رضى الله تعالى عنه كانت فى قبلة المسجد ، وهى غير معلومة المحل ، والله أعلم .

الفصل الخامس والثلاثون

فى البلاط ، وبيان ما ظهر لنا مما كان حوله من منازل المهاجرين وقد بَوَّبَ البخارى فى صحيحه لمن عَقَلَ بعيره على البلاط أو باب المسجد ، وأورد فيه حديث جابر قال : دخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، فدخلت إليه ، وعَقَلْتُ الجمل فى ناحية البلاط ، وبوب أيضا للرجم بالبلاط ، وأورد فيه

تحديد مكان
البلاط

حديث اليهوديين اللذين زَنَيَا ، قال ابن عمر : فرجما عند البلاط . وفي رواية لابن عمر : فرُجِمَا قريبا من موضع الجنائز .

وعند أحمد والحاكم من حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجم اليهوديين عند باب المسجد .

وفي الحديث أن عثمان رضى الله تعالى عنه أتى بماء فتوضأ بالبلاط .

وهذا كله مقتضى لأن البلاط كان قديما قبل ولاية معاوية رضى الله عنه .

وفما قدمناه ما يبين أنه كان في شرق المسجد في ناحية موضع الجنائز، وظاهر كلام ابن زبالة وابن شبة أن أول حدوثه في زمن معاوية رضى الله عنه ؛ فإنهما رَوَيَا عن عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله قال : بَلَطَ مروانُ بن الحَكَمِ البلاطَ بأمر معاوية رضى الله عنه ، وكان مروان يبلط ممرأى به الحَكَمِ إلى المسجد ، وكان قد أسن وأصابته ريح ، فكان يجر رجله فيتمثلثان ترابا ، فبلطه مروان بذلك السبب ، فأمره معاوية بتبليط ما سوى ذلك مما قارب المسجد ففعل ، وأراد أن يبلط بقيق الزبير فحال ابنُ الزبير بينه وبين ذلك ، وقال : تريد أن تنسخ اسم الزبير ، ويقال : بلاط معاوية ؟ قال : فأمضى مروان البلاط ، فلما حاذى دار عثمان بن عبيد الله ترك الرحبة التي بين يدي داره فقال له عبد الرحمن بن عثمان : لئن لم تُبَلِّطْهَا لأدخيلنها في داري ، فبلطها مروان .

واقصر عياض في بيان البلاط على ما في غربى المسجد منه ، فقال : البلاط

موضع مبلط بالحجارة بين المسجد والسوق بالمدينة ، انتهى .

وقد تبع في ذلك أبا عبيد البكرى ، وفيه نظر ؛ لأن مقتضى الأحاديث

المتقدمة إرادة ما في شرق المسجد منه ، ومع ذلك فهو في شرق المسجد وغربيه والشام .

وقال ابن شبة : حدثنا محمد بن يحيى قال : حدثنا مَنْ يوثق به من أهل العلم

أن الذى بلط حوالى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة معاوية بن أبى

سفيان رضى الله عنهما ، أمر بذلك مروان بن الحـكم ، وولى عمله عبد الملك بن مروان ، وبلط ما حول دار عثمان بن عفان الشارعة على موضع الجنائز .

حدود البلاط وحَدُّ ذلك البلاط الغربى : ما بين المسجد إلى خاتم الزوراء عند دار العباس ابن عبد المطلب بالسوق . وحده الشرق إلى دار المُغيرة بن شُعبة رضى الله عنه التى فى طريق البقيع من المسجد . وحده اليمانى إلى حد زاوية دار عثمان بن عفان الشارعة على موضع الجنائز . وحده الشامى وَجْه حش طلحة خلف المسجد ، وهو فى المغرب أيضا إلى حدار إبراهيم بن هشام الشارعة على المصلى .

وللبلاط أسراب ثلاثة تصب فيها مياه المطر ؛ فواحد بالمصلّى عند دار إبراهيم ابن هشام ، وآخر على باب الزوراء عند دار العباس بن عبد المطلب بالسوق ، ثم يخرج ذلك الماء إلى ربيع فى الجبانة عند الخطابين ، وآخر عند دار أنس بن مالك فى بنى جديلة عند دار بنت الحارث ، اهـ

ويؤخذ من ذلك أن البلاط كان من المغرب فيما بين المسجد وبين الدور اللطيفة به .

ويمتد البلاط الآخر من باب الرحمة إلى أن يصل إلى الصواغ وسوق العطارين اليوم ، ويستمر كذلك إلى حد سوق المدينة الأول عند أحجار الزيت ومشهد مالك بن سنان ؛ فهناك خاتم الزوراء عند دار العباس ، وهو خاتم البلاط ، وذلك ما بين مشهد مالك بن سنان والدور المواجهة له كما سنبينه فى ذكر سوق المدينة ، وهو موجود اليوم فى تلك الجهة .

ويمتد أيضا البلاط الآخذ من باب السلام إلى أن يصل إلى المدرسة الزمنية ، وينعطف لجهة الشام حتى يتصل بالبلاط الممتد من باب الرحمة لجهة سوق الصواغ والعطارين ، وهذا الجانب منه هو الذى تقدمت الإشارة إليه بأن عنده أصحاب الفاكهة .

وفي طبقات ابن سعد عن محمد بن عمرو في دار حكيم بن حزام المتقدم ذكرها فيه أنها عند بلاط الفاكهة عند زقاق الصواغين ، انتهى .
ثم يمتد البلاط الآخذ من باب السلام في الاستقامة من المدرسة الزمنية فيمر بالموضع المعروف اليوم بسويقة ، فيجاوز باب المدينة المعروف بباب سويقة حتى يصل إلى المصلى ، وهذا معنى قوله « وهو في المغرب أيضاً إلى حد دار إبراهيم ابن هشام الشارعة على المصلى » .

وهذه الناحية من البلاط الغربي هي المسماة بخط البلاط الأعظم ، وما كان عن يمين الماشي في هذا البلاط قاصداً باب السلام فهو الذي يعبر عنه بميمنة البلاط الأعظم ، وما كان عن يساره فهو الذي يعبر عنه بميسرة البلاط الأعظم .
وأما البلاط الشرقي فحده من القبلة ظاهر عند زاوية الدار التي يسكنها مشايخ الخدام من دار عثمان وزاوية رباط سراغة .

ومن المشرق يمتد في زقاق البقيع إلى خارج باب رباط المغاربة عند ما يعطف من آخر الدور التي قدمنا أنها في محل دار أبي بكر رضى الله عنه المقابلة لرباط المغاربة ، ولعل دار المغيرة بن شعبة هي التي تواجهك حين تعطف هناك ، ثم تكون على يسارك وأنت ذاهب إلى البقيع في مقابلة الرباط المعروف برباط الصادر والوارد ، ولعل البلاط كان متصلاً بها .

وقد قال ابن شبة في دور بني عبد شمس : إن عثمان رضى الله تعالى عنه اتخذ أيضاً دار المغيرة بن شعبة التي بالبقيع فعارض المغيرة إلى دار عثمان بن عفان التي يقال لها دار عمرو بن عثمان التي بين دار المغيرة بن شعبة اليوم وبين دار زيد ابن ثابت من الأنصار ، انتهى .

فدار المغيرة التي ناقل بها عثمان ليست المرادة ؛ لأنه قال فيها « إنها بالبقيع » وذكر في هذه التي حدد بها البلاط أنها بزقاق البقيع .

وأيضاً قد قدمنا قول محمد بن عقيل في خبره في سقوط جدار الحجرة « حتى

إذا كنتُ عند دار المغيرة بن شعبة لقيتني راتحة لا والله ما وجدت مثلها قط » فإنه يدل على قرب دار المغيرة من المسجد .

وأيضاً فن الشائع بين الناس اليوم نسبتهم إلى عثمان رضى الله تعالى عنه الدارَ التي في شرقي الدار التي قلنا لعلها دار المغيرة بينها وبينها ساباط ، ولعلها التي كانت لعثمان وناقل بها المغيرة إلى داره التي بالبقيع ، وقد قال في وصفها « إنها بين دار المغيرة اليوم ودار زيد بن ثابت » فتكون دار زيد بن ثابت هي التي تلي ذلك في المشرق أيضاً على يسار الذهاب إلى البقيع ، وما عن يمينه مما يلي رباط المغاربة دور آل حزم من الأنصار .

وقد قال ابن شبة : إن عتبة بن غزوان حليف بني نوفل بن عبد مناف اتخذ داره التي بالبقيع إلى شرقي دور آل حزم الأنصار ؛ فتكون على يمين الذهاب إلى البقيع بعد دور آل حزم .

فأما البلاط الشامى فمحل ظاهري بين المسجد والدور التي قدمناها في شاميه ، لكن حدث فيه دور لاصقة بالمسجد بعد سد الأبواب التي في تلك الجهة كما قدمناه .

وأما ما ذكره ابن شبة من أن الماء الذي يصب في السرب الذي بالمصلى والسرب الذي عند دار العباس يخرج إلى ربيع في الجبانة عند الخطابين فالمراد أنه يخرج إلى الربيع المذكور في شامى سوق المدينة عند سوق الخطابين قرب ثنية الوداع ، لما سيأتى في ترجمة الجبانة .

وقوله « إن السرب الآخر عند دار أنس بن مالك في بني جديلة عند دار بنت الحارث » فأما دار أنس فلم يتحرر لي معرفتها ، غير أنه سيأتى في بئر — وكانت في داره — ما ترجح عندنا في محلها ؛ فيؤخذ منه أن داره كانت عند البئر المعروفة اليوم بالباطين خلف الحديقة المعروفة بالرومية في شامى سور المدينة . وأما دار بنت الحارث فلم أعلم محلها ، وعلى ما ذكرناه في دار أنس تكون

فى محل الحديقة المعروفة بالرومية أو ما حولها . ودار بنت الحارث هذه لها ذكر فى أماكن كثيرة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يُنزلُ بها الوفودَ ، وجعل بها أسرى بنى قريظة حتى خندق لهم الخنادق بالسوق وقتلوا .

وروى ابن زبالة عن محمد بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : جاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى نفرٍ من أصحابه من قریش والأنصار وهم فى دار بنت الحارث ، فلما رأوه أوسعوا له - الحديث .

وبنت الحارث : اسمها رَمْلَة . وهذه الأسراب الثلاثة لا يعرف منها شىء اليوم .

وقد علا السكبسُ على كثير من البلاط ، ولم يبق ظاهرا منه إلا ما حول المسجد النبوى وشىء من جهة بيوت الأشراف ولاية المدينة . وله بلايع يجتمع الماء فيها ، فإذا كثرت الأمطار تجتمع حول المسجد لامتلاء تلك البلايع ، فيصير أمام أبواب المسجد كالغدران الكبار ، خصوصا فى شرقى المسجد ، فحفر الشمسُ ابن الزمن متولى العمارة الشريفة البلاءة التى فى شرقى المسجد وتتبع ما حولها ، فوجد سربا تحت الأرض آخذا من شرقى المسجد إلى جهة زقاق المناصع ، وتتبعه حتى وصل إلى الحوش المعروف اليوم بحوش الحسن ، فوجد الناس قد بنوا هناك ، ولم يتمكنوا من تتبعه إلا بهدم الأبنية فتركوه ، وهذا هو السرب الذى تقدم أنه كان يخرج عند دار أنس بن مالك فى بنى جديلة .

ثم إن متولى العمارة حفر سربا لتلك البلايع التى عند أبواب المسجد ، وأوصلها بالسرب الذى يسير فيه وسخ العين ؛ فحصل بذلك غاية النفع ، وصار الماء لا يقف بعد ذلك بأبواب المسجد ، ووجد البلاط الأول على أكثر من نصف قامة من الأرض فيما يلى الصاغة وسوق العطارين ، وكذا فى شامى المسجد . وأما الدور المطيفة بالبلاط الأعظم - وهو الآخذ من باب السلام إلى المصلى - ففى قبلة منازل بنى زريق ، وسيأتى من كلام ابن شبة نقلا عن أبى غسان أن

ذَرَعَ ما بين مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي عنده دار مروان وبين المسجد الذي يصلى فيه العيد بالمصلى ألف ذراع ، وقد ذَرَعْنَاهُ فكان كذلك ، لكن الذي يظهر أن البلاط لم يكن متصلاً بمسجد المصلى ؛ لأنه ذكر أن نهايته دار ابن هشام ، ولم تسكن الدور متصلة بنفس المسجد .

فأول الدور المطيعة بهذا البلاط مما يلي المصلى في ميسرته دار إبراهيم ابن هشام الخزومي .

بيان الدور
المطيفة بالبلاط

وفي ميمنته في قبالتها جانحا إلى المغرب دارُ سعد بن أبي وقاص ، والطريق بينهما . ودار سعد هذه قال ابن شبة : إنها هي التي في دبر دار جبي ، ولها فيها طريق مسهلة .

قال : وسمعت من يقول : كانتا دارا واحدة لسعد ، وإن عمر بن الخطاب كان قاسمه إياها ، وكانت دار جبي قسيمة هذه الدار حين قاسمه ماله مُقَدَّم سعد من العرق ، فاشتري دار جبي عثمان بن عفان ، ثم صارت لعمر بن عثمان ، وكانت جبي أرضعت عمرا فوهبها لها ، فكانت بيدها ، حتى سمعت نقيضا في سقف بيتها فقالت لجاريته : ما هذا ؟ قالت : السقف يسبح ، قالت : ماسبح شيء قط إلا سجد ! فخرجت ، فاضطربت خباء بالمصلى ، ثم باعت الدار من بعض ولد عمر بن الخطاب . قال : وسمعت من يقول : إن عثمان نفسه أقطعها إياها .

ثم يليها في ميمنة البلاط المذكور دار لسعد بن أبي وقاص أيضا ، وكانت لأبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فناقله أبو رافع إلى داريه بالبقال ، وكانتا دارا لسعد .

وفي ميسرة البلاط في مقابلة هذه الدار دار لسعد أيضا ، والطريق بينهما عشرة أذرع ، ودور سعد صدقة .

وقد ذكر ابن شبة كتابَ وقفها . وبقى من دوره دار أخرى قال ابن شبة :

واتخذ سعد أيضاً داراً بالمصلى ، بين دار عبد الحميد بن عبيد الكنانى وبين الزقاق الذى يسلك فى بنى كعب عند الحارين ، وفتح فى طائفة من أدنى داره باباً فى الزقاق ، حتى صارت كأنها داران .

قلت : وسيأتى ذكر منازل بنى كعب ، وذكر الحارين ، ويعلم من مجموع ذلك أن زقاق الحارين كان فى قبلة البيوت التى بالمصلى والبيوت التى فى قبلة البلاط بنى زرق .

ثم يلى دار سعد التى كانت لأبى رافع فى ميمنة البلاط المذكور دار آل خراش من بنى عامر بن لؤى ، وتعرف بدار نوفل بن مساحق بن عمرو العامرى وفى دبرها من جهة القبلة كتاب عمروة رجل من اليمن ، كان يعلم . وفى كتاب عمروة مسجد بنى زريق ، وعنده دار رفاعه بن رافع . ودار آل خراش هذه هى التى عنها ابن شبة بقوله : وقال — يعنى أبا غسان — : وحدثنى عبد العزيز أن رافع بن مالك الزرقى قتل بأحد فدُفن فى بنى زريق ، قال : وقيل : إن موضع قبره اليوم فى دار آل نوفل بن مساحق التى فى بنى زريق فى كتاب عمروة ، وصارت للعباس بن محمد . ثم يلى دار آل خراش فى الميمنة أيضاً دار الربيع التى يقال لها دار حفصة ، وهى مولاة لمعاوية بن أبى سفيان ، كانت تسكنها فنسبت إليها قبل ، وكانت هذه الدار قطعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبى العاص الثقفى ، فابتاعها من ولده معاوية بن أبى سفيان وكانت معها لعثمان أيضاً دار آل خراش المتقدمة إلى جنبها ، ويقال : إنه ابتناها فى قطعة النبى صلى الله عليه وسلم إياه أيضاً . وفى الميسرة فى شامى الدارين المذكورين مقابلاً لها دار نافع بن عتبة بن أبى وقاص التى ابتاعها الربيع مولى أمير المؤمنين من ولد نافع ، وتعرف أيضاً بدار الربيع . وفى دبر الدار المتقدمة التى يقال لها دار حفصة من القبلة دار عبد بن زُمعة ، قال ابن شبة : واتخذ عبد بن زُمعة داره التى فى كتاب عمروة إلى حدها الشامى ، فتكون دار حفصة بينها وبين البلاط بأنها لازق فى كتاب

عروة ، أى فى غربها . وفى قبلة دار عبد بن زمعة دار ابن مشنو ، قال ابن شبة أيضا : واتخذ عبد الرحمن بن مشنو داره التى فى كتاب عروة حدثها من الشام دار عبد بن زمعة ، وحدثها من المشرق كتاب إسحاق الأعرج بابها لاصق فى كتاب عروة أى فى غربها أيضا ، وهى صدقة منه . وفى قبلة دار ابن مشنو دار عمار بن ياسر فإنها حد دار ابن مشنو من القبلة ، قال ابن شبة : واتخذ عمار بن ياسر داره التى فى بنى زريق ، وكانت من دور أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وبابها وجاة دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أى الذى فى شرقها ، وكانت أم سلمة أعطته إياها ، ولها خوخة شارع فى كتاب عروة أى فى المغرب وهى خوخة عمار نفسه ، انتهى ؛ فهذه الدور الثلاثة مصطفة فى القبلة خلف دار حفصة المذكورة ، وخلف الدار الآتية بعدها ، وبينهن من المغرب كتاب عروة ومسجد بنى زريق ، ومن المشرق زقاق دار عبد الرحمن بن الحارث الآتى ذكره .

وذكر ابن شبة ما حاصله أن دار الأرقم بن أبى الأرقم الخزومى فى بنى زريق ، فيما بين دار ابن أم كلاب الشارع على المصلى إلى دار رفاع بن رافع الأنصارى قبالة مسجد بنى زريق .

ثم يلى دار الربيع التى يقال لها دار حفصة فى ميمنة البلاط دار أبى هريرة رضى الله تعالى عنه . ثم يليها فى الميمنة أيضا زقاق دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وداره هى التى تقدم أنها تقابل دار عمار بن ياسر فى الشرق ، وبينها وبين البلاط الداران الآتى ذكرهما ، وهذا الزقاق سيأتى له ذكر فى رجوعه صلى الله عليه وسلم من صلاة العيد .

وكذا دار أبى هريرة هذه ، قال ابن شبة : اتخذ أبو هريرة الدوسى دارا بالبلاط بين الزقاق الذى فيه دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وبين خط البلاط الأعظم ، فباعها ولده من عمر بن بزيع .

والذى ظهر لى بعد التأمل فيما ذكره ابن شبة فى هذه الدور — بقرينة

ما سذكروه إن شاء الله تعالى — أن زقاق عبد الرحمن بن الحارث هو أول زقاق يلقاك عن يمينك إذا دخلت من باب المدينة اليوم تريد المسجد ، وظهر لى أيضا أن دار هشام والدار الثانية التى تليها فى الميسرة وبعض الثالثة كن من خارج سور المدينة ، وكذلك ما يقابل ذلك فى الميمنة من دارى سعد وبعض دار آل خراش .

ثم يلى زقاق عبد الرحمن بن الحارث فى ميمنة البلاط دار عبد الله بن عوف . ثم يليها فى الميمنة زقاق أبى أمية بن المغيرة ، قال ابن شبة فى دور بنى زهرة : واتخذ عبد الله بن عوف بن عبد عوف دارا بالبلاط بين زقاق دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وبين زقاق دار أبى أمية بن المغيرة ، ويقال لها : دار طلحة بن عبد الله بن عوف ؛ فهى صدقة بأيدى ولده إلا شيئا خرج منها صار لبكار بن عبد الله بن مصعب الزبيرى . ويلي دار أبى أمية التى نسب إليها الزقاق المذكور فى قبلتها دار الحويطب بن عبد العزى بينها وبين دار سعيد بن عمرو بن نفيل ، وهما شارعتان فى خط الحارين الشارع إلى دار ابن عتبة بينى زريق شرقى دار أبى أمية ، وفى شرقها أيضا دار صميم بن سنان ، وكانت لأم سلمة رضى الله تعالى عنها ، وكل هذه الدور فى بنى زريق .

ونرجع إلى جهة الميسرة فنقول : وفى الميسرة فى مقابلة دار أبى هريرة وبعض التى قبلها دار حويطب بن عبد العزى ، وهى غير داره السابقة ، وتلك ليست فى البلاط كما قدمناه ، قال ابن شبة فى دور بنى عامر بن لوى : واتخذ حويطب بن عبد العزى داره التى بين دار عامر بن أبى وقاص وعتبة بن أبى وقاص ، بالبلاط منها البيت الشارع على خاتمة البلاط بين الزقاق الذى إلى دار آمنة بنت سعد وبين دار الربيع مولى أمير المؤمنين ، وهى صدقة منه على ولده ، انتهى . ولم يذكر لعتبة ابن أبى وقاص دارا بالمدينة . والذى انتقل إلى المدينة واتخذها الدار إنما هو ابنه نافع ، وداره هى المتقدم ذكرها التى صارت للربيع ؛ فهى المرادة .

وقال في بيان دار عامر بن أبي وقاص الزهرى : واتخذ عامر بن أبي وقاص داره التي في زقاق حلوة بين دار حُوَيْطَب بن عبد العزى وبين خط الزقاق الذي فيه دار آمنة بنت سعد بن أبي سرح، انتهى .

فيتلخص من ذلك أن دار حُوَيْطَب المذكورة في شرق دار الربيع المتقدمة في الميمنة وإلى جانبها خاتمة البلاط ، وهو اليوم الزقاق الذي بين سور المدينة وبين البيوت المقابلة له ولمشهد سيدنا مالك بن سنان على يسارك عندما تدخل من باب المدينة ، وأن من دار حُوَيْطَب بيتا خلفها من جهة جانبها الغربى شارعاً على خاتمة البلاط المذكورة ، وخلفه من جهة الشام الزقاق الذي فيه دار آمنة ، وتسكون دار عامر بن أبي وقاص خلف دار حُوَيْطَب من جهة جانبها الشرقى ، ويكون زقاق حلوة في شرقيهما ، وإليه المعروف اليوم بزقاق الطول ؛ لانطباق الوصف المذكور عليه ، وسيأتى لزقاق حلوة ذكر في الآبار

ثم في الميسرة أيضاً دار عبد الله بن نَحْرَمَة قال ابن شبة في دور بنى عامر بن لؤى : اتخذ عبد الله بن نَحْرَمَة داره التي في البلاط الشارع بابها قبالة دار عبد الله بن عوف التي فيها بنو نَوْفَل بن مُسَاحِق بن عبد الله بن نَحْرَمَة، وخرج عنهم بعضها فهو في يد ورثة عمر بن زريع مولى أمير المؤمنين .

ولنرجع إلى جهة الميمنة فنقول : ثم إلى زقاق دار أبي أمية في الميمنة من شرقيه دار خالد بن سعيد الأكبر بن العاص التي يقال لها دار سعيد بن العاص الأصغر ابن سعيد بن العاص ، ويقال لها دار ابن عتبة ، وإنما ورثها عبد الله بن عتبة عن عمه خالد بن سعيد . ويعاينها في الميمنة دار أم خالد التي لآل خالد بن الزبير بن العوام ، ورثوها عن أمهم أم خالد بن سعيد بن العاص ، وقيل : إنهما قطعة من النبي صلى الله عليه وسلم . ثم إلى دار خالد بن سعيد في الميمنة دار أبي الجهم ، ثم دار نوفل بن عدى ، ثم دار آل المنسكدر التميمي . قال ابن شبة في دور بنى عدى : واتخذ أبو الجهم داره التي بين دار سعيد بن العاص التي يقال لها دار ابن عتبة وبين دار نوفل ابن عدى بابها شارع في البلاط .

قلت : وهذه الدار هي المرادة بما رواه مالك في الموطأ عن عمه أبي سهل بن مالك بن أبي عامر عن أبيه : كنا نسمع قراءة عمر بن الخطاب ونحن عند دار أبي جهنم بالبلاط ، وكذا بما رواه البيهقي عن موسى بن عتبة أن رجال بني قريظة قتلوا عند دار أبي جهنم التي بالبلاط ، ولم يكن يومئذ بلاط ، فزعموا أن دماءهم بلغت أحجار الزيت التي كانت بالسوق .

وقال ابن شبة في دور بني أسد : واتخذ نوفل بن عدي بن أبي حبيش دارين : إحداهما التي بالبلاط عند أصحاب الرباع بين دار المنكدر التيمي وبين دار آل أبي جهنم العدويين ، والدار الأخرى في بني زريق وجاه الكتاب الذي يقال له كتاب آل زيان بين منزل أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الذي صار لبني عبيد بن عبد الله بن الزبير وبين حد الزقاق الذي عند الحمارين ، دبرهما دار هانيء التي بأيدي آل جبر ، انتهى .

وهذه الأمور التي ذكرها في الدار الثانية حول ما خلف دار سعيد بن العاص المسماة دار ابن عتبة من جهة القبلة ، والزقاق الذي ذكره هناك عند الحمارين يمتد في المغرب إلى المصلّى في قبلة دور سعد بن أبي وقاص .

وقد ذكر ابن شبة أيضاً أن دار رؤيشد الثقفي التي يقال لها القمقم في كتاب ابن زيان هي التي حرقها عليه عمر بن الخطاب في الشراب ، وكان رؤيشد حماراً ، وفي غربي هذه الدار أدنى دار علي بن عبد الله بن أبي فرقة ، وشرقيها الطريق بينها وبين بيوت آل مصبح ، ويمانيها دار الأويسيين التي لسكن خالد بن عبد الله الأويسى ، وشاميها قبلة بيوت آل مصبح التي بينها وبين دار موسى بن عيسى ، وبيوت آل مصبح ذكرها في دور بني عامر بن لؤي فقال : واتخذ ابن أم مكتوم دارا هي البيوت التي للمصباحين بين دار آل زمعة بن الأسود وبين شرقي القمقم ، انتهى . وهذه الأمور أيضاً حول الدور المتقدمة في بني زريق .

وقوله في دار نوفل الأولى وهي المقصودة لأنها التي في ميمنة البلاط وأنها

عند أصحاب الرباع ، لم أعلم المراد به ، غير أن في طبقات ابن سعد أن دار حُوَيْطَب
أبن عبد العزى المتقدم ذكرها في الميسرة عند أصحاب المصاحف ، فإنه قال في
ترجمته : وله دار بالبلاط عند أصحاب المصاحف ، فلعل المراد بالرباع المصاحف ؛
لأن المصحف يسمى ربعة ؛ فيستفاد منه أن هذه الناحية من البلاط ميمنة وميسرة
تسمى بذلك ، لكن قال ابن شبة في دور العباس بن عبد المطلب ما لفظه : وقد
سمعت مَنْ يذكر أن دار فضالة بن الحكم بن أبي العاص التي بالبلاط الخربة التي
عند أصحاب الرباع على يمين مَنْ سلك إلى بني جديلة كانت مَرَبْدًا للعباس
رضي الله عنه ، ويقال : إنها كانت مَرَبْدًا لنعم الصدقة ، انتهى .

وهو يقتضى أن أصحاب الرباع ليسوا في البلاط الأعظم ، لأنه ليس فيه
مسلك إلى بني جديلة ، وإنما يتوصل منه إلى بني جديلة بعد إتيان البلاط الآخر
الذى هو موضع سوق المدينة اليوم عند درج العين ، وقد تقدم أن ذلك يسمى
بموضع الفاكهة ، والله أعلم .

هذا ما علمته من الدور التي بهذا البلاط ، وفي الاختصار عليها كفاية ؛ لأن
المقصود المهم لنا من ذلك ما يتعلق ببيان مسجد بني زُرَيْق ، و بطريق النبي صلى
الله عليه وسلم في ذهابه إلى المصلى ورجوعه منها كما سيظهر لك .

وأما البلاط الممتد في المغرب إلى سوق المدينة القديم فكان عند خاتمة دار
العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه كما تقدم .

وقال ابن شبة في دور العباس : ومنها الدار التي بالزَّوْرَاء سوق المدينة عند
أحجار الزيت ، أقطعها له عمر بن الخطاب ، قال : وقد بلغنى أن دار طلحة بن
عمر بالبلاط كانت مَرَبْدًا لدار العباس هذه ، فابتاعها عمر من بعض بنيهِ .
ويقوى ذلك أن المنصور أبا جعفر ابتاع تلك الدار من ولد طلحة بن عمر بأربعمائة
ألف دينار .

ثم ذكر للعباس دارا أخرى ليست في البلاط ، لكنها في شامى هذه الدار ،

فقال : ومنها الدار التي إلى جَنْب دار آل قارط. حُلَفَاءُ بَنِي زُهْرَةَ ، بينها وبين خُطَّةِ بَنِي ضَمْرَةَ ، وهي التي كان عبد الله بن عباس يسكن وجعلت الحررة هناك لطعام كان ابن عباس يطعمه .

قلت : وإنما ذكرنا هاتين الدارين لمسا سيأتي من ذكرهما في الدار التي أخذ بها هشام بن عبد الملك سوق المدينة .

ويستفاد مما سيأتي في ترجمة أحجار الزيت أن دار العباس التي عند خاتمة البلاط المذكور كانت بقرب مشهد سيدنا مالك بن سنان في شرقيه ، وسيأتي أنه دفن عند مسجد أصحاب العَبَاء ، أي الذين يبيعون العبي ، وهنالك كانت أحجار الزيت .

الفصل السادس والثلاثون

فيما جاء في سوق المدينة الذي تصدق به النبي صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، وذكر دار هشام بن عبد الملك التي أخذ بها السوق .

روى عمر بن شبة عن عطاء بن يَسَار قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل المدينة سوقاً أتى سوق بني قَيْنُقَاع ، ثم جاء سوق المدينة فضر به برجله وقال : هذا سوقكم ؛ فلا يضيق ، ولا يؤخذ فيه خَرَّاج .

وروى ابن زَبَّال عن يزيد بن عبيد الله بن قسيط أن السوق كانت في بني قَيْنُقَاع حتى حول السوق بعد ذلك .

وقال ابن شبة : قال أبو غسان : وكان بالمدينة في الجاهلية سوق بَرَبَالَة من الناحية التي تدعى يثرب ، وسوق بالجسر في بني قَيْنُقَاع ، وبالصفاصف بالعصبة سوق ، وسوق يقوم في موضع زقاق ابن حيين كانت تقوم في الجاهلية وأول الإسلام ، وكان يقال لذلك الموضع : مزاحم .

وروى ابن شبة أيضاً عن صالح بن كَيْسَانَ قال : ضرب رسول الله صلى الله

الرسول
ينشأ السوق

أسواق المدينة
في الجاهلية

عليه وسلم قبة في موضع بقيع الزبير فقال : هذا سوقكم . فأقبل كعب بن الأشرف فدخّلها وقطّع أطناها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا جرّم لأقلنّها إلى موضع هو أغبظُ له من هذا ، فنقلها إلى موضع سوق المدينة ، ثم قال : هذا سوقكم ، لا تتحجّروا ، ولا يضرب عليه الخراج .

وعن أبي أسيد أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني قد رأيت موضعاً للسوق ، أفلا تنظر إليه ؟ قال : فجاء به إلى موضع سوق المدينة اليوم — أي في زمنهم — قال : فضرب النبي صلى الله عليه وسلم برجله وقال : هذا سوقكم ؛ فلا ينقص منه ، ولا يضربنّ عليه خراج .

وروى ابن زبالة عن عباس بن سهل عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بني ساعدة فقال : إني قد جئتكم في حاجة تُعطوني مكاناً مقابرهم فأجعلها سوقاً ، وكانت مقابرهم ما حازت دار ابن أبي ذئب إلى دار زيد بن ثابت ، فأعطاه بعضُ القوم ، ومنعه بعضهم ، وقالوا : مقارنا ونخرج نساءنا ، ثم تلاؤموا فلهقوه وأعطوه إياه ، فجعله سوقاً .

قلت : وسيأتي ما يبين أن دار ابن أبي ذئب ودار زيد بن ثابت كانتا في شرقي السوق ، الأولى عند أثنائهما مما يلي الشام ، والثانية عند أثنائهما مما يلي القبلة ؛ فليست المقابر المذكورة سوق المدينة كله ، بل بعضه . وقد قدمنا في منازل بني ساعدة أن ابن زبالة نقل أن عرض سوق المدينة ما بين المصلّى إلى جرار سعد ، وهي جرار كان يسقي الناس فيها الماء بعد موت أمه ، وقدّمنا أن الذي يرجح أن المصلّى حده من جهة القبلة ، وأن جرار سعد حده من جهة الشام ؛ فتكون جرار سعد قرب تذيّة الودّاع ، وقد قوى الآن ذلك عندي جداً ، لما سيأتي في ذكر دار هشام .

وروى ابن شبة أيضاً وابن زبالة عن محمد بن عبد الله بن حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصدّق على المسلمين بأسواقهم .

وروى ابن زبالة عن خالد بن الياس العدوي قال : قرئ علينا كتابُ عمر
ابن عبد العزيز بالمدينة : إنما السوق صدقة فلا يضربَنَّ على أحد فيه ركراء .
وعن ابن أبي ذئب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ على خيمة نند موضع
دار المنبعث فقال : ما هذه الخيمة ؟ فقالوا : خيمة لرجل من بني حارثة كان يبيع
فيها التمر ، فقال : حرقوها ، فخرقت . قال ابن أبي ذئب : وبلغني أن الرجل
محمد بن مسلمة .

وروى ابن شبة عن أبي مردود عبد العزيز بن سليمان أن عمر بن الخطاب
رأى كبيرَ حدَّاد في السوق ، فضربه برجله حتى هَدَمَهُ ، وقال : أتلتقصُ سوق
رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وروى ابن زبالة عن حاتم ابن إسماعيل عن حبيب قال : مر عمر بن الخطاب
على باب معمر بالسوق ، وقد وضع على بابه جرة ، فأمر بها أن تُقْلَع ، فخرج إليه
معمر فقال : إنما هذه جرة يَسْقَى فيها الغلامُ الناسَ ، قال : فنهاه عمر أن يحجر
عليها أو يحوزها . قال : فلم يَلْبِثْ أن مرَّ عليها وقد ظلل عليها ، فأمر عمر بالجرة
والظل فنزعهما .

وعن عبد الله بن محمد قال : كان الراكبُ ينزل بسوق المدينة فيضع رَحْله ،
ثم يطوف بالسوق ورَحْله بعينه يُبْصِرُهُ ، لا يغيبه عنه شيء .
وروى أيضاً قصة أخذ معاوية رضي الله تعالى عنه لدار النقضان من صحن
سوق المدينة .

وروى أيضاً عن محمد بن طلحة وغيره قال : أحدث إبراهيم بن هشام بن
إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة في سلطان هشام بن عبد الملك ، وهو
يومئذ والٍ له على المدينة ، داراً أخذ بها سوق المدينة ، وسدَّ بها وجوه الدور
الشوارع في السوق ، وكتب إلى هشام يذكر له عليها وعظيم قدرها ، فسكتب
إليه هشام يأمره بإمضائها وإمضاء عين السوق ، وكان أحدثها في سكك أهل

المدينة ، ودخلت في بعض منازلهم ، فكتب إليه أن أمضِها وإن كانت في بطونهم .

قلت : ونقل ابن شبة عن أبي غسان أنه قال : كان الذي هاج هشام بن عبد الملك على بناء داره التي كانت بالسوق أن إبراهيم بن هشام بن إسماعيل كان خال هشام بن عبد الملك ، وكان ولاء المدينة ، فكتب إليه إبراهيم ، فذكر أن معاوية بن أبي سفيان بنى دارين بسوق المدينة يقال لإحداها دار القطران والأخرى دار النقصان ، وضرب عليهما الخراج ، وأشار عليه أن يبني دارا يدخل فيها سوق المدينة ، فقبل ذلك هشام ، وبنّاها ، وأخذ بها السوق كله ، انتهى . وقال ابن زبالة عقب ما تقدم : فابتدأ الدار من خاتمة البلاط أى الذى عند دار العباس بالزوراء بقرب مشهد مالك بن سنان رضى الله عنه ، فيكون هذا الجدار في شرقى السوق ، وهذا أول الجدار المذكور مما يلي القبلة ، وما سيأتى فيه دال على أنه استمر يمدّه إلى جهة الشام ، وليس ابتداء هذا الجدار من القبلة أول السوق لما سيأتى ، بل بقى منه بقية في جهة القبلة إلى المصلى سيأتى ذكرها .

قال ابن زبالة عقب ذكره لا ابتداء الدار من خاتمة البلاط : فمضى بها حتى سد بها وجه دار العباس بن عبد المطلب ، أى التي عند خاتمة البلاط ودار نخلة ، وكانت لآل شيبه بن ربيعة ، وإنما سميت دار نخلة لنخلة كانت فيها . ثم دار معمر العدوى التي كان يجلس صاحب السوق بفنائها . ثم دار خالد بن عقبة التي بفنائها أصحاب الرقيق .

وجعل لبنى ساعدة طريقا مبهوبة ، ثم أخذ وجه دار ابن جحش . ثم وجه دار ابن أبي فروة التي كانت لعمر بن طلحة بن عبيد الله ، ثم وجه دار ابن مسعود ، ثم وجه دار زيد بن ثابت ، وجعل للطريق منفذا مبهوبا . ثم وجه دار جبير ابن مطعم التي فيها أصحاب العباء . ثم وجه دار القارظيين . ثم وجه دار العباس ابن عبد المطلب ، أى الثانية التي كان عبد الله بن عباس يسكنها ، وجعل لبنى

ضمرة طريقا مبوبا . ثم وجه دار ابن أبي ذئب . ثم دار آل شويفع . ثم صدقة الزبير ، وجعل لبنى الدليل طريقا مبوبا .

قلت : وهذا الطريق عند نهاية هذا الجدار الشرقي مما يلي الشام قرب ثنية الوداع ، والطرق المذكورة قبله كلها في الجدار المذكور خططها في المشرق . ثم بين ابن زباله ما يقابل هذا الجدار في المغرب مبتدئا بما يقابله من جهة القبلة ، ثم إلى الشام فقال عقب ما تقدم :

ثم أخذ بها من الشق الآخر ، فأخذ وجه الزوراء ووجه دار ابن نصلة السكناني . ثم على الطاقات حتى ورد بها خيام بنى غفار ، وجعل لمخرج بنى سلامة من زقاق ابن جبير بابا مبوبا عظيما يغلق . ثم مضى بها على دار النقصان ودار نويرة ، وجعل لسكة أسلم بابا مبوبا . ثم مضى بها على دار ابن أزهر ودار ابن شهاب ودار نوفل بن الحارث حتى جاوز بها دار حجارة ، وكانت لعبيد الله بن عباس ابن عبد المطلب ، حتى إذا جاوز بها دار حجارة جعل لها بابا عظيما يقابل الثنية .

قلت : يعنى ثنية الوداع ، وهذا الباب في جهة الشام كما صرح به ابن شبة فقال ، عقب ما تقدم : وجعل لها بابا شاميا خلف شامى زاوية دار عمر بن عبد العزيز بالثنية . ثم جعل بينها وبين دار عمر بن عبد العزيز عرضا ثلاثة أذرع ، ثم وضع جدارا آخر وجأه هذا الجدار . ثم قاد الأساس بينه وبين الدور كلها ثلاثة أذرع حتى الرقاق الذى يقال له زقاق ابن جبير ، جعل عليه بابا ، وجعل على الرقاق الذى يقال له زقاق بنى ضمرة عند دار آل أبي ذئب بابا . ثم جعل على الزوراء خاتم البلاط أى بابا ؛ فيستفاد منه جعل باب هناك ، وليس في كلام ابن زباله تعرض له .

ثم إن ابن زباله ذكر ما بقى من شقى الدار الغربى والشرقى مما يلي القبلة إلى المصلى ، فقال عقب كلامه السابق : ثم ساقها من الشقين جميعا الغربى والشرقى فسد بها وجوه الدور ، وأخذ بها السوق فسد بها من الشق الشرقى وجه دار

قطران ، وكانت من دور معاوية . ثم وجه دار ابن جودان وتلك الدور .
ومن الشق الغربي دار حجارة لكثير بن الصلت ، وكانت قبله لريمة
ابن دراج الجمحي . ثم وجه الربرة التي فيها دار آل أبي عثمان حلفاء أزهر
ابن عهد عوف . ثم جعل للسكة منفذا . ثم وجه دار التمارين ، وكانت لمعاوية
ابن أبي سفيان ، وقبله لسعيد بن عبد الرحمن بن يربوع .
فلما بلغ ابن هشام بالدار التمارين وقف ، وجعل لها هنالك بابا عظيما
يقابل المصلى .

وقال ابن شبة عقب قوله فيما تقدم « وجعل على الزوراء خاتم البلاط »
ما لفظه : ثم مدَّ الجدار حتى جاء به على طيقان دار القطران الأخرى الغربي ،
حتى جاء بها إلى دار ابن سباع بالمصلى التي هي اليوم لخالصة ، فوضع ثم بابا
أى بالمصلى .

قال : ثم بنى ذلك بيوتا ؛ فجعل فيه الأسواق كلها ، فكان الذي ولى ابن
هشام أى على بنائها سعد بن عبد الرحمن الزرقى من الأنصار ، فتم بناؤها إلا شيئا
من بابها الذي بالمصلى .

ونقلت أبوابها إليها معمولة من الشام ، وأكثرها من البلقاء ، انتهى .
وقال ابن زبالة ، عقب كلامه السابق : وفعل ذلك في بقيق الزبير ، وضرب
عليه طاقات ، وأكراها ، وسد بها وجوه دورهم ، وجعل للسكك منفذا يغلق .
قلت : ومراده أنه جعل في فضاء بقيق الزبير دارا كدار السوق ، ولا يتوهم
من ذلك أن بقيق الزبير من جملة السوق ؛ لما سيأتى في ترجمته .

قال ابن زبالة : وجعل لدار السوق حوائط في أسفلها ، وعلاى تكرى
للسكن ، وحملت أبوابها من البلقاء ، فمها بقية بالمدينة مكتوب فيها البلقاء .
قال : فبينما الناس لا يدرون بموت هشام إلى أن جاء ابن المكرم الثقفي من
الشام يريد بموته رسولا للوليد بن يزيد ، ويبشرهم بالمعطاء ، فصاح حين دخل

الغنية : ألا إن هاشمًا الأحول قد مات ، فوثب الناسُ على الدار فهدموها ، وعلى
عين السوق فقطعوها . هدم الدار التي
وضعت مكان
السوق

وعبارة ابن شبة : فلم تزل - أي تلك الدار - على ذلك حياة هشام بن
عبد الملك ، وفيها التجار ، فيؤخذ منهم الكراء ، حتى توفي هشام ، فقدم بوفاته
ابن مكرم الثقفي ، فلما أشرف على رأس ثنية الوداع صاح : مات الأحول ،
واستخلف أمير المؤمنين الوليد بن يزيد ، فلما دخل دار هشام تلك صاح به الناس :
ما تقول في الدار ؟ قال : اهدموها ، فوقع الناس فهدموها ، وانتهت أبوابها
ونخشبها وجريدها ، فلم يمض ثلاثة حتى وضعت إلى الأرض .

فقال أبو معروف أحد بني عمرو بن تميم :

ما كان في هدم دار السوق إذ هدمت سوق المدينة من ظلم ولا حيف
قام الرجال عليها يضربون معاً ضرباً يفرق بين السور والتحف
ينحط منها ويهوى من مناكها صخر تقلب في الأسواق كالخلف
وذكر ابن زبالة هذه الأبيات عن أبي معروف ، إلا أنه زاد قبلها ثلاثة أخرى
فقال : وقال أبو معروف :

قل للوليد أبي العباس قد جمعت أيمان قومك بالتسليم في الصحف
مازلت ترمى ويرمى الناس عن هدف حتى وضعت نصال النبل في الهدف
أعطاك ربك طسوعاً من قلوبهم نصحاً تبين قبل الظن والحلف
ما كان في هدم دار السوق إذ هدمت الأبيات المتقدمة

وروى ابن زبالة من طريق جعفر بن محمد عن أبيه قال : أمر رسول الله صلى
الله عليه وسلم براوية النحر التي أهدى له الدوسي فأهريقته بالسوق عند بيت أم كلاب
حيث يتراق الشراب اليوم ، وسيأتي في ترجمة أحجار الزيت قول ابن أبي فديك :
أدركت أحجار الزيت ثلاثة مواجهة بيت ابن أم كلاب ، وهو اليوم يعرف ببيت
(٢٤ — وفاء الوفا ٢)

بيت
أم كلاب

بنى أسد ، انتهى ، وكأنه غيرُ بيت ابن أم كلاب الذى له ذكر فى بنى زريق ، فهذا السوق هو المراد بما ورد من أنه صلى الله عليه وسلم خرج بأسرى بنى قُرَيْظَةَ إلى سوق المدينة فَخَنَدَقَ بها خنادق ، ثم ضرب أعناقهم فى تلك الخنادق ، ويظهر مما قدمناه ومما سيأتى فى ترجمة الزوراء أن مقدم سوق المدينة مما يلي خاتمة البلاط وما حول ذلك كان يسمى بالزوراء .

وروى ابن شبة عن بعضهم أنه قال : أدركت سوقاً بالزوراء يقال له سوق الحرص ، كان الناس ينزلون إليها بدرج .

البطحاء قلت : ورأيت فى الأم للشافعى رضى الله تعالى عنه ما يقتضى تسمية سوق المدينة بالبطحاء ؛ فإنه روى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، وكان لهم سوق يقال لها البطحاء ، كانت بنو سليم يجلبون إليها الخيل والإبل والغنم والسمن ، فقدموا فخرج إليهم الناس - الحديث .

بقيع الخيل وروى ابن شبة من طريق عُرْوَةَ عن عائشة رضى الله عنها قالت فى حديث ساقه : كان يقال لسوق المدينة بقيع الخيل ، وهذا الحديث تقدم من رواية ابن زبالة فى ذكر دُعَاة صلى الله عليه وسلم للمدينة وسؤاله نَقْلَ و بائها ، وفيه : ثم عمد إلى بقيع الخيل - وهو سوق المدينة - فقام فيه ووجهه إلى القبلة ، ورفع يديه إلى الله فقال : أَللّهُمَّ حَبِّبْ إلينا المدينة - الحديث .

والبقيع هنا بالموحدة التحتية ؛ فهو المراد بقول ابن عمر فى حديثه الذى رواه الأربعة والحاكم : إني أبيع الإبلَ بالبقيع بالدنانير ، وأخذ مكانها الدراهم - الحديث ولما خفى هذا على كثير من الناس قال بعضهم : إن الظاهر أن المراد النَّقيع بالنون أى حمى النقيع ، قال : لأنه أشبهه بالبيع من البقيع الذى هو مدفن ، وقال النووى : ليس كما قال ، بل هو بقيع العرقد - بالباء - ولم يكن ذلك الوقت كثرت فيه القبور ، انتهى ، ولم يذكر أحد من مؤرخى المدينة أنه كان ببقيع العرقد سوق ، مع اعتنائهم

بذكر أسواق المدينة في الجاهلية والإسلام ؛ فالمعتمد ما قدمناه ، والمسمى بالبقيع هنا ما يلي المصلى من سوق المدينة ، ويسمى بقيع المصلى أيضاً كما سيأتى ، ولهذا روى أحمد والطبرانى عن أبى بُرْدة بن نيار قال : انطلقنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بقيع المصلى فأدخل يده في طعام ثم أخرجها فإذا هو مغشوش ، أو مختلف ، فقال : لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّنَا ، ورواه الطبرانى أيضاً عن أبى موسى قال : انطلقت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق البقيع ، فأدخل يده في غرارة ، فأخرج طعاماً - الحديث - ، فعبر عن بقيع المصلى بسوق البقيع .

وروى ابن زبالة أيضاً في ذكر سوق المدينة عن محمد بن طلحة قال : رأيت عثمان بن عبد الرحمن وإسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد ومحمد بن المنكدر ، وزيد بن حصافة يقومون بفناء بركة السوق اليوم قبل أن تسكون ، يقومون مستقبليين فسألت عثمان بن عبد الرحمن عن ذلك ، فقال : قد اختلف علينا في ذلك ؛ فقائل يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو هنالك ، وقائل يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم هنالك فينظر إلى الناس إذا انصرفوا من العيد ، قال : وكان عامر بن عبد الله بن الزبير يقف عند التبانين فيدعو ، وسيأتى في ذكر المصلى ما رواه الشافعى في الأم من طريق عبد الرحمن التميمى عن أبيه عن جده أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم رَجَعَ من المصلى يوم عيد فسلك على التمارين من أسفل السوق ، حتى إذا كان عند مسجد المصلى الذى هو عند موضع الدار التى بالسوق قام فاستقبل فَبَجَّ أسلم فدعا ثم انصرف .

قلت : وهذا بين أن بركة السوق في شامى فَجَّ أسلم ، وسيأتى في منازل بركة السوق أسلم ما يبين أن منازلهم في شامى الثانية التى عليها حصن أمير المدينة اليوم ، وتقدم في ذكر دار السوق حيث قال فيها في جهة المغرب : وجعل لسكة أسلم باباً ما يبين ذلك ، وحينئذ فبركة السوق هى المنهل الذى ينزل إليه بالدرج عند مشهد النفس

الزكية من عين المدينة على يسار المار إلى ثنية الودّاع ، وفي كلام ابن زبالة ما يومئ إلى أن الذي أحدث العين هناك إنما هو إبراهيم بن هشام ، وسيأتى فى ترجمة أحجار الزيت أن النبى صلى الله عليه وسلم استسقى عند أحجار الزيت قريباً من الزوراء ، والله أعلم .

وروى ابن شبة عن أبى هريرة أنه كان يقول : لا يذهب الليل والنهار حتى يخسف برجل بصحن هذا السوق ، قال ابن أبى فديك : وكنت أسمعُ من المشايخ أنه قال والله أعلم : إن ذلك يكون على باب بيت البرّادين ، ويقال : هو بفناء دار ابن مسعود .

وعن عبد الرحمن بن الحارث بن عبيد عن -جده قال : خرجت مع أبى هريرة حتى إذا كنا عند دار ابن مسعود قال : يا أبا الحارث ، إن حِجِّي أبا القاسم صلى الله عليه وسلم أخبرنى أنه رُبَّ يمين بهذه البقعة لا يصعد إلى الله ، قال : قلت له : أنى ذلك يا أبا هريرة ؟ قال : أما أنى أشهد ما كذبت ، قلت : وأنا أشهد .

وروى ابن زبالة عن عبد الرحمن بن يعقوب أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء السوق فرأى حنطة مُصَبَّرَةً فأدخل يده فيها ، فناله بلل فى جوفها ، فقال : ما هذا ؟ لصاحب الطعام ، قال : أصابنى مطر فهو هذا البَلَلُ الذى ترى ، قال : ألا جعلته على رأس الطعام حتى يراه الناس ؟ مَنْ غَشَّ فليس منى ، من غَشَّ فليس منى ، وأصل الحديث رواه أبو داود وغيره ، ولفظه : أن النبى صلى الله عليه وسلم مرَّ برجل يبيع طعاماً ، فسأله كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأوحى إليه أن أدخل يدك فيه ، فأدخل يده فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس منا من غش .

وعن ابن المغيرة قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل يبيع طعاماً فى السوق بسعر هو أرفع من سعر السوق ، فقال : تبيعُ فى سوقنا بسعر هو أرفع من سعرنا ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : صبراً واحتساباً ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال :

أبشروا فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله ، وإن المحتكر في سوقنا كالمُجِد في كتاب الله .

قلت : وقوله «بسر هو أرفع» أى بزيادة في السعر وهو المبيع ، ويدل لذلك ما رواه ابن شبة عن ابن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بَلْتَعَة قال : كان أبي وعثمان بن عفان شريكين يجلبان التمر من العالية إلى السوق ، فربهم عمر بن الخطاب ، فضرب الغرارة برجله وقال : يا بن أبي بَلْتَعَة زد في السعر وإلا فأخرج من سوقنا .

وروى ابن زَبَّالة عن القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب مرَّ بحاطب بن أبي بَلْتَعَة وهو بسوق المصَّلَى وبين يديه غرارتان فيهما زَبَّاب ، فسأله عن سعره ، فسعر له مدين بدرهم ، فقال عمر : قد حدثتُ بعيرٍ مُقبل من الطائف تحمل زَبَّاباً وهم إذا وضعوا إلى جنبك غداً اعتبروا بسعرك ، فإما أن ترفع في السعر ، وإما أن تدخل زَبَّابك في البيت فتبيعه كيف شئت ، فلما رجع عمر حاسب نفسه في الظهر ، ثم خرج فأتى حاطباً في منزله . فقال : إن الذى قلت لك ليس بعزيمة منى ولا قضاء ، وإنما هو شيء أردتُ به الخيرَ فحيث شئت فبيع .

الفصل السابع والثلاثون

في منازل القبائل من المهاجرين ، ثم اتخاذ السور على المدينة .

قال عمر بن شبة : نزل بنو غنمار بن مليل بن ضَمْرَة بن بكر بن عبد مناف منازل بني غنمار ابن كنانة القطيعة التى قطع لهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى ما بين دار كثير بن الصلت التى تعرف بدار الحجارة السوق إلى زُقَاق ابن حنين إلى دار أبي سبرة إلى منازل آل الماجشون بن أبي سلة ، وبهذه الخطة مسجد بني غنمار صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم وهو خارج من منزل أبي رُهم بن الحصين الغفارى .

قلت : ودار كثير بن الصلت هذه تقدم بيانها في غربى السوق مما يلي القبلة شامى المصلى ، وأما زقاق ابن حبين ، ففي غربى السوق أيضا مما يلي الشام بالقرب من حصن أمير المدينة ، وابن حبين كان مولى للعباس بن عبد المطلب . وأما دار أبي سبرة فلم أعرفها ؛ فالظاهر أنها كانت في جهة غربى سوق التمارين . وأما منازل آل الماجشون ، فذكر هو في موضع آخر أنها في زقاق الجلادين ، وسيأتى في منازل بنى كعب أنه شارع على المصلى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .
واتخذ سباع بن عرفة الغفارى خطة بالمصلى وهى الدار التى يقال لها دار عبد الملك بن مروان بالمصلى وجهها شارع قبالة الحجامين .

قلت : وذلك فى شامى المصلى مما يلي السوق والمغرب لأن ابن شبة قال : إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب اتخذ دارا بالمصلى في موضع الحجامين ، ثم ابتاعها معاوية ، فزادها في مصلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أدخلها بعد هشام بن عبد الملك في داره التى أخذ بها السوق ثم هدمت .
ونزل سائر بنى غفار محلتهم وهى السائلة من جبل جهينة إلى بطحان وما بين خط دار كثير بن الصلت ببطحان إلى بنى غفار ؛ فنزلت بنو غفار منزلهم من خط دار كثير بن الصلت إلى أن يفضى إلى جهينة .

قلت : وجبل جهينة لم أعرفه ، فإما أن يكون أراد به ما يلي جبيل سلع فى مقابلة المصلى ونسبه إلى جهينة لنزولهم عنده ، وهناك سائلة تسيل من سلع إذا حصل المطر ، وإما أن يكون أراد به أحد الجبلين اللذين فى غربى مساجد الفتح لما سيأتى فى منازل جهينة . وأما دار كثير بن الصلت ببطحان فقد ذكر فى موضع آخر ما يبين أنها كانت على شفير وادى بطحان بالعدوة الغربية ، وأن عقبة بن أبي معيط لما جلده عثمان بن عفان فى الشراب حلف لا يساكنه إلا وبينهما بطن وادٍ ، فناقل كثير بن الصلت بداره هذه إلى دار الوليد بن عقبة التى فى قبلة مصلى العيد الذى يصلى به الإمام اليوم ، والله أعلم .

ونزل بنو أبي عمرو بن نعيم بن مهران من بني عبد الله بن غفار شاميّ وغربي
بني مبشر بن غفار ، ومعههم بنو خفاجة بن غفار .

ونزل بنو ليث بن بكر ما بين خط بني مبشر بن غفار إلى خط بني كعب بن
عمرو بن خزاعة الذي يسلكك إلى دور العطفانيين .
منازل بني ليث
ابن بكر

قلت : يؤخذ مما سيأتى في منازل بني كعب أن منازل بني كيث كانت في
قبلة خط بني مبشر ، وشاميّ بني كعب ؛ فتكون جهة منازل بني ليث في شاميّ
التمارين وغربيهم ، ولعل قول ابن زبالة في دار السوق في جهة المغرب قبل ذكر
دار التمارين ثم جعل للسكة منفذا يريد به طريق بني ليث ومن يشرّكهم في ذلك .
وقد قال ابن شبة في دور بني مخزوم : واتخذ أبو شريح الخزاعي حليف بني مخزوم
دارا غربها شارع على بطحان ، وشاميها شارع إلى الزقاق الذي يدعى زقاق بني
ليث ، والله أعلم .

ونزل بنو أحر بن يعمر بن ليث ما بين مسجدهم إلى سوق التمارين ، واتخذوا
المسجد الذي في محلّتهم يدعى مسجد بني أحر .

ونزل بنو عمر بن معمر بن ليث ما بين مسجدهم الذي يدعى مسجد بني كدل
إلى بطحان إلى منزل بني مبشرين غفار إلى زقاق الجلادين الذي فيه دار المايجشون
إلى دار أبي سبرة بن خلف إلى التمارين

ونزل آل قسيط بن يعمر بن ليث ما بين شاميّ بني كعب من منازل آل
نضلة بن عبيد الله بن خراش إلى خط كتاب النصر إلى الشارع إلى المصلى
إلى بطحان .

ونزل بنو رجيل بن نعيم بطرف المصلى بين غربي دار كثير بن الصلت
أى التى هى قبلة المصلى إلى دار آل قايح الأسديين الشارعة على بطحان .
ونزل بنو عتوارة بن ليث — وهم بنو عضيدة — ما بين طرف دار

الوليد بن عقبة اليماني ببطحان إلى الحرّة إلى زقاق القاسم بن غنام من دار الوليد
أبن عقبة .

منازل بني
ضمرة بن بكر
ونزل بنو ضمرة بن بكر إلا بني غفار محلّتهم التي يقال لها بنو ضمرة ، وهي
شرقي ما بين دار عبد الرحمن بن طلحة بن عمر بن عبّيد الله بن معمر بالثنية إلى
محلة بني الدّيل بن بكر إلى سوق الغنم الشارع إلى دار ابن أبي ذئب العامري ،
واتخذوا في محلّتهم مسجدا .

منازل بني
الدّيل
ونزل بنو الدّيل بن بكر في محلّتهم - وهي ما بين ضمرة إلى الدار التي يقال لها
دار الخرق - حدّها زقاق الحضارمة ، ويدعى الخط العظيم لها بني ضمرة ، إلى
جبل في مر بد أبي عمار بن عبيس من بني الدّيل يقال له المستندر إلى دار الصّلت
أبن نوفل النوفلي التي بالجبانة .

قلت : الجبل الذي ذكر أنه يسمى بالمستندر هو الجبل الصغير الذي في
شرقي مشهد النفس الزكية بمنزلة الحاج الشامي ؛ لانطباق الوصف المذكور عليه ،
والله أعلم .

ونزل أبو نمر بن عوّيف من بني الحارث بن عبد مناف بن كنانة على بني
ليث بن بكر فاتخذوا الدار التي يقال لها دار أبي نمر ، وهي في خط بني أحرر بن
ليث المتقدم ذكره .

منازل
ابن أفضى
منال ز أسلم ومالك ابني أفضى - نزل بنو أسلم ومالك ابني أفضى بن حارثة بن
عمرو بن عامر منزّلين ؛ فنزلت بنو مالك بن أفضى وأمية وسهم ابني أسلم ما بين
خط زقاق ابن حبين مولى العباس بن عبد المطلب الشامي من زاوية يقصان التي
بالسوق إلى خط جهينة إلى شامي ثنية عثعث .

قلت : قد علم مما سبق في دار السوق أن زقاق ابن حبين في غربي سوق
المدينة ، وسيأتي في ترجمة ثنية عثعث أنها منسوبة إلى جبل يقال له سليع عليه بيوت

أسلم بن أفصى؛ فهي الثنية التي عند الجبيل الذي عليه حصن أمير المدينة اليوم ،
والمراد من بيوت أسلم منزل هؤلاء ، والله أعلم .

ونزلت سائر أسلم ، وهم آل بريدة بن الحصيب وآل سفيان — ما بين زقاق
الحضارمة إلى زقاق القنبلة .

قلت : وذلك في شرقي مؤخر سوق المدينة مما يلي الشام ، وفي جهة زقاق
الحضارمة اليوم حديقة تعرف بالحضرمية شامي سور المدينة ، وفي شاميتها جهة
زقاق القنبلة .

ونزلت هذيل بن مدركة ما بين شامي سائلة أشجع وزاوية دور يحيى بن
أبن عبد الله بن أبي مريم إلى دار حرام بن مزيلة بن أسد بن عبد العزى بالثنية
زاويتها اليمانية ، وذلك مجتمعا ومجتمع أسلم .

منازل مزينة ومن حل معها من قيس غيلان بن مضر — ونزل بنو هذبة
أبن لاطم بن عثمان بن عمرو ، إلا بني عامر بن نور بن لاطم بن عثمان ، وعثمان
نفسه الذي يقال له مزينة ، وهي أمه — ما بين زاوية بيت القروى المطّل على
بطحان الغربية إلى زاوية بيت ابن هبار الأسدي الذي صار لبني سمعان الشرقية
إلى خط بني زريق إلى دار الطائفي التي بشق بطحان الشرقي .

ونزل معها في هذه المحلة بنو شيطان بن يربوع من بني نصر بن معاوية بن
بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس وبنو سليم بن منصور
وعدوان بن عمرو بن قيس .

وعن شرقي خُطة مُزينة هذه سليم بن منصور إلى دار خلدة بن مخلد الزرقى ،
وأدنى دار أم عمرو بنت عثمان بن عفان إلى بيوت نفيس بن محمد مولى بني المصطلق في
بني زريق من الأنصار ، إلى أن تلقى بني مازن بن عدى بن النجار ؛ فهؤلاء
الذين نزلوا مع مُزينة ، ودخل بعضهم في بعض ، وإنما نزلوا جميعا لأن دارهم في
البادية واحدة .

قلت : فننازل مَزِينَةَ وَمَنْ حَلَّ معها في غربى مصلى العيد اليوم إلى عُدْوَةِ
بطحان الشرقية ثم في قبلة الدور التي بالمُصَلِّي ثم في قبلة بنى رزيق إلى بنى مازن
ابن النجار .

وقد نزلت بنو ذكوان من بنى سليم مع أهل راتج من اليهود ، ما بين دار
قدامة إلى دار حسن بن زيد بالجَبَّانة .

قلت : ودار قدامة هي المرادة بقول ابن شبة في دور بنى مُجَحَّح « واتخذ قدامة
ابن مظعون الدار التي فيها الجزيرة على فوهة سكة بنى ضمرة ودبر دار آل أبي ذئب
على يمينك وأنت ذاهب إلى بنى ضمرة » والله أعلم .

ونزل بنو أوس بن عثمان بن مزينة بطَرْف السورين ، ما بين دار أم كلثوم
بنت أبي بكر الصديق إلى مُنْقَضَى السورين إلى الحمارين ، الزقاق الذي فيه قصر
بنى يوسف مولى آل عثمان إلى البقال .

قلت : وهذه الأمور بقرب البقيع ، كما سيأتى في تراجمها .

ونزل بنو عامر بن ثور بن ثعلبة بن هُدْبَةَ بن لاطم ما بين بيت أم كلاب
الذى في خط بنى رزيق الشارع على المصلى إلى دار مدراقيس الطيب إلى دار
عمرو بن عبد الرحمن بن عوف ودار عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ودار هشام
ابن العاص الخزومي .

قلت : ودار مدراقيس الطيب لها ذكر في دور بنى محارب بن فهر .

قال ابن شبة : واتخذ مَعْمَر بن عبد الله بن عامر داراً في بنى زُرَيْق بين
الدار التي يقال لها دار مدراقيس الطيب ودار أم حسان التي صارت لعمر بن
ابن عبد العزيز العمرى ، وهذه الأماكن في قبلة ما تقدم مما يلي الدور التي في
قبلة البلاط في الميمنة وما حولها ، ولعل دار أم حسان المذكورة هي الموضع
المعروف اليوم بدار حسان في قبلة الدور التي بالبلاط المُوَالِيَة لدرب سويقة ،
والله أعلم .

منازل جهينة وبلى - ونزل جهينة بن زيد بن السود بن الحارث بن قضاة
وبلى بن عمرو بن إلخاف بن قضاة ما بين خط أسلم الذي بين أسلم وجهينة ،
إلى دار حرام بن عثمان السلمي الأنصاري التي في بنى سلمة إلى الجبل الذي يقال
له جبل جهينة إلى يمانى ثنية عثعت التي عليها دار ابن أبي حكيم الطيب .
قلت : ذكر دار حرام بن عثمان في بنى سلمة يرجح أن المراد بجبل جهينة
أحد الجبلين اللذين في غربى مساجد الفتح ، وهناك منازل بنى حرام من بنى
سلمة ، وقد تقدم بيان ثنية عثعت ، وأنها منسوبة إلى الجبل الذي عليه حصن
أمير المدينة اليوم ، والله أعلم .

منازل قيس بن عيلان - نزلت أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن
ابن عيلان قيس الشعب الذي يقال له شعب أشجع ، وهو ما بين سائلة أشجع إلى ثنية الوداع
إلى جوف شعب سلم ، وخرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم بأحمال التمر فنثره
لهم ، واتخذت أشجع في محلتها مسجدا .

قلت : وما ذكره منطبق إما على شعب سلم الذي في شريقه ، فتكون
منازلهم بين خط أسلم الذي في شامى ثنية عثعت وبين جبل سلم وهكذا إلى ثنية
الوداع ، وإما على شعب سلم الذي في شاميه ، وقال عروة بن الزبير : قدمت
أشجع في سبعمائة يقودهم مسعود بن ربيعة فنزلوا شعبهم ، فخرج إليهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم بأحمال التمر ، فقال : يامعشر أشجع ، ما جاء بكم ؟ قالوا :
يا رسول الله جئناك اقرب ديارنا منك ، وكرهنا حربك ، وكرهنا حرب قومنا
لقلتنا فيهم ؛ فأنزل الله تعالى (أَوْجَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يِقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا
قَوْمَهُمْ - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : سَبِيلًا) .

ونقل ابن شبة في تأديب عمر بن الخطاب الرعية في أمر دينهم أن رجلا
من أشجع يقال له ببيعة كان غازيا ، فبلغه أن جمدة بن عبد الله السلمي يحدث

النساء ، وأن جوارى يَخْرُجْنَ إلى سَلْع فيحدثهن ، ثم يعقل الجارية ويقول :
قومي في العقال فإنه لا يصبر على العقال إلا حصان ، فتقوم ساعة ثم تسقط ، فربما
تكشفت ، فكتب الأشجعي إلى عمر :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا	فَدَى لَكَ مِنْ أَخِي ثَقْلَ إِزَارِي
فما قلصتْ تَقْمَنَ مُعَقَّلَاتِ	قَفَا سَلْعٍ لِحَتْلِفِ النَّجَارِ
قلائصُ من بنى سعد بن بكرٍ	أَوْ اسْلَمْ أَوْ جُهَيْنَةَ أَوْ غَفَارِ
يُعَقِّلُهُنَّ جَعْدَةَ مِنْ سُلَيْمٍ	مَعِيدَا يَبْتَغِي سَقَطَ الْعَذَارِي
قلائصنا هَـ ذَاكَ اللَّهُ إنا	شَغِلْنَا عَنْهُمْ زَمَنَ الْحِصَارِ
يُعَقِّلُهُنَّ أبيضُ شَيْطَمِي	فَبِئْسَ مُعَقِّلُ الذُّودِ الطَّوَارِي

فدعا عمر بجعدّة فقال : أنت لعمرى كما وصف أبيض شيطمي ، وسأله فأقرّ
فضربه مائةً معقولا ، وغرّبه إلى الشام ، فكَلَّم فيه ، فأذن له على أن لا يدخل
المدينة ، ثم أذن له أن يجمع ، ثم أذن له أن يدخل في الجمعة مرتين .
وقال ابن إسحاق : الذي كتب بالشعر رجل من هوازن يدعى خَيْشَمَة .

ونزلت بنو جُشَم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن
منازل بن جشم خَصَفَة بن قيس محملتها التي يقال لها بنو جُشَم ، وهي ما بين الزقاق الذي يقال
له زقاق سفين إلى الأساس الذي يقال له أساس إسماعيل بن الوليد إلى خَوْخَة
الأعراب إلى دور ذكوان مولى مروان بن الحكم .

قلت : ولم أعرف شيئا مما ذكره ، غير أنه ذكر في دور بني مُجَعَج أن محمد بن
حاطب اتخذ الدار التي تدعى دار قُدَّامة في بني زريق شرقيها الدار التي
يقال لها دار الأعراب ، فلعل خوخة الأعراب وما ذكر معها في تلك الجهة ،
والله أعلم .

ونزلت بنو مالك بن حماد وبنو زنيم وبنو سكين من فزارة بن ذبيان بن

بَغِيض بن ذئب بن غطفان الحُلَّةَ التي يقال لها بنو فزارة ، وهي إلى حمام الصعبة إلى سوق الخطابين الذي بالجَبَّانة ، ولم ينزلها أحد من بنى عدى بن فزارة .

قلت : والذي علمنا جهته من ذلك سوق الخطابين بالجَبَّانة قرب مسجد الراية وثنية الوداع كما سيأتى فى ترجمة الجَبَّانة ، والله أعلم .

منازل بنى كعب بن عمرو ، وإخوتهم من بنى المصطلق .

منازل بنى كعب
ابن عمرو
وإخوتهم

نزل بنو كعب بن عمرو بن عدى بن عامر ما بين يمانى بنى ليث بن بكر إلى دار شريح العدوى إلى موضع التمارين بالسوق إلى زقاق الجلادين الشارع على المصلى يمنة ويسرة إلى بطحان إلى زقاق كدام ، وكدام : سقاط كان هناك ، إلى دار ابن أبي سليم الشارعة على شامى المصلى .

ونزلت بنو المصطلق بن سعد بن عمرو وأخوه كعب بن عمرو رهط جُويرية بنت الحارث زوج النبی صلى الله عليه وسلم ظاهرة حرّة بنى عضدة إلى أدنى دار عمر بن عبد العزيز إلى الدار التي يقال لها دار الخرازين .

قلت : وذلك بالحرّة الغربية .

ومن تأمل ما ذكر فى دور المهاجرين ومنازل القبائل منهم - مع ما سبق فى منازل الأنصار - رأى أمراً عظيماً فيما كانت من عمارة المدينة وسعتها ، واتصال بعضها ببعض ، وآثار ما كان من العمارة شاهد بذلك اليوم ، واسمُ المدينة صادق على ذلك كله ، وسيأتى فى ترجمة قباء أنها كانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة الشريفة ، أى بما بينها من النخيل ، ولهذا لم تكن الجمعة تقام بغير المسجد النبوى ، ولو كانت قباء وغيرها من القرى المنفصلة اليوم منفصلة فى زمنه صلى الله عليه وسلم وبها تلك القبائل من الناس لوجب إقامة الجمعة فى كل قرية بها أربعون كما تقرر فى موضعه ، فقد كانت كلها فى حكم البلد الواحد ، فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

سعة المدينة
فى عهد النبي

اتخاذ سور
المدينة

ولما طَرَقَ المدينة الشريفة الخرابُ في أطرافها جعلوا لها سوراً ، قال المجد الفيروزبادي : سور المدينة الشريفة بنَاهُ أولاً عضدُ الدولة بن بُويْه بعد الستين وثلاثمائة في خلافة الطائع لله بن المطيع لله ، ثم تهدم على طول الزمان وتخرَّب لخراب المدينة ، ولم يبق إلا آثاره ورُسُمُه .

وقال المطري في الكلام على مسجد جهينة : إن ناحية جُهَيْنَة معروفة غربي حصن صاحب المدينة والسور القديم ، بينها وبين جبل سَلْع ، وعندها أثرُ باب للمدينة معروف بدرب جهينة إلى تاريخ كتابه ، وهو سنة ست وستين وسبعمائة .

قلت : قد قدَّمنا ما يخالف ما ذكره في ناحية جهينة ؛ لأننا وإن لم نَرِ البابَ الذي أشار إليه ، لكن رأينا آثار السور القديم قبلي جبل سَلْع ، وقرب الحصن المذكور . ويظهر من حاله أن غالب منازل جُهَيْنَة وغيرها من المنازل المتقدمة كانت في جوفه ، وأنه كان في جهة المغرب على شفير بطحان بالعدوة الشرقية ؛ لأن الأتشمري نقل في روضته عن صاحب سور الأقاليم أنه قال : المدينة أقلُّ من نصف مكة ، وهي في حرَّة سَبِيخَة الأرض ، وبها نخلٌ كثير ، ومياه نخيلهم وزرعهم من الآبار يسقى منها العبيد ، وعليها سور ، والمسجد في نحو من وسطها . ثم ذكر صفة المسجد والقبر الشريف ، ثم قال : ومُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يصلي فيه الأعياد من غربي المدينة داخل الباب ، انتهى . فكون المصلي داخل الباب شاهداً لما ذكرنا ، وقد صرح بنحوه الإمام أبو عبد الله الأسدي فإنه ذكَّرَ المساجد الخارجة عن المدينة ، ثم ذكر المساجد التي بالمدينة فقال : وداخل المدينة مُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال المطري بعد ذكره لما تقدم من باب هذا السور القديم : ونقل ابنُ خلِّكان أن سور هذا الباب القديم بناه عضدُ الدولة بن بُويْه بعد الستين وثلاثمائة من الهجرة في أيام الطائع لله ابن المطيع ، ثم تهدم على طول الزمان وخرب لخراب

المدينة ، ولم يبق إلا آثاره حتى جدد لها جمال الدين محمد بن أبي منصور - يعني سور آل زنكى الجواد الأصهبانى وزير بنى زنكى - سوراً محكماً حول المسجد الشريف على رأس الأربعين وخمسمائة من الهجرة ، ثم كثر الناس من خارج السور ، ووصل السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى فى سنة سبع وخسين وخمسمائة إلى المدينة الشريفة بسبب رؤيا رآها ، وذكر ما قدمناه عنه فى خاتمة الفصل التاسع والعشرين .

ثم قال : إنه لما ركب متوجّهاً إلى الشام صاح به مَنْ كان نازلاً حول السور واستغاثوا وطلبوا أن يبنى عليهم سوراً يحفظ أبنائهم وماشيتهم ، فأمر ببناء هذا السور الموجود اليوم ، فبَنَى فى سنة ثمان وخسين وخمسمائة ، وكتب اسمه على باب البقيع ؛ فهو باقى إلى تاريخ هذا الكتاب .

قلت : وهو باقى على باب البقيع إلى أن كتبنا كتابنا هذا ، وصورته فى صفحات الحديد المصفح بها الباب : هذا ما أمرَ بعمله العبدُ الفقير إلى الله تعالى محمود بن زنكى بن أفسنقر ، غفر الله له ، سنة ثمان وخسين وخمسمائة . وهذا لا يدل على أنه أنشأ السور .

وعبارة البدر بن فرحون عند ذكره لحاسن نور الدين الشهيد رحمه الله ما لفظه : وبنى أيضاً سورَ بعلبك ، وكل بناء سور المدينة ، وهو سورُها الموجود اليوم ، واسمُه مكتوب على باب البقيع ، وأما السور الذى داخل المدينة فإنما أحدثه الوزير جمال الدين محمد بن أبي منصور ، وكان وزيراً لوالد الملك العادل يعنى زنكى ثم استوزره بعد زنكى ولده غازى بن زنكى يعنى أخا الملك العادل ؛ فهذا يقتضى أن الملك العادل إنما كمل بناء السور الموجود اليوم فقط ، ويبعده ما ذكره من بناء الجواد لسوره ؛ فإنه لو كان السور المذكور موجوداً لكان هو أكمله ولم ينشئ سوراً غيره ، ومدة بناء السورين المذكورين متقاربة كما يعلم مما قدمناه .

من آثار الجواد
الأصفهاني

وقال المجد : إن الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن بن أبي شامة قال في كتابه ما صورته : ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا - يعز وزير الموصل جمال الدين الجواد - أنه بنى سوراً على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب ، وكان أهلها في ضنك وضرّ معهم .

قال ابن الأثير : رأيت بالمدينة إنسانا يصلى الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل مسلم بالمدينة أن يدعوه ؛ لأننا كنا في ضر وضيق وفسكد عيش مع العرب ، لا يتركون لأحدنا ما يواريه ويشبع جوعته ، فبنى علينا سوراً احتميناً به ممن يريدنا بسوء ، فاستغنينا ، فكيف لا ندعوه ؟ قال عقبه : قلت : وهذا السور الذي بناه جمال الدين هو السور الثاني ، والسور الذي بناه الملك العادل نور الدين هو السور الثالث ، أى بحسب الزمان ، وعلى كل منهما اسمٌ بانيه على الأبواب ، وأما السور الأول الذي بناه عضد الدولة فلم يبق منه أثر يعرف به مكانه ، انتهى . هكذا نقلته من تاريخ المجد . وبقوله انتهى ظهر أن قوله قلت إلى آخره من كلام ابن أبي شامة ، ويحتمل أن يكون من كلام ابن الأثير .

وقال المجد عقبه : قال : وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته « اللهم صن حريمَ مَنْ صانَ حرَمَ نبيك بالسور محمد بن علي بن أبي منصور » فلم يكن له إلا هذه المكربة لكفاه فخراً ، فكيف وقد أصابت صدقته تخوم الأرض شرقاً وغرباً وبراً وبحراً ؟ .

وأما شدةُ عنايته بأهل المدينة فكانت عظيمة ، قال ابن الأثير : حكى لي بعضُ الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر التتاشي شيخ شيوخ الموصل قال : أحضرني الشيخ فقال لي : انطلقْ إلى مسجد الوزير بظاهر الموصل واقعدْ هناك ، فإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ، ففعلت ، فإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالاً من النصافي والخام ، وإذا نائب جمال الدين قد جاء

مع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمل ، فقال لي : تأخذ هذه وتسير إلى الرحبة وتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان ، فإذا حضر لك فلان العربي فتوصل إليه هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربي توصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فتوصل إلى وكيل فلان هذه الأحمال ، وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة فتسير إليها فيتصدق به وكيلى بموجب الجريدة الأخرى ، فسيرنا بذلك إلى وادى القرى ، فرأينا هناك جمالا كثيرة تحمل الطعام إلى المدينة ، وقد منعهم خوف الطريق ، فلما رأونا ساروا معنا إليها فوصلناها والحِمْطَة بها كل صاعين بدينار مصرى ، والصاع - أى فى ذلك الزمان - خمسة عشر رطلا بالبغدادى ، فلما رأوا المال والطعام اشتروا كل سبعة آصع بدينار ، فانقلبت المدينة بالدعاء له .

قلت : وقد قدمنا كيفية نقله إلى المدينة الشريفة بعد موته ودفنه بتربته التى برباطه المجاور للمسجد الشريف عند ذكر باب عثمان وهو باب جبريل لمقابلته له ، وتقدم ذكره أيضا فى ترخيم الحجرة الشريفة .

ومن أعماله الحسنة تجديد مسجد الخيف ، وإجراء عين عرفة ، وبناء جدار الحجرة وترخيمه ، وتجديد باب الكعبة ، وكان النعش الذى سُحِل فيه هو باب الكعبة القديم ، وفيه يقول أبو المجد بن قسيم :

أَغْرُ تُبْصِرُ مِنْهُ النَّاسَ فِي رَجُلٍ وَاللَّيْثَ فِي بَشَرٍ ، وَالْبَدْرَ فِي غُصْنٍ
سَمَّا بِهِمَّتُهُ فِي الْمَكْرَمَاتِ إِلَى عَلِيَاءَ تَقْصُرُ عَنْهَا هِمَّةُ الزَّمَنِ

إلى أن قال فيه :

صَانِ الدِّينَةَ تَسْوِيرًا وَصَوْرَهَا فِي الْحُسْنِ غَاذَةَ مُلْكِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ .

وصان بالمال أهليها فما بقيت هزلاء إلا تشكّت كثرة السّعن
ولسور المدينة اليوم أربعة أبواب غير باب حصن أمير المدينة المعروف بباب
السر، وهو باب عظيم كله من الحديد .
أبواب السور وأما الأبواب الأربعة :

فأحدها : الباب الذى غربى المدينة فى جهة المصلّى عند منزلة الحاج المصرى ،
ويعرف بدرب المصلّى ، ودرب سويقة ، وذرع ما بينه وبين عتبة باب السلام
ستائة ذراع وخمسة وأربعون ذراعا ، وكان عليه باب مُتَقَن أحرقه بعضُ صبيان
الأمير ضغيم سنة عزله ، فأخذ أمير المدينة باب الحوش الذى عمره الأمير ضغيم
وجعله عليه ، ثم عمِلَ له باب مُتَقَن كالأول فى عمارة المسجد المتجددة بعد
الحريق الثانى .

ثانيها : الباب الذى فى جهة المغرب أيضاً عند رحبة حصن أمير المدينة يعرف
بالدرب الصغير .

ثالثها : الباب المعروف بالدرب الكبير ، وبالدرب الشامى .

رابعها : الباب المعروف بدرب البقيع فى شرقى المدينة ، ويعرف بدرب الجمعة ،
وعليه باب متقن مغشّى بصفائح الحديد ، والظاهر أنه باقى من زمن نور الدين
الشهيد لما قدمناه من الكتابة عليه .

وذرع ما بينه وبين عتبة باب المسجد المعروف بباب جبريل أربع مائة ذراع
وثلاثة وثلاثون ذراعا .

وفى قبلة سور المدينة موضعُ بابٍ مسدود اليوم ، وكان يعرف بدرب السوارقية
ولم يزل المملوك يهتمون بعمارة سور المدينة ، ويصلحون ما وهى منه .

وقد ذكر الزين المراكى أنه جدّد فى سنة خمس وخمسين وسبعمائة فى أيام
الملك الصالح صالح أحد أولاد الناصر محمد بن قلاوون .

وذكر البدر ابن فرحون أن الأمير سعد بن ثابت بن حماد ابتداء في سنة
إحدى وخمسين وسبعمائة عمل الخندق الذي حول السور المذكور ، ومات
ولم يكمله ، وأكمله الأمير فضل بن قاسم بن حماد في ولايته بعده ، والله سبحانه
وتعالى أعلم .

تم - بحمد الله تعالى وحوله - الجزء الثاني من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار
المصطفى » صلى الله عليه وسلم . ويليه - إن شاء الله - الجزء الثالث ، وأوله « الباب
الخامس ، في مُصْطَلَى النبي صلى الله عليه وسلم في الأعياد » نسأله - جَلَّتْ قدرته -
أن يُعِين على إكماله ، بمنه وفضله وتيسيره ، إنه لا يبسر إلى الخير سواه .

فهرس الموضوعات الواردة فى الجزء الثانى

من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى »

لنور الدين على بن أحمد السمهودى ، المصرى ، المدنى

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣٨٧	فاتحة الجزء الثانى	٤٢٢	مرجع مضاعفة فضل الصلاة
٣٨٨	الجزء الفصل الرابع فى خبر الجذع الذى كان النبى يخطب إليه	٤٢٣	هل يختص تضعيف الأجر بالصلاة؟
—	الروايات الواردة فى حنين الجذع	٤٢٦	الفصل السادس ، فى فضل المنبر المنيف والروضة الشريفة
٣٩١	صانع المنبر	—	ما ورد من الأحاديث فى ذلك
٣٩٣	موضع الجذع	٤٢٩	معنى كون المنبر على الحوض
٣٩٤	شجرة حديث حنين الجذع	—	معنى كون الروضة من رياض الجنة
—	الموضع الذى دفن فيه الجذع	٤٣٤	خلاصة الأقوال فى تحديد الروضة
٣٩٥	بدعة أحدثها الناس بسبب الجذع	٤٣٩	الفصل السابع ، فى أساطين المسجد
—	عود إلى الاختلاف فى صانع المنبر	—	الأسطوان الخلق الذى هو علم على مصلى الرسول (ص)
٣٩٨	أراد معاوية نقل منبر النبى إلى الشام	٤٤٠	أسطوان القرعة
٣٩٩	رفع المنبر ست درجات	٤٤٢	أسطوان التوبة
٤٠٠	عدد درجات المنبر	٤٤٧	أسطوان السير
٤٠١	مساحة المنبر ، ووصفه ، ومآله	٤٤٨	أسطوان المحرس
٤١٢	كسوة المنبر	٤٤٩	أسطوان الوفود
٤١٣	الفصل الخامس ، فى فضائل المسجد النبوى	٤٥٠	أسطوان مربعة القبر
—	المسجد الذى أسس على التقوى	—	أسطوان التهجد
٤١٥	فضل مسجد رسول الله		
٤١٦	فضل الصلاة فى المسجد النبوى		
٤٢١	هل فضل الصلاة فى المساجد الثلاثة خاص بالفرض ؟		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٤٥٣	الفصل الثامن ، في الصفة وأهلها ، وتعليق الأبناء لهم	—	معنى الصفة ، وتحديد موضعها
٤٥٤	أهل الصفة	٤٥٦	مبدأ تعليق الأبناء
٤٥٨	الفصل التاسع ، في الحجرة الشريفة ، وبيان إحاطتها بالمسجد إلا من جهة الغرب	٤٦٣	المشربة التي اعتزل الرسول فيها لما آلى من نسائه شهرا
٤٦٦	الفصل العاشر ، في حجرة فاطمة	٤٧١	الفصل الحادي عشر ، في الأمر بسد الأبواب الشارعة في المسجد
٤٨١	الفصل الثاني عشر ، في زيادة عمر بن الخطاب في المسجد النبوي	٤٨٢	بين عمر بن الخطاب والعباس بن عبد المطالب وقد طلب عمر دار العباس ليدخلها في المسجد
٤٩٣	الفصل الثالث عشر ، في البطيحاء التي بناها عمر بناحية المسجد ، ومنعه من إنشاد الشعر ورفع الصوت فيه	٥٠٠	الفصل الرابع عشر ، في زيادة عثمان ابن عفان في المسجد النبوي
٥١٠	الفصل الخامس عشر ، في ذكر المقصورة التي اتخذها عثمان في المسجد ، وما آل أمرها إليه	٥١٣	الفصل السادس عشر ، في زيادة الوليد بن عبد الملك على يد عمر بن عبد العزيز
٥٢٥	الفصل السابع عشر ، فيما اتخذ عمر		
٥٢٦	شرفات المسجد ، ووصفها	٥٣٠	عثمان أول من خلق المسجد ورزق المؤذنين
٥٣١	اتخاذ حرس للمسجد	٥٣٢	الصلاة على الجنائز في المساجد
٥٣٥	الفصل الثامن عشر ، في زيادة المهدي العباسي التي زادها في المسجد النبوي	٥٤٠	الفصل التاسع عشر ، فيما كانت عليه الحجرة الشريفة الحاوية للقبور النيضة أول الأمر
٥٤١	أول من بنى جدارا على بيت عائشة	٥٤٣	الفصل العشرون ، فيما حدث من عمارة الحجرة والحائز الذي أدير عليها
٥٥٠	الفصل الحادي والعشرون ، فيما روى من الاختلاف في صفة القبور الشريفة بالحجرة ، وموضع كل منها ، ورسم كل صفة منها	٥٥٧	بقي في الحجرة موضع قبر رابع
٥٥٩	الملائكة يحفون بالقبر	—	لا ينبغي رفع الصوت في المسجد
٥٦٠	سنة أهل المدينة في أعوام الجذب	—	الفصل الثاني والعشرون ، فيما ذكره من صفة الحجرة الشريفة والحائز الخمس الدار عليها ، وبيان ما شاهده المؤلف

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٥٦٩	الفصل الثالث والعشرون ، في عمارة اتفقت بالحجرة وما وقع من الدخول إليها عند الحاجة وتأزيها بالرخام	٦٤٨	وضعه المنيف ، وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة في هذه العمارة خاتمة فيما نقل من عمل نور الدين الشهيد تخندق حول الحجرة الشريفة مملوء بالرصاص ، وسبب ذلك ، وما ناسبه
٥٧٤	الفصل الرابع والعشرون ، في الصندوق الذى في جهة الرأس الشريف ومسار الفضة الذى يواجه الوجه الشريف ، ومقام جبريل من الحجرة الشريفة ، وكسوتها ، وتخليقها	٦٥٥	الفصل الثلاثون ، في تحصيب المسجد الشريف ، وذكر البزاق فيه ، وتخليقه ، وإحماره ، وذكر شيء من أحكامه
٥٨١	كسوة الحجرة النبوية ، ومبدأ أمرها ووصفها	٦٥٩	مبدأ تخليق المسجد
٥٨٤	الفصل الخامس والعشرون ، في قناديل الفضة التى تعلق حول الحجرة وغيرها من معاليقها	٦٦٢	تخليق القبر
٥٩١	حكم معاليق المسجد النبوى	—	الأمر بتجميع المساجد
٥٩٨	الفصل السادس والعشرون ، في الحريق الأول المستولى على تلك الخزاف المحدث بالحجرة الشريفة والمسجد وسقفهما ، وما أعيد منها	٦٦٣	فرش المسجد
٥٩٨	سبب الحريق وتاريخه	٦٦٧	الحدث فى المسجد
٥٩٩	حكمة الله فى ذلك الحريق	—	القراءة فى المصحف بالمسجد
٦٠١	الشروع فى العمارة بعد الحريق	٦٦٨	بعث المصاحف إلى المساجد
٦٠٨	الفصل السابع والعشرون فى اتخاذ القبة الزرقاء على ما يحاذى سقف الحجرة الشريفة بأعلى المسجد	٦٧٠	مصاحف عثمان التى أرسلها إلى الآفاق
—	ابتداء اتخاذ القبة الزرقاء	—	تعليق المصاييح فى المسجد
٦١١	المقصورة الدائرة حول الحجرة	٦٧١	الفصل الحادى والثلاثون ، فيما احتوى عليه المسجد من الأروقة والأساطين والبالوعات والسقايات
٦١٧	الفصل الثامن والعشرون ، فيما تجدد من عمارة الحجرة الشريفة فى زمان المؤلف ، وما حصل بسببه من إزالة هدم الحريق الأول ومشاهدة	—	وصف عام
		٦٧٢	وصف جدران المسجد
		٦٧٣	عدد أساطين المسجد
		٦٧٧	عدد بالوعات المسجد
		٦٧٨	سقايات المسجد
		٦٨٠	حواصل المسجد
		٦٨١	عدد قناديل المسجد

الرقم	الموضوع	ص	الموضوع
٦٨٢	كان في صحن المسجد نخيل مغروسة	٧٢٥	دار النحام العدوى ، ودار جعفر
٦٨٣	أئمة المسجد وأرزاقهم	—	ابن يحيى
—	عرض جدر المسجد	٧٢٦	دار نصير ، ودار منيرة مولاة أم موسى
٦٨٦	الفصل الثاني والثلاثون ، في أبواب المسجد وما سد منها وما بقى وما يحاذيها من الدور قديما وحديثا	٧٢٧	حش طائفة ، وأبيات خالصة
—	عدد أبواب المسجد وذكرها بابا بابا	٧٢٨	دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف
٧٠٦	الفصل الثالث والعشرون ، في خوذة آل عمر رضى الله عنه	٧٢٩	دار موسى الخزرجي ، وأبيات الصوافي
—	تحديد موضع هذه الخوذة	٧٣٠	دار خالد بن الوليد
٧٠٨	أخذ بعض الناس بابا وسيلة للتدجيل وما آل إليه أمر هذا الباب	٧٣١	دار أسماء بنت حسين ، ودار ريطة
٧١٠	حج السلطان قايتباي وزيارته	٧٣٢	دار عثمان بن عفان ، ودار أبي أيوب
٧١٤	وقف السلطان قايتباي لأهل المدينة	٧٣٣	دار جعفر الصادق ، ودار حسن بن زيد ، ودار فرج الحصى
٧١٦	بعض آثار قايتباي بالحرم — بين الشريفين	٧٣٤	دار عامر بن عبيد الله بن الزبير بن العوام
٧١٧	الفصل الرابع والثلاثون ، فيما كان مطيفا بالمسجد الشريف من الدور ، وما كان من خبرها ، وجل ذلك من منازل المهاجرين	—	الفصل الخامس والثلاثون ، في البلاط ، وبيان ما كان حوله من منازل المهاجرين
—	تخطيط الرسول لدور المدينة	—	تحديد مكان البلاط
٧١٨	دار آل عمر بن الخطاب	٧٣٦	حدود البلاط
٧١٩	بيت لأبي بكر الصديق صار لآل عمر	٧٤٠	بيان الدور المحيطة بالبلاط
٧٢٠	دار مروان بن الحكم	٧٤٧	الفصل السادس والثلاثون ، فيما جاء في سوق المدينة الذي تصدق به النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر
٧٢٢	دار رباح ودار المقداد ودار مطيع		
٧٢٣	دار حكيم بن حزام		
٧٢٤	دار عبد الله بن مكملة		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
—	دار هشام بن عبد الملك التي أخذ بها السوق	٧٥٤	البطحاء ، وبقيع الحيل
—	النبي صلى الله عليه وسلم ينشئ السوق	٧٥٥	بركة السوق
—	أسواق المدينة في الجاهلية	٨٥٧	الفصل السابع والثلاثون، في منازل القبائل من المهاجرين ، ثم اتخاذ السور على المدينة
٧٥٣	هدم الدار التي وضعت مكان السوق	٧٦٨	من مآثر الجواد الأصفهاني اتخاذ سور المدينة
—	بيت أم كلاب		

وقد تمت فهرست الجزء الثاني من كتاب « وفاء الوفا » والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد خير خلق الله وأكرمهم عليه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .